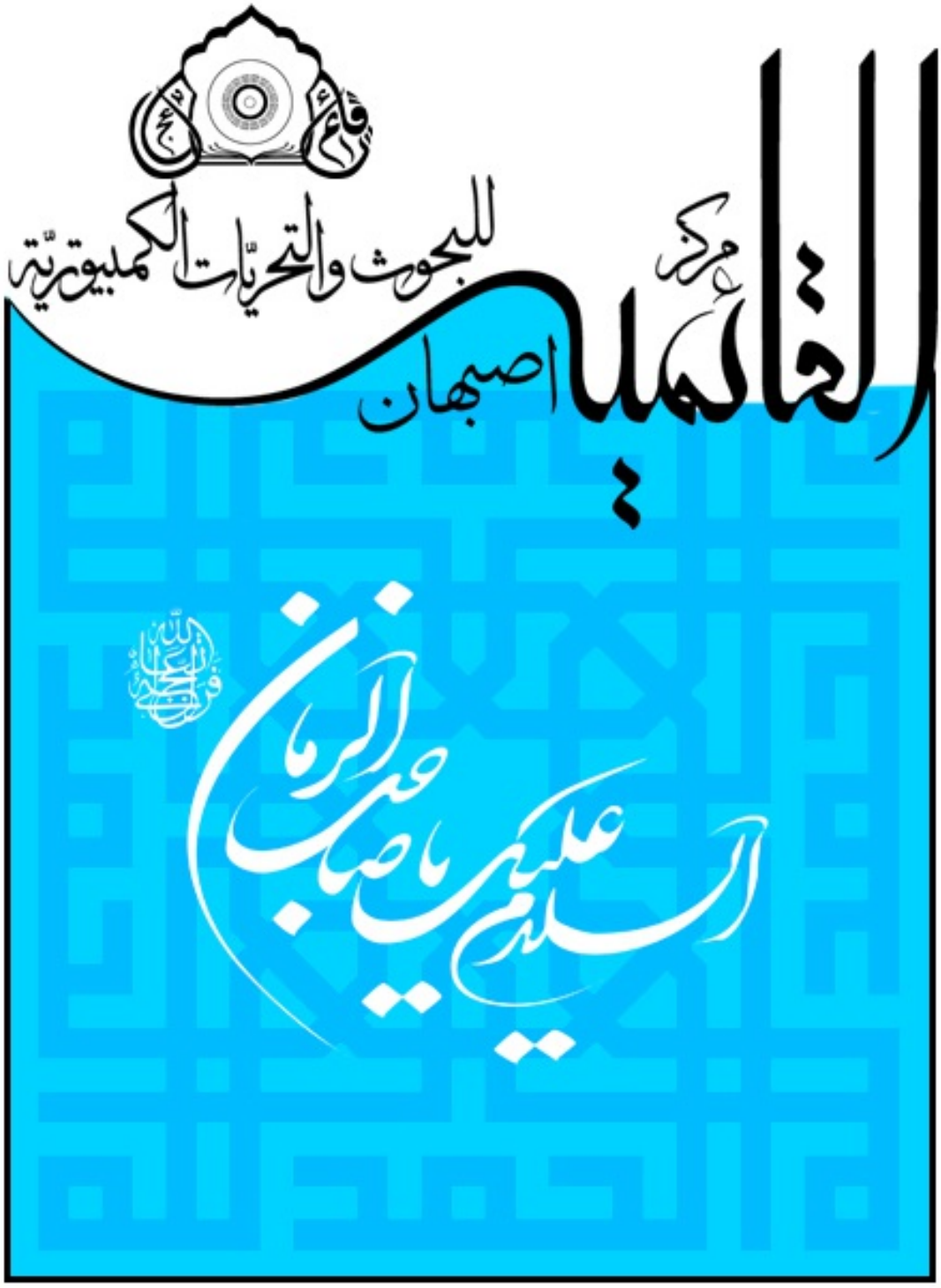

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

ولأول مرة
فى تاريخ العالم

بسم الله الرحمن الرحيم

و لأول مرة فى تاريخ العالم

كاتب:

محمد حسينى شيرازى

نشرت فى الطباعة:

محمد حسينى شيرازى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
و لأول مرة فی تاریخ العالم ----- ۲۸
اشارة ----- ۲۸
الجزء الاول ----- ۲۸
الجزء الاول ----- ۲۸
ولادته ونشأته ----- ۲۸
الشجرة الطیّبة ----- ۲۹
ارهاصات المولد الشریف ----- ۳۰
أیام الرضاع ----- ۳۰
فقدان الأُم ----- ۳۰
فقد الجد ----- ۳۰
فی کفالة أبی طالب ----- ۳۱
فی طریق الشام ----- ۳۱
الزواج المبارک ----- ۳۱
مع حلف الفضول ----- ۳۲
تجدید بناء الکعبة ----- ۳۲
الجاهلیة وعبادة الأصنام ----- ۳۳
من خرافات الجاهلیة ----- ۳۳
قریش وسکان الحرم ----- ۳۴
التحدث بأمر الرسول (ص) ----- ۳۴
المبعث الشریف وبدایة الدعوة ----- ۳۶
لقاء فی الشام ----- ۳۶
امتحان واختبار ----- ۳۷

أول المؤمنين ---- ۳۸
إبلاغ الرسالة ---- ۳۹
موقف أبی طالب (ع) ---- ۳۹
منطق الجاهليّين ---- ۴۰
عمّار وأبواه ---- ۴۰
مع بلال ---- ۴۱
الهجرة إلى الحبشة ---- ۴۱
من بركات الهجرة ---- ۴۱
اسلام النجاشی ---- ۴۳
إسلام حمزة ---- ۴۳
أبوطالب ومواقفه المشرّفة ---- ۴۴
مكيَدَة قريش ---- ۴۴
قريش يتآمرون ---- ۴۵
الصحيفة المشؤومة ---- ۴۵
نقض الصحيفة ---- ۴۵
عام الحزن ---- ۴۶
اشتداد أذى قريش ---- ۴۶
مع ابن أبی معيط ---- ۴۷
البنت الوفية ---- ۴۷
نماذج من أذى قريش ---- ۴۷
مع البنت الحنون ---- ۴۷
فی ظل الكعبة ---- ۴۷
مع جماعة الأحلاف ---- ۴۸
الحرب الثقافية ضد القرآن ---- ۴۹

وفد المشركين إلى أحبار المدينة ---- ۴۹
مع رؤوس الشرک ---- ۵۰
تخطيط الوليد ضد القرآن ---- ۵۰
الوليد برواية اُخرى ---- ۵۱
مع العتبة بن ربيعة ---- ۵۱
الصبر على الأذى ---- ۵۲
ويل لكلّ هُمَزَة ---- ۵۳
الكافر بآيات اللّه ---- ۵۳
الإنسان الطاغى ---- ۵۳
الأفّاک الأثيم ---- ۵۴
حصب جهنم ---- ۵۴
عظيما القريتين ---- ۵۴
الظالم وخليله ---- ۵۴
صاحب المثل ---- ۵۵
لا للحل الوسط ---- ۵۵
طعام الأثيم ---- ۵۵
مع الملأ من قريش ---- ۵۵
اتهامات واهية ---- ۵۶
الشماتة بالرسول (ص) ---- ۵۶
مع ركانة ---- ۵۶
اصطحاب الملائكة ---- ۵۷
مع الهمّازين ---- ۵۷
أشد من يوم اُحد ---- ۵۷
رؤوس المستهزئين ---- ۵۷

وفد قساوسة الحبشة ---- ۵۸
مع شاعر الجاهلية: الأعشى بن قيس ---- ۵۸
رحلة إلى الطائف ---- ۵۸
فى منزل نخلة ---- ۵۹
العودة إلى مكة ---- ۶۰
رحلة إلى السماء ---- ۶۰
المشركون وأنباء الرحلة ---- ۶۱
لا لليأس والخيبة ---- ۶۲
الالتقاء بوفد اليمامة ---- ۶۳
مع رهط من الخزرج ---- ۶۳
العقبة الأولى وبيعتها ---- ۶۴
العقبة الثانية وبيعتها ---- ۶۴
إبليس وبيعة العقبة ---- ۶۵
بيعة العقبة على لسان جابر ---- ۶۶
اسلام عمرو بن الجموح ---- ۶۶
قرار الهجرة ---- ۶۷
القرار الأخير ---- ۶۸
جبرئيل وإفشاء المؤامرة ---- ۶۹
ليلة المبيت ---- ۶۹
القرآن ومبيت على (ع) ---- ۶۹
ليلة الهجرة ---- ۶۹
تاريخ الهجرة ---- ۷۰
المشركون يطلبون الرسول (ص) ---- ۷۰
الجائزة لمن جاء بالرسول (ص) ---- ۷۱

مع بريدة الأسلمى ---- ۷۱
عند أُم معبد ---- ۷۲
انتظار المسلمين للرسول (ص) ---- ۷۳
أول جمعة بالمدينة ---- ۷۳
عند أبى أيوب ---- ۷۴
المسجد النبوى الشريف ---- ۷۴
بناء المسجد ---- ۷۵
مغادرة بيت أبى أيوب ---- ۷۵
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ---- ۷۵
النبى (ص) ونقباء الأنصار ---- ۷۶
تشريع الأذان ---- ۷۶
أبو سفيان: أول من صادر أموال المسلمين ---- ۷۶
المدينة ودعاء الرسول (ص) ---- ۷۷
على (ع) يخطب فاطمة (ع) ---- ۷۷
صداق الزواج ---- ۷۸
ابداء الرضا ---- ۷۸
إعلان خبر الزواج ---- ۷۸
الصداق لمصلحة الزوجين ---- ۷۹
البساطة فى أُمور الزواج ---- ۷۹
وليمة الزفاف ---- ۸۰
ليلة الزفاف وآدابه ---- ۸۰
صبيحة ليلة الزفاف ---- ۸۰
ولادة السبطين ---- ۸۱
ولادة الحسن بن على (ع) ---- ۸۱

ولادة الحسين بن على (ع) ---- ۸۱
مع أحبار اليهود ---- ۸۲
اسلام ابن سلام ---- ۸۳
المخيريق يعلن اسلامه ---- ۸۳
مع ابنى أخطب ---- ۸۴
مكائد اليهود وتلبيسهم ---- ۸۴
اليهود وتأجيج العداوات ---- ۸۵
مع ابن اُبىّ وأبى عامر ---- ۸۶
فى طريق العيادة ---- ۸۶
عفو رسول اللّه (ص) ---- ۸۶
تحويل القبلة ---- ۸۷
صلاة الاستسقاء ---- ۸۷
الإذن فى الحرب الدفاعية ---- ۸۸
آداب وسنن ---- ۸۸
النبى (ص) وانقسام الكفار عليه ---- ۸۹
أوّل سريّة فى الإسلام ---- ۸۹
سرية عبيدة بن الحارث ---- ۹۰
سريّة سعد ---- ۹۰
غزوة الأبواء ---- ۹۰
غزوة بَواط ---- ۹۰
غزوة ذات العشيرة ---- ۹۱
غزوة بدر الاُولى ---- ۹۱
سريّة عبد اللّه بن جحش ---- ۹۱
الشهر الحرام والقتال فيه ---- ۹۲

بوادر النصر ---- ۹۲
سریهٔ عمیر بن عدی ---- ۹۲
غزوهٔ بدر الکبری ---- ۹۳
إلی وادی ذفران ---- ۹۳
النبی (ص) یستشیر أصحابه ---- ۹۳
استطلاع أخبار قریش ---- ۹۴
هروب أبی سفیان ---- ۹۵
لیلهٔ بدر ---- ۹۵
التشاور یهدی إلی التفوّق ---- ۹۶
الجمعان یلتقیان ---- ۹۶
بوادر الهزیمهٔ فی المشرکین ---- ۹۷
الحرب: القرار الأخیر ---- ۹۷
جنود الرحمن وجنود الشیطان یتقابلان ---- ۹۸
المشرکون ینهزمون ---- ۹۹
مصیر أبی جهل ---- ۹۹
لما ألقت الحرب أوزارها ---- ۱۰۰
فی طریق العودهٔ ---- ۱۰۰
مع أسری بدر ---- ۱۰۰
مع العباس بن عبد المطلب ---- ۱۰۱
بین المنّ والفداء ---- ۱۰۱
النبی (ص) یستوهب فداء صهره ---- ۱۰۱
النهی عن التعذیب والمُثلهٔ ---- ۱۰۲
بؤرهٔ التآمر والبخل ---- ۱۰۲
المشرکون وأنباء الحرب ---- ۱۰۲

مصیر أبی لهب ----- ۱۰۳
غزوة بنی سُلیم ----- ۱۰۳
غزوة بنی القینقاع ----- ۱۰۳
غزوة السویق ----- ۱۰۴
غزوة ذی أمَر ----- ۱۰۴
سریّة محمد بن مسلمة ----- ۱۰۵
سریة زید بن حارثة ----- ۱۰۵
سریة عبداللّه بن عتیک ----- ۱۰۶
غزوة اُحُد ----- ۱۰۶
رسالة من مکة ----- ۱۰۶
النبی (ص) یستشیر أصحابه ----- ۱۰۷
الخروج إلی اُحُد ----- ۱۰۷
التقاء الجمعین ----- ۱۰۷
بدء القتال ----- ۱۰۸
المشرکون ینهزمون ----- ۱۰۹
المسلمون لما عصوا الرسول (ص) ----- ۱۰۹
لا فتی إلّا علی لا سیف إلّا ذوالفقار ----- ۱۰۹
مصرع حمزة سیّد الشهداء ----- ۱۱۰
دناءة بنی اُمیة وأتباعهم ----- ۱۱۱
مع أبی دجانة ----- ۱۱۱
الثابتون مع الرسول (ص) ----- ۱۱۱
عمرو بن الجموح والشهادة ----- ۱۱۲
الشهادة والمساهمة علیها ----- ۱۱۲
غسیل الملائکة ----- ۱۱۲

عين قتادة ----- ۱۱۳
يد ابن عتيک ----- ۱۱۳
نيف وسبعون جراحة ----- ۱۱۳
المتجرئو على رسول اللّه (ص) ----- ۱۱۳
مع اُبيّ بن خلف ----- ۱۱۴
نماذج من الصحابة المؤمنين ----- ۱۱۴
يوم بلاء وتمحيص ----- ۱۱۴
رجل من أهل الجنّة ----- ۱۱۵
ابليس ينتهز الفرصة ----- ۱۱۵
المسلمون يثوبون ----- ۱۱۵
صاحب المهراس ----- ۱۱۶
الصلاة فى زوال اُحد ----- ۱۱۶
دأب بنى اُمية وأتباعهم ----- ۱۱۶
خاتمة القتال ----- ۱۱۷
هتافات متقابلة ----- ۱۱۷
استطلاع أخبار القوم ----- ۱۱۸
انّ اللّه بالغ أمره ----- ۱۱۸
مدفن الشهداء ----- ۱۱۸
على مشارف المدينة ----- ۱۱۸
مع ابنة جحش ----- ۱۱۹
النساء المخلصات ----- ۱۱۹
البكاء على حمزة ----- ۱۱۹
غزوة حمراء الأسد ----- ۱۲۰
سرية الغنوىّ إلى الرجيع ----- ۱۲۰

سریة منذر إلی بئر معونة ---- ۱۲۱
غزوة بنی النضیر ---- ۱۲۱
أموال بنی النضیر ---- ۱۲۲
من أسلم من بنی النضیر ---- ۱۲۳
غزوة بنی لحیان ---- ۱۲۳
غزوة ذات الرقاع ---- ۱۲۳
کرم رسول اللّه (ص) وحلمه ---- ۱۲۴
ثبات وصمود ---- ۱۲۴
تفقّد الرسول (ص) أصحابه ---- ۱۲۴
اللّه أرحم بکم ---- ۱۲۵
غزوة بدر الأخیرة ---- ۱۲۵
مع أشجع وبنی ضمرة ---- ۱۲۶
غزوة دومة الجندل ---- ۱۲۶
غزوة الخندق (الأحزاب) ---- ۱۲۷
المشورة تهدی إلی الظفر ---- ۱۲۷
النبی (ص) یجوع لیشبع الآخرون ---- ۱۲۸
بوارق الفتح ---- ۱۲۸
فی ضیافة جابر ---- ۱۲۸
المشرکون ومحاصرة المدینة ---- ۱۲۹
بنی قریظة یعلنون خیانتهم ---- ۱۳۰
النبی (ص) وأخبار بنی قریظة ---- ۱۳۰
مفاوضات عسکریة ---- ۱۳۱
بدء القتال ---- ۱۳۱
الایمان کله مع الشرک کله ---- ۱۳۲

على أعتاب المصاولة ---- ۱۳۳
ضربة على (ع) يوم الخندق ---- ۱۳۳
ضربتان: أعزّ وأشأم ---- ۱۳۴
مع ابنة عبدود ---- ۱۳۴
فى الحرب ومع المشركين فقط ---- ۱۳۵
الأحزاب ينهزمون ---- ۱۳۵
حذيفة ودعاء الرسول (ص) ---- ۱۳۶
القرآن وغزوة الأحزاب ---- ۱۳۶
غزوة بنى قريظة ---- ۱۳۷
زلة أبى لبابة وتوبته ---- ۱۳۷
حكمية سعد بن معاذ ---- ۱۳۸
شهداء الخندق وقريظة ---- ۱۳۹
مع ابن باطا ---- ۱۳۹
سرية ابن مسلمة إلى نجد ---- ۱۳۹
غزوة الغابة ---- ۱۴۰
سرية عكاشة إلى الغمرة ---- ۱۴۱
سرية زيد الى العيص ---- ۱۴۱
سرية ابن حارثة إلى بنى فزارة ---- ۱۴۱
غزوة بنى المصطلق ---- ۱۴۲
فى طريق المدينة ---- ۱۴۲
سرية الفهرى إلى عرينة ---- ۱۴۲
الجزء الثانى ---- ۱۴۳
الجزء الثانى ---- ۱۴۳
المسلمون يثوبون ---- ۱۴۳

صاحب المهراس ----- ۱۴۳
الصلاة فی زوال اُحد ----- ۱۴۴
دأب بنی اُمیة وأتباعهم ----- ۱۴۴
خاتمة القتال ----- ۱۴۵
هتافات متقابلة ----- ۱۴۵
استطلاع أخبار القوم ----- ۱۴۵
انّ اللّه بالغ أمره ----- ۱۴۶
مدفن الشهداء ----- ۱۴۶
علی مشارف المدینة ----- ۱۴۶
مع ابنة جحش ----- ۱۴۶
النساء المخلصات ----- ۱۴۷
البکاء علی حمزة ----- ۱۴۷
غزوة حمراء الأسد ----- ۱۴۷
سریة الغنویّ إلی الرجیع ----- ۱۴۸
سریة منذر إلی بئر معونة ----- ۱۴۸
غزوة بنی النضیر ----- ۱۴۹
أموال بنی النضیر ----- ۱۵۰
من أسلم من بنی النضیر ----- ۱۵۱
غزوة بنی لحیان ----- ۱۵۱
غزوة ذات الرقاع ----- ۱۵۱
کرم رسول اللّه (ص) وحلمه ----- ۱۵۱
ثبات وصمود ----- ۱۵۲
تفقّد الرسول (ص) أصحابه ----- ۱۵۲
اللّه أرحم بکم ----- ۱۵۳

غزوة بدر الأخيرة ----- ۱۵۳
مع أشجع وبنى ضمرة ----- ۱۵۴
غزوة دومة الجندل ----- ۱۵۴
غزوة الخندق (الأحزاب) ----- ۱۵۴
المشورة تهدى إلى الظفر ----- ۱۵۵
النبى (ص) يجوع ليَشبع الآخرون ----- ۱۵۶
بوارق الفتح ----- ۱۵۶
فى ضيافة جابر ----- ۱۵۶
المشركون ومحاصرة المدينة ----- ۱۵۷
بنى قريظة يعلنون خيانتهم ----- ۱۵۸
النبى (ص) وأخبار بنى قريظة ----- ۱۵۸
مفاوضات عسكرية ----- ۱۵۹
بدء القتال ----- ۱۵۹
الايمان كله مع الشرک كله ----- ۱۶۰
على أعتاب المصاولة ----- ۱۶۰
ضربة على (ع) يوم الخندق ----- ۱۶۱
ضربتان: أعزّ وأشأم ----- ۱۶۲
مع ابنة عبدود ----- ۱۶۲
فى الحرب ومع المشركين فقط ----- ۱۶۲
الأحزاب ينهزمون ----- ۱۶۳
حذيفة ودعاء الرسول (ص) ----- ۱۶۳
القرآن وغزوة الأحزاب ----- ۱۶۴
غزوة بنى قريظة ----- ۱۶۴
زلة أبى لبابة وتوبته ----- ۱۶۵

حکمیة سعد بن معاذ ---- ۱۶۵
شهداء الخندق وقریظة ---- ۱۶۶
مع ابن باطا ---- ۱۶۷
سریة ابن مسلمة إلی نجد ---- ۱۶۷
غزوة الغابة ---- ۱۶۸
سریة عکاشة إلی الغمرة ---- ۱۶۸
سریة زید الی العیص ---- ۱۶۹
سریة ابن حارثة إلی بنی فزارة ---- ۱۶۹
غزوة بنی المصطلق ---- ۱۶۹
فی طریق المدینة ---- ۱۷۰
سریة الفهری إلی عرینة ---- ۱۷۰
غزوة الفتح ---- ۱۷۰
قریش تنقض عهدها ---- ۱۷۱
ندامة قریش ---- ۱۷۲
النبی (ص) یتجهّز للفتح ---- ۱۷۳
مع حاطب بن أبی بلتعة ---- ۱۷۴
الزحف نحو مکة ---- ۱۷۴
من ذکریات الفتح ---- ۱۷۴
فی مرّ الظهران ---- ۱۷۵
المساعی الحمیدة لعباس ---- ۱۷۶
الأمر الذی لابدّ منه ---- ۱۷۶
احتیاطات ---- ۱۷۷
أبو سفیان: الداعیة الجدید ---- ۱۷۸
الدخول إلی مکة ---- ۱۷۸

تطهير البيت من الأصنام ----- ۱۷۹
من ذكريات الكعبة ----- ۱۷۹
لائحة حقوق الإنسان ----- ۱۷۹
مع سدانة الكعبة ----- ۱۸۰
أول أذان على سطح الكعبة ----- ۱۸۰
فی دار أُم هانی ----- ۱۸۱
مع فضالة بن الملوح ----- ۱۸۱
من مكارم رسول اللّه (ص) ----- ۱۸۲
البيعة رجالاً ونساءاً ----- ۱۸۲
معيار التفاضل فی الإسلام ----- ۱۸۳
مع بديل بن ورقاء ----- ۱۸۳
سرية غالب الی بنی مدلج ----- ۱۸۴
سرية عمرو الی بنی الديل ----- ۱۸۴
سرية عبد اللّه بن سهيل ----- ۱۸۴
سرية خالد الی بنی جذيمة ----- ۱۸۴
أنباء الغدر وتداركها ----- ۱۸۵
غزوة حنين ----- ۱۸۶
هوازن وشيخ بنی جشم ----- ۱۸۶
عيون هوازن والمسلمين ----- ۱۸۷
الاستعداد لمواجهة هوازن ----- ۱۸۷
فی وادی حنين ----- ۱۸۸
صاحب المواطن المشهورة ----- ۱۸۸
شيبة يعلن إسلامه ----- ۱۸۹
كرّ بعد فرّ ----- ۱۸۹

هوازن تنهزم ----- ۱۹۰
مغانم حنین ----- ۱۹۰
سریة أبی عامر إلی أوطاس ----- ۱۹۰
سریة أبی سفیان إلی الطائف ----- ۱۹۱
غزوة الطائف ----- ۱۹۱
الطائف فی محاصرة المسلمین ----- ۱۹۲
فی أیام المحاصرة ----- ۱۹۲
مهمة کسر الأصنام ----- ۱۹۲
فک الحصار عن الطائف ----- ۱۹۲
فتنة تقسیم الغنائم ----- ۱۹۳
مع ذی الخویصرة ----- ۱۹۴
حکمة تألیف القلوب ----- ۱۹۴
اعتراض واسترضاء ----- ۱۹۵
النبی (ص) یستغفر للأنصار ----- ۱۹۵
مع أسری هوازن ----- ۱۹۶
معدن الحلم والکرم ----- ۱۹۷
من معجزات الرسول (ص) ----- ۱۹۷
مغادرة مکة ----- ۱۹۷
معیار الأفضلیة فی الإسلام ----- ۱۹۸
عروة بن مسعود ----- ۱۹۸
إسلام ثقیف ----- ۱۹۹
مع لامیة کعب بن زهیر ----- ۱۹۹
جبایة الزکوات ----- ۲۰۰
سریة الفزاری إلی بنی تمیم ----- ۲۰۰

مع شاعر الرسول (ص) ---- ۲۰۱
سریة ابن عامر إلی تبالة ---- ۲۰۲
سریة الضحاک إلی بنی کلاب ---- ۲۰۲
سریة علقمة بن محرز المدلجی ---- ۲۰۲
سریة علی (ع) إلی طیّ ---- ۲۰۳
عدی یشرح قصته ---- ۲۰۳
سفانة تشرح قصتها ---- ۲۰۳
بین یدی رسول اللّه (ص) ---- ۲۰۴
عدی وقومه یُسلمون ---- ۲۰۵
غزوة تبوک ---- ۲۰۶
من کلمات الرسول (ص) ---- ۲۰۶
مع الجدّ بن قیس ---- ۲۰۷
الضعفاء ---- ۲۰۷
الإستخلاف وحدیث المنزلة ---- ۲۰۸
مع أبی خیثمة ---- ۲۰۸
من علامات النبوّة ---- ۲۰۹
مواساة أبی ذر ---- ۲۰۹
أبو ذر فی الربذة ---- ۲۰۹
وقود جهنم ---- ۲۱۰
فی أرض تبوک ---- ۲۱۱
مع صاحب أیلة ---- ۲۱۱
سریة أبی عبیدة إلی جذام ---- ۲۱۱
سریة سعد إلی بنی سلیم ---- ۲۱۱
سریة خالد إلی الاکیدر ---- ۲۱۱

الاكيدر فى الأسر ---- ۲۱۲
عبداللّه ذو البجادين ---- ۲۱۳
المفاوضات وفوائدها ---- ۲۱۳
المتآمرون على النبى (ص) وخليفته (ع) ---- ۲۱۳
القرآن يفضح المتآمرين ---- ۲۱۴
مع مسجد ضرار ---- ۲۱۴
المتطهّرون والثناء عليهم ---- ۲۱۵
أول من يزوره الرسول (ص) ---- ۲۱۵
هذه طابة ---- ۲۱۵
مع الشركاء الغائبين ---- ۲۱۵
المتخلّفون عن تبوک ---- ۲۱۶
قصة المتخلفين ---- ۲۱۶
توبة المخلّفين الثلاثة ---- ۲۱۷
المخلّفون وتوبتهم ---- ۲۱۸
نزول سورة (براءة) ---- ۲۱۸
كتاب ملوک حمير إليه (ص) ---- ۲۱۹
سرية خالد إلى نجران ---- ۲۲۰
اضطراب نصارى نجران ---- ۲۲۰
نصارى نجران فى المدينة ---- ۲۲۱
المباهلة: الحل الأخير ---- ۲۲۲
تزلزل النصارى ---- ۲۲۲
تفسير عملى لآية المباهلة ---- ۲۲۲
وثيقة صلح نجران ---- ۲۲۲
آية المباهلة: وسام من اللّه تعالى ---- ۲۲۳

سریة البجلی ----- ۲۲۳
مع عمرو بن معدی کرب ----- ۲۲۴
سریتان متزامنتان ----- ۲۲۴
سریتان إلی الیمن ----- ۲۲۴
من تعلیمات السماء ----- ۲۲۵
أذی علی (ع) أذی رسول اللّه (ص) ----- ۲۲۵
سریة اُسامة بن زید ----- ۲۲۵
عام الرُّسُل والوفود ----- ۲۲۵
وفد هوازن وثقیف ----- ۲۲۶
وفد بنی تمیم ----- ۲۲۶
وفد بنی عامر ----- ۲۲۶
وفد طی ----- ۲۲۷
وفد زبید ----- ۲۲۷
وفد عبدالقیس ----- ۲۲۷
وفد بنی حنیفة ----- ۲۲۸
وفد کندة ----- ۲۲۹
وفد بنی مراد ----- ۲۲۹
وفد الأشعریین ----- ۲۲۹
وفد أهل الیمن ----- ۲۲۹
وفد أزد ----- ۲۲۹
وفد بجیلة ----- ۲۳۰
وفد بنی کعب ----- ۲۳۰
وفد همدان ----- ۲۳۰
وفد مزینة ----- ۲۳۱

وفد نجران ---- ۲۳۱
وفد ملوک حمیر ---- ۲۳۱
وفد جماعة الأعراب ---- ۲۳۱
وفد دوس ---- ۲۳۲
وفد فروة بن عمرو الجذامی ---- ۲۳۲
وفد بنی سعد ---- ۲۳۲
وفد طارق ---- ۲۳۳
وفد نجیب ---- ۲۳۳
وفد بنی سعد ---- ۲۳۴
وفد بنی فزارة ---- ۲۳۴
وفد بنی أسد ---- ۲۳۴
وفد بهراء ---- ۲۳۴
وفد عذرة ---- ۲۳۴
وفد بلّی ---- ۲۳۵
وفد ذی مرة ---- ۲۳۵
وفد خولان ---- ۲۳۵
وفد محارب ---- ۲۳۵
وفد صداء ---- ۲۳۵
وفد غسان ---- ۲۳۶
وفد سلامان ---- ۲۳۶
وفد عبس ---- ۲۳۶
وفد بنی سلیم ---- ۲۳۶
وفد عامر ---- ۲۳۶
وفد الأزد ---- ۲۳۶

وفد بنى المنتفق ----- ۲۳۷
وفد النخع ----- ۲۳۸
سائر الوفود ----- ۲۳۸
فريضة الحج والولاية ----- ۲۳۸
هكذا حج رسول اللّه (ص) ----- ۲۳۹
العمرة وأعمالها ----- ۲۳۹
الحج ومناسكه ----- ۲۴۰
حج التمتع ----- ۲۴۱
محرمات الإحرام ----- ۲۴۲
من حوادث حجّة الوداع ----- ۲۴۲
فى موقف عرفات ----- ۲۴۲
عند مسجد الخيف ----- ۲۴۳
آخر أيام التشريق ----- ۲۴۳
الوحى وآخر آية من القرآن ----- ۲۴۳
مَن جمع القرآن؟ ----- ۲۴۴
الشواهد الاُخرى ----- ۲۴۴
مهمة تبليغ الرسالة ----- ۲۴۶
مقتطفات من حديث الغدير ----- ۲۴۶
الصحابة يبايعون علياً (ع) ----- ۲۴۸
جبرئيل ويوم الغدير ----- ۲۴۸
القرآن يبارك خلافة على (ع) ----- ۲۴۹
الغدير برواية الشعر ----- ۲۴۹
مع النعمان الفهرى ----- ۲۴۹
من ذكريات الغدير ----- ۲۵۰

اللّه تعالى يعصم نبيّه (ص) ----- ۲۵۰
الثقلان وديعتا رسول اللّه (ص) ----- ۲۵۱
تأكيد حديث الغدير ----- ۲۵۱
سريّة اُسامة إلى الروم ----- ۲۵۱
الإستغفار لأهل البقيع ----- ۲۵۲
لا نجاة الا بعمل مع رحمة اللّه ----- ۲۵۲
الكتاب والعترة خليفتا رسول اللّه (ص) ----- ۲۵۲
مع اُسامة بن زيد ----- ۲۵۳
النبى (ص) يصلّى بالمسلمين جالساً ----- ۲۵۳
مع المتخلّفين عن جيش اُسامة ----- ۲۵۴
الرزية كل الرزية ----- ۲۵۴
أنتم المستضعفون بعدى ----- ۲۵۴
مع ابن عباس ----- ۲۵۴
فى وداع الأنصار ----- ۲۵۵
وداع مع المهاجرين ----- ۲۵۵
مع الثقلين: الأكبر والأصغر ----- ۲۵۶
الوصية والوصى ----- ۲۵۶
مع ابنته فاطمة (عليها السلام) ----- ۲۵۷
وصايا خاصة ----- ۲۵۸
حقوق الناس ----- ۲۵۸
النبى (ص) ساعة الوداع ----- ۲۵۹
من كلمات الوداع ----- ۲۵۹
الأولى حتى من جبرئيل ----- ۲۶۰
جبرئيل وكتاب الوصيّة ----- ۲۶۰

وديعة اللّه ووديعة رسوله ---- ۲۶۱
الإقرار بقبول الوصيّة ---- ۲۶۱
حنوط من الجنة ---- ۲۶۱
النبی (ص) يستدعی أخاه ---- ۲۶۲
بين الحبيب وحبيبه ---- ۲۶۲
النبی (ص) حياً وميتاً ---- ۲۶۳
علی مشارف الآخرة ---- ۲۶۳
أعظم المصائب ---- ۲۶۴
التعزية من اللّه تبارک وتعالی ---- ۲۶۵
جبرئيل يعزّی أهل البيت (عليهم السلام) ---- ۲۶۵
الخضر يعزّی آل الرسول (عليهم السلام) ---- ۲۶۵
المعصوم لا يليه إلا معصوم ---- ۲۶۶
انقطاع النبوّة أكبر فجيعة للأرض ---- ۲۶۶
النبی (ص) فی مثواه الأخير ---- ۲۶۶
خاتمة ---- ۲۶۷
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---- ۲۶۸

و لأول مرة فی تاریخ العالم

اشارة

اسم الکتاب: ولأول مرة فی تاریخ العالم

المؤلف: حسینی شیرازی، محمد

تاریخ وفاة المؤلف: ۱۳۸۰ ش

اللغة: عربی

عدد المجلدات: ۲

مکان الطبع: بیروت

الطبعة: اول

الجزء الاول

الجزء الاول

الفصل الاول: رسول الله صلی الله علیه و اله و سلم قبل البعثة

الفصل الثانی: البعثة النبویة الشریفة

الفصل الثالث: من رحلة المعراج إلی بیعة العقبة

الفصل الرابع: الهجرة النبویة المبارکة

الفصل الخامس: معارک الرسول صلی الله علیه و اله و سلم مع المشرکین

بسم اللّه الرحمن الرحیم

الحمد للّه رب العالمین، والصلاة والسلام علی محمد وآله الطیبین الطاهرین، ولعنة اللّه علی أعدائهم أجمعین من الآن إلی یوم الدین.

وبعد: فهذا شیء من تاریخ الرسول الأعظم (ص) سمیناه: (ولأول مرة فی تاریخ العالم) لأنه لأول مرة فی التاریخ وبعد فترة من الرسل ظهرت هذه الحرکة الإصلاحیة السلمیة الشاملة، والإلهیة المبارکة، بقیادة الرسول الأعظم محمد بن عبد اللّه (ص) وذلک بهذا الشکل الذی لا یزال یتفاعل فی النفوس، ویترک أثره الطیب فی العالم حتی الیوم وإلی أن یظهر علی الدین کله فی زمان الإمام المهدی (عجل اللّه تعالی فرجه الشریف).

واللّه أسأل القبول والفائدة وهو المستعان

قم المقدسة

محمد الشیرازی

ولادته ونشأته

أما اسمه ونسبه:

فهو (ص): أبو القاسم محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَیّ بن کلاب بن مرة بن کعب بن لُؤیّ غالب بن فهر بن مالک بن النَّضر بن کِنانة بن خزَیمة بن مُدرکة بن الیاس بن مُضَر بن نِزار بن معدّ بن عدنان، وعدنان من وُلد إسماعیل بن

إبراهيم (عليه السلام) وإسماعيل هو الذبيح.

ولـد (ص) بمكة عام الفيل، وكانت وقعة الفيل تقدمة قدمها اللّه تعالى لنبيه (ص)، وإلا فأهل الفيل نصارى أهل كتاب، دينهم خير من دين أهل مكة، لأنهم عبّاد أوثان، غير انّ أولئك كان يرأسهم ظالم غاشم وهو (أبرهة) فجرّ عليهم الوبال، وهؤلاء كان يرأسهم مؤمن عادل وهو جد النبى (ص) فعمّهم عدله، ونصرهم اللّه نصراً لا صنع للبشر فيه، فأباد جيش الفيل الرهيب وحفظ ببركة نبيّه قريشاً من القتل، وبيته من الهدم، وحرمه من الهتك.

ولـد (ص) يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأوّل، وبُعِث بالنبوة فى السابع والعشرين من شهر رجب، وأنزل عليه القرآن كاملاً فى ليلة القدر، ثمّ نزل عليه تدريجاً فى مدة ثلاث وعشرين سنة، وتوفى (ص) مسموماً شهيداً فى الثامن والعشرين من شهر صفر عام أحد عشر هجرية.

الشجرة الطيّبة

أما جد النبى (ص) هاشم بن عبد مناف: فكان كبقية أجداده مؤمناً باللّه تعالى وسيد قريش، وإليه يُشار بالبنان فى الفضل والكرم، وكان موسراً، وهو أول من سنّ الرحلتين لأهل مكة: (رحلة الشتاء والصيف)(۱)، وأول من أطعم قومه الثريد بمكة، حتى قال الشاعر فيه:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجافِ.

وأما جدّه عبد المطلب: فهو الذى نذر للّه تعالى لئن آتاه اللّه عشرة من الولد يمنعونه، لينحرن أحدهم عند الكعبة، فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم يمنعونه، جمعهم فأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟

قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتونى، ففعلوا.

فقال لصاحب القداح: اضرب على بنيَّ هؤلاء بقداحهم هذه، وأخبره بنذره، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه، وكان عبد اللّه بن عبد المطلب أحبّ ولده إليه، فكان يرى أن السهم إذا أخطأ فقد أشوى، فلما أخذ صاحب القداح القداحَ ليضرب بها قام عبد المطلب يدعو اللّه تعالى، ثم ضرب صاحب القداح فخرج على عبد اللّه، فأخذ بيده وأخذ الشفرة، فقامت إليه قريش من أنديتها فمنعوه من ذلك.

وقال له المغيرة بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم وكان عبد اللّه ابنا اُخت القوم: واللّه لا تذبحه حتى تعذر فيه أبداً، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

ثم عرضوا عليه أن يضربه فى ابله السوائم عشرة عشرة، فوافق عبد المطلب عليه وقام يدعو اللّه تعالى، ثم قربوا عبد اللّه وقربوا عشراً من الإبل، وعبد المطلب يدعو اللّه، فضربوا فخرج القدح على عبد اللّه، فلم يزالوا يزيدون عشراً والقدح يخرج على عبد اللّه، إلى أن بلغوا مائة من الإبل، وقام عبد المطلب يدعو اللّه فخرج القدح على الإبل، ثم أعادوا الثانية فخرج على الإبل، ثم أعادوا الثالثة فخرج على الإبل، فنحرت وتُركت لا يُصدُّ عنها إنسان ولا يمنع، فجرت الدية فى العرب مائة من الإبل، وأقرّها رسول اللّه (ص) فى الإسلام.

وروى عن النبى (ص) أنه قال: (أنا ابن الذبيحين)(۲) يعنى: جدّه إسماعيل (ع)، وأباه عبد اللّه (ع).

وقد كان عبد المطلب فعل ذلك لإبطال عادة كانت فى الجاهلية، وهى قتل الأولاد بسبب النذر أو غيره، كما كان إبراهيم (ع) فعل ذلك من قبل لهذه الغاية أيضاً.

أما عبد اللّه أبو رسول اللّه (ص) فهو: ابن عبد المطلب صاحب النذر المذكور، وكان عبد اللّه أحسن أولاد عبد المطلب وأعفّهم، وكان أبوه يحبه كثيراً.

توفى عبد اللّه والنبى (ص) حمل فى بطن اُمه.

وكان جميع ما خلفه عبد اللّه على قول خمسة أجمال، وجارية حبشية اسمها: بركة، وكنيتها: أُم أيمن، وهى حاضنته، وكان عبد اللّه (ع) مؤمناً موحِّداً.

وأُمه (ص): آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب، وكانت مؤمنة باللّه تعالى.

ولد مختوناً مسروراً، فأعجب به عبد المطلب جدّه، وحظى عنده، وقال: ليكونن لهذا شأن.

ارهاصات المولد الشريف

ولما كانت الليلة التى ولد فيها رسول اللّه (ص) ارتجّ إيوان كسرى وانشقّ من وسطه، وسقط منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك مدة ألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، وفاض وادى سماوة.

ولعل فى سقوط الأربع عشرة شرفة إشارة إلى أنه يملك منهم ملوك وملكات بعدد الشرفات، ثم ينتهى حكمهم وتنهار الإمبراطورية الفارسية، وكان كذلك حيث تمّ بعدها على أيدى المسلمين فتح إيران، وبذلك سقطت الإمبراطورية الفارسية.

كما ان فى إخماد نار فارس إشارة إلى انتهاء دين فارس، وهكذا حال بحيرة ساوة وهى بحيرة فى فارس.

وأما فيضان وادى سماوة: فسماوة من بلاد العرب، وفيه إشارة إلى فيضان دين الإسلام إلى كل العالم.

ولما ولد (ص) قالت أُمه: واللّه لما وضعت حملى على الأرض اتكأ بيديه على الأرض ورفع رأسه إلى السماء وأدار ببصره إلى الآفاق، وهو يتفوّه بالتوحيد، ثم سطع منه نور أضاء كل شىء حتى رأيت منها قصور الشام، وإذا بهاتف يهتف بى قائلاً: ولدتِ خير الناس فسمّيه محمداً.

ثم أرسلت أُمه إلى جدّه عبد المطلب وكان يطوف بالبيت تلك الليلة فجاء إليها فقالت له: ولد لك مولود له أمر عجيب، ثم أخرجته له، فنظر إليه وأخذه ودخل به الكعبة ودعا اللّه تعالى ثم خرج فدفعه إليها وسمّاه محمداً.

أيام الرضاع

وأرضعته (ص) ثويبة عتيقة أبى لهب، أعتقها حين بشّرته بولادته (ص).

وقيل: انه رؤى أبو لهب بعد موته فى النوم فقيل له: ما حالك؟ فقال: فى النار، إلا أنه يخفّف عنى كل أُسبوع يوماً واحداً وأمص من بين إصبعىَّ هاتين ماء وأشار برأس إصبعه وان ذلك اليوم هو يوم اعتاقى ثويبة عندما بشّرتنى بولادة النبى (ص) وبإرضاعها له.

وأرضعت ثويبة أيضاً مع رسول اللّه (ص) بلبن ابنها مسروح حمزة عمّ رسول اللّه، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى، ثم أرضعته (ص) حليمة السعدية، والظاهر انهنّ كنّ مؤمنات بدين إبراهيم (ع) فلم يكنّ مشركات.

فقدان الأُم

لم يستكمل النبى (ص) سبع سنين إلاـ وفقد أُمه، وذلك حين انصرافها من زيارة أخواله بنى النجار، وكانت خرجت به معها، ومعه حاضنته أُم أيمن، فقدمت به أُم أيمن إلى مكة بعد موتها، فكفله جده عبد المطلب، ورقَّ عليه لمعرفته بأمره وإيمانه به رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يفارقه، وما كان يجلس على فراشه إجلالاً له إلاّ رسول اللّه (ص).

وقدم مكة قوم من بنى مدلج من القافة، فلما نظروا إليه قالوا لجده: احتفظ به، فلم نجد قَدَماً أشبه بالقدم الذى فى المقام من قدمه، فقال عبد المطلب لأبى طالب وهو يوصيه به: اسمع ما يقول هؤلاء واحتفظ به.

فقد الجد

وتوفى جده عبد المطلب (ع) فى السنة الثامنة من مولده (ص)، وأوصى به إلى أبى طالب (ع).

وكان عبد المطلب من سادات قريش، مؤمناً باللّه تعالى وكذا كان أبو طالب محافظاً على العهود، يتخلّق بمكارم الأخلاق، يحب المساكين، ويقوم بالحجيج، ويطعم حتى الوحوش والطير فى رؤوس الجبال، ويطعم فى أزمان القحط، ويقمع الظالمين.

فى كفالة أبى طالب

ثم قام أبو طالب بكفالة النبى (ص) من سنة ثمان من مولده إلى السنة العاشرة من النبوة ثلاثاً وأربعين سنة يحوطه ويقوم بأمره ويذبُّ عنه ويلطف به.

ونقل عن جُلهمة بن عرفطة قال: قدمتُ مكة وهم فى قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادى وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس ضحى تجلّت عنه سحابة قتماء حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بإصبعه الغلام وما فى السماء قُزَعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق واغدودق، وانفجر الوادى وأخصب النادى والبادى، وفى ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثِمال اليتامى عصمة للأرامل

و(الثمال) بكسر المثلثة: الملجأ والغياث.

فى طريق الشام

ولما بلغ رسول اللّه (ص) اثنتى عشرة سنة خرج مع عمه أبى طالب (ع) حتى بلغ (بُصرى) فرآه بحيرا الراهب واسمه جرجيس فعرفه بصفته، فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه اللّه رحمة للعالمين.

فقال: وما علمك بذلك؟

فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة أقبل وعليه غمامة تظلّه، ولم يبق حجر ولا شجر إلّا وخرّ ساجداً، ولا تسجد إلا لنبى، وإنى أعرفه بخاتم النبوة فى أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده فى كتبنا، وسأل أبا طالب أن يردَّه خوفاً عليه من اليهود.

ثم خرج (ص) مرة أخرى، ومعه ميسرة غلام خديجة فى تجارة لها، حتى بلغ سوق بُصرى وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، فنزل تحت ظل شجرة، فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبىّ، وكان ميسرة يرى فى الهاجرة ملكين يظلّانه من الشمس، فلما رجعوا إلى مكة ساعة الظهيرة وخديجة فى علية لها، رأت رسول اللّه (ص) وهو على بعيره وملكان يظلانه.

الزواج المبارك

تزوّج رسول اللّه (ص) وعمره خمس وعشرون عاماً بالسيّدة خديجة، وكان لها على ما قيل حين تزوّجها من العمر أربعون سنة، فولدت لرسول اللّه (ص) بنين وبنات، وكل أولاده (ص) من خديجة، ماعدا إبراهيم، فإنه من (مارية القبطية)، فالذكور من ولده: القاسم وبه كان يُكنّى وهو أكبر ولده (ص).

والقاسم هذا كان يُدعى بالطاهر، وولد له عبد اللّه وكان يدعى بالطيّب.

وأما إبراهيم فولد له بالمدينة وعاش عامين غير شهرين ومات قبل موته (ص).

وأما بناته منها، فأربع:

زينب: تزوّجها أبوالعاص بن الربيع، وكانت خديجة خالته، وولدت له علياً وأُمامة، أما على فمات مراهقاً، وأما أُمامة فتزوّجها على (ع) بعد فاطمة، وماتت زينب فى حياة أبيها رسول اللّه (ص)، وذلك لسبب إخافة هبّار لها وإسقاطها جنينها.

ورُقَية: وتزوّجها عثمان، فولدت له ابناً مات وله من العمر أربع سنين.

وأم كلثوم: وتزوّجها عثمان بعد موت رقية، وماتت عنده أيضاً كما ماتت رقية قبلها عنده.

وذهب بعض إلى أن بعضهنّ كنّ متبنيات للنبى (ص).

وفاطمة (عليها السلام): تزوَّجها على بن أبى طالب (ع)، فولدت له الحسن والحسين (عليهما السلام) وزينب وأُم كلثوم وابناً مات شهيداً اسمه المحسن، وهى (عليها السلام) وحدها التى بقيت بعد أبيها رسول اللّه (ص) لكن لم يطل بقائها بعده حتى لحقت به (ص) سريعاً، وذلك على أثر الضرب المبرح الذى كسر به ضلعها وأسقطت منه جنينها محسناً.

كانت خديجة أول امرأة آمنت برسول اللّه (ص) وأول امرأة صلّت مع رسول اللّه (ص) وواسته بنفسها ومالها حتى أنفقت كل مالها فى سبيل اللّه، ودخلت الشعب معه، وكانت هى أول امرأة تزوّجها، وأول امرأة ماتت من نسائه، ولم ينكح عليها فى حياتها غيرها، وأمره جبرائيل أن يقرأ عليها السلام من ربها، كما أمره أن يعطى فدكاً إلى فاطمة (عليها السلام) بدل ما أنفقته أُمها خديجة (عليها السلام) فى سبيل اللّه من أموالها.

مع حلف الفضول

حضر رسول اللّه (ص) (حلف الفضول) واشترك فيه.

ذكر المؤرخون: انه اجتمع رؤساء مكة فى دار عبد اللّه بن جُدْعان، وكان أكرم حلف سمع به فى العرب وأشرفه، وكان أول من تكلّم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب.

وكان سببه: أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل وكان ذا قدر بمكة وشرف فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدى، الأحلاف: عبد اللّه، ومخزوماً، وجُمَحاً، وسهماً، وعدياً، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل، فعلا جبل أبى قبيس وقريش فى أنديتهم حول الكعبة فنادى بشعر يصف فيه ظلامته رافعاً صوته، فمشى فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار ابن جُدعان، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا فى ذى القعدة فى شهر حرام قياماً، فتعاهدوا وتعاقدوا باللّه ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدّى إليه حقه ما بلّ بحر صوفة كناية عن انه دائماً وأبداً فسمّت قريش ذلك الحلف (الفضول).

وقالوا: لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه مال الزبيدى وسلموه إياه.

وقال الزبير بن عبد المطلب فى ذلك:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ألّا يقيم ببطن مكة ظالم

أمر عليه توافقوا وتعاقدوا فالجار والمعترُّ فيهم سالم

ثم ان رسول اللّه (ص) حين أرسله اللّه تعالى قال وهو يشير إلى حلف الفضول: (لقد شهدتُ فى دار عبد اللّه بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أُدعى به فى الإسلام لأجبت).

تجديد بناء الكعبة

ولما بنت قريش الكعبة ورفعت سمكها وتأتّى لها ما أرادت فى بنائها من الخشب الذى قيل انه ابتاعوه من السفينة التى رمى بها البحر إلى ساحله وكان قد بعث بها ملك الروم من القُلزُم من بلاد مصر إلى الحبشة ليبنى بها هناك كنيسة، وانتهوا إلى موضع الحجر تنازعوا أيهم يضعه، فاتفقوا على أن يرتضوا بأول من يطلع عليهم من باب بنى شيبة، فكان أول من ظهر لأبصارهم النبى (ص) من ذلك الباب، وكانوا يعرفونه ب(الصادق الأمين) لوقاره، وهديه، وصدق لهجته، واجتنابه الأدناس، فحكّموه فيما تنازعوا فيه، وانقادوا

لقضائه، فبسط (ص) ما كان عليه من رداء، وأخذ (ص) الحجر فوضعه فى وسطه، ثم قال لهم: ليأخذ كل واحد منكم بجنبة من جنبات هذا الرداء.

ففعلوا ورفعوه من الأرض وأدنوه من موضعه، فأخذ (ص) الحجر ووضعه مكانه، وقريش كلها حضور، فكان ذلك مما ظهر من فعله وقضاياه وأحكامه، فقال قليل ممن حضر من قريش تعجباً من فعلهم وانقيادهم إلى أصغرهم سناً: واعجباً لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سناً وأقلهم مالاً فجعلوه رأساً حاكماً! أما انه ليفوتنهم سبقاً، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً، وليكونن له بعد هذا اليوم شأناً ونبأ عظيماً.

كما انّ رسول اللّه (ص) كان ينقل معهم الحجارة عند تجديد بناء الكعبة.

الجاهلية وعبادة الأصنام

كان الجاهليون يعبدون الأصنام فى الجاهلية، فلما بعث رسول اللّه (ص) أبطلها وأتى عليها.

قال أبو رجاء: كنا نعبد الحجر فى الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً هو أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به.

وروى الدارمى عن مجاهد قال: حدثنى مولاى: أن أهله بعثوا معه بقَدح فيه زبد ولبن إلى آلهتهم، قال: فمنعنى مخافتها أن آكل الزبد، قال: فجاء كلب فأكل الزبد وشرب اللبن ثم بال على الصنم وهو أساف ونائلة.

وقال بعض المؤرخين: كان الرجل فى الجاهلية إذا سافر حمل معه أربعة أحجار: ثلاثة لقدره، والرابع يعبده.

وروى: أن رجلاً أتى النبى (ص) فقال: يا رسول اللّه، إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، فكانت عندى بنت لى، فدعوتها يوماً فأتبعتنى، فمررت حتى أتيتُ بئراً من أهلى غير بعيد، فأخذتُ بيدها فرديت بها فى البئر، وكان آخر عهدى بها تقول: يا أبتاه يا أبتاه، فبكى رسول اللّه (ص) حتى وكف دمع عينيه.

فقال رجل: أحزنتَ رسول اللّه؟

فقال له: كفَّ فإنه يسأل عما أهمه. ثم قال: أعد علىّ حديثك، فأعاده، فبكى (ص) حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته، ثم قال له: إن اللّه قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملك.

ولما فتح رسول اللّه (ص) مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعن بسبة قوسه فى وجوهها وعيونها ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً)(۳) جاء (الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد)(۴) وهى تتساقط على رؤوسها، ورفع عليّاً (ع) على كتفه فأسقط ما تبقّى من الأصنام التى كانت منصوبة فوق الكعبة.

من خرافات الجاهلية

وكان من عادة الجاهليين جعل بعض الحيوانات محرمة عليهم مثل:

(البحيرة): وهى التى يمنع درها فلا يحلبها أحد من الناس.

و(السائبة): وهى التى يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها.

و(الوصيلة): وهى الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأُنثى، وكانوا يسيبونها إن وصلت إحداهما بالأُخرى ليس بينهما ذكر.

و(الحامى): فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا ضربه دعوه وأعفوه من الحمل فلا يحمل عليه، وسموه الحامى.

فلما بعث اللّه رسوله محمداً (ص) أنزل تعالى: (ما جعل اللّه من بحيرة ولا سائبة ولا وَصيلة ولا حام)(۵).

وأنزل سبحانه: (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا)(... ۶).

وقوله تعالى: (قل أرأيتم ما أنزل اللّه لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً)(... ۷).

قريش وسكان الحرم

قال المؤرخون: كانت قريش قد ابتدعت للحُمْس (أى: سكّان الحرم) رأياً رأوه وأرادوه، فقالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاة البيت وقاطنوا مكة وساكنوها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلنا، ولا تعرف له مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الحل مثل ما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم. فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرّون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم (ع)، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها، إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم، وليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيره.

ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم، يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم، وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك.

ثم ابتدعوا فى ذلك اُموراً لم تكن لهم حتى قالوا: لا ينبغى للحمس أن يقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الادم ما كانوا حرماً.

ثم رفعوا فى ذلك فقالوا: لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤا حجاجاً أو عماراً، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس، فإن لم يجدوا شيئاً طافوا بالبيت عراة، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس وطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ولم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره، فكانت العرب تسمى تلك الثياب (اللقى) فحملوا على ذلك العرب فدانت به، أما الرجال فيطوفون عراة، وأما النساء فتضع المرأة ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فيه، وأحياناً عارية.

فكانوا كذلك حتى بعث اللّه محمداً (ص) فأنزل اللّه: (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)(۸) يعنى قريشاً والعرب، وأنزل تعالى فيما حرموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت: (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد)(۹) إلى قوله تعالى: (قل من حرَّم زينة اللّه التى أخرج لعباده والطيّبات من الرزق)(... ۱۰) وذلك على ما ذكره بعض المفسّرين.

التحدث بأمر الرسول (ص)

كانت الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول اللّه (ص) قبل مبعثه بما يقارب زمانه.

فأما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى: فعمّا وجدوا فى كتبهم صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

وأما الكهان من العرب: فلما كانوا يتلقّونه من الجن والشياطين حيث كانت تسترق السمع، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض اُموره، ولكن لا تلقى العرب لذلك فيه بالا، حتى بعثه اللّه تعالى ووقعت تلك الاُمور التى كانوا يذكرون فعرفوها.

فلما تقارب زمان رسول اللّه (ص) وحضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد لاسترق السمع فيها، فرموا بالنجوم، فعرفت الجن أن ذلك لما حدث من أمر اللّه، وذلك لئلا يلتبس بالوحى، وليكون ذلك أظهر للحجة، وأقطع للشبهة.

روى عن رجل من بنى لهب يقال له لهيب قال: حضرت مع رسول اللّه (ص) فذكرت عنده الكهانة، فقلت: بأبى واُمى، نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم، وذلك انا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك وكان شيخاً كبيراً وكان من أعلم كهاننا فقلنا: يا خطر هل عندك علم من هذه النجوم التى يرمى بها؟ فإنا قد فزعنا لها وخشينا

سوء عاقبتها.

فقال: ائتونى بسَحَر، أُخبركم الخبر، بخير أم ضرر، أو لأمن أو حذر.

قال: فانصرفنا عنه يومنا، فلما كان من غد فى وجه السحر أتيناه، فإذا هو قائم على قدميه شاخص فى السماء بعينيه، فناديناه: يا خطر، فأومأ إلينا أن أمسكوا، فانقض نجم عظيم من السماء، وصرخ الكاهن رافعاً صوته: أصابه اصابه، خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زايله جوّابه، ياويله ما حاله، عاوده خباله، تقطعت حباله، وغيرت أحواله، ثم أمسك طويلاً وذكر أشعاراً.

فقلنا له: يا خطر ومن هو؟

فقال: والحياة والعيش، إنه لمن قريش، ما فى حلمه طيش، ولا فى خلقه هيش، يكون فى جيش أى جيش، من آل قحطان وآل أيش.

فقلنا له: بين من أى قريش هو؟

فقال: والبيت ذى الدعائم، والركن والأجائم، إنه لمن نجل هاشم، ومن معشر أكارم، يبعث بالملاحم، وقتل كل ظالم.

ثم قال: هذا هو البيان، أخبرنى به رئيس الجان، ثم قال: اللّه أكبر، جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجن الخبر، ثم سكت وأُغمى عليه فما أفاق إلا بعد ثالثة فقال: لا إله إلا اللّه.

وعن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن شيخ من بنى قريظة قال: قال لى: هل تدرى عمّ كان اسلام ثعلبة بن شعية، وأسيد بن شعية، وأسد بن عبيد إخوة بنى قريظة، كانوا معهم فى جاهليتهم ثم كانوا سادتهم فى الإسلام؟

قال: قلت: لا.

قال: إن رجلاً من اليهود من أهل الشام يقال له الهيبان، قدم علينا قبل الإسلام بسنتين فحلّ بين أظهرنا، لا واللّه ما رأينا رجلاً قط لا يصلّى الخمس أفضل منه، فأقام عندنا فكنا إذا قحط المطر علينا قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا.

فيقول: لا واللّه حتى تقدموا بين يدى مخرجكم صدقة.

فنقول له: كم؟

فيقول: صاعاً من تمر ومدين من شعير.

قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى اللّه لنا، فواللّه ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونسقى، وقد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث.

قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر اليهود ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟

قال: فقلنا: أنت أعلم.

قال: فإنى قدمتُ هذه البلدة أتوقّع خروج نبىّ قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجره، فكنتُ أرجو أن يُبعَث فأتبعه، قد أظلكم زمانه فلا تُسبقن إليه يا معشر اليهود، فلا يمنعكم ذلك منه.

فلما بُعث رسول اللّه (ص) وحاصر بنى قريظة قال هؤلاء الفتية، وهم: ثعلبة بن شعية، واسيد بن شعية، وأسد بن عبيد، إخوة بنى قريظة، وكانوا شباباً أحداثاً: يا بنى قريظة واللّه إنه للنبى الذى عهد إليكم فيه ابن الهيبان.

قالوا: ليس به.

قالوا: بلى واللّه، إنه لهو بصفته، فنزلوا فأسلموا وأحرزوا دماءهم وأهليهم.

۱ قريش: ۲ ۲ بحار الأنوار: ج ۱۲ ص ۱۳۲ ب ۶ ح ۱۷، و: ج ۳۶ ص ۴۷ ب ۳۲ ح ۷.

۳ الإسراء: ۸۱. ۴ سبأ: ۴۹. ۵ المائدة: ۱۰۳.

۶ الأنعام: ۱۳۹. ۷ يونس: ۵۹. ۸ البقرة: ۱۹۹

۹ الأعراف: ۳۱. ۱۰ الأعراف: ۳۲.

المبعث الشريف وبداية الدعوة

ولما بلغ رسول اللّه (ص) أربعين سنة بعثه اللّه تعالى رحمة للعالمين، وكافة للناس أجمعين.

وكان اللّه قد أخذ له الميثاق على كل نبيّ بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدّوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدّوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه، يقول اللّه تعالى لنبيه محمد (ص): (وإذ أخذ اللّه ميثاق النبيّين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم)(۱).

وقيل: انه أول ما بدأ به رسول اللّه (ص) من الوحى الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلوة فكان يخلو بغار حراء فيتعبّد فيه الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة(ع) فيتزوّد لمثلها، حتى فجأه الحق فى السابع والعشرين من شهر رجب الحرام، وهو (ص) فى غار حراء فجاءه الملك فقال له: اقرأ!

قال: وما أقرأ؟

قال: (بسم اللّه الرحمن الرحيم اقرأ بسم ربّك الّذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربّك الأكرم الّذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم)(۲) فرجع بها رسول اللّه (ص) يرجف فؤاده، حتى دخل على خديجة(ع)، فقال: زمّلونى زمّلونى، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع.

لقاء فى الشام

عن عبد اللّه بن عباس: ان أبا سفيان بن حرب أخبره قائلاً: ان هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش كانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول اللّه (ص) قد أظهر الإسلام وهاجر إلى المدينة وكفار قريش تجحده.

فأتوه وهم بايلياء، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟

قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً.

قال: أدنوه منى وقربوا أصحابه واجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إنى سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبنى فكذِّبوه.

قال أبو سفيان: فواللّه لولا الحياء من أن يأثر علىّ كذباً لكذبتُ عليه، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال:

كيف نسبكم فيه؟

فقلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟

فقلت: لا.

قال: فأشرافهم اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟

قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها، قال: ولم يمكّنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إيّاه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: بماذا يأمركم؟

قلت: يقول: اعبدوا اللّه وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت: أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسّى بقول قيل قبله.

وسألتك: هل كان فى آبائه من ملك؟ فذكرت: أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرتَ: أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على اللّه.

وسألتك: أأشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ: أن ضعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباع الرُسُل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت: أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الرُسُل لا يغدرون.

وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت: أنه يأمركم بأن تعبدوا اللّه ولا تُشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمىَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج فلم أكن أظن أنه فيكم، فلو أعلم أننى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا بكتاب رسول اللّه (ص) الذى بعث به مع دحية الكلبى إليه فقرأه عليهم فإذا فيه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد اللّه ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك اللّه أجرك مرّتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ اللّه ولا نُشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون)(۳).

قال أبو سفيان: فلمّا قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا.

فقلت لأصحابى حين أخرجنا: لقد عظم أمرُ ابن أبى كبشة، انه ليخافه ملك بنى الأصفر.

امتحان واختبار

وقيل: انه كان ابن الناظور صاحب إيليا وهرقل أُسقف على نصارى الشام يحدّث: أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوماً خبيث النفس، فقال له بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك.

قال ابن الناظور: وكان هرقل ينظر فى النجوم، فقال لهم حين سألوه: إنى رأيت الليلة حين نظرتُ فى النجوم أن ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأُمة؟

فقالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم كذلك إذ جىء إلى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبره عن خبر رسول اللّه (ص)، فلما استخبره هرقل وسأله عن العرب: أهم يختتنون؟

فقال: هم يختتنون.

فقال هرقل: هذا ملك هذه الأُمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره فى العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى، وأنه نبى، فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبى؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردّوهم علىّ، وقال: إنى قلتُ مقالتى آنفاً أختبر بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل.

أول المؤمنين

وكان أول من آمن بالرسول (ص) من الرجال على (ع)، ومن النساء زوجته خديجة(ع).

وعن أبى ذر انه قال: سمعت رسول اللّه (ص) يقول لعلى (ع): (أنت أوّل من آمن بى، وأول من يصافحنى يوم القيامة، وأنت الصدّيق الأكبر، وأنت الفاروق الذى يفرق بين الحق والباطل)(... ۴).

وفى نهج البلاغة: (ولم يجمع بيت واحد يومئذ فى الإسلام غير رسول اللّه (ص) وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحى والرسالة، وأشم ريح النبوّة)(۵).

ثم زيد، وكان غلاماً لخديجة، فوهبته لرسول اللّه (ص) لمّا تزوّجها، وقدم أبوه وعمه فى فدائه فسألا عن النبى (ص) فقيل: هو فى المسجد، فدخلا عليه فقالا: يابن عبد المطلب يابن هاشم يابن سيّد قومه، أنتم أهل حرم اللّه وجيرانه، تفكون العانى وتطعمون الأسير، جئناك فى ابننا عبدك فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه.

قال: من هو؟

قالا: زيد بن حارثة.

فقال رسول اللّه (ص): فهلا غير ذلك؟

قالا: ما هو؟

قال: ادعوه فأُخيِّره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارنى فواللّه ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً.

قالا: قد زدتنا على النصف.

فدعاه فقال (ص): أتعرف هؤلاء؟

قال: نعم.

قال: من هذا؟

قال: هذا أبى، وهذا عمّى.

قال: أنا من قد علمتَ ورأيتَ صحبتى، فاخترنى أو اخترهما.

قال: ما أنا بالذى أختار عليكَ أحداً، أنت منّى بمكان الأب والعم.

قالا: ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحريّة وعلى أبيك وعمّك وعلى أهل بيتك؟

قال: نعم، قد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً.

فلمّا رأى رسول اللّه (ص) ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: أُشهدكم أنّ زيداً ابنى.

فلمّا رأى ذلك أبوه وعمّه طابت نفوسهما فانصرفا، ودعى زيد بن محمّد، حتى جاء اللّه بالإسلام فنزلت (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند اللّه)(۶) فدعى يومئذ زيد بن حارثة.

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدّثت به قريش.

إبلاغ الرسالة

ثم ان اللّه سبحانه أمر رسوله (ص) أن يصدع بما جاءه منه، وأن ينادى الناس بأمره ويدعو إليه، فأنزل سبحانه: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)(۷). ثم قال تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل انّى برىء ممّا تعملون)(۸).

فعن سالم عن على (ع) قال: أمر رسول اللّه (ص) خديجة وهو بمكّة فاتخذت له طعاماً، ثم قال لى: ادع لى بنى عبد المطلب، فدعوتُ أربعين رجلاً.

فقال لى (ص): هلمّ طعامك، فأتيتهم بثريد إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها، فأكلوا منها جميعاً حتى أمسكوا.

ثم قال (ص): اسقهم، فسقيتهم بإناء هو ريّ أحدهم، فشربوا منه جميعاً حتى صدروا.

فقال أبو لهب: لقد سحركم محمد، فتفرقوا ولم يدعهم.

فلبثوا أياماً ثم صنع لهم طعاماً مثله ثم أمرنى فجمعتهم فطعموا ثم قال لهم:

(انّ الرائد لا يكذب أهله، واللّه الذى لا إله إلاّ هو انى رسول اللّه إليكم خاصّة، وإلى الناس عامة، واللّه لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، وانها الجنّة أبداً، والنار أبداً).

ثم قال (ص): يا بنى عبد المطلب! اننى واللّه ما أعلم أحداً فى العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى اللّه تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر، على أن يكون أخى ووصيّى وخليفتى فيكم؟

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، فقلت وانى لأحدثهم سنّاً: يا نبيّ اللّه أكون وزيرك، فأخذ (ص) برقبتى ثم قال: انّ هذا أخى ووصيّى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع(۹).

وعن ابن عباس: لمّا أنزل اللّه تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)(۱۰) أتى النبى (ص) الصفا فصعده، ثم نادى: يا صباحاه! فاجتمع الناس إليه بين رجل يأتى إليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول اللّه (ص): يا بنى عبد المطلب، يا بنى فهر، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدّقتمونى؟

قالوا: نعم.

قال: فإنّى نذير لكم بين يدى عذاب شديد

فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلاّ لهذا؟ فأنزل اللّه تعالى فيه: (تبّتْ يدا أبى لهب وتب)(۱۱).

موقف أبى طالب (ع)

مضى رسول اللّه (ص) على أمر اللّه مظهراً لأمره لا يردّه عنه شىء، فلمّا رأت قريش أنّ رسول اللّه (ص) لا يعتبهم من شىء أنكروه عليه، ورأوا أنّ عمّه أبا طالب (ع) قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب وفيهم:

عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، وأبو سفيان بن حرب بن اُمية واسمه صخر، وأبو البخترى واسمه العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزّى بن قصى، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن العزّى بن قصى، وأبو جهل واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد اللّه بن مخزوم، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، والعاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم، وغيرهم.

فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلّى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه(۱۲) فنكفيكه.

فقال لهم أبو طالب قولاً ـ رفيقاً، وردّ عليهم رداً جميلاً ـ ثم بعث إلى رسول اللّه (ص)، فلما دخل عليه رسول اللّه (ص) قال له: يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم، وقد سألوك أن تكفّ عن شتم آلهتهم ويدَعوك وإلهك.

قال: يا عم أفلا تدعوهم إلى ما هو خير لهم؟

قال: وإلى ما تدعوهم؟

قال: أدعوهم إلى أن يتكلّموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم؟

فقال أبو جهل من بين القوم: ما هى وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها؟

قال: تقولون: (لا إله إلاّ اللّه).

فنفروا وقالوا: سلنا غيرها

قال: لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدىّ ما سألتكم غيرها، فقاموا من عنده غضاباً، وولّوا على أدبارهم نفوراً

وهنا التفت أبو طالب (ع) إلى رسول اللّه (ص) وقال: يا ابن أخى ادع كما أمرت، ثم أنشأ:

واللّه لن يصلوا إليك بجمعهم حتى اُوسّد فى التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر وقر بذاك منك عيونا

ودعوتنى وعلمت أنك ناصحى ولقد صدقتَ وكنتَ ثم أمينا

ولقد علمت بأنّ دين محمد من خير أديان البريّة دينا

منطق الجاهليّين

فلمّا نادى رسول اللّه (ص) بالإسلام وصدع بما أمره اللّه تعالى به، استجاب له الأحداث من الرجال، والضعفة من الناس، حتى كثر من آمن به، فعظم ذلك على أصحاب الأغراض والأطماع من قومه، ورأوا أنّ مصالحهم الشخصية المعتمدة على عبادة الأصنام مهدّدة بالخطر، فناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته، وأكبّوا على منابذته وايذائه، فحدب أبو طالب (ع) على رسول اللّه (ص) ومنعه وقام دونه، لأنه بالإضافة إلى ايمانه باللّه والرسول (ص) كان شريفاً فى قومه، معظّماً فى قريش، مطاعاً فى أهل مكة، فلم يتجاسروا معه مكاشفة الرسول (ص) بشىء من الأذى.

أما أصحابه:

فمن كانت له عشيرة تحميه امتنع بعشيرته، وأما من لم تكن له عشيرة، فقد تصدّوا له بالأذى والعذاب، فلقى أصحاب رسول اللّه (ص) من العذاب أمراً عظيماً.

عمّار وأبواه

وكان ممّن عذّبوه: عمّار بن ياسر واُمّه وأباه، وكان إذا مرّ بهم رسول اللّه (ص) يقول: صبراً يا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة، فمات ياسر

أبو عمّار تحت التعذيب القاسى، وكذلك ماتت سمية أُم عمار على أثر حربة طعنها فى قلبها أبو جهل، وبقى عمّار فى أيدى أسياده وأخذوا يعذّبونه أشدّ التعذيب، إلى أن قالوا له: لا نتركك حتى تكفر بمحمّد وإلهه، فأجابهم إلى ذلك مكرهاً، فتركوه، فأتى النبى (ص) معتذراً باكياً، فأنزل اللّه تعالى: (إلّا من أُكره وقلبه مطمئنّ بالإيمان..)(۱۳) فقال له (ص): لا بأس عليك يا عمّار إن عادوا فعد.

مع بلال

وكذلك كان بلال، فإن أسياده كانوا يأخذونه إلى التعذيب خارج مكة، فيطرحونه على الرمضاء ثم يلقون على بطنه الصخرة العظيمة المحماة بالشمس، ثم يأخذونه ويلبسونه فى ذلك الحرّ الشديد درع من حديد، ويضعون فى عنقه حبلاً ويسلّمونه إلى الصبيان يطوفون به، وهو فى كل ذلك صابر محتسب لا يبالى بما يلقى فى ذات اللّه، وكان كلما اشتدّ به العذاب يقول: أحد، أحد.

الهجرة إلى الحبشة

فلمّا اشتدّ البلاء عليهم أذن رسول اللّه (ص) لهم فى الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة وقال: إنّ بها ملكاً لا يظلم الناس، وهى أرض صدق، فلو خرجتم إليها حتى يجعل اللّه لكم فرجاً ومخرجاً ممّا أنتم فيه.

فهاجر إليها جماعة يبلغ عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، فخرجوا متسالمين سرّاً فوفّق اللّه لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجّار فحملوهم فيها إلى أرض الحبشة، وكان خروجهم فى رجب من السنة الخامسة من المبعث الشريف، فأقاموا بالحبشة شعبان ورمضان، وخرجت قريش فى آثارهم حتى جاءوا البحر فلم يدركوا منهم أحداً.

ثم رجعوا إلى مكة فى شوّال لما بلغهم أنّ قريشاً صافّوا رسول اللّه (ص) وكفّوا عنه.

ولكن لما وافوها ورأوا الأمر على خلاف ما بلغهم، حيث تعرَّض كثير منهم لأذى المشركين واضطهادهم القاسى وبنحو أشد من المرة الأولى، استأذنوا الرسول (ص) ثانية بالهجرة، فأذن لهم فى الهجرة إلى الحبشة مرة ثانية فخرجوا، فكان خروجهم الثانى أشق عليهم وأصعب، وكان عدّة من خرج فى هذه المرّة ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانية عشرة امرأة قرشيّة وغير قرشية، يرأسهم جعفر بن أبى طالب (ع).

فأكرم النجاشى وفادتهم وآمن بالرسول (ص).

من بركات الهجرة

ولما رأت قريش اطمئنان المهاجرين فى أرض المهجر، وحسن صحبة النجاشى لهم، اجتمعوا فى دار الندوة وقالوا: إنّ لنا فى الذين عند النجاشى ثأراً، فاجمعوا مالاً واهدوه إلى النجاشى لعلّه يدفع إليكم من عنده، ولينتدب فى ذلك رجلان من أهل رأيكم، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد مع الهدية فركبا البحر.

فلمّا دخلا على النجاشى سجدا له وسلما عليه وقالا: قومنا لك ناصحون، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا عليك، لأنهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول اللّه ولم يتّبعه إلّا السفهاء، فضيّقنا عليهم وألجأناهم إلى شِعب بأرضنا لا يخرج منهم أحد ولا يدخل عليهم أحد، فقتلهم الجوع والعطش، فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم، وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيّونك بالتحية التى كنت تحيّا بها، رغبة عن دينك.

فلمّا دعاهم النجاشى وحضروا صاح جعفر بن أبى طالب بالباب: يستأذن عليك حزب اللّه.

فقال النجاشى: مروا هذا الصائح فليُعد كلامه، ففعل.

فقال: نعم فليدخلوا بأمان اللّه وذمّته.

فدخلوا ولم يسجدوا له.

قال: ما منعكم أن تسجدوا لى؟

قالوا: نسجد للّه الذى خلقك وملّكك، وإنما كانت تلك التحيّة لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث اللّه فينا نبيّاً صادقاً، وأمرنا بالتحية التى رضيها وهى (السلام) تحية أهل الجنّة.

فعرف النجاشى أن ذلك حق، وأنه فى التوراة والإنجيل.

فقال: أيكم الهاتف يستأذن؟

قال جعفر: أنا.

قال: فتكلّم.

قال: إنك ملك لا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم، وأنا اُحب أن اُجيب عن أصحابى، فمر هذين الرجلين فليتكلّم أحدهما فتسمع كلامنا وحوارنا.

فقال عمرو بن العاص لجعفر: تكلّم.

فقال جعفر للنجاشى: سله أعبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنّا عبيداً قد أبقنا من موالينا فارددنا إليهم.

فقال عمرو: بل أحرار كرام.

فقال: هل أرقنا دماً بغير حق فيقتص منا؟

قال: لا، ولا قطرة.

قال: فهل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها؟

قال عمرو: ولا قيراط.

قال النجاشى: فما تطلبون منهم؟

قال: كنا وهم على دين واحد، على دين آبائنا، فتركوا ذلك واتبعوا غيره.

فقال النجاشى لجعفر: ما هذا الذى كنتم عليه والذى اتّبعتموه؟ وأصدقنى.

فقال جعفر: أما الذى كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان، كنا نكفر باللّه ونعبد الحجارة، وأما الذى تحولنا إليه فهو دين اللّه الإسلام، جاءنا به من اللّه رسول، وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقاً له.

فقال النجاشى: تكلمتَ بأمر عظيم فعلى رسلك.

ثم أمر بضرب الناقوس، فاجتمع إليه كل قسيس وراهب، فقال: اُنشدكم باللّه الذى أنزل الإنجيل على عيسى، هل تجدون بين عيسى وبين القيامة نبيّاً مرسلاً؟

قالوا: اللّهمّ نعم، قد بشّرنا به عيسى وقال: من آمن به فقد آمن بى، ومن كفر به فقد كفر بى.

فقال النجاشى لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وماذا يأمركم به وماذا ينهاكم عنه؟

قال: يقرأ علينا كتاب اللّه، ويأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار، وصلة الرحم، وبرّ اليتيم، ويأمرنا أن نعبد اللّه وحده لا شريك له.

فقال: اقرأ ما يقرأ عليكم.

فقرأ عليه سورة العنكبوت والروم، ففاضت عين النجاشى وأصحابه من الدمع.

فقال: زدنا من هذا الحديث الطيّب.

فقرأ عليهم سورة الكهف.

فأراد عمرو أن يغضب النجاشى فقال: إنهم يسبّون عيسى واُمّه.

فقرأ عليهم جعفر سورة مريم (ع).

فلمّا أتى على ذكر عيسى واُمه رفع النجاشى نفاثة من سواكه قدر ما يقذى العين فقال: واللّه ما زاد المسيح على ما يقول هؤلاء نقداً.

ثم التفت إلى جعفر ومن معه من المسلمين وقال لهم: اذهبوا فأنتم سيوم(۱۴) بأرضى، من سبّكم غرم، فلا- هوادة اليوم على حزب ابراهيم، ما أحب أن لى دَبْرا(۱۵) من ذهب وأنى آذيت رجلاً منكم.

ثم قال: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى فيها، فواللّه ما أخذ اللّهُ منّى الرشوة حين ردّ علىّ ملكى فآخذ الرشوةَ فيه، وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه.

فخرجا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به.

وفى النجاشى وأصحابه حسب بعض التفاسير نزلت: (وإذا سمعوا ما اُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع)(۱۶).

اسلام النجاشى

ثم ان النجاشى أسلم سراً وآمن بالنبى (ص) خفية وقال: لو قدرتُ أن آتى النبى لأتيته، فكاتبه النبى (ص) فى أن يزوّجه اُم حبيبة بنت أبى سفيان، وكانت ممن هاجر إلى الحبشة مع زوجها عبيد اللّه بن جحش، فتنصَّر هناك ومات، فزوّجه إيّاها، وأصدقها عنه أربعمائة دينار، وكان الذى تولّى تزويجها خالد بن سعيد بن العاص، وكتب إليه أن يبعث إليه من بقى من أصحابه ويحملهم ففعل، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن اُمية، وقدموا على رسول اللّه (ص) حين افتتح خيبر.

ولمّا مات النجاشى نعاه رسول اللّه (ص) فى اليوم الذى مات فيه وخرج إلى المصلّى فكبّر خمس تكبيرات ثم التفت إلى المسلمين وقال: استغفروا لأخيكم.

قيل: وكان موت النجاشى فى رجب سنة تسع هجرية، ولما صلّى عليه رفع إليه سريره بأرض الحبشة حتى رآه بالمدينة، وتكلّم المنافقون وقالوا: يصلّى على علج مات بأرض الحبشة.

۱ آل عمران: ۸۱. ۲ القلم: ۱ ۵. ۳ آل عمران: ۶۴.

۴ بحار الأنوار: ج ۲۲ ص ۴۳۵ ب ۱۲ ح ۴۹، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ۱۳ ص ۲۲۸ ب ۲۳۸ دار إحياء التراث العربى ط ۲.

۵ نهج البلاغة: الخطبة ۱۹۲. ۶ الأحزاب: ۵. ۷ الحجر: ۹۴.

۸ الشعراء: ۲۱۴ – ۲۱۵.

۹ راجع شرح النهج لابن أبى الحديد المعتزلى: ج ۱۳ ص ۲۱۰ ۲۱۱ ط دار إحياء التراث العربى.

۱۰ الشعراء: ۲۱۴. ۱۱ المسد: ۱.

۱۲ سبق أنّ أبا طالب (ع) كان مؤمناً بالله تعالى. ۱۳ النحل: ۱۰۶.

۱۴ السيوم: الآمنون. ۱۵ الدبر بلسان الحبشة: الجبل. ۱۶ المائدة: ۸۳.

إسلام حمزة

ثم أسلم حمزة بن عبدالمطلب وكان سبب اسلامه أنّ أبا جهل مرّ برسول اللّه (ص) فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول اللّه (ص)، ومولاة لعبداللّه بن جُدعان فى مسكن لها تسمع ذلك.

ثم انصرف عنه عامداً إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدّث معهم، وكان أعزّ فتى فى قريش وأشدّه شكيمةً.

فلما مرّ بالمولاة وقد رجع رسول اللّه (ص) إلى بيته قالت: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفاً من أبى الحكم بن هشام، وجده ههنا جالساً فآذاه وشتمه وسبّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلّمه محمد.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد اللّه به من كرامته، فخرج يسعى لم يقف لأحد، معدّاً لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلقيه جالساً فى القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وتسبّه؟ فأنا على دينه، أقول ما يقول، فردَّ علىّ إن استطعت.

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل.

فقال أبوجهل: دعوا أبا عمارة، فإنى واللّه قد سببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً.

وتم حمزة على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول اللّه (ص)، فعرفت قريش أن رسول اللّه (ص) قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

أبوطالب ومواقفه المشرّفة

فلما رأت قريش ان أمر رسول اللّه (ص) يتزايد ويقوى، مشوا إلى أبى طالب مرة أُخرى فقالوا له: يا أباطالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وإنا واللّه لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

فبعث إلى رسول اللّه (ص) فقال: يا ابن أخى إن قومك جاءونى وقالوا لى كذا وكذا فما تقول؟

فقال له رسول اللّه (ص): يا عم واللّه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره اللّه أو أهلك فيه.

ثم استعبر رسول اللّه (ص) فبكى، ثم قام. فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يابن أخى. فأقبل عليه رسول اللّه (ص) فقال له: قل يا ابن أخى ما أحببت، فواللّه لا اسلمك لشىء أبداً.

مكيَدَة قريش

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أباطالب (ع) قد أبى خذلان رسول اللّه (ص) وإسلامه له، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد فقالوا له: يا أباطالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرَّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل كرجل.

فأجابهم أبو طالب قائلاً: واللّه لبئس ما تسومونني، تعطوننى ابنكم اغذيه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا واللّه ما لايكون أبداً.

فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف: واللّه يا أباطالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً؟

فقال: واللّه ما أنصفتمونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ، فاصنع ما بدا لك، فتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضاً.

فقال أبو طالب عند ذلك يعرّض بالمطعم ويعم من خذلة من بنى عبد مناف ومن عاداه من قبائل قريش ويذكر ما سألوه وما تباعد من

أمرهم أبياتاً أولها: (ألاّ قل لعمرو والوليد ومُطعم ألا ليت حظى من حياطتكم بكر).

قريش يتآمرون

ثم إن قريشاً تآمروا بينهم على من فى القبائل من أصحاب رسول اللّه (ص) الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع اللّه رسوله منهم بعمّه أبى طالب (ع)، وقد قام أبوطالب (ع) حين رأى قريشاً يصنعون مايصنعون فى بنى هاشم وبنى عبدالمطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول اللّه (ص) والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، إلا ما كان من أبى لهب وولده فإنهم ظاهروا قريشاً على قومهم.

ثم إنهم أجمعوا على أن يقتلوا رسول اللّه (ص) علانية، فبلغ ذلك أباطالب، فجمع بنى هاشم وبنى عبدالمطلب فأدخلوا رسول اللّه (ص) شعبهم ومنعوه ممّن أراد قتله.

الصحيفة المشؤومة

فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً على بنى هاشم وبنى عبدالمطلب ألاّ ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوا منهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتّى يسلموا رسول اللّه (ص) للقتل.

وكتبوه فى صحيفة بخط أحدهم، فأُصيبت يد الكاتب بعدها بالشلل، وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة.

فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مسلمهم وكافرهم، إلى أبى طالب فدخلوا معه شعبه، فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شىء إلاّ سرّاً، وقطعت قريش عنهم الأسواق حتى كان يسمع أصوات نسائهم وأبنائهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، واشتدّوا على من أسلم ممن لم يدخل الشعب، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً.

وكان أبوطالب (ع) إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول اللّه (ص) فاضطجع فراشه حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر علياً (ع) أو أحد بنيه أو اخوته أو بنى عمّه فاضطجع على فراش رسول اللّه (ص)، وأمره أن يأتى بعض فرشهم، وفى ذلك أنشأ أبوطالب قصيدته اللامية المشهورة، والتى قال فيها:

(ولما رأيت القوم لا وُدّ فيهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل)

إلى آخر القصيدة.

نقض الصحيفة

ثم بعد ذلك تألّف قوم من قريش على نقض تلك الصحيفة، كان أحسنهم فيها عناءً هشام بن عمرو بن الحرث، فإنه مشى إلى زهير بن اُمية بن المغيرة وكلّمه فى ذلك، وكان زهير هذا شديد الغيرة على النبى (ص) والمسلمين، وكانت اُمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فأجابه زهير إلى نقض الصحيفة.

ثم مشى هشام إلى المطعم بن عدى فذكره أرحام بنى هاشم وبنى المطلب ابنى عبدمناف فأجابه إلى ذلك.

ثم مشى إلى أبى البخترى بن هشام فقال له مثل ما قال للمطعم بن عدى.

ثم مشى إلى زمعة بن الأسود فكلّمه وذكر له قرابتهم وحقهم. فقال: وهل معى على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد؟

قال: نعم، ثم سمى له القوم.

واتعدوا خطم الجحون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا وتعاهدوا على القيام فى نقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلّم.

فلما أصبحوا غدوا على أنديتهم، وغدا زهير بن أبى اُميهٔ عليه حلهٔ، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكهٔ: أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنوهاشم هلكى لايباعون ولا يباع منهم، واللّه لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفهٔ القاطعهٔ الظالمهٔ.

فقال أبو جهل وكان فى ناحيهٔ المسجد: كذبت واللّه لاتشق.

قال زمعهٔ بن الأسود: أنت واللّه أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت.

فقال أبو البخترى: صدق زمعهٔ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقرّ به.

قال المطعم بن عدى: صدقتم وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى اللّه منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

قال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، وتُشوور فيه بغير هذا المكان.

هذا كله وأبو طالب (ع) يستعدّ للمجيء إلى المسجد، وكان قد أخبره رسول اللّه (ص): بأن اللّه قد سلّط الارضهٔ على صحيفتهم فأكلتها إلاّ ما كان من اسم اللّه تعالى، فلما أخبر النبى (ص) عمه أبا طالب بذلك، قال أبوطالب: لا والثواقب ما كذبتنى.

فانطلق يمشى بعصابهٔ من بنى عبدالمطلب حتى أتى المسجد وهو حافل من قريش، فتكلّم وقال: إنه قد حدث أمر لعله أن يكون بيننا وبينكم صلحاً، فأتوا بصحيفتكم.

وإنما قال ذلك خشيهٔ أن ينظروا فيها قبل أن يأتوا بها.

فأتوا متعجّبين لا يشكّون أن رسول اللّه (ص) مدفوع إليهم.

قالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد قد جعلتموه خطراً لهلكهٔ قومكم.

فقال أبوطالب: لأعطينكم أمراً لكم فيه نَصَف، إن ابن أخى أخبرنى ولم يكذبنى: أن اللّه برىء من هذه الصحيفهٔ التى فى أيديكم ومحا كل غدركم وقطيعتكم إلاّ ما كان من اسم اللّه تعالى فيها، فإن كان ما قال حقاً، فواللّه لانسلمه إليكم حتى نموت عن آخرنا، وإن كان الذى يقول باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه.

قالوا: قد رضينا.

ففتحوا الصحيفهٔ فوجدوها كما أخبر، لكنهم أصرّوا فى غيّهم وعنادهم وقالوا: هذا سحر من صاحبكم.

فتكلّم عند ذلك النفر الذين تعاقدوا، ومزّقت الصحيفهٔ، فلما مزقت وبطل ما فيها أنشأ أبوطالب فى ما كان من أمر اُولئك القوم الذين قاموا فى نقضها يمدحهم قائلاً:

ألا هل أتى بحرٍ يرى صنع ربنا***على نأيهم واللّه بالناس أروَد

إلى آخر الأبيات.

وخرج بنو هاشم من شعبهم وخالطوا الناس، وذلك بعد عشرهٔ أعوام من المبعث الشريف.

عام الحزن

ولمّا خرج بنو هاشم من الشعب لم يمض عليهم من الزمان إلاّ ستّهٔ أشهر حتى توفى أبوطالب (ع)، ثم توفيت خديجهٔ بعده بثلاثهٔ أيام على قول، فسمّى رسول اللّه (ص) ذلك العام: عام الحزن.

اشتداد أذى قريش

وبموت أبى طالب (ع) اشتدّ البلاء على رسول اللّه (ص) من قومه، وتجرّؤا عليه، وكاشفوه بالأذى الشديد، وأرادوا قتله، إلاّ أن اللّه منعهم منه، وجرّعوه غصصاً كثيرهٔ:

فمنها: ما رواه بعضهم وقال: حضرتهم وقد اجتمعوا فى الحجر يذكرون رسول اللّه (ص) فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه، سفّه

أحلامنا وشتم آباءنا وفرّق جماعتنا، فبينماهم كذلك إذ أقبل رسول اللّه (ص) فاستلم الركن، فلما مرّ بهم غمزوه، فعرفت ذلك فى وجه رسول اللّه (ص) ثم مضى، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك فى وجه رسول اللّه (ص) ثم مر بهم الثالثة، فلما كان من الغد اجتمعوا كذلك إذ طلع، فقالوا: قوموا إليه وثبة رجل واحد وهكذا فعلوا.

مع ابن أبى معيط

ومنها: انه قال بعضهم: سألت بعض الصحابة عن أذى قريش للنبى (ص) بعد وفاة عمّه أبى طالب (ع) وقلت له: أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون برسول اللّه (ص).

قال: بينما النبى (ص) يصلّى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فخنقه خنقاً شديداً.

البنت الوفية

ومنها: ما عن عبداللّه بن مسعود قال: كان رسول اللّه (ص) يصلّى عند الكعبة وجمع من قريش فى مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائى، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجىء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه.

فانبعث أشقاهم، فلما سجد (ص) وضعه بين كتفيه، وثبت النبى ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، وأنا قائم أنظر، ولو كان لى منعه طرحته عن ظهر رسول اللّه (ص).

فانطلق منطلق إلى فاطمة، فأقبلت تسعى، وثبت النبى (ص) ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تؤنّبهم.

فلما قضى رسول اللّه (ص) صلاته رفع صوته شاكياً إلى اللّه ما نزل به وهو يقول: اللّهم عليك بقريش، اللّهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأُمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط، وعمارة بن الوليد.

قال عبداللّه: فواللّه لقد رأيتهم صرعى يوم بدر قد غيّرتهم الشمس فى يوم حارّ، ثم سحبوا إلى قليب بدر فأُلقوا فيه.

نماذج من أذى قريش

ومنها: انهم كانوا يحضّون سفهائهم لإلقاء التراب على وجهه ورأسه(ص).

ومنها: انهم كانوا يطرحون الفرث والدم والشوك على بابه (ص).

ومنها: ان أُمية بن خلف تجاسر على النبى (ص) فى وجهه، فاحمرّ وجه رسول اللّه (ص) ولم يقل له شيئاً.

مع البنت الحنون

ومنها: انه قال بعضهم: لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول اللّه (ص) التراب دخل رسول اللّه (ص) بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه فاطمة فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، ورسول الله (ص) يقول لها: لا تبكى يا بنية فإن اللّه مانع أباكِ.

قال: ويقول بين ذلك: ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب.

فى ظل الكعبة

ومنها: ما روى عن خباب قال: أتيتُ النبى (ص) وهو متوسّد بردة وهو فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول اللّه ألا تدعو اللّه؟

فقعد (ص) وهو محمرّ وجهه فقال: لقد كان فيمن كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد مادون عظامه، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمّنَّ اللّه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الذئب على غنمه.

مع جماعة الأحلاف

ومنها: ما عن عبداللّه بن عباس انه قال: اجتمع جماعة من أحلاف الكفار عند غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه من يقول له: ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك فأتهم.

فجاءهم رسول اللّه (ص) وهو حريص عليهم، يحب رشدهم ويعزّ عليه عنتهم، حتى جلس إليهم.

فقالوا: يا محمد إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنا واللّه ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد سببت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقى من قبيح إلّا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإن كنتَ تريد ملكاً ملكناك، وإن كان الذى يأتيك رئياً وكانوا يسمون التابع من الجن: رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك عنه أو نعذر فيك، وإن كنتَ تريد امرأة زوّجناك أجمل بنت فى العرب.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ما بى ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن اللّه تعالى بعثنى إليكم رسولاً ـ وأنزل علىّ كتاباً وأمرنى أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالات ربّى، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا منّى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللّه حتى يحكم اللّه بينى وبينكم.

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منّا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا، فاسئل ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا: قصى بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من اللّه، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ما بهذا بعثتُ إليكم، إنما جئتكم من اللّه بما بعثنى به، وقد بلغتكم ما اُرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ فأصبر لأمر اللّه، حتى يحكم اللّه بينى وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، واما لا، فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضّة يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم فى الأسواق تلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربّك إن كنتَ رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربّه، ولكن اللّه بعثنى بشيراً ونذيراً فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر اللّه حتّى يحكم اللّه بينى وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمتَ أنّ ربك إن شاء فعل.

قال: فقال رسول اللّه (ص): ذلك إلى اللّه، إن شاء أن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به ويخبرك بما هو صانع فى ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به، إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا، رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا واللّه لانؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا واللّه لانتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا.

فقام رسول اللّه (ص) من عندهم وانصرف إلى أهله حزيناً أسفاً عليهم.

فلما قام عنهم رسول اللّه (ص) وانصرف، قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى الا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا

وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا، وإنى أُعاهد اللّه لأجلسنّ له غداً بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فلتصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

قالوا: واللّه لا نسلمك لشىء أبداً فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول اللّه (ص) ينتظره، وغدا رسول اللّه (ص) كما كان يغدو، وكان رسول اللّه (ص) بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلّى، صلّى بين الركن اليمانى والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام.

فقام رسول اللّه (ص) يصلّى وقد غدت قريش فى أنديتهم فجلسوا فيها ينظرون ما أبوجهل فاعل، فلما سجد رسول اللّه (ص) احتمل أبوجهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده.

فقامت إليه رجال قريش وقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟

قال: قمتُ إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوتُ عرض لى دونه فحل من الإبل واللّه ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهمَّ بى أن يأكلنى.

وروى ان رسول اللّه (ص) قال: ذاك جبرائيل، ظهر له بهذه الصورة، ولو دنا لأخذه.

فلما قال ذلك لهم أبو جهل قام النضر بن الحارث بن كلدة فقال:

يا معشر قريش! واللّه لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمّد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر، لا واللّه ما هو بساحر، قد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا واللّه ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة تخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا ـ واللّه ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش، فانظروا فى شأنكم، فإنه واللّه قد نزل بكم أمر عظيم.

الحرب الثقافية ضد القرآن

وكان النضر هذا من قريش، وممّن كان يؤذى رسول اللّه (ص) وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول اللّه (ص) مجلساً فذكّر فيه باللّه، وحذَّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأُمم من نقمة اللّه، خلّفه فى مجلسه إذا قام، وقال: أنا واللّه يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلم فأنا أُحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا كان أحسن حديثاً منّى؟

قالوا: وهو الذى قال: سأُنزل مثل ما أنزل اللّه.

وفد المشركين إلى أحبار المدينة

ثم انهم بعثوا النضر بن الحارث وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمّد، وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول اللّه (ص) ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقالا لهم: انكم أهل التوراة قد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالت لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبىّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب.

وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه.

وسلوه عن الروح ما هى؟

فإذا أخبركم بذلك فاتّبعوه فإنه نبىّ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط بن عمرو بن اُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمّد، قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم بها فهو نبىّ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فروا فيه رأيكم.

فجاءوا رسول اللّه (ص) فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كان لهم قصّة عجب، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هى؟

فقال لهم رسول اللّه (ص): اُخبركم بما سألتم عنه غداً.

فجاء جبريل من اللّه بسورة الكهف، وفيها ما سألوه عنه: من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، والروح.

مع رؤوس الشرک

روى أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شُريق الثقفى حليف بنى زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا القرآن من رسول اللّه (ص) وهو يصلّى من الليل فى بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لايعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لاتعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى قلبه شيئاً، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد على أن لانعود، ثم تعاهدوا على ذلك ثم تفرّقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمّد.

فقال: يا أبا ثعلبة لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا كذلك، والذى حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان. قالوا: منّا نبىّ يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ واللّه لانؤمن به أبداً ولا نصدّقه، فقام عنه الأخنس وتركه.

تخطيط الوليد ضد القرآن

ثم ان الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنّ فيهم وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم قولوا وأسمع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا واللّه ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: نقول ساحر.

قال: وما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.

قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟

قال: واللّه إن لقوله حلاوة، وان عليه لطلاوة، وان اعلاه لمثمر، وان أسفله لمعذق، وانه ليعلو وما يعلى عليه، وما أنتم بقائلين من قولكم ذلك شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء وابنه، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بـذلك وجعلوا يجلسون بسـبل النـاس حين قـدموا الموسم لاـ يمر بهم أحـد إلاـ حـذّروه إيـاه وذكروا لهم أمره، فأنزل اللّه سبحانه فى الوليد بن المغيرة قوله تعالى: (ذرنى ومن خلقت وحيداً)(۱) إلى قوله تعالى: (سأصليه سقر)(۲).

الوليد بروايةٍ اُخرى

وعن ابن عباس: ان الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول اللّه (ص) فقال: اقرأ عليّ. فقرأ عليه: (إنّ اللّه يأمر بالعدل والإحسان)(۳) إلى آخر الآية.

قال: أعد. فأعاد عليه.

قال: واللّه إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعذق، وما يقول هذا بشر.

فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم، إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً.

قال: ولِمَ؟

قال: أتيت محمداً لتعرض مما قبله.

قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له.

قال: ماذا أقول؟ ثم قال: انه سحر، فنزلت فيه الآيات.

مع العتبة بن ربيعة

عن جابر بن عبداللّه قال: اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسـحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى قد فرَّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يردّ عليه.

فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد.

فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبداللّه؟ فسكت رسول اللّه (ص).

فقال: أنت خير أم عبدالمطلب؟ فسكت رسول اللّه.

قال: فإن كنت تزعم ان هؤلاء خير منك فإنهم لم يظهروا كلاماً، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك، ثم أردف قائلاً:

إنّا واللّه ما رأينا شخصاً قط أشأم على قومه منك، فرقت جماعتنا، وشتّتّ أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا فى العرب، لقد طار فيهم: ان فى قريش ساحراً، وان فى قريش كاهناً، واللّه ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أىّ نساء قريش شئتَ فلنزوّجك عشراً.

فقال رسول اللّه (ص): فرغتَ؟

قال: نعم.

فقال رسول اللّه (ص): (بسم اللّه الرحمن الرحيم، حم، تنزيل من الرحمن الرحيم)(۴) حتى بلغ (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)(۵) وحينئذ أمسك عتبة على فيه (ص) وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم.

فقال أبو جهل: يا معشر قريش، واللّه لانرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذلك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه.

فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد، وأعجبك طعامه، فإن كان لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما نغنيك عن طعام محمد.

فغضب غضبة وأقسم: أن لا يكلّم محمداً أبداً وقال: واللّه إنى من أكثر قريش مالاً، ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة، فأجابنى بشىء واللّه ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)(۶) فأمسكتُ بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب.

وفى رواية: ثم مضى رسول اللّه (ص) فيها يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول اللّه(ص) إلى السجدة منها فسجد ثم قال (ص): قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف باللّه لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذى ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائى أنى سمعت قولاً واللّه ما سمعت مثله قط، واللّه ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فواللّه ليكوننّ لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك واللّه يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

۱ المدّثر: ۱۱. ۲ المدّثر: ۲۶. ۳ النحل: ۹۰.

۴ فصّلت: ۱ ۲. ۵ فصّلت: ۱۳. ۶ فصّلت: ۱۳.

الصبر على الأذى

كان هناك جماعة يستهزؤون برسول اللّه (ص)، فأنزل اللّه فيهم آيات يذمّهم بها، ويحذّرهم فيها عاقبة أمرهم، ويتوعّدهم العذاب والنار.

منهم: عمه أبولهب، وامرأته أُم جميل بنت حرب بن اُمية حمّالة الحطب.

سماها اللّه حمّالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول اللّه (ص) حيث يمر، فأنزل اللّه تعالى فيهما: (بسم اللّه الرحمن الرحيم تبّت يدا أبى لهب وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمّالة الحطب فى جيدها حبل من

مسد)(۱).

وقد كانت تمشى بالنميمة، وتنقل الحديث، وتلقى العداوة بين الناس، وتوقد ناراً كما توقد النار بالحطب.

ثم ان أُم جميل حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول اللّه(ص) وهو جالس فى المسجد عند الكعبة، وفى يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه أخذ اللّه ببصرها عن رسول اللّه (ص) فلم تره، لكنها قالت: قد بلغنى انه يهجونى، واللّه لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما واللّه إنى لشاعرة، ثم أنشأت تقول:

(مذمماً عصينا) (لو أمرَه أبينا) (ودينه قلينا).

ثم انصرفت.

قال (ص): ما رأتنى، لقد أخذ اللّه ببصرها عنّى.

وقد كانت قريش تسمّى رسول اللّه (ص) مذمّما، يسبّونه به، وكان رسول اللّه (ص) يقول: ألا تعجبون لما يصرف اللّه عنى من أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذمماً، وأنا محمد.

ويل لكلّ هُمَزَة

ومنهم: أُميـة بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمح، كان إذا رأى النبى (ص) همزه ولمزه، فأنزل اللّه فيه: (ويل لكلّ هُمَزة لُمَزة)(۲) إلى آخر السورة.

و(الهُمَزة): الذى يشتم الرجل علانية ويكسر عينه عليه ويغمز به، وجمعه همزات.

و(اللُمَزة): الذى يعيب الناس سرّاً ويؤذيهم.

الكافر بآيات اللّه

ومنهم: العاص بن وائل السهمى، فعن الخبّاب بن الأرتّ صاحب رسول اللّه (ص) انه قال: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل السهمى، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أُعطيك حتى تكفر بمحمد (ص).

فقلت: لا أكفر بمحمد حتى يميتك اللّه ثم يحييك.

قال: إذا أماتنى اللّه ثم بعثنى بعثنى ولى مال وولد، فأنزل اللّه تعالى: (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأُوتينّ مالاً وولداً)(۳) إلى قوله تعالى: (ويأتينا فرداً)(۴).

الإنسان الطاغى

ومنهم: أبو جهل فإنّه سأل قومه يوماً وقال: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟

فقيل: نعم.

فقال: واللات والعُزّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ رقبته ولأُعفرنّ وجهه فى التراب.

قال الراوى: فأتى رسول اللّه (ص) وهو يصلى، فزعم ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه إلاّ وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه.

فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟

قال: انّ بينى وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة.

فقال رسول اللّه (ص): (لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)، فأنزل اللّه فيه: (كلاّ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)(۵).

الأفّاك الأثيم

ومنهم: النضر بن الحارث، فإنه كان إذا جلس رسول اللّه (ص) مجلساً فدعا فيه إلى اللّه تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذّر قريشاً ما أصاب الأُمم الخالية، خلّفه النضر بن الحارث فى مجلسه إذا قام فحدّثهم عن رستم وإسفنديار وملوك فارس ثم يقول: واللّه ما محمد بأحسن حديثاً منّى، وما حديثه إلاّ أساطير الأولين أكتتبها.

فأنزل اللّه فيه: (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملى عليه بكرةً وأصيلاً قل أنزله الذى يعلم السرّ)(۶).

ونزل فيه: (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين)(۷).

ونزل فيه: (ويل لكل أفّاكٍ أثيم يسمع آيات اللّه تتلى عليه)(۸) إلى قوله (فبشّره بعذاب أليم)(۹).

حصب جهنم

ومنهم: ابن الزبعرى، وذلك ان رسول اللّه (ص) جلس يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول اللّه (ص)، فعرض له النضر بن الحارث، فكلّمه رسول اللّه (ص) حتى أفحمه، ثم تلا عليه: (إنّكم وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم أنتم لها واردون)(۱۰).

ثم قام رسول اللّه (ص) وأقبل عبد اللّه بن الزّبعرى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبداللّه بن الزبعرى: واللّه ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصبُ جهنم.

فقال عبد اللّه بن الزبعرى: أما واللّه لو وجدته لخصمته، فاسألوا محمداً أكلّ ما يعبدون من دون اللّه فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود يعبدون عزيراً، والنصارى يعبدون عيسى بن مريم.

فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قوله، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فذكر ذلك لرسول اللّه (ص)، فقال رسول اللّه (ص): كل من أحب أن يعبد من دون اللّه فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم الشياطين بعبادته، فأنزل اللّه عليه: (إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون)(۱۱).

ونزل فى ماذكر من أمر عيسى بن مريم (ع) وأنه يُعبد من دون اللّه: (ولمّا ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون)(۱۲) أى يصيحون فرحاً لزعمهم بأنّ الرسول (ص) قد انقطع به.

ثم ذكر عيسى فقال: (ان هو إلاّ عبد أنعمنا عليه)(۱۳) إلى قوله: (وانه لعلم للساعة فلا تمترنّ بها)(۱۴).

وفى رواية: ان رسول اللّه (ص) قال له: ما أجهلك بلسان قومك، (ما) لما لا يعقل، أى: فلا يشمل الملائكة وعزيراً والمسيح (عليهم السلام).

عظيما القريتين

ومنهم: الوليد بن المغيرة فإنه قال: أينزّل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيّدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف؟ فنحن عظيما مكة والطائف القريتين.

فأنزل اللّه تعالى فى ذلك: (وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربّك)(۱۵).

الظالم وخليله

ومنهم: عقبة بن أبى معيط، وأُبىّ بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمح، كانا متصافيين حسناً ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى

رسول اللّه (ص) وسمع منه. فبلغ ذلك أُبياً، فأتى عقبة فقال له: ألم يبلغنى عنك أنّك جالست محمداً وسمعت منه؟ ثم قال: وجهى من وجهك حرام أن أكلمك واستغلظ من اليمين إن انت جالست محمداً وسمعت منه، أو لم تأته فتتجاسر عليه فى وجهه. ففعل ذلك عقبة، فأنزل اللّه فيهما:

(ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتّخذتُ مع الرسول سبيلاً)(۱۶) إلى قوله: (وكان الشيطان للإنسان خذولاً)(۱۷).

صاحب المثل

ومنهم: أُبىّ بن خلف، فإنّه مشى إلى رسول اللّه (ص) بعظم بال قد أرفت فقال: يا محمد أنت تزعم أن اللّه يبعث هذا بعد ما أرى؟ ثم فته فى يده ثم نفخه فى الريح نحو رسول اللّه (ص).

فقال رسول اللّه (ص): أنا أقول ذلك، فأنزل اللّه فيه:

(وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)(۱۸).

لا للحل الوسط

ومنهم: الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأُبىّ بن خلف، والعاص بن وائل السهمى، وكانوا ذوى أسنان فى قومهم، فاعترضوا رسول اللّه (ص) وهو يطوف بالكعبة فقالوا: يا محمد، هلُم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه. فأنزل اللّه فيهم:

(بسم اللّه الرحمن الرحيم قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين)(۱۹).

طعام الأثيم

ومنهم: أبو جهل بن هشام حيث قال يوماً: يا معشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد؟

قالوا: لا.

قال: عجوة يثرب بالزبد، واللّه لئن استمكنّا منها لنتزقمنها تزقماً، فأنزل اللّه فيه: (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم)(۲۰) أى ليس كما يقول.

مع الملأ من قريش

ومنهم: الملأ من قريش، فإنهم كانوا يستهزئون برسول اللّه (ص) إذا جلس فى المسجد، وجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خبّاب، وعمّار، وأبو فكيهة، ويسار مولى صفوان بن اُميّة، وصهيب، وأشباههم من المسلمين.

وكان بعضهم يقول لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهولاء منّ اللّه عليهم بالهدى من بيننا؟ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصّهم اللّه به؟

وكانوا كلما مرّوا على رسول اللّه (ص) ووجدوا عنده خبّاباً وصهيباً وبلالاً. قالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء عن قومك؟

فانزل اللّه تعالى فيهم: (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم ليس لهم من دونه ولىّ ولا شفيع)(۲۱) إلى قوله: (واللّه أعلم بالظالمين)(۲۲).

وفى رواية قالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء عن قومك؟ أهؤلاء منّ اللّه عليهم بالهدى من بيننا، فنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم،

فذاك أحرى إن طردتهم أن نتبعك، فنزل: (ولا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشى)(۲۳).

اتهامات واهية

ومنهم: جماعة من قريش فانهم لما رأوا رسول اللّه (ص) يمرّ أحياناً عند المروة على مبيعة غلام نصرانى اسمه: (جبر) وكان عبداً لبنى الحضرمى، فيعرض عليه الاسلام، ويدعوه إلى اللّه، كانوا ينتهزونه فرصة لكيل التهم على رسول اللّه (ص) فكانوا يقولون: واللّه ما يعلّم محمداً كثيراً مما يأتى به إلّا (جبر) النصرانى غلام بنى الحضرمى.

فأنزل اللّه فى ذلك: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنّما يعلّمه بشر، لسان الذين يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين)(۲۴) يلحدون أى: يميلون، فإن الإلحاد الميل.

الشماتة بالرسول (ص)

ومنهم: العاص بن وائل السهمى، فانه كان إذا ذكر رسول اللّه (ص) قال: دعوه فانما هو رجل أبتر لا عقب له، لو قد مات لانقطع ذكره واسترحتم منه. فأنزل اللّه فى ذلك: (بسم اللّه الرحمن الرحيم إنّا أعطيناك الكوثر فصلّ لربّك وانحر إنّ شانئك هو الأبتر)(۲۵).

و(الكوثر) الخير الكثير، والمراد من الكوثر: فاطمة الزهراء (ع) بنت رسول اللّه (ص)، حيث كان منها نسل رسول اللّه (ص) إلى يوم القيامة، كما جاء فى بعض الروايات.

وعن أنس قال: سمعت رسول اللّه (ص) وقد قيل له: يا رسول اللّه ما الكوثر الذى أعطاك اللّه؟

قال: نهر كما بين صنعاء إلى أيلة، آنيته كعدد نجوم السماء.

ولا مانع من ان يكون المراد كل ذلك.

مع ركانة

ومنهم: ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف وكان أشد قريش، قيل: انه التقى برسول اللّه (ص) فى بعض شعاب مكة، فقال له رسول اللّه (ص): يا ركانة ألا تتقى اللّه وتقبل ما أدعوك إليه؟

قال: إنى لو أعلم أن الذى تقول حق لاتبعتك.

فقال له رسول اللّه (ص): أفرأيت إن صرعتك تعلم أن ما أقول حق؟

قال: فهلم حتى أصارعك.

فقام اليه ركانة يصارعه، فلما بطش به رسول اللّه (ص) أضجعه لا يملك من نفسه.

ثم قال: عد يا محمد. فأعاد، فصرعه. فقال: والله يا محمد إن هذا للعجب، أتصرعنى؟

قال رسول اللّه (ص): وأعجب من ذلك إن شئت أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمرى.

قال: وما هو؟

قال: أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى.

قال: ادعها.

فدعاها، فأقبلت حتى وقفت بين يدى رسول اللّه (ص). فقال لها: ارجعى إلى مكانك. فرجعت إلى مكانها.

فلما رأى ركانة ذلك ذهب إلى قومه فقال: يا بنى عبد مناف، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فواللّه ما رأيت أسحر منه قط. ثم أخبرهم بالذى رأى والذى صنع.

اصطحاب الملائكة

ومنهم: زمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد يغوث، وأُبيّ بن خلف، والعاص بن وائل، فانهم كانوا كلما عرض رسول اللّه (ص) الإسلام على قومه وكلّمهم فابلغ إليهم، قالوا له: لو جعل معك يا محمد ملك يحدّث عنك الناس ويرى معك؟

فأنزل اللّه فى ذلك: (وقالوا لولا أُنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر)(۲۶) إلى قوله تعالى: (ما يلبسون)(۲۷).

مع الهمّازين

ومنهم: الوليد بن المغيرة وأُميّة بن خلف وأبو جهل بن هشام، فإنهم كانوا كلما مرّ رسول اللّه (ص) بهم غمزوه واستهزءوا به، فأنزل اللّه عليه فى أمرهم: (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون)(۲۸).

أشد من يوم أُحد

ومنهم: ابن عبد ياليل بن عبد كلاب، فانه روى عن إحدى نساء النبى (ص) أنها قالت: قلت للنبى (ص): هل أتى عليك يوم أشد عليك من يوم أُحد؟

فقال (ص): لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلاب فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت على وجهى وأنا مهموم، فلم أرنى إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا بسحابة قد أظلتنى فإذا فيها جبرئيل فنادانى فقال: ان اللّه سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

فنادانى ملك الجبال فسلّم علىّ وقال: ان اللّه قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعثنى إليك لتأمرنى بما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين.

فقلت: أرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً.

رؤوس المستهزئين

لقد عذب اللّه طائفة ممن كذّب رسول اللّه (ص) بأنواع من العذاب كالمستهزئين الذين قال اللّه فيهم: (إنّا كفيناك المستهزئين) فعذب كل واحد منهم بعذاب معروف.

كعتيبة بن أبى لهب. فإن أبا لهب لما عادى النبى (ص) أمر ابنيه أن يطلقا ابنتى النبى (ص) رقية وأُم كلثوم(۲۹)، وقال عتيبة لرسول اللّه (ص): كفرت بدينك وفارقت ابنتك، لا تحبنى ولا أُحبك، ثم تسلط عليه بالأذى وشق قميصه.

ثم إن عتيبة خرج بعد ذلك فى نفر من قريش حتى نزلوا فى مكان من الشام يقال له الزرقاء، ليلاً، فطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: يا ويل أخى، هو واللّه آكلى، فعدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه.

۱ المسد: ۱ ۵. ۲ الهمزة: ۱. ۳ مريم: ۷۷.

۴ مريم: ۸۰. ۵ العلق: ۶ ۷. ۶ الفرقان: ۵ ۶.

۷ القلم: ۱۵. ۸ الجاثية: ۷ ۸. ۹ لقمان: ۷.

۱۰ الأنبياء: ۹۸. ۱۱ الأنبياء: ۱۰۱. ۱۲ الزخرف: ۵۷.

۱۳ الزخرف: ۵۹. ۱۴ الزخرف: ۶۱. ۱۵ الزخرف: ۳۱.

۱۶ الفرقان: ۲۷. ۱۷ الفرقان: ۲۹. ۱۸ يس: ۷۸ ۷۹.

۱۹ الكافرون: ۱ ۶. ۲۰ الدخان: ۴۳ ۴۶. ۲۱ الأنعام: ۵۸.

۲۲ الأنعام: ۵۱. ۲۳ الأنعام: ۵۲. ۲۴ النحل: ۱۰۳.

۲۵ الكوثر: ۱ ۳. ۲۶ الأنعام: ۸. ۲۷ الأنعام: ۹.

۲۸ الأنعام: ۱۰. ۲۹ على بعض الروايات.

وفد قساوسة الحبشة

ومن الوقائع المذكورة: انه قدم على رسول اللّه (ص) وهو بمكة عشرون رجلاً ـ أو قريباً من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه فى المسجد الحرام، فجلسوا إليه فكلموه وسألوه، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة.

فلما فرغوا من مسألة رسول اللّه (ص) عما أرادوا، دعاهم رسول اللّه (ص) وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره.

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش وقال لهم: خيّبكم اللّه من ركب، بعثكم من وراءكم من اهل دينكم ترتادون لهم وتأتونهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم؟

فأجابوه: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً.

فنزل فيهم قوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب من قبل هم به مؤمنون)(۱) إلى قوله سبحانه: (سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين)(۲).

مع شاعر الجاهلية: الأعشى بن قيس

واسم الأعشى ميمون قيل: إنه خرج إلى رسول اللّه (ص) يريد الإسلام، فقال يمدح رسول اللّه (ص) فى قصيدة منها:

وآليت لا أرى لها من كلالة ولا من حفى حتى تلاقى محمداً

متى ما تناخى عند باب ابن هاشم تراحى وتلقى من فواضله ندى

نبى يرى ما لا يرون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

له صدقات ما تغب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غداً

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره، فأخبره أنه جاء يريد رسول اللّه (ص) ليسلم.

فقال له: يا أبا بصير أنه يحرّم الزنا.

فقال الأعشى: واللّه إن ذلك لأمر مالى فيه من أرب.

فقال له: يا أبا بصير فانه يحرم الخمر.

فقال الأعشى: اما هذه فواللّه ان فى النفس منها لعلالات، ولكنى منصرف لأتروى منها عامى هذا. ثم آتيه فأُسلم. فانصرف فمات من عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول اللّه (ص).

رحلة إلى الطائف

ولما اشتد البلاء من قريش على رسول اللّه (ص) بعد موت عمه أبى طالب (ع) كما تقدم وعانى من سفهاء قومه ما عاناه حيث قد تجرأوا عليه وكاشفوه بالأذى ما لم يكاشفوه به من قبل، خرج (ص) إلى الطائف، ورجا أن يؤووه وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم.

فلما وصلها اجتمع (ص) بهم فى ناديهم ودعاهم إلى اللّه، فلم ير فيهم من يجيبه أو يؤويه وينصره، ونالوه مع ذلك بأشد الأذى ونالوا منه ما لم ينل قومه.

وكان معه (ص) زيد بن حارثة مولاه، فأقام بينهم فى الطائف عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلّا جاءه وكلمه.

فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فأخذ هؤلاء السفهاء يرجمون عراقيبه (ص) بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وكان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذونه بعضديه ويقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج فى رأسه شجاجاً، وما زالوا به حتى ألجأوه إلى حائط لابنى ربيعة: عتبة وشيبة، فعمد إلى الظل وانصرف عنه السفهاء، فأخذ (ص) يناجى ربه ويدعوه بالدعاء المأثور:

(اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوّتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، أنت أرحم الراحمين، ورب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى عدوّ بعيد يتجهمنى، أو إلى عدوّ ملّكته أمرى، ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى، غير أن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك، أو يحل علىّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك).

فلما رآه ابنا ربيعة ورأيا ما لقى (ص) من ثقيف تحركت له رحمهما، فبعثا إليه مع غلامهما عدّاس النصرانى قطفاً من عنب، فلما وضع (ص) يده فى القطف قال: بسم اللّه، ثم أكل.

ثم نظر عداس إلى وجهه وقال: واللّه إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة.

فقال له (ص): من أى البلاد أنت، وما دينك؟

قال: نصرانى من أهل نينوى.

قال: من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى؟

قال عداس: وما يدريك؟

قال: ذاك أخى، وهو نبى مثلى.

فأكب عداس على يديه ورأسه يقبلهما.

فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

قال: يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا، فقد أخبرنى ما لا يعلمه إلّا نبى.

قالا: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم إن إبنى ربيعة نهرا رسول اللّه (ص) من ان يستظل بظل بستانهما غيظاً وحنقاً منهما عليه، فخرج رسول اللّه (ص) من الطائف متّجهاً إلى مكة.

فى منزل نخلة

ولما نزل رسول اللّه (ص) بنخلة فى مرجعه من الطائف قام يصلّى فى جوف اللّيل، فصرف اللّه إليه نفراً من الجنّ فاستمعوا قراءته، وكانوا من أهل نصيبين.

فلما فرغ (ص) من الصلاة ولوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا به وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص اللّه خبرهم عليه فقال تعالى: (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن)(۳).

وأقام رسول اللّه (ص) بنخلة أياماً، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعنى قريشاً.

فقال: يا زيد إن اللّه جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن اللّه ناصر دينه ومظهر دينه.

ثم انتهى (ص) إلى مكة، فأرسل على قول رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدى ليقول له: أدخل فى جوارك؟

فقال: نعم. ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت، فإنى قد أجرت محمداً.

فدخل رسول اللّه (ص) ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إنى قد أجرت محمداً، فلا يهيجه منكم أحد. فانتهى رسول اللّه (ص) إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته والمطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل (ص) بيته.

العودة إلى مكة

وفى مكة عاد رسول اللّه (ص) إلى تبليغ رسالات ربّه كما كان عليه من قبل، فكان (ص) يقف بالموسم على القبائل ويتبع الناس فى منازلهم بعكاظ ومجنة وذى المجاز.

وكان (ص) لا يسمع بقادم من العرب له اسم وشرف إلاّ كان يأتيه ويعرض عليهم الاسلام وخلفه أبو لهب فيقول: لا تطيعوه فإنه كذاب، ثم يرميه بالحجارة.

لكن ذلك لم يكن صاداً رسول الله (ص) عن مهمّته ولا كافاً له عن ابلاغ رسالته وانما كان مجداً فى مواصلة طريقه حتى أسلم جماعة كان منهم: (الطفيل بن عمرو الدوسى) فإنه أسلم ودعا قومه إلى الإسلام، فأسلم بعض قومه، فأقام الطفيل فى بلاده إلى أن هاجر بعد عام الخندق هو وجماعة ما بين السبعين والثمانين بيتاً من قومه إلى المدينة فوافوا رسول اللّه (ص) بخيبر.

ثم إن الطفيل كان عند رسول اللّه (ص) بالمدينة حتى قبض اللّه رسوله (ص)، فخرج بعدها مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل فقُتل هو باليمامة، وجرح ابنه جراحةً شديدة، ثم استبسل فيها ثم قُتل عام اليرموك.

۱ القصص: ۵۲. ۲ القصص: ۵۵. ۳ الأحقاف: ۲۹.

رحلة إلى السماء

ومن القضايا التى اتفقت لرسول اللّه (ص) فى مكة: قضية (المعراج) وذلك على ما نطق به القرآن الكريم، فلقد أُسرى به (ص) ليلاً بجسده الشريف وفى حال اليقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو: بيت المقدس، راكباً على مركب أعدّه له جبرائيل بأمر من اللّه تعالى يقال له: البراق.

وذلك بصحبة جبرائيل حيث نزل به بطيبة فى طريقه إلى المسجد الأقصى فصلى فيها رسول اللّه (ص) فقال له جبرائيل: هذه طيبة واليها مهاجرتك، ثم نزل به بطور سيناء، فصلى فيها فقال له جبرائيل: هذه طور سيناء حيث كلّم اللّه موسى تكليماً، ثم نزل به بعد ذلك ببيت لحم فصلى فيها فقال له جبرائيل: هذه بيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم على رواية، ثم انتهى به إلى بيت المقدس فنزل هناك، وربط رسول اللّه (ص) البراق بالحلقة.

ثم التقى (ص) بالأنبياء (عليهم السلام) حيث رآهم قد اجتمعوا إليه هناك، وأُقيمت الصلاة، فأذّن جبرائيل وأقام وقال فيهما: حىّ على خير العمل(۱)، ثمّ أخذ بعضد رسول اللّه (ص) وقدّمه للصلاة، فصلّى (ص) بالأنبياء (عليهم السلام) إماماً.

ثم سرى به فى تلك اللّيلة من بيت المقدس إلى مسجد الكوفة حيث صلّى هناك أيضاً.

ثم عرج منه بصحبة جبرئيل إلى السماوات، فرأى مكتوباً على باب كل سماء، وعلى كلّ حجاب من حجب النور، وعلى كل ركن من أركان العرش: (لا إله إلاّ اللّه، محمّد رسول اللّه، علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين)(۲).

فلمّا بلغ إلى سماء الدنيا استفتح له جبرئيل، ففتح لهما، فرأى هناك آدم (ع) أباالبشر، فسلّم عليه، فرحّب به وردّ عليه السلام، وأقرّ بنبوّته (ص) وولاية على بن أبى طالب (ع)(۳).

ثم عرج به إلى السماء الثانية، فرأى فيها يحيى بن زكريّا وعيسى بن مريم فسلّم عليهما، فردّا عليه، السلام ورحّبا به وأقرّا بنبوّته (ص)

وولايهٔ على بن أبى طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء الثالثهٔ، فرأى فيها يوسف الصدّيق (ع)، فسلّم عليه فرحّب به وأقرّ بنبوّته (ص) وولايهٔ على بن أبى طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء الرابعهٔ، فرأى فيها إدريس (ع)، فسلّم عليه فرحّب به وأقرّ بنبوّته (ص) وولايهٔ علىّ بن أبى طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء الخامسهٔ، فلقى فيها هارون بن عمران (ع) فسلم عليه فرحب به، وأقرّ بنبوّته (ص) وولايهٔ على بن أبى طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء السادسهٔ، فلقى فيها موسى (ع)، فسلم عليه فرحب به وأقرّ بنبوّته وولايهٔ على بن أبى طالب (ع).

ثم عرج به إلى السماء السابعهٔ، فلقى فيها إبراهيم (ع)، فسلّم عليه فرحب به وأقرّ بنبوّته (ص) وولايهٔ على بن أبى طالب (ع).

ثم رفع (ص) إلى البيت المعمور، فحضرت الصلاهٔ، فأذّن جبرائيل وأقام، ثم صلّى (ص) بالنبيّين والملائكهٔ إماماً.

ثم رفع إلى سدرهٔ المنتهى وفيها نودى: استوص بعلى (ع) خيراً فإنه سيّد المسلمين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين يوم القيامهٔ.

ثم رفع إلى حُجُب النور وخلّى عنه جبرائيل.

فقال له (ص): تخلّينى على هذه الحالهٔ؟

فقال: امضه فواللّه لقد وطئت مكاناً ما وطئه أحد قبلك.

ثم رفع (ص) إلى حجاب الجلال، فدنا من ربّه دنوّاً معنوياً، لأنّ اللّه ليس بجسم وليس له مكان، فناجاه ربّه، فكان ممّا ناجاه به: (بك وبعلىّ وبالائمّهٔ من وُلده أرحم عبادى وإمائى، وبالقائم منكم اُعمر أرضى)(... ۴).

ثم على روايهٔ فرض عليه (ص) وعلى اُمّته خمسين صلاهٔ، فرجع حتى مرَّ على إبراهيم (ع)، فلم يقل له شىء فمرّ حتّى أتى موسى (ع).

فقال: بما اُمِرت؟

قال (ص): بخمسين صلاهٔ.

فقال: إنَّ اُمّتك لا يطيقون ذلك، ارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف لاُمّتك.

فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار أن نعم إن شئت. فرجع يسأل ربّه التخفيف على اُمّته، ولم يزل يتردَّد بين موسى وبين ربّه تعالى حتّى جعلها خمس صلوات.

ثم ناداه مناد وهو يقول: فهذه الخمس بخمسين.

هذا، ولا يخفى ان النبى (ص) انما لم يسأل ربه التخفيف، لأنّه (ص) كان لايقترح على ربّه عزّوجل ولا يراجعه فى شىء يأمره به. فلمّا سأله موسى (ع) ذلك وصار شفيعاً لاُمّته إليه، لم يرد شفاعته، فرجع وسأل ربّه التخفيف.

وفيه أيضاً: اظهار لفضل موسى (ع) فقد دعا له أبو عبداللّه (ع) وقال: (جزى اللّه موسى عن هذه الاُمَّهٔ خيراً).

وفيه أيضاً: اظهار لفضله (ص) وتقرّبه عند اللّه عزّوجل.

المشركون وأنباء الرحلة

فلما أصبح رسول اللّه (ص) فى قومه أخبرهم بمعراجه وبما أراه اللّه من آياته الكبرى واذ يحدثهم بانه اتى بيت المقدس ورجع من ليلته، وان آيهٔ ذلك انه مرّ بعير لأبى سفيان على ماء لبنى فلان وقد اضلّوا جملاً لهم أحمر، وقد همّ القوم فى طلبه.

فاشتد تكذيب القوم له وأذاهم، ومرّ به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزىء هل كان من شىء؟

قال (ص): نعم.

قال: وما هو؟

قال: اُسرى بى الليلهٔ.

قال: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قال: ثم اصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

قال: إن دعوت قومك اتحدثهم بما حدثتنى به؟

قال: نعم.

قال: يا معشر بنى كعب بن لؤى. فانقضت اليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما. فقال: حدّث قومك بما حدثتنى.

فقال رسول اللّه (ص): إنى اُسرى بى الليلة.

قالوا: إلى أين؟

قال: إلى بيت المقدس.

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

قال: نعم.

فمن بين مصعق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً. فقال المطعم بن عدى: كل أمرك قبل اليوم كان تماماً غير قولك هذا، أنا أشهد انك كاذب. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً، تزعم أنك أتيته فى ليلة! واللات والعُزّى لا اُصدّقك.

فقالوا: يا محمد، صف لنا بيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل؟ وفى القوم من سافر إليه.

فذهب (ص) ينعت لهم: بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا، فما زال ينعت لهم.

فقالوا: كم للمسجد من باب؟

فجاء جبرئيل فقال: يا رسول اللّه انظر ههنا، فنظر إلى بيت المقدس وقد انكشف له فأخذ (ص) يعدّ لهم أبوابها باباً باباً.

فقال القوم: أما النعت فواللّه لقد أصاب.

ثم قالوا له: أخبرنا عن عيرنا وعن قدومها، فأخبرهم عنها فى مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وعن البعير الذى يقدمها. وكان الأمر كما قال. فرموه بالسحر ولم يؤمن منهم إلاّ قليل، وهو قول اللّه تبارك وتعالى: (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)(۵).

لا لليأس والخيبة

لقد مرّ أنّ رسول اللّه (ص) أقام بمكة ثلاث سنين من أوّل نبوته يبلّغ رسالات ربه إلى خاصته، ثم أجهر بها فى الرابعة، وأخذ يبلّغ رسالة ربّه إلى الناس كافة وفى كل مكان، وبكل الطرق وذلك مدة عشر سنين، حتى إنه كان فى السنين الأخيرة ليسأل عن القبائل ويأتى فى المواسم منازلها قبيلة قبيلة ويقول: يا أيها الناس، قولوا لا إله إلاّ اللّه تفلحوا، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، وتكونون ملوكاً فاذا متم كنتم ملوكاً فى الجنة.

وأبو لهب وجماعته وراءه يقولون: لا تطيعوه فإنه كذاب. فيردون على رسول اللّه (ص) أقبح ردّ ويؤذونه ويقولون: اُسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك.

فكان ممّن أتاهم رسول اللّه (ص) وبلّغهم رسالات ربه فلم يقبلوها: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة وغسان ومرة وحنيفة وسليم وعبس وبنو نصر وبنو البكاء وكندة وكلب والحارث بن كعب وعُذرة والحضارمة وغيرهم فلم يستجب منهم أحد.

الالتقاء بوفد اليمامة

وذات مرة اقبل رسول اللّه (ص) ومعه على (ع) إلى مجلس من مجالس العرب، فدعاهم إلى دينه فقال أحدهم واسمه مفروق: وإلى م تدعو يا أخا قريش؟

فقال رسول اللّه (ص): (قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألّا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وأياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم اللّه إلاّ بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون)(۶).

قال مفروق: ما هذا من كلام اهل الأرض ولو كان من كلامهم عرفناه ثم قال: وإلى م تدعو أيضاً يا أخا قريش؟

فتلا رسول اللّه (ص): (إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكّرون)(۷).

فقال مفروق: دعوت واللّه يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.

وكأنه أراد أن يشرك فى الكلام هانئ ابن قبيصة فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإنى أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر لوهنٌ فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر.

وكأنه أحب أن يشرك فى الكلام المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة فى تركنا ديننا واتباعنا إياك فى مجلس جلسته الينا ليس له أول ولا آخر، وإنا إنما نزلنا بين صريان اليمامة والسماوة.

فقال رسول اللّه (ص): ما هذان الصريان؟

فقال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور وعذره مقبول، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، لا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثاً وإنى أرى أنّ هذا الأمر مما تكرهه الملوك، فان أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا.

فقال رسول اللّه (ص): ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق، فان دين اللّه لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلّا قليلا حتى يورثكم اللّه ارضهم وديارهم، أتسبّحون اللّه وتقدّسونه؟

فقال النعمان بن شريك: اللّهم لك ذا.

فتلا رسول اللّه (ص): (يا أيها النبى إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى اللّه بإذنه وسراجاً منيراً) ثم نهض النبى فأخذ بيدى على (ع) ينهضه وقال: إنها أخلاق فى الجاهلية ما أشرفها، بها يدفع اللّه بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم.

مع رهط من الخزرج

وفى السنة الحادية عشرة من البعثة النبويّة الشريفة خرج رسول اللّه (ص) على ما دأب عليه إلى الموسم فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل مرة، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد اللّه بهم خيراً، فلما لقيهم رسول اللّه (ص) قال: من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: أمن موالى اليهود؟

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أُكلمكم؟

قالوا: بلى. فجلسوا معه، فبلّغهم رسالات اللّه، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع اللّه به فى الإسلام أن يهوداً كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: ان نبياً مبعوث الآن قد أظلّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول اللّه (ص) أولئك النفر ودعاهم إلى اللّه قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون واللّه أنه النبى الذى توعّدكم به اليهود، فلا يسبقنكم اليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا: إنّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم، فعسى اللّه أن يجمعهم بك، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم اللّه عليك فلا رجل أعز منك. وكان هؤلاء ستة نفر من الخزرج.

فقال لهم النبى (ص): أتمنعون ظهرى حتى أُبلّغ رسالة ربى؟

فقالوا: يا رسول اللّه إنما كانت بعاث عام الهول يوم من أيامنا اقتتلنا به، فان تقدم ونحن كذا لا يكون عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعل اللّه يصلح ذات بيننا وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعسى اللّه أن يجمعهم عليك، فان جمعهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك، وموعدك الموسم العام القابل، وانصرفوا إلى المدينة.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا رسول اللّه (ص)، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الانصار إلّا وفيها ذكر من رسول اللّه (ص).

العقبة الأولى وبيعتها

ولما كان العام المقبل أى: فى سنة اثنتى عشرة من البعثة النبوية وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، وكان من بينهم: أسعد بن زرارة، وعبادة بن الصامت، فلقوا رسول اللّه (ص) عند العقبة الأولى، فبايعوه على القرار التالى:

قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول اللّه (ص) على أن لا نشرك باللّه شيئاً، ولا نسرق ولا نزنى، ولا نقتل اولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بيد أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف.

فقال لنا رسول اللّه (ص): ان وفيتم فلكم الجنة، وان غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى اللّه عز وجلّ إن شاء عذّب وإن شاء عفا وغفر.

ثم انصرفوا.

وبعث (ص) معهم مصعب بن عمير يصلّى بهم، ويفقههم، ويعلمهم القرآن، وكان بينهم بالمدينة يسمّى بالمقرئ، فأسلم على يديه جمع كثير، حتى لم يبق دار فى المدينة إلّا وفيها رجال ونساء مسلمون الّا ما شذّ وندر.

العقبة الثانية وبيعتها

ثم رجع مصعب إلى مكة فى العام المقبل ووافى فى الموسم ذلك العام، أى بسنة ثلاث عشرة من البعثة النبوية خلق كثير من الأنصار من المسلمين والمشركين، وزعيم القوم البراء بن معرور، فلما كانت ليلة العقبة وقد مضى الثلث الأول من الليل تسلل إلى رسول اللّه (ص) منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وأمرأتان: نسيبة بنت كعب إحدى نساء بنى مازن بن النجار، وأسماء ابنة عمرو ابن عدى أُم منيع إحدى نساء بنى سلمة.

قال: فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول اللّه (ص)، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلّا أنه أحب أن

يحضر أمر أبن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال:

يا معشر الخزرج! وكانت العرب يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها إن محمداً منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا، وهو فى عزٍّ من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلّا الانحياز اليكم واللحوق بكم، فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعونه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه، فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده.

فقالوا له: سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول اللّه فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلّم رسول اللّه (ص) وقال: ابايعكم على الإسلام.

فقال له بعضهم: نريد ان تعرفنا يا رسول اللّه ما للّه علينا، وما لك علينا؟ وما لنا على اللّه؟

فقال (ص): أما ما للّه عليكم: فان تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأما مالى عليكم: فتنصرونني مثل ما تنصرون ابناءكم ونساءكم، وان تصبروا على عضّ السيوف وان يقتل خياركم.

قالوا: فاذا فعلنا ذلك ما لنا على اللّه؟

قال: اما فى الدنيا فالظهور على من عاداكم، وفى الآخرة رضوانه والجنة.

فأخذ البراء بن معرور بيده (ص) ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول اللّه، فنحن واللّه أهل الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر.

فاعترض القوم والبراء يكلم رسول اللّه (ص) أبو الهيثم بن التيهان فقال: يارسول اللّه، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، ونحن قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللّه أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم رسول اللّه (ص)، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. وفى حديث آخر قال: المحيى محياكم والممات مماتكم.

ثم قال رسول اللّه (ص): أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً حتى يكونوا كفلاء على قومهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ارجعوا إلى رجالكم.

قال الراوى: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تسترجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وانه واللّه ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

قال: فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون باللّه ما كان من هذا شىء وما علمناه.

قال: وصدقوا، لم يعلموا. وبعضنا ينظر إلى بعض.

إبليس وبيعة العقبة

وفى حديث آخر: انه لما اجتمع الانصار فى العقبة الثانية وبايعوا رسول اللّه (ص) على أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم، ويمنعوا أهله مما يمنعون أهاليهم وأولادهم، وأخرجوا إليه منهم اثنى عشر نقيباً ليكونوا شهداء عليهم بذلك، صاح ابليس: يا معشر قريش والعرب! هذا محمدٌ والصباة من أهل يثرب على جمرة العقبة يبايعونه على حربكم، فأسمع أهل منى، وهاجت قريش، فاقبلوا بالسلاح.

وسمع رسول اللّه (ص) النداء فقال للانصار: تفرقوا.

فقالوا: يا رسول اللّه إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا فعلنا.

فقال رسول اللّه (ص): لم اؤمر بذلك، ولم يأذن اللّه لى فى محاربتهم.

قالوا: فتخرج معنا؟

قال: انتظر أمر اللّه.

فجاءت قريش على بكرة ابيها قد اخذوا السلاح، وخرج حمزة وعلى (ع) ومعهما السيف فوقفا على العقبة. فلما نظرت قريش اليهما قالوا: ما هذا الذى اجتمعتم له؟

فقال حمزة: ما اجتمعنا وما ههنا احد، واللّه لا يجوز هذه العقبة أحد الّا ضربته بسيفى هذا، فرجعوا إلى مكة وقالوا: لا نأمن ان يفسد أمرنا ويدخل واحد من مشايخ قريش فى دين محمد.

بيعة العقبة على لسان جابر

وعن جابر: ان النبى (ص) لبث عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم فى المواسم وبذى المجاز ومجنّة وعكاظ وفى منازلهم من منى ويقول: (من يؤوينى ومن ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة) فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه، حتى أن الرجل ليرتحل من مصر واليمن إلى ذوى رحمه فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لايفتنّك.

وكان (ص) يمشى بين رجالهم يعرض عليهم رسالات اللّه، وهم يشيرون اليه بالأصابع.

قال الراوى: انه كان كذلك حتى بعثنا اللّه من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به يقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون باسلامه، وحتى لم تبق دار من دور الأنصار إلّا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، وبعثنا اللّه إليه فائتمرنا فيما بيننا وأجمعنا على نصرته (ص) فرحلنا ونحن أكثر من سبعين نفراً حتى قدمنا عليه (ص) فى الموسم، فواعدناه بيعة العقبة، فقال له عمّه العباس: يا ابن أخى، ما أدرى ما هؤلاء القوم الذين جاءوك، إنى ذو معرفة بأهل يثرب.

فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر العباس فى وجوهنا قال: هؤلاء القوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداث. فقلنا: يارسول الله، على ما نبايعك؟

قال (ص): (على السمع والطاعة فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى أن تقوموا فى اللّه لا تأخذكم فى اللّه لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة).

فقمنا نبايعه (ص)، فأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغرنا وقال: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلّا ونحن نعلم أنه رسول اللّه، وان إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وان تعضكم السيوف، فإمّا أنتم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على اللّه، وإمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذركم عند اللّه.

فقالوا: يا ابن زرارة امط عنا يدك، فواللّه لا نترك هذه البيعة ولا نستقيلها.

فقمنا إليه (ص) رجلًا رجلًا فأخذ علينا البيعة يعطينا بذلك الجنة. ثم انصرفوا إلى المدينة.

اسلام عمرو بن الجموح

فلما قدم الانصار إلى المدينة، اظهروا الاسلام بها، وكان فى قومهم بقايا من شيوخ على دينهم من الشرك، منهم: عمرو بن الجموح، وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة وبايع رسول اللّه (ص) وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بنى سلمة وشريفاً من اشرافهم، وكان قد اتخذ فى داره صنماً من خشب يقال له: (مناة) كما كانت الاشراف يصنعون، يتخذه إلهاً يعظمه ويظهره.

فلما أسلم فتيان بنى سلمة معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو فى فتيان منهم ممن اسلم وشهد العقبة، كانوا يدلجون بالليل على صنم

عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة وفيها فضلات الناس منكساً على رأسه، فإذا اصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟

قال الراوى: ثم يعود ويلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينّه.

فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه فعملوا به مثل ذلك، فيغدوا فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك.

فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال: إنى واللّه ما أعلم من صنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عدوا عليه وأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها فضلات وقذارات الناس.

ثم غدا عليه عمرو فلم يجده فى مكانه الذى كان فيه، فخرج يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكساً مقروناً بكلب. فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه، فأسلم وحسن إسلامه، وأشترك مع رسول اللّه (ص) فى غزوة احد فرزقه اللّه الشهادة فيها فمات شهيداً.

۱ راجع بحار الأنوار: ۱۰ / ۱۶۲ ب ۱۲ ح ۱۳ ط بيروت.

۲ راجع بحار الأنوار: ۱۱ / ۱۶۵ ب ۳ ح ۹ ط بيروت.

۳ كنز الفوائد: ۲ / ۱۳۹ ط قم، ۱۴۱۰ ه وفيه: (عن النبى (ص): ليلة أسرى بى إلى السماء أوحى الله عز وجل إلىّ أن سل من أرسل من قبلك من رسلنا على ما بعثوا؟ فقلت لهم: على ما بعثتم؟ فقالوا: على نبوّتك وولاية على بن أبى طالب والأئمة منكما).

۴ راجع أمالى الصدوق: ۵۰۴ ح ۴ المجلس ۹۲ وفيه: (بك وبه وبالأئمة من ولده.. وبالقائم..).

۵ يونس: ۱۰۱. ۶ الأنعام: ۱۵۱. ۷ النحل: ۹۰.

قرار الهجرة

ثم أمر رسول اللّه (ص) أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال (ص): إن اللّه قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها.

فخرجوا ارسالاً، وأقام رسول اللّه (ص) ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول اللّه (ص) من قريش من بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد وأسمه عبد اللّه، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قد قدم على رسول اللّه (ص) من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً، وحبست عنه أمرأته أم سلمة.

ثم كان أول من قدمها بعد أبى سلمة: عامر بن ربيعة ومعه أمرأته ليلى بنت أبى خيثمة.

ثم عبد اللّه بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، احتمل بأهله وبأخيه، وكانت أُمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم، فغلقت دار بنى جحش هجرة، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل ابن هشام وهم مصعدون إلى مكة، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستدركها النكباء والحوب

كل امرئ بلقاء الموت مرتهن كأنه غرض للموت منصوب

وكان بنو غنم بن دودان أهل اسلام، وقد أوعبوا إلى المدينة مع رسول اللّه (ص) رجالهم ونساؤهم.

فمن رجالهم: عبد اللّه بن جحش، وأخوه، وعكاشة بن محصن، وشجاع، وعتبة بن وهب، وأربد بن جبيرة، ومنقذ بن نباتة، وسعيد بن

قيس، ومحرز بن نضلة، ويزيد بن رقيش، وقيس بن جابر، وعمرو بن محصن، ومالك بن عمرو، وصفوان بن عمرو، وغيرهم.

ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وأُم حبيبة بنت جحش، وحمنة بنت جحش وجذامة بنت جندل، وأُم قيس بنت محصن، وأُم حبيب بنت ثمامة، وآمنة بنت ثمامة،

وقال بن جحش فى ذلك شعراً:

لنحن الأُلى كنا بها ثم لم نزل بمكة حتى عاد غثاً سمينها

بها خيمت غنم بن دودان وابتنت وما أن غدت عنم وخف قطينها

إلى اللّه تغدو بين مثنى وواحد ودين رسول اللّه بالحق دينها

ثم تتابع المهاجرون فنزل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو مرثد كناز بن حصين وابنه مرثد الغنويان حليفا حمزة بن عبد المطلب على كلثوم بن هدم بقباء، وقيل: بل نزلوا على سعد بن خيثمة وقيل: بل نزل حمزة على أسعد بن زرارة أخى بنى النجار، ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وأخواه الطفيل والحصين ابنا الحارث على عبداللّه بن مسلمة ونزل مصعب بن عمير على سعد بن معاذ وهكذا.

القرار الأخير

فلما رأت قريش أن رسول اللّه (ص) صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم وقد ساقوا الذرارى والاطفال والأموال إلى الأوس والخزرج فعرفوا أن الدار دار منعة، وأن القوم أهل حلقة وبأس وشوكة، فخافوا خروج رسول اللّه (ص) إليهم ولحوقه بهم، فاجتمعوا فى دار الندوة، ولم يتخلف أحد من ذوى الرأى والحجى منهم ليتشاوروا فى أمره.

فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ كبير طاعن فى السن عليه بت له، فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟

قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً.

قالوا: أجل فادخل.

فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش، فقال بعضهم لبعض: ان هذا الرجل(۱) قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنّا واللّه لا نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. فتشاوروا.

ثم قال قائل منهم: احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله: زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدى: لا واللّه ما هذا لكم برأى، واللّه لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثرونكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأى، فانظروا فى غيره.

فتشاوروا فى أمره ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فواللّه ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدى: لا ـ واللّه ما هذا لكم برأى، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به؟ واللّه لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم اليكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل: واللّه إن لى فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟

قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه. فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبدمناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم.

قال الشيخ النجدى: القول ما قال الرجل، هذا الرأى لا رأى غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

جبرئيل وإفشاء المؤامرة

فأتى جبرئيل رسول اللّه (ص)، فتلا هذه الآية: (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر اللّه واللّه خير الماكرين)(۲) ثم قال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه وأمره بالهجرة وان يبيت علياً (ع) مكانه.

فدعا رسول اللّه (ص) علياً (ع) لوقته وقال له: يا على ان جبرائيل هبط علىّ بهذه الآية آنفاً، يخبرنى إن قريشاً اجتمعت على المكر بى وقتلى، وانه أوحى إلىّ عن ربى عز وجل ان أهجر دار قومى وان انطلق إلى غار ثور تحت ليلتى، وانه أمرنى أن آمرك بالمبيت على مضجعى تفدينى بنفسك، وتخفى عليهم أمرى، فما أنت قائل و صانع؟

قال على (ع): أو تسلمنّ بمبيتى هناك يا نبى اللّه؟

قال: نعم، فتبسّم على (ع) ضاحكاً وأهوى إلى الأرض ساجداً شكراً للّه على ذلك، فلما رفع رأسه قال له: يا نبى اللّه امض لما أُمرت، فداك سمعى وبصرى وسويداء قلبى، ومرنى بما شئت اكن فيه لمسرتك، واقع منه بحيث مرادك، وما توفيقى الاّ باللّه.

فشكره رسول اللّه (ص) على ذلك وقال له: فارقد على فراشى واشتمل ببردى الحضرمى.

ليلة المبيت

لما أنام رسول اللّه (ص) علياً (ع) على فراشه وعزم على الخروج التفت إليه يودّعه وهو يقول: أخبرك يا على ان اللّه تعالى يمتحن أولياءه على قدر ايمانهم ومنازلهم من دينه، فأشدّ الناس بلاءاً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وقد امتحنك يابن العم وامتحننى فيك بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم (ع) والذبيح إسماعيل(ع)، فصبراً صبراً، فإنّ رحمة اللّه قريب من المحسنين.

ثم ضمّه النبى (ص) إلى صدره وبكى وجداً به، وبكى على (ع) جشعاً لفراق رسول اللّه (ص) ثم أوصاه بوصاياه وأمره فى ذلك بالصبر حتى صلّى العشائين ثم خرج (ص) فى فحمة العشاء الآخرة، والرصد من قريش قد أطافوا بداره.

القرآن ومبيت على (ع)

نام على (ع) على فراش رسول اللّه (ص) موطّناً نفسه على القتل، فأوحى اللّه تعالى إلى جبرئيل وميكائيل: انى آخيتُ بينكما وجعلتُ عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بحياته؟ فاختار كل منهما الحياة وأحبّاها.

فأوحى اللّه عزّوجل إليهما: أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب (ع) آخيتُ بينه وبين محمد (ص) فبات على فراشه يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فكان جبرئيل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وجبرئيل ينادى: بخّ بخّ، من مثلك يابن أبى طالب؟ يباهى اللّه بك الملائكة، فأنزل اللّه عزّ وجل: (ومن الناس من يشرى نفسَه ابتغاء مرضات اللّه واللّه رؤوف بالعباد)(۳).

ليلة الهجرة

أطاف المشركون بدار رسول اللّه (ص) وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: انّ محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم فجُعِلَت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان لكم منه الذبح، ثم بُعثتم

من بعد موتكم فجُعِلت لكم نار تحرقون فيها.

فخرج رسول اللّه (ص) فى هذه الحال وقد أخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال: نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، وأخذ اللّه على أبصارهم عنه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو (ص) يتلو هذه الآيات من سورة يس: (بسم اللّه الرحمن الرحيم يس* والقرآن الحكيم* إنّك لمن المرسلين)(۴) إلى قوله تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لايبصرون)(۵) حتّى فرغ من الآيات، فلم يبق منهم رجل إلّا وقد وضع على رأسه التراب، ثم انصرف (ص) إلى حيث أراد أن يذهب.

وعلى رواية: أتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا؟

قالوا: محمّداً.

قال: خيّبكم اللّه، قد واللّه خرج عليكم محمّد، ثم ما ترك منكم رجلًا إلّا وقد وضع على رأسه التراب، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟!

قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب.

ثم جعلوا يطّلعون فيرون علياً (ع) على الفراش متسجياً ببرد رسول اللّه (ص)، فيقولون: واللّه إنّ هذا لمحمّد نائم عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. فقام علىّ (ع) من الفراش. فقالوا: واللّه لقد كان صدقنا الذى كان حدّثنا به.

فقال لهم على (ع): ما شأنكم؟

قالوا: أين محمّد؟

قال: أجعلتمونى عليه رقيباً؟! ألستم قلتم: نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم.

فأقبلوا على أبى لهب الذى كان يمنعهم عن مداهمة البيت ليلًا يلومونه ويقولون له: أنت تخدعنا منذ الليلة، ثم تفرَّقوا فى طلبه.

وكان رسول اللّه (ص) يمشى تلك الليلة على أطراف قدميه كى يخفى اثره حتى حفيت قدماه، ورأى (ص) فى طريقه أبابكر فاصطحبه وذلك لعلل مذكورة فى المفصّلات.

تاريخ الهجرة

وكانت الليلة التى خرج فيها رسول اللّه (ص) مهاجراً من مكة ليلة الخميس أول ليلة من شهر ربيع الأول بعد أن انقضت مدّة ثلاث عشرة سنة من مبعثه الشريف، وفيها كان مبيت على (ع) على فراشه، وكان خروجه من غار ثور ليلة الرابع من شهر ربيع الأول، حيث توجّه فيها إلى المدينة، ووصلها يوم الإثنين فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول أى: بعد اثنتى عشرة ليلة خلت منه، فنزل بقبا ينتظر قدوم على (ع) عليه، فقد أمره النبى (ص) بعد المبيت على فراشه أن يبقى فى مكة حتى يؤدّى الودائع والأمانات التى كانت للناس عنده، ثم يحمل الفاطميّات معه ويلتحق بالنبى (ص)، وهكذا فعل على (ع).

فعن أبى رافع انه قال: كان على (ع) يجهّز النبى (ص) حين كان فى الغار يأتيه بالطعام والشراب، وخلّفه النبى (ص) ليخرج إليه أهله فأخرجهم، وأمره أن يؤدى عنه أماناته ووصاياه وما كان بمؤتمن عليه من مال، وأن يقضى عنه ديونه وينجز عداته، فلما أداها قام على الكعبة فنادى برفيع صوته: (يا أيها الناس هل من صاحب أمانة؟ هل من صاحب وصيّة؟ هل من عِدة له قِبَل رسول اللّه (ص)؟) فلما لم يأت أحد لحق بالنبى (ص).

المشركون يطلبون الرسول (ص)

ولما فوجئ المشركون بمغادرة الرسول (ص) داره، وانّ النائم فى فراشه هو على بن أبى طالب (ع) أذكوا عليه العيون، وركبوا فى طلبه الصعب والذلول.

وخرجوا يقتصون أثره، وأخذوا معهم القافة حتى وصلوا إلى الغار، وكان اللّه تعالى قد أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وباضتا فى أسفل النقب، فكان ذلك مما صد المشركين عنه، فلما أتوا الغار طارت الحمامتان ورأوا البيض ونسج العنكبوت فقالوا: لو دخل هاهنا لتكسر البيض ولم يكن عليه نسج العناكب، فصرفهم اللّه عزّ وجل بذلك عنه.

الجائزة لمن جاء بالرسول (ص)

ولما يئس المشركون من الظفر برسول اللّه (ص) جعلوا لمن جاء به ديـة كاملة أى: مائة من الإبل جائزة لذلك، فجدّ الناس فى الطلب (واللّه غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون).

وكان ممّن جدّ فى طلبه سراقة بن مالك بن جعشم حيث يقول:

جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول اللّه (ص) ديـة كاملـة لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى من بنى مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتّى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة إنى قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، لكنى أردتُ الحصول على الجائزة لوحدى.

فقلت: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا.

ثم لبثت فى المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرتُ جاريتى أن تخرج بفرسـى من وراء أكمة فتحبسها علىَّ، فأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسى فركبتها، فدفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم.

فلما رآنى رسول اللّه (ص) أقترب منهم، رفع يديه نحو السماء وقال: (اللّهمّ اكفنى شرّ سراقة بما شئت).

فساخت قوائم فرسـى، فثنيت رجلى ثم اشـتددت وقلت: يا محمـد انى علمت ان الذى أصاب قوائم فرسـى انما هو من قِبلك، فادع اللّه أن يطلق لى فرسى، فلعمرى ان لم يصبكم خير منّى لم يصبكم منّى شرّ.

فـدعا رسول اللّه (ص) فـأطلق اللّه عزّوجـل فرسه، فعاد فى طلب رسول اللّه(ص) حتّى فعل ذلك ثلاث مرّات، كل ذلك يـدعو رسول اللّه (ص) فتأخذ الأرض قوائم فرسه.

فلما أطلقه اللّه فى الثالثة قال: يا محمد هذه ابلى بين يديك فيها غلامى، وان احتجت إلى ظهر أو لبن فخذ منه، وهذا سـهم من كنانتى علامة عليه، وأنا ارجع فأردّ عنك الطلب.

فقال (ص): لاحاجة لنا فيما عندك.

قـال الرجـل: ووقع فى نفسـى حين لقيت مـا لقيت من الحبس عنهم ان سـيظهر أمر رسول اللّه (ص)، فسـألته أن يكتب لى كتاب أمن، وكان الكتاب معه إلى يوم فتح مكّة، فجاء بالكتاب فوفى له رسول اللّه (ص) وكان يوم وفاء وبرّ.

مع بريدة الأسلمى

وممّن جـدّ فى طلب الرسول (ص) بريـدة بن الحصـيب الأسـلمى، فقـد ركب فى سـبعين راكباً من أهله من بنى سـهم يطلبه، فالتقى به فبادره الرسول (ص) قائلًا: من أنت؟

قال: أنا بريدة.

فقال (ص): برد أمرنا وصلح.

ثم قال (ص): وممّن أنت؟

قال: من أسلم.

فقال (ص): سلمنا.

ثم قال (ص): ممّن؟

قال: من بنى سهم.

وهنا التفت إليه النبى (ص) وقال له: خرج سهمك.

فأعجب بريدة تفاؤل الرجل وحسن أخلاقه وأحبّه فى قلبه، وتلهّف للتعرّف عليه فقال له: ومن أنت؟

فقال (ص): أنا محمد بن عبداللّه رسول اللّه.

فلم يتريَّث بريدة لما سمع ذلك حتّى قال: (أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأشهد أنَّ محمّداً رسول اللّه) فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً.

فقال (ص): الحمد للّه لقد أسلمت بنو سهم طائعين غير مكرهين.

عند اُم معبد

ثم مضى رسول اللّه (ص) فيمن معه فمروا بخيمة اُم معبد الخزاعية، وكانت امرأة جلدة برزة تحتبى بفناء الخيمة ثم تطعم وتسقى من مر بها، فسألها (ص): هل عندها شيء يشترونه؟

فقالت: واللّه لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى، والشاء عازب، وكانت سنة شهباء.

فنظر رسول اللّه (ص) إلى شاة فى كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا اُم معبد؟

فقالت: هذه شاة خلّفها الجهد عن الغنم.

فقال (ص): هل بها من لبن؟

قالت: هى أجهد من ذلك.

قال (ص): أفتأذنين لى أن أحلبها.

قالت: نعم، بأبى واُمّى، إن رأيت بها حليباً فاحلبها.

فدعا رسول اللّه (ص) بالشاة فمسح بيده ضرعها وذكر اسم اللّه وقال: اللّهمّ بارك لها فى شاتها، فتفاجّت عليه ودرّت واجترّت، فدعا بإناء لها يُربض الرهط فحلب فيه ثجاً حتى علته الرغوة، فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب (ص) آخرهم، فشربوا جميعاً عللاً بعد نهل، ثم حلب فيه ثانياً حتى ملأ الإناء.

فلما رأت اُمّ معبد ذلك قالت: إنّ لى ولداً له سبع سنين وهو كقطعة لحم لا يتكلّم ولا يقوم، فأتته به، فأخذ (ص) تمرة وقد بقيت فى الوعاء ومضغها وجعلها فى فيه، فنهض فى الحال، ومشى وتكلّم، وجعل نواها فى الأرض فصارت فى الحال نخلة، وقد تهدّل الرطب منها، وكان كذلك صيفاً وشتاءاً، وأشار من الجوانب فصار ما حَولها مراعى، ثم ارتحلوا عنها.

فقلّما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزالاً. فلما رأى اللبن وما إلى ذلك عجب وقال: من أين لكِ هذا والشاء عازب حيال، ولا حلوبة فى البيت؟!

فقالت: لا واللّه، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك، كان من حديثه كيت وكيت.

قال: واللّه إنى لأراه صاحب قريش الذى تطلبه، صِفيه لى يا اُمّ معبد.

فقالت: رأيتُ رجلاً ظاهر الوضاءة حسن الخلق، أبلج الوجه، لم تعبه ثجلة ويروى نحلة بالنون والحاء ولم تزر به صعلة، كأن عنقه ابريق فضّة، وسيم جسيم، فى عينيه دعج، وفى أشفاره وطف، وفى صوته صحل، أحور أكحل أزج أقرن شديد سواد الشعر، فى عنقه سطع، وفى لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلّم سما به وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم ينحدرن، حلو المنطق فصل، لانزر

ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه عين من طول ولا تقتحمه من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفنّد.

فقال: هذا واللّه صاحب قريش الذى ذكروا لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولو كنت أنا وافقته لالتمست أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، فإنه صادق فى قوله انه رسول اللّه، فليس هذا إلا من فعل اللّه، ثم قصده فآمن هو وأهله.

ويروى: أن الشاة التى لمس رسول اللّه (ص) ضرعها وحلبها بيده بقيت عند أُمّ معبد حتى كان زمن الرمادة فى سنة ثمان عشرة من الهجرة.

قالت أُم معبد: هاجرت وأسلمت، وكنا نحلبها صبوحاً وغبوقاً وما فى الأرض قليل ولا كثير.

انتظار المسلمين للرسول (ص)

وبلغ المسلمين خروج رسول اللّه (ص) من مكة إلى المدينة، فجعلوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينظرون حتى يردّهم حر الظهيرة. فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم ينظر لأمر يريده، فبصر برسول اللّه (ص) وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودى أن نادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، هذا جدكم الذى تنتظرون.

فبادر المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول اللّه (ص) بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين وسار حتى نزل ب (قبا) فى (بنى) عمرو بن عوف) فكبر المسلمون فرحاً بقدومه، وسمعت الوجبة والتكبير فى بنى عمرو بن عوف، فنزل على كلثوم ابن الهدم، وقيل: على سعد بن خيثمة، ب (قبا) وبقى هناك ينتظر قدوم على (ع).

وكان على (ع) قد خرج بالفواطم(۶) بعد أن أدّى ودائع كانت عند رسول اللّه (ص) للناس، وقضى ديونه وأنجز عداته، فلما قدم المدينة رآه النبى (ص) وقد تورّمت قدماه وأصبحتا يقطران دماً، فاعتنقه وبكى رحمة لما به، ثم دعا له (ع) بالعافية، ومسح رجليه فلم يشكهما بعد ذلك.

ثم نزل (ع) مع النبى (ص) بقبا، وبقى رسول اللّه (ص) بعد قدوم على (ع) فى بنى عمرو بن عوف يوماً أو يومين، وفى مدة بقائه بقبا أسّس مسجد قباء، وهو أول مسجد أُسّس على التقوى بعد النبوّة بالمدينة المنوّرة.

أول جمعة بالمدينة

فلما كان يوم الجمعة ركب بأمر اللّه له، فاجتمعت إليه بنو عمرو بن عوف فقالوا: يا رسول اللّه أقم عندنا فإنّا أهل الجدّ والجلد، والحلقة والمنعة.

فقال (ص): خلّوا عنها فإنها مأمورة.

وبلغ الأوس والخزرج خروج رسول اللّه (ص) فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته، لايمرّ بحىّ من أحياء الأنصار إلا وثبوا وأخذوا بزمام ناقته وطلبوا منه النزول عليهم، وهو (ص) يقول لهم: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة.

حتى مرّ (ص) ببنى سالم عند الزوال من يوم الجمعة، فتعرضت له بنو سالم فقالوا: يا رسول اللّه هلم إلينا فإنا أهل الجد والجلد، والحلقة والمنعة، فبركت ناقته عند مسجدهم فنزل فى مسجدهم الذى خطه (ص) لهم ونصب قبلته وصلّى بهم الجمعة وخطبهم، وكان أول مسجد خطب فيه بالجمعة، وصلّى إلى بيت المقدس، وكان الذين صلّوا معه فى ذلك الوقت مائة رجل.

عند أبى أيوب

ثم ركب النبى (ص) ناقته وعلى (ع) معه لايفارقه يمشى بمشيه، فأرخى زمامها لايحركها وهى تنظر يميناً وشمالاً، فلم تزل ناقته سائرة، ولا يمر بدار من دور الأنصار إلّا رغّبوه فى النزول عليهم وأخذوا بخطام راحلته وقالوا: هلم إلى العوذ والعدة والسلاح والمنعة، فكان يجيبهم (ص) بعد التشكّر منهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

فلم تزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع مسجده اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت فى موضعها الأول عند باب أبى أيوب فنزل عنها، ولم يكن آنذاك مسجداً، فجعل الناس يكلمون رسول اللّه (ص) فى النزول عليهم، فبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله فحلّه وأدخله منزله، فجعل رسول اللّه (ص) يقول: (المرء مع رحله).

وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته فحوّلها إلى منزله، فقال النبى (ص): أى بيوت أهلنا أقرب؟

فقال أبو أيوب: أنا يا رسول اللّه، هذه دارى، وهذا بابى.

قال (ص): فانطلق فهى لنا مقيلاً.

قال: قوما على بركة اللّه، فنزل رسول اللّه (ص) وعلى (ع) معه(۷) فى دار أبى أيوب، حتى بُنى له مسجده، وبُنيت له مساكنه ومنزل على (ع)، فتحوّلا إلى منازلهما.

وقيل: انه لما بركت ناقة رسول اللّه (ص) على باب أبى أيوب الأنصارى ولم يكن أفقر منه فى المدينة انقطعت قلوب الناس حسرة على مفارقة النبى (ص) فنادى أبو أيوب: يا أُماه افتحى الباب، فقد قدم سيد البشر، وأكرم ربيعة ومضر، محمد المصطفى، والرسول المجتبى.

فخرجت وفتحت الباب وكانت عمياء فقالت: واحسرتاه ليت كانت لى عين أبصر بها وجه سيّدى رسول اللّه (ص)، فدعا (ص) لها فانفتحت عيناها، وكانت أول معجزة النبى (ص) فى المدينة.

وفى رواية: انه لما أقبل رسول اللّه (ص) إلى المدينة لم يُر الناس فرحوا بشىء مثل فرحهم به، حتى ان النساء والصبيان والإماء كانوا يقولون: هذا رسول اللّه، قد جاء رسول اللّه.

وعن بعضهم انه قال: شهدته (ص) يوم دخل المدينة فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوء من يوم دخل علينا، وشهدته يوم مات فما رأيت يوماً قط كان أقبح ولا أظلم من يوم مات.

المسجد النبوى الشريف

وكان رسول اللّه (ص) يصلّى فى المربد بأصحابه، فقال لأسعد بن زرارة: اشتر هذا المربد من أصحابه، وكان ليتيمين فساوم اليتيمين عليه، فقالا: هو لرسول اللّه. فقال رسول اللّه (ص): لا، إلّا بثمن.

فاشتراه (ص) بعشرة دنانير، وكان فيه ماء مستنقع، فأمر به رسول اللّه (ص) فسيل، وأمر باللبن فضرب، فبناه مسجداً، وبنى منازله ومنازل أصحابه حول المسجد، وخط لعلى بن أبى طالب (ع) ولحمزة (ع) مثل ما خطّ له ولأصحابه، فبنوا فيه منازلهم، وكل منهم شرع منه باباً إلى المسجد، فكانوا يخرجون من منازلهم فيدخلون المسجد.

فنزل عليه جبرئيل (ع) وقال: ان السلام يخصّك بالسلام ويأمرك بسدّ الأبواب إلّا بابك وباب على بن أبى طالب، فإنه يحل له فيه ما يحل لك، فتأثر أصحاب الأبواب من ذلك.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ما أنا أمرتُ بسدّها، ولكن اللّه أمر بسدّ أبوابكم وترك باب على (ع).

فقالوا: رضينا وسلمنا للّه ولرسوله.

بناء المسجد

ولما أمر النبى (ص) ببناء المسجد طفق ينقل معهم اللبن وكان يقول وهو ينقل اللبن:

(هذا الحمال لا حمال خيبر، هذا وربّنا أبرّ وأطهر).

أى: هـذا المحمـول من اللبن أبرّ عنـد اللّه وأطهر يعنى: أبقى ذخراً وأدوم منفعـة من التمر والزبيب والطعـام المحمـول من خيـبر الـذى يغتبطه حاملوه، وكان يقول أيضاً: (اللّهمّ انّ الأجر أجر الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرين).

وأخذ المسلمون يرتجزون وهم يعملون، فقال بعضهم:

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل

والنبى (ص) يقول: (لا عيش إلّا عيش الآخرة، اللّهمّ ارحم الأنصار والمهاجرين).

فدخل عمّار بن ياسر وقد أثقلوه باللبن، فقال: يا رسول اللّه قتلونى، يحملون علىَّ ما لايحملون.

فتبسَّم رسول اللّه (ص) ونفض وفرة عمّار بيـده وكان رجلاً جعـداً وقال له: (ويـح ابن سـميّة، ليسوا بالـذين يقتلونك، انما تقتلك الفئة الباغية).

وارتجز على بن أبى طالب (ع) يومئذ وهو يقول:

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعداً

ومن يرى عن التراب حائداً

وجعلت قبلته إلى بيت المقـدس، وجعل له ثلاثـة أبواب، وقيل: أكثر من ثلاثـة، وجعل طوله مما يلى القبلة إلى مؤخّره مائة ذراع، وفى الجـانبين مثـل ذلك أو دونه، وجعل أساسه قريباً من ثلاثـة أذرع، وجعل عمـده الجـذوع، وسـقّفه بالجريـد، وجعل عضادتيه الحجارة، وقيل له: ألا تسقفه؟ فقال: لا، عريش كعريش موسى، وبنى بيوتاً إلى جنبه باللبن وسقفها بالجريد والجذوع لنفسه ولأصحابه.

وكان فى مؤخر المسجد موضع مظلل يأوى إليه المساكين يسمّى (الصفّة).

وكان النبى (ص) يدعوهم بالليل فيفرقهم على أصحابه، ويتعشى طائفة منهم معه، وأجرى (ص) فى مسجده نهراً.

مغادرة بيت أبى أيوب

ثم انتقـل رسول اللّه (ص) من بيت أبى أيوب إلى مسـاكنه التى بنيت له، وقيل: ان مـدة مقامه فى بيت أبى أيوب بالمدينـة إلى أن بنى المسـجد وبيوته: كان من شـهر ربيع الأول إلى صـفر من السنة الداخلة، واستجمع له إسلام هذا الحى من الأنصار، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، إلا ما شذّ وندر.

۱ أى: الرسول(ص). ۲ الانفال: ۳۰. ۳ البقرة: ۲۰۷.

۴ يس: ۱ ۳. ۵ يس: ۹.

۶ اُمه وبنت رسول الله (ص) وبنت الزبير. ۷ راجع مناقب ابن شهرآشوب: ۱ / ۱۳۱ ط.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

ثم آخى رسول اللّه (ص) بين المهـاجرين والأنصار من أصـحابه، وكانوا تسـعين رجلاً، وقيل: ثلاثمائـة رجل، نصـفهم من المهاجرين، ونصـفهم من الأنصـار، آخى بينهم على الحق والمواسـاة، ويتوارثون بعـد الموت، إلى وقعـة بـدر. فلما أنزل اللّه تعالى: (واُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب اللّه)(۱) ردّ التوارث إلى الرحم دون عقد الاُخوّة.

وقد تمت عملية المؤاخاة مرتين، وفى كل مرة اتّخذ النبى (ص) عليّاً (ع) أخاً لنفسه من دون الناس.

كما انه (ص) آخى بين النساء المهاجرات والأنصار أيضاً.

وروى السبط ابن الجوزى قائلاً: آخى رسول اللّه (ص) بين المهاجرين والأنصار، فبكى على (ع) فقال رسول اللّه (ص): ما يبكيك يا على؟

قال: لم تواخ بينى وبين أحد.

قال: أنا ادّخرتك لنفسى، ثم قال لعلى (ع): أنت منّى بمنزلة هارون من موسى(۲).

ثم قال (ص): يا على أما علمت ان أول من يدعى به يوم القيامة أنا، فأقوم عن يمين العرش، إلى أن قال: ثم أنت أول من يدعى به لقرابتك منّى ومنزلتك عندى، ويدفع إليك لوائى وهو لواء الحمد.

النبى (ص) ونقباء الأنصار

وكان من النقباء الاثنى عشر الذين جعلهم رسول اللّه (ص) شهداء على الأنصار: البراء بن معرور، وكان هو أول من تكلّم ليلة العقبة حين التقى رسول اللّه (ص) بالسبعين من الأنصار فبايعوه، وقد توفّى قبل قدوم رسول اللّه (ص) إلى المدينة بشهر، فلما قدم رسول اللّه (ص) انطلق بأصحابه فصلّى على قبره وقال: (اللّهمّ اغفر له وارحمه وارض عنه وقد فعلت).

وكان البراء هذا هو أول من مات من النقباء، ومات بعده من النقباء الاثنى عشر: أسعد بن زرارة، وذلك قبل أن يفرغ رسول اللّه (ص) من بناء مسجده، ودفن بالبقيع، والأنصار يقولون: هو أول من دفن فيها، والمهاجرون يقولون: أول من دفن فيها هو عثمان بن مضعون.

ولما مات أبو امامة أسعد بن زرارة جاءت بنو النجار إلى رسول اللّه (ص) وكان أبو امامة نقيبهم فقالوا: يا رسول اللّه إنّ هذا الرجل قد كان منّا حيث قد علمت، فاجعل لنا رجلاً مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم.

فقال لهم رسول اللّه (ص): أنا نقيبكم، وكره رسول اللّه (ص) أن يخص بها بعضهم دون بعض، فكان من فضل بنى النجار أن كان رسول اللّه (ص) نقيبهم.

تشريع الأذان

ولما كثر المسلمون ذكروا أن يعلموا وقت الصلاة بشىء، فذكروا: أن يوروا ناراً، أو يضربوا ناقوساً، أو ينفخوا فى بوق، أو يبعثوا من ينادى بالصلاة.

فهبط جبرائيل (ع) على رسول اللّه (ص) بالأذان والإقامة، وعندها أمر رسول اللّه (ص) علياً (ع) أن يدعو له بلالاً، فدعاه فعلمه رسول اللّه (ص) الأذان وأمره به، وكان من فصولهما: (حىَّ على خير العمل).

ثم فى يوم الغدير لمّا نصب النبى (ص) علياً (ع) بأمر من اللّه تعالى خليفة على المسلمين، وأخذ منهم البيعة له بإمرة المؤمنين، زيد فى فصولهما بأمره (ص) بعد الشهادة للّه بالوحدانية وللنبى بالرسالة: الشهادة لعلى (ع) بالولاية.

أبو سفيان: أول من صادر أموال المسلمين

وتلاحق المهاجرون إلى رسول اللّه (ص)، فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس.

وبعث رسول اللّه (ص) وهو بعد فى منزل أبى أيوب: زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكّة، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم ليحملوا إليه بناته اللاتى لم يسلم أزواجهنّ، لنزول القرآن فى حرمتهنّ على أزواجهنّ إلاّ أن يسلموا، وليحملوا إليه زوجته سودة بنت زمعة، وأُسامة بن زيد، وأُمه، وأُم أيمن، فقدما عليه بهنّ وبأُسامة.

وأما زينب بنت رسول اللّه (ص) فقد خرجت فتعرّض لها هبّار فى الطريق بما أسقط جنينها فتمرضت على أثره وفارقت الحياة، فأهدر رسول اللّه (ص) دم هبار على جريمته هذه حيث انه قتل الاُم وجنينها معاً.

نعم لم يستوعب من مكة أهل هجرة بأهليهم وأموالهم إلى اللّه وإلى رسوله إلا أهل دور يسمون بنى مظعون من بنى جُمح وبنو جحش بن رئاب وبنو البكير من بنى سعد بن ليث، فإن دورهم اُغلقت بمكة هجرة.

ولما خرج بنو جحش من دارهم عدا عليها أبوسفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخى بنى عامر بن لؤى.

فلما بلغ بنى جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ذكر ذلك عبداللّه بن جحش لرسول اللّه (ص)، فقال له: أما ترضى يا عبداللّه أن يعطيك اللّه بها داراً فى الجنّة؟

قال: بلى.

قال: فذلك لك.

فلما افتتح رسول اللّه (ص) مكة كلمه ابن جحش فى دارهم فأبطأ عليه رسول اللّه (ص).

فقال له الناس: إنّ رسول اللّه (ص) يكره أن ترجعوا فى شىء من أموالكم اُصيب منكم فى اللّه.

فأمسك عن كلام رسول اللّه (ص)، وقال:

أبلغ أبا سفيان عن أمر عواقبه ندامه

دار ابن عمك بعتها تقضى بها عنك الغرامه

وحليفكم باللّه رب الناس مجتهد القسامه

اذهب بها، اذهب بها طُوِّقتها طوق الحمامه

المدينة ودعاء الرسول (ص)

كان هواء المدينة وخماً وعفناً، وكانت المدينة من أوبأ أرض اللّه من الحمّى، وكانت مشهورة بالوباء فى الجاهلية، ومن أجلها كانت تدعى باسم يثرب، فإذا دخلها غريب تمرض، فاستوخم المهاجرون هواء المدينة ولم يوافق مزاجهم، فمرض كثير منهم وضعفوا حتى لم يقدروا على الصلاة قياماً، وكرهوا المدينة، فقال رسول اللّه (ص) وهو يدعو ربّه: (اللّهمّ حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكّة أو أشدّ، وبارك لنا فى مدّها وصاعها، وانقل وباءها وحماها عنا) ثم سماها طيبة، فسمّيت بها واشتهرت بمدينة الرسول (ص).

على (ع) يخطب فاطمة (ع)

ولما انتقل رسول اللّه (ص) من بيت أبى أيوب إلى منازله كانت ابنته فاطمة(ع) عنده، فخطبها أكابر قريش من أهل الفضل والسابقة فى الإسلام والشرف والمال، كما خطبها بعض الصحابة، وكان كلما ذكرها له أحدهم أعرض عنه رسول اللّه (ص) بوجهه، حتى كان الرجل منهم يظن ان رسول اللّه (ص) ساخط عليه.

فقيل لعلى (ع): لم لا تخطب فاطمة؟ فواللّه ما نرى رسول اللّه (ص) يحبسها إلاّ عليك.

فأقبل على (ع) إلى النبى (ص) خاطباً وهو فى دار اُم سلمة، وقبل أن يصل على (ع) إلى الدار هبط جبرئيل على النبى (ص) وأخبره بمجيء على (ع).

فلما طرق الباب قال النبى (ص) لاُم سلمة: افتحى له الباب ومريه بالدخول، فهذا رجل يحبّه اللّه ورسوله ويحبّهما، فدخل فإذا هو على (ع)، فسلّم على النبى (ص) وجلس مطرقاً برأسه حياءاً.

فقال له النبى (ص): أنى أرى انك أتيت لحاجة؟

فقال على (ع): فداك أبى وأُمى يا رسول اللّه، انك لتعلم انك أخذتنى من عمك أبى طالب ومن فاطمة بنت أسد، وأنا صبيّ، فغذّيتنى بغذائك، وأدّبتنى بأدبك، فكنتَ إليّ أفضل من أبى طالب ومن فاطمة بنت أسد فى البرّ والشفقة، وان اللّه تعالى هدانى بك وعلى يديك، وأنت واللّه يا رسول اللّه ذخرى وذخيرتى فى الدنيا والآخرة، يا رسول اللّه، فقد أحببت مع ما شدّ اللّه من عضدى بك أن يكون لى بيت، وأن يكون لى زوجة أسكن إليها، وقد أتيتك خاطباً راغباً، أخطب إليك ابنتك فاطمة، فهل أنت مزوّجى يا رسول اللّه؟ ثم سكت وأطرق برأسه ينتظر جواب رسول اللّه (ص).

صداق الزواج

ولما خطب على (ع) فاطمة(ع) من أبيها رسول اللّه (ص) تهلّل وجه رسول اللّه (ص) فرحاً وسروراً وقال له: فهل معك شيء أُزوّجك به؟

فقال على (ع): فداك أبى وأُمى، واللّه ما يخفى عليك من أمرى شيء، أملك سيفى ودرعى وناضحى، ومالى شيء غير هذا.

فقال رسول اللّه (ص): يا على أما سيفك فلا غنى بك عنه تجاهد به فى سبيل اللّه وتقاتل به أعداء اللّه، وناضحك تنضح به على نخلك وأهلك وتحمل عليه رحلك فى سفرك، ولكنى قد زوجتك بالدرع ورضيت بها منك، يا على أبشر فإن اللّه تعالى قد زوّجكها فى السماء قبل أن أُزوّجك فى الأرض.

ابداء الرضا

ثم قال رسول اللّه (ص) لعلى (ع): يا على انه قد ذكر فاطمة رجال قبلك، فذكرتُ ذلك لها، فرأيتُ الكراهة فى وجهها، ولكن على رسلك حتى أخرج إليك.

فدخل (ص) عليها فقامت(ع) فأخذت رداء أبيها (ص) ونزعت نعليه، وأتته بالوضوء فوضّئته بيدها، وغسلت رجليه، ثم جلست تنتظر أمره (ص).

فقال (ص) لها: يا فاطمة!

فقالت: لبيك يا أبة يا رسول اللّه ما حاجتك؟

قال: ان على بن أبى طالب من قد عرفت قرابته وفضله وإسلامه، وانى قد سألتُ ربّى أن يزوّجك خير خلقه وأحبّهم إليه وقد ذكر عن أمرك شيئاً، فما ترين؟

فسكتت فاطمة(ع) ولم تولّ وجهها، ولم يرَ فيها رسول اللّه (ص) كراهة، فقام وهو يقول: (اللّه أكبر، سكوتها اقرارها).

إعلان خبر الزواج

ثم قام على (ع) ومضى إلى المسجد، وجاء رسول اللّه (ص) فى أثره، وفى المسجد المهاجرون والأنصار، فصعد رسول اللّه (ص) المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: معاشر المسلمين ان جبرئيل أتانى آنفاً فأخبرنى عن ربّى عزّ وجل انه جمع الملائكة عند البيت المعمور، وانه أشهدهم جميعاً انه زوّج أمته فاطمة بنت رسول اللّه من عبده على بن أبى طالب، وأمرنى أن أُزوّجه فى الأرض وأُشهدكم على ذلك.

ثم جلس وقال لعلى (ع): قم يا أبا الحسن فاخطب أنت لنفسك.

فقام فحمد اللّه وأثنى عليه وصلّى على النبى وآله ثم قال:

(الحمد للّه شكراً لأنعمه وأياديه، ولا إله إلاّ اللّه شهادة تبلغه وترضيه، وصلّى اللّه على محمد صلاة تزلفه وتحظيه، والنكاح مما أمر اللّه

عزوّجل به ورضيه، ومجلسنا هذا مما قضاه اللّه وأذن فيه، وقد زوّجنى رسول اللّه ابنته فاطمة وجعل صداقها درعى هذا وقد رضيت بذلك، فاسألوه واشهدوا).

فقال المسلمون لرسول اللّه (ص): زوّجته يا رسول اللّه؟

فقال (ص): نعم.

فقالوا: بارك اللّه لهما شملهما.

الصداق لمصلحة الزوجين

ثم أقبل رسول اللّه (ص) على على (ع) وقال له: يا على انطلق الآن فبع درعك وأتنى بثمنه حتى أُهيّىء لك ولإبنتى فاطمة ما يصلحكما.

قال على (ع): فانطلقتُ فبعتُ درعى بأربعمائة درهم، وقيل: بأربعمائة وثمانين، وقيل: بخمسمائة درهم(۳) وأقبلتُ بها إلى رسول اللّه (ص) وطرحتها بين يديه، فدعا رسول اللّه (ص) بعض أصحابه ودفع له بعض المال وقال له: اشتر بهذه الدراهم لابنتى ما يصلح لها فى بيتها، فانطلق واشترى:

۱ فراشاً من خيش مصر محشواً بالصوف.

۲ نطعاً من ادم.

۳ وسادة من ادم حشوها من ليف النخل.

۴ عباءة خيبرية.

۵ قربة للماء.

۶ كيزاناً.

۷ جراراً.

۸ مطهرة للماء.

۹ ستراً من صوف.

۱۰ رحى لليد.

فلما وضع ما اشتراه بين يدى رسول اللّه (ص) نظر إليه فبكى وجرت دموعه، ثم رفع يده إلى السماء وقال: (اللّهمّ بارك لقوم جُلّ آنيتهم الخزف).

وهذا الدعاء يشمل من حينه كل زواج يتم ببساطة وسهولة وبلا تشريفات وتعقيدات إلى يوم القيامة، وعلينا إذا أحببنا أن يشملنا هذا الدعاء ويشمل أبناءنا وبناتنا أن نلتزم بذلك ولا نطلب سوى الكفاءة والأهلية من حسن الخلق والتديّن، كما فى الحديث الشريف: (إذا جاءكم من ترضون خُلقه ودينه فزوِّجوه)(۴).

البساطة فى أُمور الزواج

ثم دعى رسول اللّه (ص) علياً (ع) وقال له: هيّىء منزلاً حتى تحوّل فاطمة إليه.

فقال على (ع): يا رسول اللّه ما هاهنا منزل إلا منزل حارثة بن النعمان.

فقال رسول اللّه (ص): واللّه لقد استحيينا من حارثة بن النعمان، فقد أخذنا عامة منازله، فبلغ ذلك حارثة فجاء إلى رسول اللّه (ص) فقال: يا رسول اللّه أنا ومالى للّه ولرسوله، واللّه ما من شىء أحبّ إلىّ مما تأخذه، والذى تأخذه أحبّ إلىّ ممّا تتركه.

فجزّاه رسول اللّه (ص) خيراً.

ثم فرشوا البيت بالرمل، ونصبوا فيه عوداً يوضع عليه القربة، وستروه بكساء، ونصبوا خشبة من الحائط إلى الحائط للثياب، ثم حُوّلت فاطمة(ع) إلى على (ع)، ولها من العمر تسع سنين.

وليمة الزفاف

ثم قال رسول اللّه (ص) لعلى (ع): يا على اصنع لأهلك طعاماً فاضلاً، فجاء الأصحاب بالهدايا، فأمر النبى (ص) بطحن الحنطة، فطحن وخبز، وذبح الكبش، وجيء بتمر وسمن، فلمّا تهيّأ الطعام قال رسول اللّه (ص) لعلى (ع): يا على ادع من أحببت.

قال على (ع): فأتيتُ المسجد وهو غاص بأهله، فناديت: أجيبوا إلى وليمة فاطمة بنت محمد (ص)، فأجابوا وأقبلوا أفواجاً، فأكلوا ورفعوا منها ما أرادوا ولم ينقص من الطعام شيء.

ثم دعا رسول اللّه (ص) الأوانى فملئت ووجه بها إلى منازل أزواجه، ثم أخذ آنية منها وقال: هذه لفاطمة وبعلها (عليهما السلام).

ليلة الزفاف وآدابه

ثم أمر رسول اللّه (ص) فى ليلة الزفاف نساءه وبنات عبدالمطلب ونساء المهاجرين والأنصار أن يصحبن فاطمة(ع) إلى بيت زوجها، وأن يفرحن، ويرتجزن، ويكبّرن، ويحمدن، ولا يقولنّ ما لا يرضى اللّه تعالى.

ولما دخلن الدار أنفذ رسول اللّه (ص) إلى على (ع) ثم دعا فاطمة(ع) فأخذ يدها ووضعها فى يد على (ع) وقال: بارك اللّه فى ابنة رسول اللّه، يا على نعم الزوجة فاطمة، ويا فاطمة نعم الزوج على، ثم قال: يا على هذه فاطمة وديعتى عندك، ثم رفع يديه بالدعاء وقال:

(اللّهمّ اجمع شملهما، وألّف بين قلوبهما، واجعلهما وذرّيتهما من ورثة جنّة النعيم، وارزقهما ذرّية طاهرة طيّبة مباركة، واجعل فى ذرّيتهما البركة، واجعلهم أئمّة يهدون بأمرك إلى طاعتك، ويأمرون بما يرضيك، اللّهمّ انهما أحبّ خلقك إلىّ فأحبّهما واجعل عليهما منك حافظاً، وانى أُعيذهما بك وذرّيتهما من الشيطان الرجيم).

ثم خرج (ص) إلى الباب وهو يقول: طهّركما وطهّر نسلكما، أنا سلم لمن سالمكما، وحرب لمن حاربكما، استودعكما اللّه، وأستخلفه عليكما.

صبيحة ليلة الزفاف

ولما انصرف الجميع من زفاف علىّ وفاطمة (عليهما السلام) باتت أسماء عندهما فى البيت، وأصبح الصباح، وجاء رسول اللّه (ص) إلى زيارتهما وقال: السلام عليكما ءأدخل؟

ففتحت أسماء الباب، فدخل (ص)، فقال (ص) لعلى (ع): يا على كيف وجدت أهلك؟

قال: نعم العون على طاعة اللّه.

ثم قال لفاطمة(ع): كيف وجدت بعلك؟

قالت: خير بعل.

ثم جاء (ص) بقدح فيه لبن فقال لفاطمة(ع): اشربى فداك أبوك، وقال لعلى (ع): اشرب فداك ابن عمك(۵).

ثم ذكر لهما بعض الوظائف الزوجية، وقسّم ادارة الشؤون المنزلية إلى قسمين: فأوكل ما هو فى البيت إلى فاطمة(ع)، وما هو خارج البيت إلى على (ع).

ولادة السبطين

لم يمض على زواج على (ع) من فاطمة الزهراء(ع) التى كان قد بنى بها فى ذى الحجة من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة، إلّا أقل من سنة حتى وَلَدت(ع) السبط الأكبر الإمام الحسن المجتبى (ع)، وذلك ليلة النصف من شهر رمضان المبارك سنة ثلاث من الهجرة النبوية المباركة.

كما وولدت(ع) السبط الأصغر الإمام الحسين الشهيد (ع) فى اليوم الثالث من شهر شعبان المعظم سنة أربع من الهجرة النبوية المباركة.

ولادة الحسن بن على (ع)

قالت أسماء بنت عميس: لما حملت سيدتى فاطمة (ع) بالحسن بن على وولدته، جاء النبى (ص) فقال: يا أسماء هلمّى ابنى، فدفعته إليه فى خرقة صفراء، فقال (ص) وقد أزاحها عنه: يا أسماء ألم أعهد إليكم أن لاتلفّوا المولود فى خرقة صفراء؟ فلففته فى خرقة بيضاء ودفعته إليه، فأذّن (ص) فى اذنه اليمنى وأقام فى اليسرى.

ثم قال لعلى (ع): بأىّ شىء سمّيت ابنى؟

قال: ما كنت أسبقك باسمه يا رسول اللّه.

فقال النبى (ص): ولا أسبق أنا باسمه ربّى.

فهبط جبرئيل (ع) وقال: يا محمّد، العلىّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول: على منك بمنزلة هارون من موسى ولا نبىّ بعدك، سمّ ابنك هذا باسم ابن هارون.

فقال (ص): وما اسم ابن هارون؟

قال: شبر.

فقال: لسانى عربى.

قال: سمّه الحسن.

قالت أسماء: فسمّاه الحسن، فلمّا كان يوم سابعه عقّ النبى (ص) عنه بكبشين أملحين، عق عنه بيده وهو يقول: (بسم اللّه عقيقة عن الحسن، اللّهم عظمها بعظمه، ولحمها بلحمه، ودمها بدمه، وشعرها بشعره، اللّهمّ اجعلها وقاءاً لمحمد وآله)، ثم أعطى القابلة فخذاً ودیناراً، وحلق رأسه(ع)، وتصدّق بوزن الشعر فضّة، وطلى رأسه (ع) بالخلوق(۶) مكان الدم الذى كان الجاهليون يطلون به رأس الوليد، وقال: يا أسماء الدم فعل الجاهلية.

ولادة الحسين بن على (ع)

قالت أسماء: فلما كان بعد حول ولد الحسين (ع) فجاء النبى (ص) وقال: يا أسماء هلمّى ابنى، فدفعته إليه فى خرقة بيضاء، فأذّن (ص) فى اذنه اليمنى، وأقام فى اليسرى، ووضعه فى حجره وبكى.

قالت أسماء: فقلت: ممّ بكاؤك فداك أبى وأُمّى يا رسول اللّه؟

قال: على ابنى هذا.

فقلت: انه ولد الساعة.

قال: تقتله من بعدى الفئة الباغية من بنى اُميّة، لا أنالهم اللّه شفاعتى، ثم قال (ص): يا أسماء لا تخبرى فاطمة(ع) بهذا فإنها قريبة عهد بولادته.

ثم قال لعلى (ع): أىّ شىء سمّيت ابنى هذا؟

قال: ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول اللّه.

فقال النبى (ص): ولا أسبق باسمه ربّى.

فهبط جبرئيل (ع) وقال: يا محمد العلىّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول: علىّ منك كهارون من موسى ولا نبىّ بعدك، سمّ ابنك هذا باسم ابن هارون.

فقال: وما اسم ابن هارون؟

قال: شبير.

فقال: لسانى عربى.

قال: سمّه الحسين.

قالت أسماء: فسمّاه الحسين، فلما كان يوم سابعه عق النبى (ص) عنه بكبشين أملحين، عق عنه بيده وقرأ الدعاء المزبور، ثم أعطى القابلة فخذاً وديناراً، ثم حلق رأسه وتصدّق بوزن الشعر فضّة، وطلى رأسه بالخلوق وقال: يا أسماء الدم فعل الجاهلية.

۱ الأنفال: ۷۵.

۲ حديث المنزلة وقد أجمع عليه سائر فرق الإسلام، قال ابن أبى الحديد المعتزلى فى شرحه على نهج البلاغة: ج ۱۳ ص ۲۱۱ ط دار إحياء التراث العربى: (وقال النبى فى الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام (أنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبىّ بعدى) فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى، فإذن هو وزير رسول الله وشادّ أزره، ولولا أنه خاتم النبيّين لكان شريكاً فى أمره) انتهى. وفى البخارى ج ۵ ص ۲۴ باب مناقب على بن أبى طالب: (قال النبى لعلى أما ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى).

۳ وفى بعض الأخبار: ان صداقها (ع) كان ثلاثين درهماً فقط [راجع الكافى: ج ۵ ص ۳۷۷ ح ۲] وذلك لتتضع المناكح.

۴ وسائل الشيعة: ج ۱۴ ص ۵۰ ب ۲۸ ح ۱ و ۲ و ۶ عن الرسول (ص).

۵ كشف الغمة: ۱ / ۳۶۸ ط قم ۱۳۸۱ ه: (اشرب فداك ابن عمك).

۶ الخلوق: نوع من الطيب فيه صفرة.

مع أحبار اليهود

ونصبت أحبار اليهود غالباً العداوة لرسول اللّه (ص) بغياً وحسداً وضغناً لما خص اللّه به العرب من النبوّة، حيث جعلها فى ولد اسماعيل، وأخرجها من ولد اسحاق، فقالوا: لا نكون تبعاً لولد اسماعيل أبداً.

هذا مع ان رسول اللّه (ص) قد كان وادعهم وكتب بينه وبينهم كتاباً على أن لا يعينوا على رسول اللّه (ص) ولا على أحد من أصحابه بلسان ولا يد ولا بسلاح ولا بكراع فى السرّ والعلانية، لا بليل ولا بنهار، واللّه بذلك عليهم شهيد، فإن فعلوا فرسول اللّه (ص) فى حلّ من سفك دمائهم، وسبى ذراريهم ونسائهم، وأخذ أموالهم.

وكانوا ثلاث قبائل:

۱ بنو قينقاع، وقد تولّى أمرهم: (المخيريق).

۲ بنو النضير، وقد تولّى أمرهم: (يحيى) بن (أخطب).

۳ بنو قريظة، وقد تولّى أمرهم: (كعب) بن (أسد).

فحاربته الثلاث، فمنّ (ص) على بنى قينقاع، وأجلى بنى النضير، وقتل بنى قريظة. وقد ذكرنا فى بعض الكتب: ان مقاتلى بنى قريظة الذين قتلوا كانوا قليلين جداً.

هـذا وقـد نزلت سورة الحشـر فى بنى النضـير، وسورة الأـحزاب فى بنى قريظـة. وسـيأتى الكلام عن القبائـل الثلاـث فى غزواته (ص) وسراياه ان شاء اللّه تعالى.

اسلام ابن سلام

كان ابن سـلام من علماء اليهود، فى المدينـة المنوّرة ومن أحبارهم، فلما جاء النبى (ص) إلى المدينة جاء عبداللّه بن سـلام إليه يسأله عن أشياء قال: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهنّ إلاّ نبى: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنّة، وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى اُمّه؟

قال (ص): أخبرنى به جبرائيل آنفاً.

قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

قال (ص): أما أول أشـراط الساعـة فنار تحشـرهم من المشـرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنّـة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى اُمّه.

قال: أشـهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنّك رسول اللّه، وأنّك جئت بحق، وقد علمت اليهود انّى سيّدهم وابن سيّدهم وعالمهم وابن عالمهم، فادعُهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىّ ما ليس فىَّ.

فأرسل نبى اللّه (ص) إلى اليهود فدخلوا عليه. فقال لهم رسول اللّه (ص): يا معشـر اليهود اتقوا اللّه، فوالذى لا إله إلاّ هو إنكم لتعلمون أنّى رسول اللّه حقّاً وأنّى جئتكم بحق، فأسلموا.

قالوا: ما نعلمه، قالوا ذلك للنبى (ص) ثلاث مرّات.

قال (ص): فأىّ رجل فيكم عبداللّه بن سلام؟

قالوا: ذاك خيرنا وابن خيرنا، وسيّدنا وابن سيّدنا، وعالمنا وابن عالمنا.

قال: أفرأيتم إن أسلم أتسلمون؟

قالوا: حاشا للّه، ما كان ليسلم.

قال: أفرأيتم إن أسلم؟

قالوا: حاشا للّه ما كان ليسلم.

قال: أفرأيتم إن أسلم؟

قالوا: حاشا للّه ما كان ليسلم.

قال (ص): يا ابن سلام اخرج عليهم.

فخرج إليهم فقـال: أشـهد أن لاـإله إلاّـاللّه، وأشـهد أنّ محمّـداً رسول اللّه، يـا معشـر اليهود اتقوا اللّه فو اللّه الـذى لاـ إله إلاّ هو إنكم تعلمون أنه رسول اللّه وأنه جاء بحقّ.

فقالوا: كذبت انك أنت شرّنا وابن شرّنا، وجاهلنا وابن جاهلنا ونقصوه.

فقال ابن سلام: هذا ما كنت أخاف يا رسول اللّه، فقد أخبرتك ان اليهود قوم بهت.

المخيريق يعلن اسلامه

وكـان الـذى تولّى أمر اليهود من بنى القينقاع يقال له: (مخيريق)، وكان خيرهم، وكان حبراً عالماً، وكان غنياً كثير الأموال والأملاك، وكـان يعرف رسـول اللّه (ص) بصـفته ومـا يجـد فى علمه، فقـال لقومه: تعلمون انه النـبى المبعوث فهلمّوا نؤمن به ونكون قـد أدركنا

الكتابين.

فلم يجبه قينقاع إلى ما دعاهم إليه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم اُحد وكان يوم السبت قال: يا معشر اليهود، واللّه إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق.

قالوا: ان اليوم يوم السبت.

قال: لا سبت لكم.

ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول اللّه (ص) وأصحابه باُحد، وعهد إلى من وراءه من قومه إن قتلت فى هذا اليوم فأموالى لمحمد (ص) يصنع فيها ما أراه اللّه.

فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتل، وذلك بعد أن أسلم، فاستلم رسول اللّه (ص) أمواله ووهبها بأمر من اللّه تعالى للصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء(ع) وكانت حيطان سبعة.

مع ابنى أخطب

عن صفية بنت حُيى أنها قالت: كنت أحب ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر، ولم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه.

قالت: فلما قدم رسول اللّه (ص) المدينة ونزل قبا فى بنى عمرو بن عوف، غدا عليه أبى حُيى بن أخطب وعمى أبو ياسر بن أخطب مغلسين.

قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس. فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا.

قالت: فهششت اليهما كما كنت أصنع، فواللّه ما التفت إلىّ واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمى (أبا ياسر) وهو يقول لأبى (حيى): أهو، هو؟

قال: نعم واللّه.

قال: تعرفه وتثبته؟

قال: نعم.

قال: فما فى نفسك؟

قال: عداوته واللّه ما بقيت.

مكائد اليهود وتلبيسهم

جاء اليهود إلى المدينة واستوطنوها ليدركوا النبى (ص) فكانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج قبل مبعثه، فلما بعثه اللّه من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بنى سلمة: يا معشر اليهود اتّقوا اللّه وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد (ص)، ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته.

فقال سلام بن مشكم أحد بنى النضير: ما جاءنا بشىء نعرفه، وما هو بالذى نذكره لكم، فأنزل اللّه تعالى فى ذلك: (ولمّا جاءهم كتاب من عند اللّه مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به)(۱).

وقال ابن صلويا لرسول اللّه (ص): يا محمد ما جئتنا بشىء نعرفه، وما أنزل اللّه عليك من آية بيّنة فنتّبعك لها.

فأنزل اللّه فى ذلك من قوله تعالى: (ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات وما يكفر بها إلاّ الفاسقون)(۲).

وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد: يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه، وفجّر لنا أنهاراً نتّبعك ونصدقك.

فأنزل اللّه تعالى فى ذلك من قولهما: (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل)(۳).

وكان حيى بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد اليهود حسداً للعرب، لما خصّهم اللّه برسوله (ص)، فكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل اللّه تعالى: (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ)(۴).

ودعا رسول اللّه (ص) اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب اللّه ونقمته، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم منّا وخيراً منا، فأنزل اللّه تعالى فى ذلك: (وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل اللّه قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا)(۵).

اليهود وتأجيج العداوات

وكان شأس بن قيس شيخاً قد عتا، عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم، فمرّ على نفر من أصحاب رسول اللّه (ص) من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من الفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية.فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة فى هذه البلاد، لا واللّه ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار.

فأمر فتى شاباً من اليهود كان معه فقال: اعمد إليهم واجلس معهم، ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار.

وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، فكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى، فقتلا جميعاً.

ففعل الفتى، فتكلّم القوم عند ذلك وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحارث بن الأوس، وجبّار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها جذعة، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة(۶). السلاح، السلاح.

فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول اللّه (ص)، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، اللّه اللّه، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم اللّه للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألّف به بين قلوبكم؟

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوّهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول اللّه (ص) سامعين مطيعين، وقد أطفأ اللّه عنهم كيد عدوّ اللّه، فأنزل اللّه تعالى فى شأس بن قيس وما صنع:

(قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات اللّه واللّه شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل اللّه من آمن تبغونها عوجاً)(۷).

وأنزل اللّه سبحانه فى أوس بن قيظى وجبار بن صخر وكان معهما من قومهما: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الّذين اُوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين)(۸)، إلى قوله تعالى: (ومن يعتصم باللّه فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم)(۹).

۱ البقرة: ۸۹. ۲ البقرة: ۹۹. ۳ البقرة: ۱۰۸.

۴ البقرة: ۱۰۹. ۵ البقرة: ۱۷۰. ۶ والظاهرة: الحرة.

۷ آل عمران: ۹۸ – ۹۹. ۸ آل عمران: ۱۰۰. ۹ آل عمران: ۱۰۱.

مع ابن اُبىّ وأبى عامر

قدم رسول اللّه (ص) المدينة وسيد أهلها: عبداللّه بن اُبىّ، لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام، ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه من الأوس شريف مطاع: أبو عامر عبد بن عمرو بن صيفى بن النعمان وهو أبو حنظلة الغسيل يوم اُحد، وكان قد ترهب فى الجاهلية، ولبس المسوح، وكان يقال له الراهب، فشقيا بشرفهما وضرهما.

أما ابن اُبى فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم اللّه برسوله (ص) وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أنّ رسول اللّه (ص) قد استلبه ملكه، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل كارهاً مصرّاً على نفاقه وضغنه.

وأما أبو عامر فأبى إلّا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، فخرج إلى مكة ببضعة عشر رجلاً، وكان أبو عامر أتى رسول اللّه (ص) حين قدم المدينة قبل أن يخرج إلى مكة فقال: ما هذا الدين الذى جئت به؟

قال (ص): جئتُ بالحنيفية دين ابراهيم (ع).

قال: فأنا عليها.

فقال له رسول اللّه (ص): إنّك لست عليها.

قال: بلى، إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها.

قال (ص): ما فعلتُ، ولكنى جئت بها بيضاء نقيّة.

قال: الكاذب أماته اللّه طريداً غريباً وحيداً، يعرّض برسول اللّه (ص) أى: إنّك جئت بها كذلك.

فقال رسول اللّه (ص): أجل فمن كذب يفعل اللّه به ذلك.

فكان هو ذلك فقد خرج إلى مكة، فلما فتحت خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها.

فى طريق العيادة

وركب رسول اللّه (ص) إلى سعد بن عبادة يعوده من شكوى أصابته على حمار عليه إكاف فوقه قطيفة فدكية مختطمة بحبل من ليف فمرّ بعبداللّه بن اُبىّ وهو فى ظل (مزاحم) أطمه، وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول اللّه (ص) نزل فسلّم، ثم جلس فتلا القرآن، وذكّر باللّه وحذر، وبشر وأنذر.

قال الراوى: وهو زام لا ـ يتكلّم، حتى إذا فرغ رسول اللّه (ص) من مقالته قال: يا هذا إنه لا ـ أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً، فاجلس فى بيتك فمن جاءك فحدّثه إيّاه، ومن لم يأتك فلا تغشه به، ولا تأته فى مجلسه بما يكره.

فقال عبداللّه بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين: بلى فاغشنا به وائتنا فى مجالسنا ودورنا، فهو واللّه ممّا نحب، ومما أكرمنا اللّه به وهدانا.

فقال عبداللّه حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل تذل ويصرعك الذين تصارع

وهل ينهض البازى بغير جناحه وإن جذ يوماً ريشه فهو واقع

فقال سعد: يا رسول اللّه لا يعرض فى قلبك من قول هذا شىء، فو اللّه لقد جاءنا اللّه بك وإنا لننظم له الخرز لنتوّجه ملكاً علينا، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً أشرف عليه.

عفو رسول اللّه (ص)

وكان النبى (ص) وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم اللّه تعالى، ويصبرون على الأذى، قال اللّه عزّوجل: (ولتسمعن من الّذين اُوتوا الكتاب من قبلكم ومن الّذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتّقوا فإنّ ذلك من عزم الأُمور)(۱).

وقال تعالى: (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً)(۲) إلى قوله تعالى: (فاعفوا واصفحوا حتّى يأتى اللّه بأمره)(۳).

وكان النبى (ص) يأخذ بالعفو ما أمره اللّه حتى أذن اللّه فيهم، فلما غزا رسول اللّه (ص) بدراً فقتل اللّه صناديد كفار قريش قال ابن اُبىّ ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول اللّه (ص) وأسلموا.

تحويل القبلة

وصلّى رسول اللّه (ص) إلى بيت المقدس ثلاث عشرة سنة بمكة وسبعة عشر شهراً بالمدينة، وكان يعجبه أن تكون قبلته الكعبة تخلّصاً من تعيير اليهود، فحوّل اللّه القبلة إليها، والنبى (ص) مع المسلمين فى الصلاة، فتحوّلوا إلى الكعبة المكرّمة.

فخرج رجل ممّن كان صلّى معه فمرّ على أهل مسجد وهم راكعون فقال: اُشهد باللّه لقد صلّيت مع النبى (ص) قِبَل مكة، فداروا كما هم قِبَل البيت.

وكذلك بينما الناس يصلّون الصبح فى مسجد قباء إذ جاءهم رجل فقال: إن النبى (ص) قد اُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، ألا فاستقبلوها، وكان وجه الناس إلى الشام فاستداروا بوجوههم إلى الكعبة.

وكان فى جعل القبلة إلى بيت المقدس ثم تحويلها إلى الكعبة حِكَم عظيمة وفتنة وامتحان للمسلمين والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين.

فأما المسلمون فقالوا: (سمعنا وأطعنا)(۴)، وقالوا: (آمنّا به كلّ من عند ربّنا)(۵)، وهم الذين هداهم اللّه ولم تكن كبيرة عليهم.

وأما المشركون فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا.

وأما اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء.

وأما المنافقون فقالوا: ما يدرى محمد أين يتوجّه، إن كانت القبلة الاُولى حقاً فقد تركها، وإن كانت الثانية هى الحق فقد كان على باطل.

وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال اللّه: (وإن كانت لكبيرة إلّا على الّذين هدى اللّه)(۶) وكانت فتنة من اللّه امتحن بها عباده ليرى من يتبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه، فأنزل اللّه جواب السفهاء ...: (قل للّه المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)(۷).

صلاة الاستسقاء

وفى شهر رمضان المبارك سنة ست من الهجرة النبوية المباركة صلّى رسول اللّه (ص) بالناس صلاة الإستسقاء بكيفيتها الخاصة، فلما قضى صلاته جثا على ركبتيه ورفع يديه نحو السماء ثم كبر وقال: (اللّهمّ اسقنا وأغثنا) إلى آخر الدعاء المأثور.

فما أن تمّ دعاءه (ص) حتى أمطرت السماء عليهم مطراً غزيراً وصارت المدينة والسحاب عليها كالفسطاط.

عندها تبسَّم رسول اللّه (ص) وقال: للّه درّ أبى طالب، لو كان حيّاً قرّت عيناه، من الذى ينشدنا قوله؟

فقام على بن أبى طالب (ع) وقال: يا رسول اللّه كأنّك أردت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلّاك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفواضل

كذبتم وبيت اللّه نبزى محمداً ولما نقاتل دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال رسول اللّه (ص): أجل. فقام عندها رجل من كنانة وقال:

لك الحمد والشكر ممّن شكر سقينا بوجه النبى المطر

وكان كما قاله عمّه أبو طالب أبيض ذو غرر

به اللّه يسقى صوب الغمام وهذا العيان لذاك الخبر

فقال رسول اللّه (ص): إن يك شاعراً أحسن فقد أحسنت.

ثم استمرت السماء تهطل عليهم حتى جاءوا وقالوا: يا رسول اللّه ادع اللّه تعالى أن يصرفها عنّا، فرفع يديه وقال: (حوالينا ولا علينا، اللّهمّ على رؤوس الظراب، ومنابت الشجر، وبطون الأودية، وظهور الآكام).

فتصدعت عن المدينة، تمطر مراعيها ولا تمطر فيها قطرة.

۱ آل عمران: ۱۸۶. ۲ البقرة: ۱۰۹. ۳ البقرة: ۱۰۹.

۴ البقرة: ۲۸۵. ۵ آل عمران: ۷. ۶ البقرة: ۱۴۳.

۷ البقرة: ۱۴۲.

الإذن فى الحرب الدفاعية

ولما استقر رسول اللّه (ص) بالمدينة كما تقدّم، وأيّده اللّه بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التى كانت بينهم، فمنعته أنصار اللّه وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدّموا محبّته على محبّة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، ففرض اللّه على المسلمين القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم، فقال تعالى: (وقاتلوا فى سبيل اللّه الذين يقاتلونكم)(۱).

آداب وسنن

وكان (ص) يستحب القتال أول النهار كما يستحب الخروج للسفر أوله، فإذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهبّ الرياح وينزل النصر.

وكان يبايع أصحابه فى الحرب على أن لايفرّوا، وربما بايعهم على الموت، وبايعهم على الجهاد، كما بايعهم على الإسلام، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح، وبايعهم على التوحيد والتزام طاعة اللّه ورسوله.

وبايع (ص) نفراً من أصحابه على أن لايسألوا الناس شيئاً، فكان السوط يسقط من يد أحدهم فينزل فيأخذه ولا يقول لأحد ناولنى إياه.

وكان (ص) يشاور أصحابه فى الجهاد ولقاء العدوّ و تخيّر المنازل.

وفى حديث: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول اللّه (ص).

وكان (ص) يتخلّف فى ساقتهم فى المسير فيزجى الضعيف ويردف المنقطع، وكان أرفق الناس بهم فى السير.

وكان (ص) إذا أراد غزوة ورّى بغيرها ليقل القتل، وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوّه، ويطلع الطلائع ويبث الحرس.

وكان (ص) إذا لقى عدوّه وقف ودعا واستنصر، وأكثر هو وأصحابه من ذكر اللّه، وخفضوا أصواتهم.

وكان (ص) يرتب الجيش والمقاتلة، ويجعل فى كل جنبة كفؤاً لها.

وكان (ص) يبارز بين يديه بأمره.

وكان (ص) يلبس للحرب عدة، وربما ظاهر بين درعين.

وكان (ص) له الأولوية.

وكان (ص) إذا ظهر على قوم أقام بعرصتهم ثلاثاً ثم قفل.

وكان (ص) يستحب للرجل أن يقاتل تحت راية قومه.

وكان (ص) إذا لقى العدو يقول: (اللّهمّ مُنزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم، اللّهمّ أنزل نصرك، اللّهمّ أنت عضدى ونصيرى، بك أُقاتل).

وكان (ص) إذا اشتدّ البأس وحمى الحرب وقصده العدو يعلم بنفسه ويقول: (أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب).

وكان (ص) إذا اشتدّ البأس اتقوا به، كما قال على (ع) فى نهج البلاغة: (كنا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول اللّه (ص)، فلم يكن أحد أقرب منّا إلى العدوّ منه).

وكان (ص) أقربهم إلى العدو.

وكان (ص) يجعل لأصحابه شعاراً فى الحرب ورمزاً يعرفون به إذا تكلّموا.

وكان (ص) ينهى عن قتل النساء والولدان والشيوخ ونحوهم.

وكان (ص) إذا بعث سرية يوصيهم بتقوى اللّه ويقول: (سيروا بسم اللّه، قاتلوا من كفر باللّه، ولاتمثلوا، ولاتغدروا، ولاتقتلوا وليداً).

وكان (ص) ينهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو ولعله حتى لا يقع القرآن فى أيديهم فيبيحوا حرمته.

وكان (ص) يأمر أمير سريته أن يدعو عدوّه قبل القتال إما إلى الإسلام والهجرة، أو الإسلام دون الهجرة ويكونوا كأعراب المسلمين ليس لهم فى الفيء نصيب، أو بذل الجزية، فإن أجابوا إليه قبل منهم، وإلا استعان باللّه وقاتلهم.

وكان (ص) إذا ظفر بعدوّه أمر منادياً فجمع الغنائم كلها، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها، ثم أخرج خمس الباقى فوضعه حيث أراه اللّه وأمر به: من مصالح المسلمين، ثم يرضخ من الباقى لمن لاسهم له من النساء والصبيان والعبيد، ثم يقسم الباقى بالسوية بين الجيش: للفارس ثلاثة أسهم له سهم وسهمان لفرسه، وللراجل سهم.

وكان (ص) يسوّى بين الضعيف وغيره فى القسمة ما عدا النفل.

النبى (ص) وانقسام الكفار عليه

ولما قدم رسول اللّه (ص) إلى المدينة، وأرسى فيها قواعد الإسلام صار الكفار معه على ثلاثة أقسام:

قسم: صالحوه على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه.

وقسم: حاربوه ونصبوا له العداوة.

وقسم: تاركوه واتّخذوا موقف الحياد فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما ينتهى إليه أمره، وما يكون مصيره، وكان بين هؤلاء من يحب ظهوره وانتصاره باطناً، وإن لم يعلن بذلك.

أوّل سريّة فى الإسلام

وحيث ان مشركى قريش قد نصبوا الحرب للمسلمين، وصادروا فى مكة الأموال المنقولة وغير المنقولة للمسلمين الذين هاجروا إلى المدينة، وحاولوا أيضاً فرض حصار اقتصادى وسياسى على المدينة نفسها ليعرقلوا مسيرة النبى (ص) التقدمية، ويصدّوا زحف المسلمين وانتشار الإسلام من المدينة إلى غيرها من المناطق الأُخرى، فكر النبى (ص) بعد أن أذن اللّه له بمجابهة المشركين عسكرياً فى أن يكسر جبروت المشركين، ويفك حصارهم، ويرغمهم على إعادة النظر فى مواقفهم العدائية تجاه الإسلام والمسلمين.

فرأى أن يتعرض لهم بتهديدهم، وذلك ببعث السرايا إليهم، أو غزوهم بنفسه (ص)، علماً بأن الغزوة فرقها مع السريّة هو: ان الغزوة كان يشترك فيها رسول اللّه (ص) بنفسه، دون السرية، فإنه كان يؤمّر عليها أحداً من المسلمين.

وكانت الغزوات على رواية تعدّ (۲۷) غزوة، بينما السرايا بلغت (۶۶) سرية.

وأول سرية بعثها رسول اللّه (ص) فى هذا المجال كانت بعد مضى ثمانية أشهر من الهجرة النبوية المباركة، فقد عقد (ص) اللواء لعمّه حمزة بن عبدالمطلب وأمّره على ثلاثين رجلاً من المهاجرين ممّن تحمّل الأذى والتعذيب القاسى من مشركى مكّة، وممّن صودرت أمواله على أيديهم، وبعثهم إلى سواحل البحر الأحمر، فالتقوا هناك فى (العيص) من أرض جهينة بأبى جهل وهو فى مائة وثلاثين راكباً من أهل مكّة فى قافلة تجارية، فاصطفّ الفريقان للقتال، فحجز بينهما (مجدى بن عمرو الجهنى) وكان موادعاً للفريقين جميعاً، فانصرف القوم بعضهم عن بعض، ولم تقع مناوشات بينهم.

سرية عبيدة بن الحارث

وكانت هذه السرية متزامنة مع سرية حمزة بن عبدالمطلب، فقد عقد رسول اللّه (ص) اللواء لعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب بن عبدمناف فى ستّين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماءاً بالحجاز بأسفل (ثنية المرة).

فلقى بها أباسفيان بن حرب فى مائتين من أهل مكّة، فكانت بينهم الرماية دون أن يقع قتال بينهم، غير انه التحق بالمسلمين رجلان ممّن خرج مع المشركين كانا قد أسلما من قبل إلا أنهما لم يتمكّنا من الإلتحاق بالمسلمين، فجعلا ذلك وسيلة للإلتحاق بهم والتخلّص من المشركين وهما: المقداد بن عمرو البهرانى، وعتبة بن غزوان المازنى.

سريّة سعد

وفى شهر ذى القعدة فى السنة الأُولى من الهجرة النبوية المباركة بعث رسول اللّه (ص) سريّة ثالثة تتشكّل من تسعة رجال من المهاجرين يرأسهم سعد بن أبى وقاص، ليرصدوا المشركين فى تحرّكاتهم التجارية، فخرجوا حتى بلغوا موضعاً يقال له: (الخرّار) من أرض الحجاز، فلم يلقوا كيداً ورجعوا إلى المدينة.

غزوة الأبواء

وفى شهر صفر من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة، أى: على رأس اثنى عشر شهراً من مقدم رسول اللّه (ص) إلى المدينة خرج (ص) مع جماعة من أصحابه بعد أن عقد اللّواء لعلىّ بن أبى طالب (ع) واستعمل على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ ودان وهى غزوة الأبواء يريد قريشاً وبنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فوادع فيها بنى ضمرة، وعقد تلك المعاهدة معه سيد بنى ضمرة (مخشى بن عمرو الضمرى) وكان سيدهم فى زمانه ذلك.

ثم رجع رسول اللّه (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً، فأقام بها بقية صفر وصدراً من ربيع الأول.

غزوة بَواط

ثم خرج رسول اللّه (ص) فى أواسط ربيع الأول من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة فى مائتين من أصحابه، وذلك بعد أن استعمل على المدينة السائب بن مظعون، وقيل: سعد بن معاذ، يريد (ص) قريشاً حتى بلغ (بواط) من ناحية رضوى(۲)، فلم يظفر بقافلة قريش التى كان على رأسها (أُمية بن خلف) فى مائة رجل من المشركين.

ثم رجع (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأُولى.

غزوة ذات العشيرة

ثم فى أواسط شهر جمادى الأُولى خرج رسول اللّه (ص) من المدينة، وقد حمل لواءه حمزة بن عبد المطلب، واستخلف على المدينة أباسلمة بن عبدالأسد، وذلك فى مائة وخمسين من أصحابه، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها ويتعرضون عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام، وكان قد جاءه الخبر بفصولها مع أبى سفيان من مكة، وفيها أموال لقريش، حتى بلغ (ص) (ذات العشيرة) فبلغه الخبر بأنّ العير قد فاتته بأيام، وهذه هى التى وعده اللّه إيّاها، أو ذات الشوكة، ووفى له بوعده، وفيها وادع بنى مدلج وعقد معهم معاهدة عدم اعتداء.

وفى هذه الغزوة نزل رسول اللّه (ص) بأصحابه عند عين، فنام على (ع) وعمّار هناك فى دقعاء من التراب، فأيقظهما رسول اللّه (ص) وحرّك علياً (ص) فقال له: قم يا أباتراب سمّاه (ص) بذلك لما عليه من التراب ثم قال: ألا أُخبرك بأشقى الناس؟ أحمر ثمود عاقر الناقة، والذى يضربك يا على على هذه، ووضع رسول اللّه (ص) يده على رأسه الشريف، حتى يبلّ منها هذه، ووضع (ص) يده على لحيته الكريمة.

وأراد رسول اللّه (ص) بهذه الغزوات:

أوّلاً: التحالف مع العشائر.

وثانياً: ارهاب قريش، لما سبق من انهم فرضوا حصاراً اقتصاديّاً على المدينة.

غزوة بدر الأُولى

لما رجع رسول اللّه (ص) إلى المدينة قادماً من غزوة (ذات العشيرة) لم يبق فيها إلّا ليال قلائل لا تبلغ العشر، حتّى أغار كرز بن جابر الفهرى على سرح المدينة فاستاقه، فخرج رسول اللّه (ص) فى طلبه، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة حتى بلغ وادياً يقال له: (سفوان) فى ناحية بدر ففاته كرز، فرجع رسول اللّه (ص) إلى المدينة ولم يلق حرباً.

سريّة عبد اللّه بن جحش

ثم رجع رسول اللّه (ص) إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجباً، وفى رجب المذكور بعث عبداللّه بن جحش الأسدى إلى نخلة، وذلك فى اثنى عشر رجلًا من المهاجرين كل اثنين يعتقبان على بعير، وقال: كن بها حتى تأتينا بخبر من أخبار قريش، ولم يأمره بقتال، فوصلوا إلى بطن نخلة يرصدون عيراً لقريش.

وكان رسول اللّه (ص) قد كتب له كتاباً وأمره أن لاينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه.

فلما فتح الكتاب وجد فيه: (إذا نظرت إلى كتابى هذا فامض حتى تنزل بنخلة بين مكة والطائف فترصد بها عيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم).

فقال لمّا قرأ الكتاب: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك وأنه لايستكرههم، فمن أحبّ الشهادة فليمض معه، ومن كره الموت فليرجع.

فمضوا كلهم حتى إذا نزلوا نخلة مرت بهم عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة، فيها عمرو بن الحضرمى وعثمان ونوفل ابنا عبداللّه بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة.

فتشاور المسلمون فيهم وقالوا: نحن فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم أجمعوا على ملاقاتهم، فرمى أحدهم وهو واقد بن عبداللّه التميمى عمرو بن الحضرمى فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل فأعجزهم، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة.

الشهر الحرام والقتال فيه

فلما قدموا على رسول اللّه (ص) قال: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام، وتوقف عن تأييدهم وامضاء عملهم، وانتظر تأييد اللّه تعالى وامضائه لهم عبر أمين وحيه جبرئيل (ع)، وذلك لأهميّة المسألة.

فلما توقف رسول اللّه (ص) عن استلام العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً وهو بانتظار الوحى، أسقط فى أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين.

واشتدّ تعنّت قريش وإنكارهم ذلك، وزعموا أنهم وجدوا مقالاً وقالوا: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام.

وتفاءلت اليهود على رسول اللّه (ص) بذلك فقالوا: عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبداللّه، (عمرو): عمرت الحرب، و(الحضرمى): حضرت الحرب، وواقد: وقدت الحرب، فجعل اللّه ذلك عليهم لا لهم، فأنزل على رسوله:

(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل اللّه وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند اللّه والفتنة أكبر من القتل)(۳).

بوادر النصر

فلما نزل القرآن بذلك انحسمت المسألة وانقطع النزاع فيها، فقد فرج اللّه عن المسلمين، واستلم رسول اللّه (ص) العير وما فيها من أموال وقسمها بين المسلمين، وكانت هذه أول غنيمة للمسلمين، وأول انتصار سجّله المسلمون على المشركين بعد خمسة عشر عاماً سجّل المشركون فيها كل ما استطاعوه من ظلم وتعذيب، وتشريد وتهجير، ونهب وسلب، وضغط وكبت.

وأما الأسيران: فأرسلت قريش فى فدائهما، وحيث كان رجلان من هذه السرية قد أسرتهما قريش أيضاً قال رسول اللّه (ص) لموفدها: لن نفديهما حتى يقدم صاحبانا، إنّا نخاف عليهما.

فأطلقت قريش سراح الأسيرين ومع وصولهما إلى المدينة أُطلق سراحهما.

فأما أحد الأسيرين وهو: الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول اللّه (ص) حتّى قُتِل يوم بئر معونة.

وأما الثانى وهو: عثمان بن عبداللّه فلحق بمكة، فمات بها كافراً.

فلما تجلى عن عبداللّه بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا فى الأجر فقالوا: يا رسول اللّه إنا نطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين.

فأنزل اللّه فيهم (إنّ الّذين آمنوا والّذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل اللّه أُولئك يرجون رحمت اللّه)(۴).

سرية عمير بن عدى

ولما خلت من شهر رمضان خمس ليال وعلى رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة النبوية المباركة كانت سرية عمير بن عدى، إلى عصماء بنت مروان اليهودى، أُم المنذر بن المنذر، وكانت عصماء تعيب المسلمين، وتؤذى رسول اللّه (ص) وتمشى فى مجالس الأوس والخزرج وتقول شعراً تحرّض عليه، والشعر يؤثر أثره فى اظهار الضغائن واثارة الحروب آنذاك، وقد قال تعالى: (أُذن للّذين يقاتلون بأنهم ظلموا وانّ اللّه على نصرهم لقدير)(۵).

فلمّا نفّذ عمير مهمّته أتى فصلّى الصبح مع النبى (ص) بالمدينة وأخبره الخبر، فضرب رسول اللّه (ص) على كتفه وقال: هذا رجل نصر اللّه ورسوله بالغيب، أما انه لاينتطح فيها عنزان، كناية عن انه لا يتنازع من أجلها أحد، وكان كذلك.

۱ البقرة: ۱۹۰. ۲ بقرب ينبع على بعد ما يقارب تسعين كيلو متراً من المدينة.

۳ البقرة: ۲۱۷. ۴ البقرة: ۲۱۸. ۵ الحج: ۳۹.

غزوة بدر الكبرى

ولما عادت سرية عبداللّه بن جحش إلى المدينة فى شهر شعبان، أمضى رسول اللّه (ص) بعده فى المدينة بقية شهر شعبان وشيئاً من شهر رمضان، ثم وصله (ص) خبر رجوع قافلة قريش التى كان فيها أبو سفيان عائدة من الشام فخرج إليها مع أصحابه.

وكان خروجهم يوم السبت لإثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً، وقيل: لثمان خلون منه.

واستخلف (ص) على المدينة أبا لبابة، وعيّن للصلاة بالناس عبداللّه بن أُم مكتوم، وخرج معه الأنصار، ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، وكانت من غير قصد من المسلمين إليها ولا ميعاد، كما قال تعالى: (ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد)(۱).

وذلك أنّ رسول اللّه (ص) بلغه خبر العير المقبلة من الشام مع أبى سفيان فى أربعين رجلاً وفيها أموال عظيمة لقريش، وهى التى خرج إليها عند فصولها من مكة، فلم يدركها، فندب فى هذه المرة أصحابه إليها، فخف بعض أصحابه وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول اللّه (ص) يلقى حرباً.

فخرج (ص) فيهم وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وهم اثنان وثمانون من المهاجرين، ومائة وسبعون من الخزرج، وواحد وستون من الأوس، وكانوا على سبعين بعيراً يعتقبونها، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرَسان: فرساً للمقداد، وفرساً للزبير بن العوام، فكان رسول اللّه (ص) وعلى بن أبى طالب (ع) ومرثد بن أبى مرثد الغنوى على بعير.

فلما بلغ أبا سفيان مسيره (ص) أحجم عن الإقتراب من بدر واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى بعشرة دنانير على أن يأتى قريشاً بمكة فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد اعترض لعيرهم فى أصحابه.

فنهضوا مسرعين فى قريب من ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير، ولم يتخلف أحد من أشرافهم، إلا أبا لهب وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة كان له دين بذلك، وحشدوا فيمن حولهم من العرب، ولم يتخلف من بطون قريش سوى عدى بن كعب.

وخرجوا من ديارهم كما قال اللّه تعالى: (بطراً ورئاء الناس)(۲) وقالوا: أيظنّ محمّد وأصحابه أن نكون كعير ابن الحضرمى؟ فخرجوا سراعاً وأخرجوا معهم القيان يشربون الخمور، ويضربون بالدفوف.

إلى وادى ذفران

وأقبل رسول اللّه (ص) فيمن خف معه من أصحابه قاصداً وادى ذفران، وقد عقد رايتين جعل إحداهما مع مصعب بن عمير، والأُخرى وتسمّى العقاب مع على بن أبى طالب (ع) وسلك طريقه من المدينة إلى ذفران ومنه إلى بدر على نقب المدينة، ثم على العقيق، ثم على ذى الحليفة، ثم على اولات الجيش، ثم على تربان، ثم على ملل، ثم على غميس الحمام، ثم على صخرات اليمام، ثم على السيالة، ثم على فج الروحاء، ثم على شنوكة، حتى إذا كان بعرق الظبية لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً.

ونزل رسول اللّه (ص) سجسج وهى بئر الروحاء، ثم ارتحل منها حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة يساراً وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً، فسلك فى ناحية منها حتى جزع وادياً يقال له: رحقان، بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم علا المضيق ثم انصب به، حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسيس بن عمرو الجهنى حليف بنى ساعدة، وعدى بن أبى الزغباء الجهنى حليف بنى النجار يتجسّسان الأخبار عن أبى سفيان وعيره، ثم رحل (ص) وأخذ ذات اليمين على وادى ذفران وجزع، ثم نزل ذفران.

النبى (ص) يستشير أصحابه

ولما نزل (ص) بأصحابه ذفران أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، ونزل عليه جبرئيل فأخبره بأن العير قد أفلتت، وانّ قريشاً

قد أقبلت لمنع عيرها وأمره بالقتال.

فاستشار أصحابه فى ذلك وأخبرهم عن قريش وخروجهم إليهم، فقام المقداد بن الأسود وقال: يا رسول اللّه امض لما أمرك اللّه، فنحن معك، واللّه لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون)(۳) ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالّذى بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد وهو موضع باليمن لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، ولو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك.

فقال له رسول اللّه (ص) خيراً ودعا له بخير.

ثم قال رسول اللّه (ص): أشيروا علىَّ أيها الناس، وانما يريد الأنصار، ثم أعادها ثانية وثالثة، ففهمت الأنصار انه يعنيهم، فقام سعد بن معاذ الأنصارى وقال: لكأنّك يا رسول اللّه تريدنا؟

فقال النبى (ص): أجل.

فقال سعد: بأبى أنت واُمّى يا رسول اللّه إنّا قد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق من عند اللّه، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول اللّه لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعلّ اللّه يريك منّا ما تقرُّ به عينك، فسر على بركة اللّه، وصل من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحبّ إلينا ممّا تركت.

فسرّ رسول اللّه (ص) بقول سعد، وشكره والأنصار على ذلك.

ثم قال (ص): سيروا على بركة اللّه وأبشروا، فإن اللّه قد وعدنى إحدى الطائفتين ولن يخلف اللّه وعده، واللّه لكأنّى أنظر إلى مصارع القوم، ثم ارتحل (ص) بهم ونزل قريباً من بدر.

استطلاع أخبار قريش

ولمّا نزل (ص) بأصحابه قريباً من بدر، ركب هو ورجل من أصحابه حتّى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم.

فقال: لا اُخبركما حتى تخبرانى من أنتما.

فقال له رسول اللّه (ص) إذا أخبرتنا أخبرناك.

قال: أو ذاك بذاك؟

قال: نعم.

قال: فإنه بلغنى أنّ محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا المكان الذى به رسول اللّه (ص) وبلغنى أنّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، المكان الذى به قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟

فقال رسول اللّه (ص): نحن من ماء، ثم انصرف عنه ورجع إلى أصحابه.

فلما أمسى بعث جماعة إلى ماء بدر يلتمسون الخبر، فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بنى الحجاج وعريض بن يسار غلام بنى العاص بن سعيد فأتوا بهما فسألوهما لمن أنتما؟ ورسول اللّه (ص) قائم يصلّى.

فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء.

فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبى سفيان، فضربوهما حتى قالا إنهما لأبى سفيان فتركوهما، وذلك على عادتهم فى الجاهلية

حيث كانوا يأخذون الإعتراف بالتعذيب، فنهى الإسلام عنه نهياً باتاً وحرّمه أشد تحريم، وجعل الإعتراف المأخوذ بالتعذيب كالعدم، ولذا نرى انّ رسول اللّه (ص) انفتل من صلاته والتفت إلى أصحابه معترضاً عليهم وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؟ صدقا واللّه، إنهما لقريش.

ثم التفت إليهما وقال: أخبرانى عن قريش.

قالا: هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى، والكثيب: التلّ من الرمل.

فقال لهما رسول اللّه (ص): كم القوم؟

قالا: كثير.

قال (ص): ما عدّتهم؟

قالا: ما ندرى.

قال (ص): كم ينحرون كل يوم؟

قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

قال رسول اللّه (ص): القوم ما بين التسعمائة والألف.

ثم قال (ص) لهما: فمن فيهم من رؤوس قريش؟

قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبوجهل بن هشام، وأُمية بن خلف، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو.

فأقبل رسول اللّه (ص) على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

هروب أبى سفيان

وخفض أبو سفيان فلحق بساحل البحر، ولما رأى أنه قد نجا وأحرز العير كتب إلى قريش يخبرهم بهروبه وسلامة العير، فأتاهم الخبر وهم بالجحفة فهمّوا بالرجوع، فقال أبوجهل: واللّه لانرجع حتى نقدم بدراً فنقيم به، فننحر الإبل ونطعم من حضرنا من العرب الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فتخافنا بعد ذلك.

وأشار الأخنس بن شريق عليهم بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة، فلم يشهد بدراً زهرى قط، فاغتبطت بنو زهرة بعد برأى الأخنس، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً، وكان حليفاً لهم.

ليلة بدر

ولما كانت ليلة بدر وهى ليلة السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية من الهجرة المباركة انتدب رسول اللّه (ص) أصحابه، وقد نزل بهم قريباً من بدر إلى الماء فسكتوا وأحجموا عن ذلك، فانتدب علياً (ع) فخرج، وكانت ليلة باردة ذات ريح وظلمة، فخرج (ع) بقربته، فلما كان إلى القليب لم يجد دلواً، فنزل فى الجبّ تلك الساعة فملأ قربته ثم أقبل فاستقبلته ريح شديدة، فجلس حتى مضت، ثم قام، ثم مرت به أُخرى، فجلس حتى مضت، ثم قام، ثم مرت به أُخرى، فجلس حتى مضت، ثم قام، فلما جاء إلى النبى (ص) قال له: ما حبسك يا أبا الحسن؟

قال: لقيت ريحاً، ثم ريحاً، ثم ريحاً شديدة، فأصابتنى قشعريرة.

فقال: أتدرى ما كان ذاك يا على؟ كان ذلك جبرئيل فى ألف من الملائكة، وقد سلّم عليك وسلّموا، ثم مرّ ميكائيل فى ألف من

الملائكة فسلّم عليك وسلّموا، ثم مرّ إسرافيل فى ألف من الملائكة فسلّم عليك وسلّموا، وهم مدد لنا.

وإليه أشار السيد الحميرى فى قصيدته المعروفة يمدح بها علياً (ع) ويقول:

اقسم باللّه وآلائه والمرء عما قال مسؤول

ان على بن أبى طالب على التقى والبرّ مجبول

كان إذا الحرب مرتها القنا وأحجمت عنها البهاليل

يمشى إلى القِرن وفى كفّه أبيض ماضى الحدّ مصقول

مشى العفرنا بين اشباله أبرزه للقنص الغيل

ذاك الذى سلم فى ليلة عليه ميكال وجبريل

ميكال فى ألف وجبريل فى ألف ويتلوهم سرافيل

ليلة بدر مدداً أُنزلوا كأنهم طير أبابيل

التشاور يهدى إلى التفوّق

ثم سار رسول اللّه (ص) حتى نزل مياه بدر، وكانت منطقة بدر واسعة، جنوبها العدوة القصوى، وشمالها العدوة الدنيا، وفيها عدّة آبار وعيون للماء، تنزل فيها القوافل.

فسبق رسول اللّه (ص) قريشاً إلى بدر، ومنع قريشاً من السبق إليه مطر عظيم أرسله اللّه تعالى مما يليهم ولم يصب منه المسلمين إلا ما لبّد لهم دهس الوادى وأعانهم.

ولما نزل (ص) مياه بدر مما يلى المدينة أتاه الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح فقال: يا رسول اللّه، أرأيت هذا المنزل هو منزل أنزلكه اللّه ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه، أم هو الرأى فى الحرب؟

فقال (ص) فى جوابه: بل هو الرأى.

فقال: يا رسول اللّه (ص) إنّ هذا ليس بمنزل، فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ونغوّر ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه فيكون الماء فى متناولنا فنشرب ونروى.

فاستحسن رسول اللّه (ص) هذا الرأى وفعله، فكان سبباً من أسباب تفوّقهم على المشركين.

ومشى رسول اللّه (ص) بعد أن استقرّ هو وأصحابه فى مواقعهم على موضع الوقعة فعرض على أصحابه مصارع رؤوس الكفر من قريش مصرعاً مصرعاً وهو يقول: هذا مصرع فلان إن شاء اللّه، وهذا مصرع فلان إن شاء اللّه، وهكذا.

الجمعان يلتقيان

وفى صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة انحدر المشركون من وراء الكثيب إلى وادى بدر، فلما رآهم رسول اللّه (ص) ينحدرون من وراء الكثيب الذى جاءوا منه إلى الوادى رفع يديه بالدعاء وقال:

(اللّهمّ هذه قريش قد أقبلت بخُيَلانها وفخرها، تحادّك وتكذِّب رسولك، اللّهمّ فنصرك الذى وعدتنى به، اللّهمّ أحِنهم الغداة) ثم عبّأ رسول اللّه (ص) أصحابه وقال: غضّوا أبصاركم، ولا تبدأوهم بالقتال، ولا يتكلّمن أحد.

فلمّا نزل المشركون الوادى أقبل نفر منهم حتى وردوا حوض رسول اللّه (ص) فأراد بعض أن يمنعوهم. فقال رسول اللّه (ص): دعوهم، فشربوا منه.

وقال أبو جهل لما رأى قلّة المسلمين وبساطة أسلحتهم: ما هم إلا أكلة رأس، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد.

فقال عتبة بن ربيعة: أترى لهم كميناً ومدداً؟

فبعثوا عمرو بن وهب الجمحى وقالوا له: احزر لنا أصحاب محمد، وكان فارساً شجاعاً، فجال بفرسه حول العسكر، ثم صعد فى الوادى وصوّب ثم رجع إلى قريش فقال: ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصونه، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد، فضرب فى بطن الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً، فرجع اليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، أما ترونهم خرس لا يتكلّمون، يتلمضون تلمض الأفاعى، انهم قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، واللّه ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فارتأوا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة فأشار عليه أن يرجع الناس ولا يكون بينهم حرب، فوافقه عتبة بن ربيعة، وقام عتبة فى الناس خطيباً وأشار عليهم بالرجوع، فأبى أبو جهل ذلك وساعده عليه المشركون.

بوادر الهزيمة فى المشركين

ولما كان من دأب الإسلام وسيرة رسوله العظيم (ص) وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام)، أن لا يبدأوا أحداً بالقتال، لذلك بعث رسول اللّه (ص) إلى قريش من يقول لهم: يا معشر قريش ما أحد أبغض إلىَّ من أن أبدأ بكم، فخلّونى والعرب، فإن أك صادقاً فأنتم أعلى بى عيناً، وإن أك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمرى فارجعوا.

فقال عتبة: واللّه ما أفلح قوم قطّ ردّوا هذا.

ثم ركب جملاً ـ له أحمر، فنظر إليه رسول اللّه (ص) يجول فى العسكر وينهى عن القتال، فقال (ص): إن يكن عند أحد خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا.

فأقبل عتبة يقول: يا معشر قريش اجتمعوا واسمعوا، ثم خطبهم فقال: يمن مع رحب، ورحب مع يمن، يا معشر قريش أطيعونى اليوم، واعصونى الدهر، وارجعوا إلى مكة واشربوا الخمور، وعانقوا الحور، فإنّ محمّداً له إلّ وذمّة وهو ابن عمّكم، فارجعوا ولا تردّوا رأيى، وانما تطالبون محمّداً بالعير التى أخذها بنخلة ودم ابن الحضرمى وهو حليفى وعلىَّ عقله.

فلما سمع أبوجهل ذلك غاظه وقال: ان عتبة أطول الناس لساناً وأبلغهم فى الكلام، ولئن رجعت قريش بقوله ليكوننّ سيّد قريش إلى آخر الدهر.

ثم قال: يا عتبة نظرت إلى سيوف بنى عبدالمطلب وجبنت، وتأمر الناس بالرجوع؟

فأخذه عتبة بشعره، وكان أبوجهل على فرس، فقال الناس: يقتله، فعرقب فرسه فقال: أمثلى يجبن؟ وستعلم قريش اليوم أيّنا الألئم والأجبن، وأينا المفسد لقومه، لايمشى إلا أنا وأنت إلى الموت عياناً، ثم أخذه بشعره يجرّه.

فاجتمع الناس إليه وقالوا: يا أبا الوليد لاتفتّ فى اعضاد الناس تنهى عن شىء تكون أوله، فخلصوا أباجهل من يده.

فبعث من فوره إلى عامر أخى عمرو بن الحضرمى الذى قتل بنخلة وقال له: هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس، فقم وانشد خفرتك ودم أخيك.

فقام عامر وكشف عن رأسه وصاح: واعمراه، فهاج الناس وأجمعوا على الحرب.

الحرب: القرار الأخير

ولما انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه، نظر عتبة إلى أخيه شيبة وإلى ابنه الوليد وقال لهما: قوما ثم لبس درعه وطلبوا له بيضة تسع رأسه فلم يجدوها لعظم هامته، فاعتجر بعمامتين ثم أخذ سيفه وتقدّم هو وأخوه وابنه حتى انفصلوا من الصف ونادوا: ليخرج إلينا أكفاؤنا من قريش.

فخرج إليهم فتية من الأنصار وهم: عوف، ومعوذ، ابنا حارث وأُمهما عفراء وعبداللّه بن رواحة.

فقالوا: من أنتم؟

قالوا: رهط من الأنصار.

قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمّد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسول اللّه (ص): قم يا عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان له سبعون سنة، وقم يا حمزة بن عبدالمطلب، وقم يا على بن أبى طالب، وكان أصغرهم سنّاً، فقاموا بين يدى رسول اللّه (ص) بسيوفهم.

فقال لهم: اطلبوا بحقّكم الذى جعله اللّه لكم، فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تطفىء نور اللّه، (ويأبى اللّه إلاّ أن يتمّ نوره)(۴).

ثم قال: يا عبيدة عليك بعتبة، ويا حمزة عليك بشيبة، ويا على عليك بالوليد بن عتبة.

فمرّوا حتى انتهوا إلى القوم.

فقال عتبة: من أنتم انتسبوا حتى نعرفكم؟

فعرّفوا أنفسهم.

فقالوا: أنتم أكفاء كرام.

فبارز عبيدة وكان أسنَّ القوم عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز على (ع) الوليد.

فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله.

وأمّا على (ع) فلم يمهل الوليد أن قتله.

واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه، فكرّ حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فدفّفا عليه، واحتملا صاحبهما حتى أتيا به رسول اللّه (ص) وبه رمق، فلما نظر إليه رسول اللّه (ص) استعبر.

فقال عبيدة: بأبى أنت وأُمّى يا رسول اللّه ألستُ شهيداً؟

فقال (ص): بلى أنت أول شهيد من أهل بيتى.

فقال: أما لو كان عمك حياً لعلم انى أولى بما قال.

قال: وأىّ أعمامى تعنى؟

قال: أبو طالب (ع) حيث يقول:

كذبتم وبيت اللّه نبزى محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

فقال له رسول اللّه (ص): أما ترى ابنه كالليث العادى بين يدى اللّه ورسوله، وابنه الآخر فى جهاد اللّه بأرض الحبشة؟

جنود الرحمن وجنود الشيطان يتقابلان

واصطف الجيشان وجاء إبليس إلى قريش فى صورة سراقة بن مالك فقال لهم: أنا جار لكم ادفعوا إلىَّ رايتكم، فدفعوها إليه وجاء بشياطينه يهول بهم على أصحاب رسول اللّه (ص) وتزاحف الناس على أثره ودنا بعضهم من بعض.

فأمر رسول اللّه (ص) أصحابه أن لايحملوا حتى يأمرهم، وأن يكتفوا برمى القوم بالنبال حتى لايقتربوا منهم، ثم رفع يده إلى السماء يناشد ربّه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول:

(اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد فى الأرض أبداً، وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد).

فأنزل اللّه تعالى: (إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم انّى ممدّكم بألف من الملائكة مردفين)(۵) فأمدّه اللّه بالملائكة، حتى سمع الناس قعقعة السلاح من الجوّ، وقائل يقول: اقدم حيزوم، اقدم حيزوم، وكان ذلك جبرئيل فى ألف من الملائكة مردفين، فلما نظر إبليس إلى جبرئيل تراجع ونكص على عقبيه ورمى باللواء، فأخذ منبه بن الحجاج بمجامع ثوبه ثم قال: ويلك يا سراقة تفتّ فى أعضاد الناس، فركله إبليس ركلة فى صدره وقال: انى أرى ما لاترون، حيث انه كان يرى جبرئيل يلاحقه بحربة معه يريد أن يطعنه بها.

المشركون ينهزمون

ثم حرض رسول اللّه (ص) الناس على القتال وقال: والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله اللّه الجنّة.

فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة، وفى يده تمرات يأكلهنّ: بخ بخ، فما بينى وبين أنْ أدخل الجنّة إلّا أن يقتلنى هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل (رحمه اللّه).

ثم إنّ رسول اللّه (ص) أخذ حفنة من الحصى فاستقبل بها قريشاً ثم قال: شاهت الوجوه، ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه فقال: شدوا، فكانت الهزيمة.

فقال رسول اللّه (ص) وقد رفع يديه إلى السماء: (اللّهمّ لا يفلتنّ فرعون هذه الاُمّة أبو جهل بن هشام) فقتل فيها مع من قتل من صناديد قريش، واُسر فيها من اُسر من رؤوسهم، فكان الذين قتلوا سبعين، والذين اُسروا سبعين أيضاً.

مصير أبى جهل

روى عن بعض من شهد بدر انه قال: إنى لواقف يوم بدر فى الصف، إذ التفتّ، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السنّ، فكأنّى لم آمن بمكانهما، إذ قال لى أحدهما سرّاً من صاحبه: يا عم أرنى أباجهل.

فقلت: يا ابن أخى فما تصنع به؟

قال: اُخبرت أنه يسبّ رسول اللّه (ص) ثم أردف يقول: والذى نفسى بيده لئن رأيته لايفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منّا، فتعجّبت لذلك.

قال: وغمزنى الآخر فقال لى مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذى تسألانى عنه.

قال: فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول اللّه (ص).

فقال (ص): أيّكما قتله؟

فقال كل واحد منهما: أنا قتلته.

قال: هل مسحتما سيفيكما؟

فقالا: لا.

فنظر رسول اللّه (ص) إلى السيفين فقال: كلّا كلاكما قتله.

وقضى رسول اللّه (ص) بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء.

وفى رواية: ان معاذ بن عفراء ضرب أبا جهل هو وأخوه عوف بن الحارث حتى أثبتاه، فعطف عليهما فقتلهما، ثم وقع صريعاً، فدفّف عليه ابن مسعود وذلك كما قال: انتهيت إلى أبى جهل وهو يتشحّط فى دمه فقلت: الحمد للّه الذى أخزاك.

فرفع رأسه فقال: انما أخزى عبد ام عبد، أخبرنى لمن الدائرة اليوم؟

قلت: للّه ولرسوله (ص)، وانى قاتلك، ووضعت رجلى على عاتقه.

فقال: لقد ارتقيت مرتقاً صعباً، أما انه ليس واللاّت والعزّى شيء أشدّ من قتلك إيّاى يا رويعىّ الغنم، ألا تولّى قتلى رجل من المطّلبين أو رجل من الأحلاف، فاقتلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته وأخذت رأسه وجئت به إلى رسول اللّه (ص) فقلت: يا رسول اللّه البشرى هذا رأس أبى جهل، فسجد للّه شكراً.

لما ألقت الحرب أوزارها

ولما انقضت الحرب أقبل رسول اللّه (ص) حتى وقف على قتلى المشركين فقال: جزاكم اللّه من عصابة شراً، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيّكم، كذّبتمونى وصدّقنى الناس، وخذلتمونى ونصرنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس.

ثم التفت (ص) إلى أبى جهل فقال: ان هذا أعتى على اللّه من فرعون، انّ فرعون لما أيقن بالهلاك وحّد اللّه، وانّ هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللاّت والعزّى.

ثم أمر بهم فأُلقوا فى القليب، فلما أُلقوا فيه وقف عليهم وقال: (يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أُمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام، وذكر أهل القليب واحداً واحداً، ثم قال: هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً؟ فإنّى قد وجدتُ ما وعدنى ربّى حقاً).

فقال رجل من الصحابة: أتكلّم قوماً موتى؟

فقال (ص): (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يُجيبونى).

ثم دفنوا شهداء المسلمين وكانوا تسعة رجال فيهم سعد بن خيثمة، وكان من النقباء بعد أن صلّوا عليهم، ثم صلّى رسول اللّه (ص) بالناس صلاة العصر ورحلوا من بدر.

فى طريق العودة

ولما غادر رسول اللّه (ص) بأصحابه منطقة بدر متّجهاً نحو المدينة حمل معه الأُسارى من المشركين وفيهم عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث، وحمل أيضاً معه الغنائم التى اغتنموها، والنفل الذى أُصيب من المشركين، وجعل على النفل عبداللّه بن كعب بن عمرو بن عوف المازنى من بنى النجار، حتى إذا كان بالصفراء قسم الغنائم بين أصحابه بالسويّة وادّخر سهم الشهداء ليُسلّمها إلى ذويهم.

ثم دخل رسول اللّه (ص) المدينة مع أصحابه مؤيداً مظفراً منصوراً قد هاب جانب المسلمين كل عدوّ لهم بالمدينة وحولها، كما وأسلم بشر كثير من أهل المدينة ممّن لم يكن أسلم بعد، وحينئذ دخل عبداللّه بن أُبىّ رأس المنافقين وأصحابه فى الإسلام.

مع أسرى بدر

ثم انّ رسول اللّه (ص) حين أقبل بالأُسارى فرّقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بالأُسارى خيراً..

فكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأُمّه فى الأُسارى، وكان يحمل أحد ألوية قريش، وكان يقول بعد أن أُطلق سراحه بالفداء: كنتُ أسيراً فى أيدى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم أو عشاءهم خصّونى بالخبز، وأكلوا التمر، والخبز عندهم قليل، والتمر زادهم، وذلك لوصية رسول اللّه (ص) بنا.

وما تقع فى يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحنى بها. فأستحى فأردها عليهم، فيردها علىَّ ما يمسّها، كما انهم كانوا لقلّة مراكبهم يحملوننا على ما عندهم من مركب ويمشون هم بأنفسهم.

مع العباس بن عبد المطلب

ولما جنّهم الليل وولى بعض الصحابة وثاق الأسرى فشدّ وثاق العباس، فسمعه النبى (ص) وهو يئن فلم يأخذه (ص) النوم، فبلغ الأنصار فأطلقوا العباس، فكان الأنصار فهموا رضاء رسول اللّه (ص) بفكّ وثاقه، وسألوه أن يتركوا له الفداء، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن اُختنا عباس فداءه.

وفى حديث ابن عباس: انه (ص) قال: يا عباس افد نفسك وابنى أخويك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمر.

فقال: إنّى كنتُ مسلماً، ولكن القوم استكرهونى.

قال: اللّه أعلم بما تقول، إن يكن ما تقول حقاً فاللّه يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا.

قال: ما ذاك عندى يا رسول اللّه.

قال: فأين المال الذى دفنته عند اُم الفضل فقلت: إن أصبت فالمال الذى دفنته للفضل وعبداللّه وقثم.

قال: واللّه يا رسول اللّه إنى لأعلم أنك رسول اللّه، انّ هذا شىء ما علمه أحد غيرى وغير اُم الفضل، فاحسب لى يا رسول اللّه ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كان معى.

قال رسول اللّه (ص): ذاك شىء أعطانا اللّه منك، ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، وأنزل اللّه فيه: (يا أيّها النبىّ قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم اللّه فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم)(۶).

بين المنّ والفداء

وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألفى درهم إلى ألف درهم، إلى قوم لامال لهم منّ عليهم رسول اللّه (ص).

وأسر رسول اللّه (ص) يوم بدر سبعين أسيراً، وكان يفاديهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لايكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلّمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه.

وممّن منّ عليه رسول اللّه (ص): المطلب بن حنطب، وصيفى بن أبى رفاعة، وأبو عزة الجمحى، وأخذ عليه أن لايظاهر عليه أحداً، وكان محتاجاً ذابنات، فقال: يا رسول اللّه لقد عرفت مالى من مال، وإنى لذو حاجة وذو عيال، فامنن علىَّ، فمنّ عليه رسول اللّه (ص) وأخذ عليه أن لايظاهر عليه أحداً.

النبى (ص) يستوهب فداء صهره

وممّن منّ عليه رسول اللّه (ص) أبو العاص بن الربيع زوج زينب ابنته بعد أن بعثت زينب بنت رسول اللّه (ص) بفدائه، وكان فيما بعثت به: قلادة كانت خديجة اُمّها أهدتها لها ليلة زفافها، فلمّا رأى رسول اللّه (ص) القلادة تذكّر زوجته الوفيّة خديجة(ع) فرقّ لها وبكى.

ثم التفت (ص) إلى المسلمين وقال: إن رأيتم أن تطلقوا سراح أسيرها وتردّوا عليها ما بعثت به من الفداء فافعلوا.

أى: انه (ص) لم يفرض رأيه عليهم مع ان القرآن يقول: (النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم)(۷) وبذلك أعرب عن حرية الإسلام ورسم سياسته الحكيمة.

فقال المسلمون: نعم يا رسول اللّه نفديك بأنفسنا وأموالنا، فردّوا عليها ما بعثت به، وأطلقوا سراح أبى العاص بغير فداء، فشكرهم

رسول اللّه (ص) علی ذلک.

هذا، وکان رسول اللّه (ص) قد أخذ علیه، أو انه وعد رسول اللّه (ص) أن یخلی سبیل زینب، فلما خرج أبوالعاص إلی مکة بعث رسول اللّه (ص) زید بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: کونا ببطن یأجج حتی تمرّ بکما زینب فتصحباها حتی تأتیانی بها. فخرجا نحو مکة، وذلک بعد بدر بشهر.

فلما قدم أبو العاص مکة أمرها باللحوق بأبیها، فتجهّزت وخرجت، فتعرّض لها هبار بن الأسود وروّعها بالرمح وهی فی الهودج، وکانت حاملاً، فألقت ما فی بطنها، فأمر رسول اللّه (ص) بقتله، فلم یظفروا به حتی إذا کان یوم الفتح هرب ثم قدم مختفیاً، فلما مثل بین یدی رسول اللّه (ص) أسلم، فقبل (ص) اسلامه وعفا عنه.

النهی عن التعذیب والمُثلة

وقدم مکرز بن حفص فی فداء سهیل بن عمرو، وکان الذی أسره مالک بن الدخشم، وفداه بأربعة آلاف درهم.

وذکر ابن اسحاق أنّ رجلاً من الصحابة قال: یا رسول اللّه دعنی انزع ثنیتی سهیل بن عمرو یدلع لسانه فلا یقوم علیک خطیباً فی موطن أبداً.

فقال رسول اللّه (ص): لا اُمثل به، فیمثل اللّه بی وإن کنت نبیاً.

وفی حدیث: انّ رسول اللّه (ص) قال فی جوابه: انه عسی أن یقوم مقاماً لا نذمه.

بؤرة التآمر والبخل

اشترک فی بدر لأبی سفیان ولدان: حنظلة وعمرو ابنا أبی سفیان، أما حنظلة فقد قتل، وأما عمرو فقد وقع أسیراً فی یدی رسول اللّه (ص).

فقیل لأبی سفیان: افد عمرواً ابنک.

فقال: یجمع علیّ دمی ومالی، قتلوا حنظلة، واُفدی عمرواً، دعوه فی أیدیهم یمسکونه ما بدا لهم.

فبینما هو کذلک إذ خرج سعد بن النعمان أخو بنی عمرو بن عوف معتمراً، فعدا علیه أبوسفیان فحبسه بابنه عمرو، وقد کان عهد قریش لا یتعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخیر.

ومشی بنو عمرو بن عوف إلی رسول اللّه (ص) فأخبروه خبره وسألوه أن یعطیهم عمرو بن أبی سفیان، فیفکوا به صاحبهم، ففعل رسول اللّه (ص)، فبعثوا به إلی أبی سفیان فخلی سبیل سعد.

المشرکون وأنباء الحرب

وکان أول من قدم مکة بمصاب قریش: الحیسمان بن عبداللّه الخزاعی، فقالوا: ما وراءک؟

قال: قتل عتبة بن ربیعة، وشیبة بن ربیعة، وأبوالحکم بن هشام، واُمیة بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبیه ومنبه ابنا الحجاج، وأبوالبختری بن هشام.

فلما جعل یعدّ أشراف قریش قال صفوان بن اُمیة وهو قاعد فی الحجر مستنکراً علیه ذلک: واللّه إن یعقل هذا فاسألوه عنّی.

قالوا: ما فعل صفوان بن اُمیة؟

قال:ها هو ذا جالس فی الحجر، وقد واللّه رأیت أباه وأخاه حین قتلا.

مصير أبى لهب

وفى حديث أبى رافع وكان غلاماً للعبّاس انه قال: لما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر سررنا بذلك، لأنا كنا قد أسلمنا من قبل، وكنت جالساً فى حجرة زمزم أنحت السهام وأصنعها، وعندى أُم الفضل جالسة، إذ أقبل أبولهب وهو يجرّ رجليه بشرّ حتى جلس.

فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا ابن أخيك أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب قدم من بدر.

قال: فقال أبو لهب: هلم إلىَّ، فعندك لعمرى الخبر.

قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخى، أخبرنى كيف كان أمر الناس؟

قال: واللّه ما هو إلاـ أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم اللّه مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، واللّه ما تبقى شيئاً ولا يقوم لها شىء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة ثم قلت وكان الإسلام قد دخلنا وسرّنا ذلك: تلك واللّه الملائكة.

فرفع أبو لهب يده فضربنى فى وجهى ضربة شديدة.

فقامت أُم الفضل إلى عمود فضربت به فى رأس أبى لهب وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيّده؟

قال: فواللّه ما عاش أبو لهب بعدها إلا سبع ليال حتى رماه اللّه بالعدسة وهى قرحة تتشاءم بها العرب فتباعد عنه بنوه حتى هلك، وبقى ثلاثة أيام لا يقرب أحد جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة فى تركه حفروا له ثم دفعوه بعود فى حفرته وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه.

وكان فراغ رسول اللّه (ص) من بدر فى عقب رمضان وأوائل شوّال، وفى أول شوّال صلّى (ص) صلاة الفطر.

۱ الأنفال: ۴۲. ۲ الأنفال: ۴۷. ۳ المائدة: ۲۴.

۴ التوبة: ۳۲. ۵ الأنفال: ۹. ۶ الأنفال: ۷۰.

۷ الأحزاب: ۶.

غزوة بنى سُليم

وبعد بدر بسبعة أيام، خرج رسول اللّه (ص) فى ثلاثمائة من الصحابة يريد بنى سُليم، حيث كانوا يعيثون فى الأرض فساداً ويستعدّون لشنّ هجوم على المدينة.

فبلغ (ص) ماء يقال له: قرقرة الكدر، وهى أرض ملساء، والكُدر: طير فى لونها كدرة، فأقام بها ثلاث ليال وقيل: عشراً، فلم يلق حرباً، وذلك بعد أن استخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى، وقيل: ابن أُم مكتوم، وحمل اللواء على بن أبى طالب (ع)، وقيل: إنه أصاب لهم نعماً يزيد على خمسمائة وغلاماً يقال له يسار فأعتقه، ورجع ولم يلق كيداً.

وكانت هذه الغزوة من غزواته التأديبية.

غزوة بنى القينقاع

ثم كانت غزوة بنى قينقاع بطن من يهود المدينة فى يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة النبوية المباركة، وكانوا أول من نقض العهد، فجمعهم رسول اللّه (ص) فى سوق بنى قينقاع وقال لهم:

(يا معشر اليهود احذروا من اللّه مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم انى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد اللّه إليكم).

فقالوا: يا محمد لا يغرّنك انك لقيت قومك فأصبت منهم، ولا علم لهم بالحرب، فإنا واللّه لو حاربناك لعلمت انا خلافهم.

فكادت تقع بينهم المناجزة فنزل فيهم: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنّم وبئس المهاد، قد كان لكم آية فى فئتين التقتا)(...۱) إلى آخر الآية.

فبينما هم على ما أظهروه من العداوة ونبذ العهد إذ جاءت امرأة رجل من الأنصار فجلست إلى صائغ فى حلى لها، فجاء أحد بنى قينقاع فعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهى لا تعلم، فلما قامت انكشفت فصاحت، فضحكوا منها، فاتبعه رجل من المسلمين فقتله، فاجتمع عليه بنو قينقاع فقتلوه ونبذوا عهدهم ووقع الشر بين المسلمين وبين بنى قينقاع، فنزل فيهم: (وامّا تخافنّ من قوم خيانة، فانبذ إليهم على سواء انّ اللّه لا يحبّ الخائنين)(۲).

فسار إليهم النبى (ص) وحاصرهم خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة وكان اللواء بيد حمزة بن عبدالمطلب، وكان أبيض، فقذف اللّه فى قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول اللّه (ص) على ان له أموالهم، وان لهم النساء والذرّية.

فأمر (ص) المنذر بن قدامة بتكتيفهم، فتوسّط لهم عبداللّه بن اُبىّ وألحّ عليه من أجلهم.

فقال (ص): خلوهم، وأمر أن يجلوا من المدينة وتركهم من القتل، فأجلاهم محمد بن سلمة الأنصارى، وقيل: عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعات الشام بنسائهم وذراريهم فلم يلبثوا إلاّ قليلاً حتى هلكوا، وأما أموالهم فخمّسها رسول اللّه (ص) وقسّم الباقى بين أصحابه.

غزوة السويق

ولما رجع رسول اللّه (ص) من غزوة بنى القينقاع، أقام بالمدينة بقية شوال، وذى القعدة، وفادى فى إقامته جلّ اُسارى بدر من قريش، ثم كانت غزوة السويق.

وذلك ان أبا سفيان بن حرب كان نذر أن لا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً (ص) فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبرّ نذره حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: (نبت) وكان من المدينة على بريد أو نحوه.

ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل، فأتى حُيى بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخاف.

فانصرف منه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك، وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس.

ثم خرج فى عقب ليلته حتى أتى ناحية يقال لها: (العريض) فوجد فيها رجلاً من الأنصار وحليفاً له فى حرث لهما فقتلهما، ثم حرق بيتاً وحرثاً لهم، ثم ولّى هارباً خوفاً من ملاحقة المسلمين، وقد رأى فيما فعله براً لنذره.

فلما سمع رسول اللّه (ص) بذلك انتدب أصحابه وخرج فى طلبهم حتى بلغ قرقرة الكُدر، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وطرحوا كثيراً من أزوادهم، كالسويق وغيره، يتخففون منها للنجاء، فأخذها المسلمون، فسميت غزوة السويق.

فقال المسلمون: يا رسول اللّه أتطمع بأن تكون لنا غزوة؟ قال: نعم.

غزوة ذى أمَر

ولما رجع رسول اللّه (ص) من غزوة السويق، أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريباً منها، ثم غزا نجداً يريد غطفان.

وذلك لأن جمعاً من غطفان تجمّعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة ويغيروا عليها، وقد جمعهم رجل يقال له: دعثور بن الحارث المحاربى.

فندب رسول اللّه (ص) المسلمين وخرج بهم فى أربعمائة وخمسين رجلاً، ومعهم أفراس.

فلما سمعوا بمهبطه هربوا فى رؤوس الجبال، فأصاب المسلمون رجلاً منهم يقال له: جبار من بنى ثعلبة، فأدخل على رسول اللّه (ص)، فدعاه إلى الإسلام فأسلم وضمه إلى بلال.

وأصاب النبىّ (ص) مطر فبلّ ثوبه، فجعل وادى أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه ونشرها على شجرة لتجفّ، واضطجع تحتها وغطفان ينظرون إليه، فقالوا لدعثور وكان أشدّهم فتكاً: قد انفرد محمد فعليك به، فأقبل ومعه سيف صارم حتى قام على رأسه (ص) فقال: من يدفعك منّى اليوم؟

فقال (ص): اللّه، ودفع جبرئيل فى صدره فوقع السيف من يده، فأخذه النبى (ص) وقام على رأسه وقال: من يمنعك منّى؟

قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأنّك محمد رسول اللّه، ثم قال: واللّه لا أكثر عليك جمعاً أبداً، فأعطاه رسول اللّه (ص) سيفه.

وعلى رواية: قال (ص) له: من يمنعك منّى؟ فقال: عفوك يا محمّد، فأعطاه (ص) سيفه، فأسلم الرجل.

ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام، فأسلم منهم ناس كثير، وأنزل اللّه تعالى: (يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم) الآية.

سريّة محمد بن مسلمة

ثم انه لما انتصر المسلمون فى غزوة بدر على أعدائهم المشركين وأسروا منهم سبعين، وقتلوا من صناديدهم ورؤوسهم سبعين، وألقوهم فى القليب، قدم زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة وعبداللّه بن رواحة إلى أهل العالية يبشران بالفتح.

فقال كعب بن الأشرف وهو من نبهان من طى وكانت اُمه من بنى النضير: أترون محمداً قتل هؤلاء؟ ان هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، واللّه إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها، فلما أيقن كعب الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبى وداعة السهمى، وجعل يحرّض على رسول اللّه (ص) وينشد الأشعار ويبكى على أصحاب القليب، ويشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم، ثم انبعث يهجو رسول اللّه (ص) والمسلمين، ويمدح عدوّهم ويحرضهم عليهم.

فقال له أبو سفيان والمشركون: أديننا أحبّ إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأىّ ديننا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق؟

فقال: أنتم أهدى منهم سبيلاً وأفضل.

ثم تحالف معهم وتعاقد على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد (ص) وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة.

ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فنزل جبرئيل (ع) وأخبر النبى (ص) بما تعاقد عليه كعب وأبوسفيان وأمره بقتل كعب.

فقال رسول اللّه (ص) وقد عاد كعب إلى المدينة: من لنا بابن الأشرف، فإنه قد آذى اللّه ورسوله، وقد استعلن بعداوتنا وهجائنا، وقد خرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا، وقد أخبرنى اللّه بذلك، ثم قدم بأخبث ما كان ينتظر قريشاً تقدم عليه فيقتلنا، ثم قرأ على المسلمين ما أنزل اللّه فيه: (ألم تر إلى الّذين اُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلاً، اُولئك الذين لعنهم اللّه ومن يلعن اللّه فلن تجد له نصيراً)(۳).

فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول اللّه أتأذن لى أن أقتله؟

قال: نعم، إنّ اللّه قد أذن فى قتله.

فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة، فدعاه إلى الحصن، فنزل إليهم، فقتلوه، ثم أتوا النبىّ (ص) فأخبروه بقتله، وكفى اللّه المسلمين شرّ حرب كان يريد كعب ايقادها، وكان ذلك لأربع عشرة ليلة مضت من ربيع الأول.

سرية زيد بن حارثة

ثم بعث رسول اللّه (ص) زيد بن حارثة فى مائة راكب إلى (القَرْدَة) (بالقاف المفتوحة والراء الساكنة) اسم ماء من مياه نجد، وذلك بعد رجوعه من بدر إلى المدينة بستةأشهر، أى أوائل ربيع الثانى، وقيل: أوائل جمادى الآخرة على رأس سبعة وعشرين شهراً من الهجرة النبوية المباركة.

وسببه ان قريشاً خافوا من طرقهم التى كانوا يسلكون إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق، وكان فيهم أبوسفيان بن حرب ومعهم فضة كثيرة، وكانوا قد استأجروا رجلاً من بكر بن وائل يقال له: فرات بن حيّان يدلّهم على الطريق، فلقيهم زيد ومن معه على ماء يقال له: (القَرْدَة)، فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزته الرجال هرباً، فقدم بها على رسول اللّه (ص) مع أسير أو أسيرين كان أحدهم فرات بن حيان، فأسلم فترك، وأما الأموال فخمست وقسمت بقيّتها بين أهل السريّة.

وكانت هذه حملات تأديبية، ولكى يقابل قريش بالمثل حيث ضربوا على المدينة حصاراً اقتصادياً كما أشرنا إليه سابقاً.

سرية عبداللّه بن عتيك

لما قتل المسلمون فى سرية محمد بن مسلمة كعب بن الأشرف وكانوا من الأوس، قالت الخزرج: واللّه لاتذهب الأوس بهذه الفضيلة علينا، وأخذوا يتذاكرون من يعادى رسول اللّه (ص) كابن الأشرف، فذكروا أبا رافع سلام بن أبى الحقيق، وكان من يهود خيبر، وكان يظاهر كعب بن الأشرف على رسول اللّه (ص) ويحرض المشركين عليه، ففكروا فى قتله ليضاهوا فى الفضل نظرائهم من الأوس، فاستأذنوا رسول اللّه (ص) فى قتله، فأذن لهم.

فخرج إليهم من الخزرج: عبداللّه بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبداللّه بن أنيس، وأبو قتادة، وخزاعى ابن الأسود حليف لهم، وأمّر عليهم عبداللّه بن عتيك، فخرجوا حتى قدموا خيبر، فأتوا دار أبى رافع، فدخلوا عليه فقتلوه وخرجوا وكان ذلك فى جمادى الآخرة.

۱ آل عمران: ۱۲ و ۱۳. ۲ الأنفال: ۵۸. ۳ النساء: ۵۱ و ۵۲.

غزوة اُحُد

و(اُحُد) جبل مشهور بالمدينة على أقل من فرسخ منها، ويسمّى بذلك لانفراده وانقطاعه عن جبال اُخر هناك، ويقال له: (ذو عينين) أيضاً، وهو الذى قال فيه رسول اللّه (ص) حين وقع نظره إليه: اُحُد جبل يحبّنا ونحبّه، وكانت عنده الوقعة المشهورة فى شوال فى السنة الثالثة من الهجرة النبوية المباركة.

وذلك لأنّ قريشاً لما رجعوا من بدر إلى مكة وقد اُصيبوا بأصحاب القليب، منعهم أبوسفيان من البكاء والنوح على قتلاهم ليبقوا على حنقهم وغيظهم ويفكّروا فى الثأر لقتلاهم، وقال تأكيداً لذلك: الدهن والنساء علىَّ حرام حتّى أغزو محمداً.

وبقوا يستعدون لذلك، حتى قال صفوان بن اُميّة، وعكرمة بن أبى جهل فى جماعة ممن اُصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم يوم بدر: يا معشر قريش، إنّ محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه يعنون عير أبى سفيان ومن كانت له فى تلك العير تجارة لعلنا أن ندرك منه ثأراً.

فأجابوا لذلك فباعوها وكانت ألف بعير والمال خمسين ألف دينار، وفيهم أنزل اللّه تعالى: (انّ الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل اللّه، فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرة ثمّ يغلبون والذين كفروا إلى جهنّم يحشرون)(۱).

رسالة من مكة

ولما اجتمعت قريش لحرب رسول اللّه (ص) كتب العباس بن عبدالمطلب وهو فى مكّة كتاباً يخبر رسول اللّه (ص) بخبرهم، واستأجر رجلاً من بنى غفار واشترط عليه أن يقطع الطريق إلى المدينة فى ثلاثة أيام، ويوصل الرسالة إلى رسول اللّه (ص).

فلما قدم الغفارى المدينة كان رسول اللّه (ص) فى بعض حيطانها فقرأه ولم يخبر أصحابه وأمرهم أن يدخلوا المدينة، فلما دخلوا المدينة أخبرهم بالخبر.

النبى (ص) يستشير أصحابه

فلما فشى الخبر فى الناس جمع رسول اللّه (ص) أصحابه يستشيرهم فى مواجهة المشركين، فقال (ص): أشيروا علىّ، ورأى على رواية أن لايخرج من المدينة.

فقال بعضهم: يا رسول اللّه ان مدينتنا عذراء ما فضّت علينا قط، وما خرجنا إلى عدوّ منها قط إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناهم، يعنى بذلك: عدم الخروج من المدينة.

وقال بعضهم: يا رسول اللّه إنّا نخشى أن يظن عدوّنا انا نكره الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا.

وقال حمزة: والذى أُنزل عليه الكتاب لا اطعم اليوم طعاماً حتى أُجالدهم بسيفى خارجاً من المدينة.

وكان هذا رأى الأكثرية، فعزم رسول اللّه (ص) على الخروج، فصلّى بالناس الجمعة ثم وعظهم وأمرهم بالجدّ والإجتهاد، وأخبر أنّ لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيّؤ لعدوّهم، ففرح الناس بذلك.

ثم صلّى (ص) بالناس العصر وقد تحشدوا، وحضر أهل العوالى، واصطف الناس ينتظرون خروجه، فلبس (ص) السلاح وخرج.

الخروج إلى أُحُد

ولما خرج (ص) إلى أُحُد عقد ثلاثة ألوية: لواء الأوس بيد اسيد بن حضير، ولواء المهاجرين بيد على بن أبى طالب (ع)، ولواء الخزرج بيد الحباب بن المنذر، وفى المسلمين مائة دارع، وخرج السعدان أمامه يعدوان دارعين، واستعمل على المدينة ابن أُمّ مكتوم، وعلى الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة، وأدلج (ص) فى السحر، وكان قد ردّ جماعة من المسلمين لصغرهم، منهم أُسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدرى، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم.

وكان المسلمون ألف رجل ويقال: تسع مائة، والمشركون ثلاثة آلاف رجل، ويقال: أربعة آلاف أو خمسة آلاف، فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس، وخمس عشرة امرأة من بينهم هند، وهى ترتجز وتقول أشعاراً.

وكان أبو سفيان قد استأجر يوم أُحُد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم المسلمين.

ونزل (ص) بأُحُد، ورجع عنه عبداللّه بن أُبىّ بنحو ثلث العسكر فيمن تبعه من قومه وحلفائه، فتبعهم عبداللّه بن عمرو بن حرام والد جابر يوبّخهم ويحرضهم على الرجوع ويقول: تعالوا قاتلوا فى سبيل اللّه أو ادفعوا.

قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم وتركهم.

التقاء الجمعين

ونفذ رسول اللّه (ص) حتى نزل الشعب من أُحُد فى عدوة الوادى، وجعل ظهره إلى أُحد مستقبلاً المدينة، ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم.

وكان أبو سفيان قد نزل بطن الوادى من قبل أُحد مقابل المدينة، نزل بها يوم الخميس، بينما نزل رسول اللّه (ص) بأُحُد يوم الجمعة.

فلما أصبح يوم السبت تعبأ (ص) للقتال، وكان فيهم خمسون فارساً، فسوّى الصفوف، وبوّأ كلاً منهم مكانه، وخطب فيهم خطبة بليغة حثهم فيها على الثبات وحرضهم على الجهاد والمقاومة، وكان ممّا جاء فيها: وما من ملك إلا وله حمى، ألا وان حمى اللّه محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى عليه سائر جسده.

ثم انه (ص) جعل على ثغرة كانت فى جبل اُحُد جماعة من الرماة وكانوا خمسين رجلاً، فأمّر عليهم عبداللّه بن جبير وقال له: انضح الخيل عنا بالنبل، واحموا لنا ظهورنا لايأتونا من خلفنا، فإن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا مراكزكم.

وقيل: انه (ص) قال لهم: فإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى اُرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى اُرسل إليكم.

ثم جعل (ص) على راية المهاجرين علياً (ع) وعلى راية الأنصار سعد بن عبادة.

وتعبأت قريش فجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل.

وقيل: انّ أبا سفيان وضع خالد بن الوليد فى مائتى فارس كميناً وقال له: إذا رأيتمونا قد اشتدّ القتال وحمى، واختلط بعضنا ببعض، فأخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا من ورائهم.

بدء القتال

ولما اصطف الجيشان كانت راية المشركين مع طلحة بن أبى طلحة من بنى عبدالدار، فالتفت إليه أبوسفيان وقال له بعد أن عبأهم للقتال: إن كنتم ترون أنكم قد ضعفتم عنها، فادفعوها إلينا نكفكموها.

فغضب طلحة بن أبى طلحة وقال: ألنا تقول هذا؟ واللّه لاُوردنّكم بها اليوم حياض الموت، وكان طلحة هذا يسمّى (كبش الكتيبة) فبرز ونادى: يا محمّد تزعمون انكم تجهّزونا بأسيافكم إلى النار، ونجهّزكم بأسيافنا إلى الجنّة، فمن شاء أن يلحق بجنّته فليبرز إلىّ، فأنا كبش الكتيبة طلحة بن أبى طلحة.

فبرز إليه على (ع) وهو يقول:

يا طلح إن كنت كما تقول لكم خيولٌ ولنا نصولُ

فاثبت لننظر أيّنا المقتولُ وأيّنا أولى بما تقولُ

فقد أتاك الأسدُ الصؤولُ بصارم ليس به فلولُ

ينصره القاهر والرسول

فقال طلحة: من أنت؟

قال: أنا على بن أبى طالب.

فقال طلحة: قد علمت يا قضم(۲) انه لا يجسر علىّ أحد غيرك، فشدّ عليه طلحة فضربه، فأتقاه على (ع) بالحجفة، ثم ضربه (ع) على فخذيه فقطعهما جميعاً فسقط على ظهره، وسقطت الراية، فذهب على (ع) ليجهز عليه، فحلّفه بالرحم فانصرف (ع) عنه.

فقال المسلمون: الا أجهزت عليه؟

قال (ع): قد ضربته ضربة لا يعيش منها أبداً.

فسرّ رسول اللّه (ص) وكبّر تكبيراً عالياً، وكبّر المسلمون.

ثم أخذ الراية أبو سعد بن أبى طلحة فقتله على (ع) وسقطت رايته على الأرض.

فأخذها عثمان بن أبى طلحة فقتله على (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها مسافع بن أبى طلحة، فقتله على (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها الحارث بن أبى طلحة، فقتله على (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها أبو عزيز بن عثمان، فقتله على (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها عبداللّه بن أبى جميلة، فقتله على (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها أرطاة بن شرحبيل فقتله على (ع) وسقطت الراية على الأرض.

فأخذها مولاهم صوأب، فضربه على (ع) على يمينه فقطعها، فأخذها بشماله، فضربه (ع) على شماله فقطعها، فأخذها على صدره وجمع يديه وهما مقطوعتان عليها، فضربه على (ع) على اُم رأسه فسقط صريعاً.

...فاشتدّ القتال إلى أن انهزم القوم، وولّوا مدبرين حتّى انتهوا إلى نسائهم، وأكبّ المسلمون على الغنائم.

المشركون ينهزمون

فلما انهزم المشركون، وأكبّ المسلمون على جمع الغنائم، ورأى أصحاب الشعب الذين أوكلهم رسول اللّه (ص) بحفظ الثغرة من خلفهم ان الناس يغنمون، قالوا: نريد أن نغنم كما يغنم الناس!

قال لهم عبداللّه بن جبير: انّ رسول اللّه (ص) أمرنى أن لا أبرح من مكانى هذا.

فقالوا له: أمرك بهذا ما لم يبلغ الأمر إلى ما نرى، ومالوا إلى الغنائم وتركوه، ولم يبرح هو ونفر قليل معه من موضعه، واشتغل الباقى بجمع الغنائم.

قالوا: ما ظفر اللّه نبيّه فى موطن قط بما ظفره وأصحابه يوم اُحُد، حتّى عصوا الرسول (ص) وتنازعوا فى الأمر.

المسلمون لما عصوا الرسول (ص)

ولما عصى المسلمون أمر رسول اللّه (ص) وتركوا الثغرة التى وكلهم بها، ولم يبق فيها سوى نفر قليل، حمل عليهم خالد بن الوليد فقتلهم، بعد أن تراموا بالنبال، وتطاعنوا بالرماح، وتقاتلوا بالسيوف، ثم جاء من ظهر رسول اللّه (ص) يريده، فنظر إلى النبى (ص) وهو فى قلّة من أصحابه فقال لمن معه: دونكم هذا الذى تطلبون فشأنكم به.

وبصرت قريش فى هزيمتها إلى الراية قد رفعت فلاذوا بها، فحملوا عليه (ص) حملة رجل واحد ضرباً بالسيوف، وطعناً بالرماح، ورمياً بالنبل، ورضخاً بالحجارة.

وجعل أصحاب رسول اللّه (ص) يقاتلون عنه حتى قتل منهم سبعون رجلاً، أربعة من المهاجرين: حمزة، ومصعب بن عمير، وعثمان بن شماس، وعبداللّه بن جحش، وسائرهم من الأنصار، فانهزم على أثره الباقون، ولم يثبت للقوم إلاّ على (ع)، وأبو دجانة، وسهل بن حنيف، يدفعون عن النبى (ص) وقد كثر عليهم المشركون.

فالتفت النبى (ص) إلى على (ع) وقال: ما صنع الناس يا على؟

قال (ع): كفروا يا رسول اللّه وولّوا الدبر من العدو واُسلموك.

قال: ما لك لاتذهب مع القوم؟

فقال: أذهب وأدعك يا رسول اللّه؟ أكُفر بعد ايمان؟! انّ لى بك اُسوة واللّه لابرحت حتى اُقتل، أو ينجز اللّه لك ما وعدك من النصر، فثبت معه يدفع عنه الكتائب.

فنظر رسول اللّه (ص) إلى كتيبة قد أقبلت إليه، فقال لعلى (ع): ردّ عنى يا على هذه الكتيبة، فحمل عليها وفرّقها، وكلّما حملت طائفة على رسول اللّه (ص) استقبلهم على (ع) فيدفعهم عنه، ويقتلهم حتى تقطّع سيفه ثلاث قطع.

لا فتى إلاّ على لا سيف إلاّ ذوالفقار

فلمّا انقطع سيف على (ع) جاء إلى رسول اللّه (ص) فقال: يا رسول اللّه انقطع سيفى ولاسيف لى.

فخلع رسول اللّه (ص) سيفه ذا الفقار الذى نزل من الجنّة(۳) وقلّده علياً (ع)، فمشى على (ع) إلى المشركين وقتل كل من برز إليه، وصدّ كل كتيبة أغارت عليهم، فلم يزل على ذلك حتى وهت درعه، وأصابته تسعون جراحة، وفى بعض جراحاته كان يسقط منها على الأرض فيرفعه جبرئيل (ع).

فعرف رسول اللّه (ص) ذلك فرفع يديه نحو السماء وقال: (ننشدك يا ربّ ما وعدتنى، فإنّك إن شئت لم تعبد).

وفى رواية قال (ص) وهو يدعو: (اللّهمّ إنّ محمداً عبدك ورسولك، جعلت لكلّ نبى وزيراً من أهله لتشدّ به عضده، وتشركه فى أمره، وجعلت لى وزيراً من أهلى: على بن أبى طالب أخى، فنعم الأخ ونعم الوزير، اللّهمّ وعدتنى أن تمدّنى بأربعة آلاف من الملائكة مردفين، اللّهمّ وعدك وعدك انّك لا تخلف الميعاد، وعدتنى أن تظهر دينك على الدين كلّه ولو كره المشركون)(۴).

فبينما رسول اللّه (ص) يدعو ربّه ويتضرّع إليه إذ سمع دويّاً من السماء، فرفع رأسه فإذا جبرئيل (ع) على كرسى، ومعه أربعة آلاف من الملائكة مردفين، وهو يقول: (لا فتى إلّا على، ولا سيف إلّا ذو الفقار)، فهبط جبرئيل وحفّت الملائكة برسول اللّه (ص) وسلّموا عليه.

فقال جبرئيل (ع): يا رسول اللّه والذى أكرمك بالهدى لقد عجبت الملائكة المقرّبون من مواساة على (ع) لك بنفسه.

فقال رسول اللّه (ص): يا جبرئيل وما يمنعه أن يواسينى بنفسه وهو منّى وأنا منه.

فقال جبرئيل (ع): وأنا منكما(۵).

فبكى على (ع) سروراً وحمد اللّه على نعمته.

مصرع حمزة سيّد الشهداء

ولما اقتتل الناس وحميت الحرب كانت هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان وسط المعركة، فكلما انهزم رجل من قريش دفعت إليه ميلاً ومكحلة وقالت: انما أنت امرأة فاكتحل بهذا.

وكان حمزة بن عبدالمطلب عم النبى (ص) يحمل على القوم، فإذا رأوه انهزموا ولم يثبت له أحد، وكانت هند قد أعطت وحشياً عهداً: بأنه إن قتل محمداً، أو علياً، أو حمزة، لأعطته رضاه، وكان وحشى عبداً لجبير بن مطعم حبشياً.

فقال وحشى: أما محمد فلا أقدر عليه، وأما على فرأيته رجلاً حذراً كثير الإلتفات فلم أطمع فيه، وأمّا حمزة فإنى أطمع فيه، لأنه إذا غضب لم يبصر بين يديه.

قال: فكمنتُ لحمزة، فرأيته يهدّ الناس هدّاً ما يقوم له شىء، فمرّ بى فوطئ على جرف نهر، فانهار به، فأخذت حربتى فهززتها ورميته، فوقعت فى خاصرته وخرجت من ثنيته فسقط.

ثم جاءت هند وأخذت تمثّل بجسد حمزة فبقرت بطنه واستخرجت كبده فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، كما قطعت أصابعه وكل ما برز من جسمه وجعلتها قلادة لها.

وعلى رواية عن وحشى انه قال: فأتيت حمزة فشققت بطنه، فأخذت كبده وجئت بها إلى هند، فقلت لها: هذه كبد حمزة، فأخذتها فى فمها فلاكتها، فجعلها اللّه فى فيها مثل الداغصة، فلفظتها ورمت بها، فبعث اللّه ملكاً فحمله وردّه إلى موضعه.

قال أبو عبداللّه (ع): أبى اللّه أن يدخل شيئاً من بدن حمزة النار.

ولما رأى رسول اللّه (ص) ما صنع بحمزة قال: (اللّهمّ لك الحمد وإليك المشتكى، وأنت المستعان على ما أرى).

ثم قال على رواية: (ولئن ظفرت لامثلنّ ولأمثلنّ).

فأنزل اللّه تعالى: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصّابرين)(۶).

فقال رسول اللّه (ص): أصبر، ثم صلّى على حمزة سبعين صلاة، وكبّر عليه سبعين تكبيرة، ودفنه فى ثيابه بدمائه التى اُصيب فيها.

دناءة بنى اُمية وأتباعهم

وروى: ان الحليس بن علقمة وهو سيد الأحابيش يوم اُحُد، نظر إلى أبى سفيان وهو على فرس وبيده رمح يجأ به فى شدق حمزة، فقال الحليس: انظروا يا معشر بنى كنانة إلى من يزعم انه سيد قريش ما يصنع بابن عمه الذى قد صار لحماً! وأبو سفيان يقول: ذق عقق.

فلما التفت أبو سفيان إلى الحليس وما يقوله قال له: صدقت، اكتمها علىَّ.

مع أبى دجانة

وكان أبو دجانة هو الآخر الذى كان يحمل على القوم حتى أمعن فيهم، وقد جعل من نفسه ترساً يقى رسول اللّه (ص) من سيوف الكفّار ورماحهم حين انكشف أصحابه عنه فقد ثبت هو ولم يكن من المنكشفين.

فالتفت إليه رسول اللّه (ص) وقال: يا أبا دجانة أما ترى قومك؟

قال: بلى.

قال: فالحق بقومك، وأنت فى حلّ من بيعتى.

فبكى أبو دجانة وقال: لا واللّه لا جعلتُ نفسى فى حلّ من بيعتى، إنّى بايعتك، فإلى من أنصرف يا رسول اللّه، إلى زوجة تموت، أو ولد يموت، أو دار تخرب، أو مال يفنى، أو أجل قد اقترب؟

فرقّ له رسول اللّه (ص).

فلم يزل يقاتل حتى أثخنته الجراحة وهو فى وجه، وعلى (ع) فى وجه، فلما سقط احتمله على (ع) فجاء به إلى النبى (ص) فوضعه عنده فقال: يا رسول اللّه أوَفيتُ ببيعتى؟

قال: نعم، ودعا له بخير، فالتأمت جراحاته وعاش حتى كان يوم اليمامة، فاشترك فيها كما كان يشترك فى غيرها من قبل، وقاتل حتّى قُتِل شهيداً.

الثابتون مع الرسول (ص)

وكان ممّن قاتل مع رسول اللّه (ص) يوم اُحُد نسيبة المازنية اُم عمارة وابناها عبداللّه بن زيد، وعمارة بن غزية، وزوجها غزيّة.

يقول عبداللّه بن زيد: شهدتُ اُحُداً مع رسول اللّه (ص)، فلمّا تفرّق الناس عنه دنوتُ منه واُمّى تذبّ عنه.

فقال (ص): يا ابن اُم عمارة؟

قلت: نعم.

قال: ارم، فرميت بين يديه رجلاً من المشركين بحجر وهو على فرس، فاُصيب عين الفرس، فاضطرب الفرس حتى وقع هو وصاحبه.

ثم نظر (ص) إلى جرح باُمّى على عاتقها، فقال: اُمّك اُمّك، اعصب جرحها بارك اللّه عليكم، لمقامك ومقام أخيك ومقام اُمّك ومقام زوج اُمك خير من مقام المنكشفين والمنهزمين عنّى.

ثم قال (ص): رحمكم اللّه من أب واُم واخوة.

قال: فقالت اُمّى وهى لا تملك نفسها فرحاً: ادع لنا يا رسول اللّه أن نرافقك فى الجنّة.

فقال: اللّهمّ اجعلهم رفقائى فى الجنّة.

فقالت: ما اُبالى بعدها ما أصابنى من الدنيا.

عمرو بن الجموح والشهادة

وكان عمرو بن الجموح رجلاً ذا عرج فى رجله، فلما كان يوم اُحُد شهد مع النبى أربعة من ولده، أمّا هو فأراد قومه أن يحبسوه وقالوا له: انك ممّن لا حرج عليه، وقد ذهب بنوك الأربعة مع النبى (ص) فابق عندنا.

فأجابهم قائلاً: بخ لهم يذهبون إلى الجنّة، وأنا أجلس عندكم؟

فقالت امرأته: كأنّى أنظر إليه مولّياً قد أخذ درقته وهو يقول: اللّهمّ لا تردّنى إلى أهلى، فخرج ولحقه بعض قومه يكلّمونه فى القعود، فأبى.

ثم جاء إلى رسول اللّه (ص) فقال: يا رسول اللّه انّ قومى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك، واللّه انّى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنّة.

فقال له (ص): أمّا أنت فقد عذرك اللّه ولا جهاد عليك، فأبى.

فقال النبى (ص) لقومه وبنيه: (لا ـ عليكم أن لا ـ تمنعوه، لعلّ اللّه يرزقه الشهادة) فخلّوا عنه، فبقى فى صفوف المسلمين وقاتل فقتل يومئذ شهيداً.

وبعد شهادته، أقبلت إليه امرأته لتحمله مع ابنها خلاّد وأخيها عبداللّه والد جابر الأنصارى، فحملتهم على بعير تريد بهم المدينة.

فالتقى بها بعض النساء اللاتى خرجن يتفقّدن خبر رسول اللّه (ص) فسألنها عنه؟

فقالت: خيراً، أمّا رسول اللّه (ص) فصالح، وكلّ مصيبة بعده جلل، أى: قليل، واتّخذ اللّه من المؤمنين شهداء، وهؤلاء: ابنى وأخى وزوجى أحملهم لأدفنهم فى المدينة، فسارت بهم، فلما بلغت منقطع الحرّة برك البعير، فكانت كلما توجّهه إلى المدينة برك، وإذا وجّهته إلى اُحُد أسرع.

فرجعت إلى النبى (ص) فأخبرته بذلك.

فقال (ص): انّ الجمل لمأمور، هل قال عمرو بن الجموح شيئاً؟

قالت: نعم يا رسول اللّه، انه لما توجّه إلى اُحُد استقبل القبلة ثم قال: اللّهمّ لا تردّنى إلى أهلى وارزقنى الشهادة.

فقال (ص): (فلذلك الجمل لا يمضى، انّ منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على اللّه لأبرّه، منهم عمرو بن الجموح، يا هذه ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن)؟

ثم مكث رسول اللّه (ص) فى قبرهم ثم قال: انّهم قد ترافقوا فى الجنّة جميعاً: بعلكِ وابنكِ وأخوكِ.

فقالت امرأته: يا رسول اللّه فادع لى عسى أن يجعلنى معهم، فدعا لها بذلك.

الشهادة والمساهمة عليها

وكان خيثمة أبو سعد بن خيثمة ممّن قاتل بين يدى رسول اللّه (ص) فى اُحُد ونال الشهادة، فقد أشار على رسول اللّه (ص) بالخروج من المدينة لمجابهة قريش والتعرّض للنصر أو الشهادة قائلاً: لقد بلغ من حرصى على الشهادة أن ساهمت ابنى فى الخروج إلى بدر فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيته البارحة فى النوم وهو فى أحسن صورة يسرح فى ثمار الجنّة وأنهارها، ويقول لى: ألحق بنا ترافقنا فى الجنّة، وقد كبرت سنّى، ورقّ عظمى، وأحببت لقاء ربّى، فادع اللّه أن يرزقنى الشهادة.

فدعا له رسول اللّه (ص) بذلك، فقاتل بين يديه حتى قتل بأُحد شهيداً.

غسيل الملائكة

وكان حنظلة غسيل الملائكة رجل من الخزرج تزوّج فى الليلة التى كانت صبيحتها حرب اُحُد، فلما أصبح خرج ولم يغتسل وحضر القتال.

فالتقى بأبى سفيان بن حرب وهو يجول بين العسكر، فحمل عليه فضرب عرقوب فرسه، فاكتسعت الفرس وسقط أبوسفيان إلى الأرض فصاح: يا معشر قريش أنا أبو سفيان وهذا حنظلة يريد قتلى، ثم عدا يركض نحو قومه وحنظلة فى طلبه.

فعرض له شداد بن الأسود الليثى فطعنه، فمشى حنظلة فى طعنته فضرب الليثى فقتله، وسقط حنظلة إلى الأرض بين حمزة وعمرو بن الجموح وعبداللّه بن حزام، وجماعة من الأنصار.

فقال رسول اللّه (ص): رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن فى صحاف من ذهب، فكان يسمّى (غسيل الملائكة) لأنه خرج من عند زوجته إلى القتال مسرعاً ولم يغتسل من جنابته.

وقال أبو سفيان: حنظلة هذا بحنظلة وهو يقصد ابنه حنظلة الذى قتل ببدر.

عين قتادة

وكان ممّن شهد اُحُد وقاتل دون رسول اللّه (ص) قتادة بن النعمان، فاُصيبت عينه حتى وقعت على وجنته، فأخذها بيده وجاء إلى النبى (ص) وقال: يا رسول اللّه انى جديد عهد بالزواج وامرأتى شابة اُحبّها وتحبّنى وأنا أخشى أن تكرهنى مكان عينى.

فأخذها رسول اللّه (ص) فردّها إلى مكانها، فأبصرت وعادت كما كانت لم تؤلمه ساعة من ليل ولا نهار.

فكان يقول بعد أن كبر وطعن فى السنّ: هى أقوى عينىَّ، وكانت أحسنهما.

يد ابن عتيك

وكان ممّن شهد اُحُد وأبلى مع رسول اللّه (ص) بلاءاً حسناً عبداللّه بن عتيك فاُصيب يده فاُبينت، فأخذها وجاء بها إلى رسول اللّه (ص) واشتكى له ما يلقاه من ألمها.

فأخذها رسول اللّه (ص) وأركبها فى محل قطعها ومسح عليها بيده الكريمة، فاستوت يد عبداللّه كأن لم يكن بها شىء.

نيف وسبعون جراحة

قال أنس بن مالك: اُتى رسول اللّه (ص) بعلى (ع) يوم اُحُد وعليه نيف وسبعون جراحة من طعنة وضربة ورمية، فجعل رسول اللّه (ص) يمسحها وهى تلتئم بإذن اللّه تعالى، كأن لم تكن.

وقيل: انّ رسول اللّه (ص) أخذ الماء بفمه فرشّه على جراحاته، فكأنّها لم تكن من وقتها.

المتجرئو على رسول اللّه (ص)

ورمى ابن قميئة الليثى رسول اللّه (ص) بقذافة فأصاب كفّه، وضربه عتبة بن أبى وقاص بالسيف حتى أدمى فاه، ورماه عبداللّه بن شهاب بقلاعة فأصاب مرفقه، وليس أحد من هؤلاء مات ميتة سوية:

فأما ابن قميئة، فقد سلّط اللّه عليه الشجر، فكان إذا مرّ بها وقع فى وسطها فتأخذ من لحمه، فلم يزل كذلك حتى صار مثل الصرّ ومات.

وقيل: انه أتاه تيس جبل وهو نائم بنجد، فوضع قرنه فى مراقّه ثم دعسه فجعل ينادى: واذلاّه حتى أخرج قرنيه من ترقوته ومات.

وأما عتبة بن أبى وقاص فمات على كفره قبل أن يحول عليه الحول، وكذلك كان مصير ابن شهاب.

ورمى المغيرة بن العاص رسول اللّه (ص) بحجر فأصاب جبهته (ص)، فضرب اللّه المغيرة بالتحيّر، فلما انكشف الناس تحيّر فلحقه

عمار بن ياسر فقتله.

مع اُبيّ بن خلف

وروى: ان اُبيّ بن خلف قال للنبى (ص) بمكة: انه يعلف فرساً له ليقتله يوماً عليها.

فقال له رسول اللّه (ص): لكن أنا إن شاء اللّه تعالى.

فأقبل اُبى يوم اُحد على فرسه وحمل على رسول اللّه (ص) وكان الرسول بين الحارث بن صمّة وسهل بن حنيف، فوقاه مصعب بن عمير بنفسه، فطعن مصعباً فقتله.

فأخذ رسول اللّه (ص) عنزة كانت فى يد سهل بن حنيف ثم طعن اُبيّاً فى جرّبان الدرع، فاعتنق فرسه وانتهى إلى عسكره وهو يخور خوار الثور.

فقال له أبو سفيان: ويلك ما أجزعك؟ انما هو خدش ليس بشىء.

فقال: ويلك يا ابن حرب أتدرى من طعننى؟ انما طعننى محمد وهو قال لى بمكة: انى سأقتلك، فعلمت انه قاتلى، واللّه لو انّ ما بى كان بجميع أهل الحجاز لقضت عليهم، فلم يزل يخور حتى مات.

نماذج من الصحابة المؤمنين

فلما سكن القتال قال رسول اللّه (ص): من يطلب لنا سعد بن الربيع، وأشار بيده إلى موضع من المعركة.

فجاء رجل نحو الموضع يطلبه، فرآه صريعاً بين القتلى.

فقال: يا سعد، فلم يجبه، حتى قال له: يا سعد إنّ رسول اللّه (ص) يسأل عنك.

فرفع سعد رأسه وانتعش كما ينتعش الفرخ، ثم قال بصوت ضعيف: انّ رسول اللّه (ص) لحىّ؟

فقال له: نعم.

قال سعد: الحمد للّه، أبلغه عنّى السلام، وأبلغ قومى الأنصار عنّى السلام وقل لهم: واللّه ما لكم عند اللّه عذر ان تشوك رسول اللّه (ص) شوكة وفيكم عين تطرف، ثم تنفّس فخرج منه مثل دم الجزور وقضى نحبه شهيداً.

فجاء الرجل وأخبر بذلك رسول اللّه.

فقال (ص): (رحم اللّه سعداً نصرنا حيّاً، وأوصى بنا ميتاً).

يوم بلاء وتمحيص

ولما انكشف المسلمون يوم اُحد وانهزموا أصاب فيهم العدو، فكان يوم بلاء وتمحيص أكرم اللّه فيه من أكرم بالشهادة، وقد خلص العدو إلى رسول اللّه (ص) فدُق بالحجارة حتى شج فى وجهه وكلمت شفته السفلى، وكادوا أن يقتلوه (ص) لولا حفظ اللّه تعالى له، فقام رافعاً يديه إلى السماء وهو يقول: (إنّ اللّه اشتدّ غضبه على اليهود حين قالوا: عزير ابن اللّه، واشتدّ غضبه على النصارى ان قالوا: المسيح ابن اللّه، وان اللّه اشتدّ غضبه على من أراق دمى، وآذانى فى عترتى)(۷).

وفى الحديث: انه كلما سال الدم على وجهه المبارك (ص) تناوله بيده فرمى به فى الهواء، فلا يرجع منه شىء.

قال أبو عبداللّه (ع): واللّه لو سقط منه شىء على الأرض لنزل العذاب.

وقيل له (ص): ألا تدعو عليهم؟

فقال (ص): (اللّهمّ اهد قومى فإنّهم لا يعلمون).

ثم كان يقول (ص) أسفاً عليهم: (كيف يفلح قوم خضّبوا وجه نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى اللّه)؟

رجل من أهل الجنّة

وقيل: انه لما شج (ص) فى وجهه واختضبت وجنتاه بالدم، أقبل مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى فامتصّ الدم من وجنة رسول اللّه (ص) فاستساغه ولم يمجّه.

فقال (ص) له: مجّه.

فقال: واللّه لاأمجّه أبداً حتى يمتزج بلحمى ودمى فأكون عند اللّه من الفائزين بك.

ثم أدبر يقاتل، فقال النبى (ص): من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى هذا، فقاتل، فقتل شهيداً.

ابليس ينتهز الفرصة

وكان ممّن قاتل دون رسول اللّه (ص) حتى قُتل: مصعب بن عمير، وكان الذى قتله ابن قمئة وهو يظنه رسول اللّه، فصاح ابن قمئة: قتلت محمداً.

وصرخ الشيطان: ان محمداً قد قتل، فوقع ذلك فى قلوب كثير من المسلمين.

فقال بعضهم: نقاتل على ما قاتل عليه حتى نلحق به.

وقال آخرون: لو كان نبياً لما قتل، وارتد بعضهم، وانهزم بعضهم، وقال بعضهم: لو أرسلنا إلى أبى سفيان من يأخذ لنا أماناً منه، وبعضهم جلسوا وألقوا بأيديهم.

فمرّ أنس بن النضر بقوم قد ألقوا بأيديهم فقال: يا قوم ما تنتظرون؟

فقالوا: قتل رسول اللّه (ص).

قال: فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه.

ثم استقبل الناس، ولقى سعد بن معاذ فقال: يا سعد انى لأجد ريح الجنّة من دون اُحد.

ثم استقبل المشركين وقال: اللّهم إنّى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى بعض المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعنى المنافقين.

ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل.

وذهبت صيحة ابليس حتى دخلت بيوت المدينة، فبكت فاطمة(ع) ولم تبق هاشمية ولا قرشيّة إلا وضعت يدها على رأسها، وخرجت فاطمة(ع) باكية حتى انتهت هى وصفيّة إليه (ص).

فلما دنت فاطمة(ع) ورأت ما بأبيها (ص) من الجراحات خنقتها العبرة، وجعلت تمسح الدم وتقول: اشتدّ غضب اللّه على من أدمى وجه رسول اللّه (ص).

المسلمون يثوبون

ثم أقبل رسول اللّه (ص) نحو المسلمين، وكان أول من عرفه كعب بن مالك الشاعر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول اللّه (ص).

فأشار إليه رسول اللّه (ص) أن اصمت، فانحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم النبى (ص) على الفرار.

فقالوا: يا رسول اللّه فديناك بآبائنا واُمهاتنا أتانا الخبر بأنك قتلت، فرعبت قلوبنا فولّينا مدبرين، فأنزل اللّه تعالى: (وما محمّد إلّا رسول

قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً وسيجزى اللّه الشاكرين)(۸).

وقيل: نزلت هذه الآية عندما رجع رسول اللّه (ص) من اُحد إلى المدينة، فاستقبله أهلها بأجمعهم وهم يبكون ويطلبون التوبة ويقرّون بالذنب، ونساء الأنصار قد خدشن الوجوه، ونشرن الشعور، وجززن النواصى، وخرقن الجيوب، وحزمن البطون على النبى (ص)، فلمّا رأينه قال لهنّ خيراً وأمرهنّ أن يتستّرن ويدخلن منازلهنّ، وقال: ان اللّه عزوجل وعدنى أن يظهر دينه على الأديان كلها، ثم قال لهم رسول اللّه (ص):

(أيها الناس انكم رغبتم بأنفسكم عنّى، ووازرنى على وواسانى، فمن اطاعه فقد أطاعنى، ومن عصاه فقد عصانى وفارقنى فى الدنيا والآخرة)(۹).

صاحب المهراس

روى انه لما صاح ابليس بالمدينة: قتل محمد لم يبق أحد من نساء المهاجرين والأنصار إلّا وخرجت، كما وخرجت فاطمة بنت رسول اللّه (ص) تعدو على قدميها، حتى وافته وقعدت بين يديه تبكى لما رأت ما أصاب أبيها رسول اللّه (ص) من الجراحات، وأقبل على بن أبى طالب (ع) وقد ملأ درقته بماء من المهراس(۱۰) فجاء به رسول اللّه (ص) ليشرب منه، ثم غسل به عن وجهه الدم، وإليه يشير قول على (ع) يوم الشورى: (نشدتكم باللّه هل فيكم أحد وقفت الملائكة معه يوم اُحد حين ذهب الناس غيرى؟ قالوا: لا ـ قال: نشدتكم باللّه هل فيكم أحد سقى رسول اللّه (ص) من المهراس غيرى؟ قالوا لا).

وعن سهل: انه سئل عن جرح رسول اللّه (ص) فقال: واللّه إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول اللّه (ص) ومن كان يسكب الماء؟ كانت فاطمة ابنته تغسله وعلى بن أبى طالب يسكب الماء، فلما رأت فاطمة أن الماء لايزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فاستمسك الدم.

الصلاة فى زوال اُحد

وذكر مولى عفرة: ان النبى (ص) صلّى الظهر يوم اُحد قاعداً من الجراح، وكذلك صلّى المسلمون خلفه قعوداً من شدة ما بهم، وقد انهزم قوم من المسلمين يومئذ فبلغ بعضهم إلى الحلوب دون الأعوص.

فلمّا قدموا بعد ثلاثة أيام من هزيمتهم قال لهم رسول اللّه (ص): إلى أين انتهيتم؟

قالوا: إلى الأعوص.

قال: لقد ذهبتم فيها عريضة، أى: واسعة.

دأب بنى اُمية وأتباعهم

ولما انكشف المسلمون عن رسول اللّه (ص) اشتغل المشركون ونساؤهم بقتلى المسلمين يمثلون بهم ويقطعون الآذان والأُنوف وغيرها، ويبقرون البطون، ويستخرجون منها الأكباد والكلى.. فلما تتبّع المسلمون قتلاهم لم يجدوا قتيلاً إلّا وقد مثلوا به، إلّا حنظلة غسيل الملائكة، فإنّ أباه وهو أبو عامر الراهب الذى سماه رسول اللّه (ص) أبو عامر الفاسق وهو صاحب مسجد ضرار، كان مع المشركين فترك له، وكان حمزة عم النبى (ص) أكثر من مثّل به من بين القتلى.

۱ الأنفال: ۳۶.

۲ تفسير على بن إبراهيم قال: وحدّثنى أبى، عن ابن أبى عمير، عن هشام، عن أبى عبد الله (ع) انه سئل عن معنى قول طلحة بن أبى طلحة لما بارزه على (ع): يا قضم؟ قال (ع): إن رسول الله (ص) كان بمكة لم يجسر عليه أحد لموضع أبى طالب، فأغروا به الصبيان،

وكانوا إذا خرج رسول الله (ص) يرمونه بالحجارة والتراب، فشكى ذلك إلى على (ع) فقال: بأبى أنت وأُمى يا رسول الله إذا خرجت فأخرجنى معك، فخرج رسول الله (ص) ومعه على (ع) فتعرض الصبيان لرسول الله (ص) كعادتهم، فحمل عليهم على (ع) وكان يقضمهم فى وجوههم وآنافهم وآذانهم فكان الصبيان يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون: قضمنا على، قضمنا على، فسمى لذلك: القُضَم. (راجع بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۵۲ ب ۱۲ ح ۳).

۳ راجع بحار الأنوار: ج ۳۹ ص ۴۷ ب ۷۳ ح ۱۵ بيان، و: ج ۴۲ ص ۵۷ ب ۱۱۸ ح ۱.

۴ بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۱۰۵ ب ۱۲ ح ۳۰.

۵ الكافى: ج ۸ ص ۳۱۸ ب ۸ ح ۵۰۲ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ۱۰ ص ۱۸۲ ب ۱۹۰ و ج ۱۳ ص ۲۶۱ وج ۱۴ ص ۲۵۱ دار إحياء التراث العربى ط ۲.

۶ النحل: ۱۲۶. ۷ بحار الأنوار: ج ۲۷ ص ۲۰۶ ب ۸ ح ۱۴. ۸ آل عمران: ۱۴۴.

۹ بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۱۰۶ ب ۱۲ ح ۳۰.

۱۰ قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيراً، وقيل: هو اسم ماء بأحد.

خاتمة القتال

ولما قتل جمع من المسلمين وفرّ آخرون، واضطربت الصفوف وتداخلت، جَمَع رسول اللّه (ص) من بقى معه من المسلمين ثم حمل هو (ص) وعلى (ع) والمسلمون معه حملة رجل واحد على القوم، فانهزم المشركون وتشتّت أمرهم وانصرفوا إلى مكة ولم يصلوا إلى ما أرادوا من قتل الرسول (ص) وابادة المسلمين، فكان النصر أخيراً للمسلمين وإن قتل منهم جمع كثير.

هتافات متقابلة

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: انعمت فعال، ان الأيام دول، وان الحرب سجال، يوم بيوم بدر.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟

قالوا: يا رسول اللّه ما نقول؟

قال (ص): قولوا: لا سواء، قتلانا فى الجنّة وقتلاكم فى النار.

فقال أبو سفيان: لنا العزّى ولا عزّى لكم.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟

قالوا: يا رسول اللّه ما نقول؟

قال (ص): قولوا: اللّه مولانا ولا مولى لكم.

فقال أبو سفيان: اعل هبل.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟ قولوا: اللّه أعلى وأجلّ.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: أحىّ ابن أبى كبشة؟ فأما ابن أبى طالب فقد رأيناه مكانه.

فقال له على (ع): أى والذى بعثه بالحقّ انه (ص) ليسمع كلامك.

فقال أبو سفيان: لعن اللّه ابن قمئة زعم انه قتل محمداً، ثم قال: انه قد كانت فى قتلاكم مُثلة، وانّ موعدنا وموعدكم بدراً فى العام القابل.

فقال رسول اللّه (ص) لعلى (ع): قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

استطلاع أخبار القوم

ثم بعث رسول اللّه (ص) على بن أبى طالب (ع) وقال: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأُناجزنهم.

قال على (ع): فخرجت فى أثرهم أنظر ما يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة، فلما وقع نظر أبى سفيان على على (ع) قال له: يا على ما تريد هو ذا نحن ذاهبون إلى مكة، فانصرف إلى صاحبك فأخبره.

فأتبعهم جبرئيل (ع)، فكلّما سمعوا حافر فرسه جدّوا فى السير، وكان يتلوهم فإذا ارتحلوا قالوا: هو ذا عسكر محمد قد أقبل، ومازالوا كذلك حتى دخلوا مكة منهزمين ومرعوبين.

انّ اللّه بالغ أمره

وروى: انه لما انصرف أبو سفيان ومن معه من غزاة أُحد وبلغوا الروحاء، ندموا على انصرافهم عن المسلمين وتلاوموا فقالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم.

فبلغ ذلك الخبر رسول اللّه (ص) فأراد أن يرهب العدوّ ويريهم من نفسه وأصحابه قوّة، فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان وقال: (ألا عصابة تشدّد لأمر اللّه تطلب عدوّها، فإنها انكاء للعدوّ وأبعد للسمع) فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من القرح والجرح الذى أصابهم يوم أُحُد وامتثلوا ما أمرهم به.

مدفن الشهداء

ولما وضعت الحرب أوزارها يوم أُحد، حمل كل واحد قتيله على جمل ليدفنوهم فى المدينة، فكانوا كلما توجّهوا بهم نحو المدينة بركت الجمال، وإذا توجّهوا بهم نحو المعركة أسرعت.

فشكوا ذلك إلى رسول اللّه (ص) فقال: ألم تسمعوا قول اللّه تعالى: (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)(۱) فأرجعهم (ص) إلى مكانهم ودفنهم بثيابهم الملطّخة بالدماء كل رجلين فى قبر على رواية الأ ـ حمزة (ع) فإنه دفن وحده.

على مشارف المدينة

ثم انصرف المسلمون مع النبى (ص) إلى المدينة، فاستقبلته فاطمة(ع) ومعها اناء فيه ماء، فغسل به وجهه، فلمّا رأته فاطمة(ع)(۲) قد شجّ فى وجهه وأُدمى فوه ادماءاً بكت(ع) وجعلت تمسح الدم وتقول: اشتد غضب اللّه على من أدمى وجه رسول اللّه (ص).

وكان معه (ص) على (ع) وقد خضب الدم يده إلى كتفه، ومعه ذو الفقار، فناوله فاطمة(ع) وقال لها: خذى هذا السيف فقد صدقنى اليوم، وأنشأ يقول:

أفاطم هاك السيف غير ذميم فلست برعديد ولا بمليم

لعمرى لقد أعذرت فى نصر أحمد وطاعة ربٍ بالعباد عليم

اميطى دماء القوم عنه فإنه سقى آل عبدالدار كأس حميم

وقال رسول اللّه (ص): خذيه يا فاطمة فقد أدّى بعلك ما عليه، وقد قتل اللّه بسيفه صناديد قريش.

مع ابنة جحش

فلما ارتحل رسول اللّه (ص) ودخل المدينة، استقبلته النساء يولولن ويبكين، فاستقبلته زينب بنت جحش، فقال لها رسول اللّه (ص): احتسبى.

فقالت: من يا رسول اللّه؟

قال (ص): أخاك.

قالت: (إنّا للّه وإنّا إليه راجعون)(۳) هنيئاً له الجنّة.

ثم قال (ص) لها: احتسبى.

فقالت: من يا رسول اللّه؟

قال (ص): حمزة بن عبدالمطلب.

قالت: (إنّا للّه وإنّا إليه راجعون)(۴) هنيئاً له الشهادة.

ثم قال لها: احتسبى.

فقالت: من يا رسول اللّه؟

قال (ص): زوجك مصعب بن عمير.

قالت: واحزناه.

فقال رسول اللّه (ص): انّ للزوج عند المرأة لحدّاً ما لأحد مثله.

فقيل لها: لم قلت ذلك فى زوجك؟

قالت: ذكرت يتم ولده.

النساء المخلصات

وكانت امرأة من بنى النجار قتل أبوها وزوجها وأخوها مع رسول اللّه (ص)، فدنت من رسول اللّه (ص) والمسلمون قيام على رأسه، فقالت لرجل متسائلة بتلهّف: أحيّ رسول اللّه (ص)؟

قال: نعم.

قالت وهى مستبشرة: أستطيع أن أنظر إليه؟

قال: نعم.

فأوسعوا لها، فدنت منه (ص) وقالت: كل مصيبة جلل بعدك يا رسول اللّه، ثم انصرفت.

البكاء على حمزة

ولما انصرف رسول اللّه (ص) إلى المدينة بعد أن صلّى على القتلى ودفنهم بثيابهم ودمائهم، مرّ بدور فى المدينة، فسمع بكاء النوائح على قتلاهنّ، فترقرقت عينا رسول اللّه (ص) بالدموع وبكى ثم قال: لكن حمزة لا بواكى له.

فلمّا سمعها سعد بن معاذ واسيد بن حضير قالا: لا تبكينّ امرأة حميمها حتى تأتى فاطمة(ع) فتسعدها بالبكاء.

فلما سمع رسول اللّه (ص) الواعية على حمزة وهو عند فاطمة(ع) على باب المسجد قال: ارجعن يرحمكنّ اللّه فقد آسيتنّ بأنفسكنّ.

غزوة حمراء الأسد

ولما وافى اليوم الثانى من انتهاء معركة اُحد، أذّن مؤذّن رسول اللّه (ص) فى الطلب للعدو، وعهد رسول اللّه (ص) أن لا يخرج معه أحد إلا من حضر المعركة يوم اُحد، حيث قال: ألا لا يخرجنّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، ألا من كانت به جراحة فليخرج، ومن لم تكن به جراحة فليقم.

فخرج معه سبعون رجلاً ممّن أثقلهم الجراح وهم يأملون أن لا تفوتهم غزوة مع رسول اللّه (ص).

وقدّم (ص) علياً (ع) بين يديه براية المهاجرين، واستأذنه جابر بن عبداللّه فى أن يفسح له فى الخروج معه، ففسح له فى ذلك، فخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح، وإنما خرج (ص) مرهباً للعدوّ ومتجلّداً، وذلك بعد أن استخلف على المدينة ابن اُمّ مكتوم، فبلغ حمراء الأسد، وهى على ثمانية أميال من المدينة.

وهناك مرّ برسول اللّه (ص) معبد بن أبى معبد الخزاعى، وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول اللّه (ص) مسلمهم وكافرهم، لايخفون عليه شىء، ومعبد يومئذ مشرك. فقال: يا محمد، أما واللّه لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن اللّه عافاك فيهم.

ثم خرج معبد من عند رسول اللّه (ص) حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا على الرجعة إلى رسول اللّه (ص) وأصحابه وهم يقولون: أصبنا جلّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم؟ فلنكرنّ على بقيتهم فلنفرغن منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبداً، قال: ما وراءك يا معبد؟

قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما ضيّعوا وفيهم من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال: ويلك ما تقول؟

قال: واللّه ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل.

فساء ذلك أبا سفيان ومن معه، ووقع فى قلوبهم الرعب مما دعاهم إلى الإنصراف عما عزموا عليه، والرجوع إلى مكة.

هذا ورسول اللّه (ص) لما نزل بحمراء الأسد أمر أصحابه فى الليل بأن يوقدوا حولهم نيراناً كثيرة، فأوقدوا خمسمائة نار كانت ترى من بعيد.

فتصوّر المشركون ان النبى (ص) يقفوا أثرهم فى عدد عظيم من أصحابه، فتشاوروا فيما بينهم ثم عزموا على الإنصراف إلى مكة.

وأقام رسول اللّه (ص) بأصحابه هناك ثلاثة أيام، فلما اطمئنّوا من انصراف المشركين عن الكرّة عليهم رجعوا إلى المدينة فوصلوها يوم الجمعة بعد أن غابوا عنها خمسة أيّام.

سرية الغنوىّ إلى الرجيع

والرجيع بفتح الراء وكسر الجيم اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان، وكانت الوقعة بالقرب منه.

وذلك انه قدم على رسول اللّه (ص) أوائل شهر صفر على رأس أربعة أشهر من اُحد نفر من عضل والقارة، وقيل: من عضل والديش، وهما بطنان من العرب، فذكروا للنبى (ص) أنّ فيهم إسلاماً، ورغبوا أن يبعث معهم نفراً من المسلمين يعلّمونهم القرآن ويفقّهونهم فى الدين.

فبعث رسول اللّه (ص) ستة رجال من أصحابه، وقيل: سبعة، وقيل: عشرة، فيهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى، فجعله أميراً عليهم حتى إذا صاروا بالرجيع غدروا بهم، واستصرخوا عليهم هذيلاً، فوقع بين الجانبين قتال شديد أسفر عن غلبة المشركين لكثرتهم، وانحدار المجموعة الصغيرة من المسلمين لقلّتهم وعدم تهيّئهم للحرب والقتال.

سرية منذر إلى بئر معونة

وبئر معونة بضم العين موضع ببلاد هذيل بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم، وهى الى حرة بنى سليم أقرب.

وذلك فى أواسط شهر صفر على رأس أربعة أشهر من اُحد أيضاً، ولكن قبل أن يصل إلى المدينة أنباء الغدر بسرية الغنوى إلى الرجيع.

وكان سببها: ان أبا البراء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة قدم على رسول اللّه (ص)، فعرض (ص) عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد: انّ أمرك هذا الذى تدعو إليه حسن جميل، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك.

فقال رسول اللّه (ص): إنّى أخشى أهل نجد عليهم.

فقال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم.

فبعث (ص) المنذر بن عمرو فى بضعة وعشرين رجلاً وقيل: فى أربعين رجلاً وقيل: فى سبعين، وكانوا من خيار المسلمين ومن القرّاء، يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل، ويتدارسون القرآن.

فساروا حتى إذا نزلوا بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بكتابه (ص) إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله.

ثم استصرخ عليهم بنى عامر فلم يجيبوه وقالوا: نحن لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ قبائل من بنى سليم: عصيّة ورعلا وذكوان، فأجابوه إلى ذلك.

ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وأسر عمرو بن اُمية الضمرىّ، فلما أخبرهم أنه من مضر أخذه عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على اُمه.

فقدم عمرو بن اُميّة الضمرى إلى رسول اللّه (ص) وأخبره الخبر، فنعاهم إلى أصحابه وقال: انّ أصحابكم قد اُصيبوا وانهم قد سألوا ربهم وقالوا: ربّنا أبلغ عنّا قومنا بأنا قد لقينا ربّنا فرضى عنّا ورضينا عنه.

ولما بلغ ذلك أبا براء، شقّ عليه اخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول اللّه (ص) بسببه وجواره، ونزل به الموت، فحمل ربيعة بن أبى براء لما وصله الخبر على عامر بن الطفيل وهو فى نادى قومه فأخطأ مقاتله فأصاب فخذه.

فقال عامر: هذا عمل عمى أبى براء، فلم يجرأ على الثأر منه.

وقيل: ان خبر بعث الرجيع، وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبى (ص) فى ليلة واحدة فحزّ ذلك فى قلبه وقلوب المسلمين، وعرف المسلمون ان الغدر والفتك من عادة الجاهلية والجاهليّين، ولايمكن قلعه ولا اجتثاث جذوره إلّا بنشر الإسلام وابلاغ تعاليمه الأخلاقية إلى الناس كافة، فاندفعوا وبكل قوّة إلى نشر الإسلام وتبليغ أحكامه والإلتزام بإطاعة اللّه ورسوله (ص).

۱ آل عمران: ۱۵۴.

۲ قد سبق أنها (صلوات الله عليها) خرجت إلى اُحد بعدما سمعت النداء بقتل أبيها (ص) وذلك على رواية، أو أنها رجعت بعد ذلك ثم استقبلته (ص) عند رجوعه.

۳ البقرة: ۱۵۶. ۴ البقرة: ۱۵۶.

غزوة بنى النضير

مضى فيما سبق: انه لما دخل رسول اللّه (ص) المدينة صالحه بنو النضير كبقيّة اليهود على أن لايقاتلوه، ولايقاتلوا معه، فقبل ذلك منهم.

فلما غزا رسول اللّه (ص) بدراً وظهر على المشركين قالوا: واللّه انه للنبىّ الذى وجدنا نعته فى التوراة لاتردّ له رايهٔ، فلما غزا اُحد وانهزم المسلمون ارتابوا ونقضوا العهد وأتوا قريشاً وحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدهٔ على محمد (ص)، فنزل جبرئيل وأخبر النبى (ص) بالخبر.

ولكى يظهر النبى (ص) نوايا بنى النضير العدوانيهٔ التى أضمروها للمسلمين، ويكشف واقعهم السيّء للرأى العام، خرج (ص) إليهم يوم السبت فى شهر ربيع الأول وصلى فى مسجد قبا ومعه نفر من أصحابه دون العشرهٔ، ثم أتاهم فكلّمهم أن يقرضوه فى ديهٔ بعض القتلى وكان الإستقراض جارياً بينهم فقالوا: نقرضك ما أحببت.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحال. وكان (ص) إلى جنب جدار من بيوتهم.

فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى هذه الصخرهٔ عليه فيقتله ويريحنا منه؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش، فقال: أنا لذلك.

فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، واللّه ليخبرنّ بما هممتم به، وانه لنقض العهد الذى بيننا وبينه.

فجاء جبرئيل وأخبر رسول اللّه (ص) الخبر، فخرج راجعاً إلى المدينهٔ، وذلك بعد أن أوصى علياً (ع) بأن لايبرح من مكانه، وأن يخبر من سأله عنه من أصحابه بتوجّهه إلى المدينهٔ، ففعل ذلك، ثم لحقوا به فقالوا: قمت يا رسول اللّه ولم نشعر.

فقال: همّت اليهود بالغدر فأخبرنى اللّه بذلك فقمت.

ثم أرسل (ص) إليهم من يأمرهم بالجلاء من منازلهم، وكانت منازلهم بناحيهٔ الفرع وما والاها بقريهٔ يقال لها: زهرهٔ، وأمهلهم عشرهٔ أيام.

فوصل الخبر إلى ابن اُبى فأرسل إليهم من ينهاهم عن الخروج ويعدهم نصرهٔ قومه لهم، وامداد قريظهٔ وحلفاءهم من غطفان، فطمعوا فى ذلك.

فخرج إليهم رسول اللّه (ص) فصلّى العصر بفناء بنى النضير وعلى (ع) يحمل رايته واستخلف على المدينهٔ ابن اُمّ مكتوم.

فلما رأوا رسول اللّه (ص) قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارهٔ، فاعتزلتهم قريظهٔ، وخفرهم ابن اُبىّ، فحاصرهم رسول اللّه (ص) إحدى وعشرين ليلهٔ، وقذف اللّه الرعب فى قلوبهم فعزموا على الخروج من المدينهٔ من دون قتال.

فقال لهم رسول اللّه (ص): اُخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقهٔ وهى السلاح.

فخرجوا بالنساء والصبيان يزمّرون ويضربون بالدفوف، وتحمّلوا على ستمائهٔ بعير حتى ان الرجل منهم يقلع باب بيته ويضعه على بعيره، ثم يخربون بيوتهم بأيديهم ويخرجون، فمنهم من صار إلى خيبر، ومنهم من صار إلى الشام، ومنهم من صار إلى الحيرهٔ.

أموال بنى النضير

وقبض رسول اللّه (ص) السلاح والأموال صافيهٔ له، لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، وانما قذف اللّه فى قلوبهم الرعب، فسلّموا بدون قتال ولا اراقهٔ دماء، فكان ممّا أفاءه اللّه على رسوله.

فدعى رسول اللّه (ص) حينئذ الأنصار كلها الأوس والخزرج، فحمد اللّه وأثنى عليه وذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، وانزالهم إيّاهم فى منازلهم، واثرتهم على أنفسهم، ثم قال (ص): ان أحببتم قسّمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء اللّه علىّ من بنى النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم.

فقال سعد بن عبادهٔ وسعد بن معاذ: يا رسول اللّه بل تقسّمه للمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا.

ونادت الأنصار: رضينا وسلّمنا يا رسول اللّه.

فقال رسول اللّه (ص): (اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار) وقسّم ما أفاء اللّه عليه بين المهاجرين دون الأنصار إلا رجلين من الأنصار كانا محتاجين، ووسّع (ص) فى الناس فى أموال بنى النضير، وأنزل اللّه تعالى فى قصة بنى النضير سورة الحشر، ومدح الأنصار على رواية بقوله: (ويؤثرون على أنفسهم)(۱).

وفى مجمع البيان عن أبى هريرة: ان الآية نزلت فى شأن على (ع) وفاطمة(ع) فى ضيافة كانت لهما قد آثرا ضيفهما على أنفسهما.

وفى هذه الغزوة أبلى على (ع) بلاءاً حسناً حيث قتل اليهود العشرة بقيادة رئيسهم عازورا الذين خرجوا من الحصن فى ظلام الليل لعمليات تخريبية واغتيال النبى (ص) وكفى اللّه المؤمنين به شرهم، وفيه يقول حسّان بن ثابت:

اللّه أىّ كريهة أبليتها ببنى نضير والنفوس تطلّع

أردى رئيسهم وآب بتسعة طوراً يشلّهم وطوراً يدفع

من أسلم من بنى النضير

ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان: يامين بن عمير، وهو ابن عم عمرو بن جحاش الذى انتدب لإلقاء الصخرة على رسول اللّه (ص)، وأبو سعد بن وهب.

أسلما على أموالهما، واحرازها، وحسن اسلامهما، حتى أن يامين على ما قيل: جعل لرجل جعلاً على أن يقتل له ابن عمه عمرو بن جحاش على ما أراده من اغتيال رسول اللّه (ص) ففعل الرجل ذلك.

غزوة بنى لحيان

ثم كانت بعد غزوة بنى النضير غزوة بنى لحيان، فقد خرج اليهم رسول اللّه (ص) يطلب بأصحاب الرجيع الذين غدر بهم بنو لحيان وقتلوهم عن آخرهم.

وأظهر (ص) عند خروجه إليهم انه يريد الشام ليصيب من القوم غرة يفاجئهم بها فيستسلموا من دون حرب فيقل القتل وسفك الدماء، ولذلك خرج (ص) وأخذ فى السير حتى نزل على منازل بنى لحيان بين أمَج وعسفان، فوجدهم قد حذروا وتمنّعوا فى رؤس الجبال، فتركهم.

عندها قال المسلمون: لو انا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة انا قد جئنا مكة، فسار (ص) وهو فى مائتى راكب حتى نزل عسفان تخويفاً لمشركى مكة، وجاز على قبر اُمه فزارها، وأرسل فارسين من الصحابة حتى بلغا كراع الغميم، ثم عادَ ولم يلق حرباً.

غزوة ذات الرقاع

وبعد مضى شهرين من غزوة بنى النضير(۲) كانت غزوة ذات الرقاع، وسمّيت ذات الرقاع لأنهم رقعوا راياتهم.

وقيل: لأنهم كانوا بقرب جبل فيه بقعٌ بياض وسواد وحمرة.

وقيل: لأن أقدامهم نقبت فيها، فكانوا يلفّون على أقدامهم الخِرق.

وقيل: لوقوع صلاة الخوف فيها وصلاة الخوف ترقيع للصلاة.

وكان سببها: ان قادماً قدم المدينة بمتاع له، فأخبر رسول اللّه (ص) بأن انماراً وثعلبة قد جمّعوا له الجموع يريدون اجتياح المدينة.

فخرج (ص) اليهم ليلة السبت لعشر خلون من المحرم فى أربعمائة رجل، وقيل: فى سبعمائة، وقيل: فى ثمانمائة من أصحابه، فسار حتى نزل فى محالّهم بذات الرقاع وهى جبل، فلقى المشركين ولم يقع بينهم حرب، ولكن خاف المسلمون أن يُغير المشركون عليهم،

فنزلت صلاة الخوف، فصلّى رسول اللّه (ص) بأصحابه صلاة الخوف، وكان أول ما صلاّها.

كرم رسول اللّه (ص) وحلمه

ونزل رسول اللّه (ص) فى غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه وبين أصحابه، فرآه رجل من المشركين، فقال لقومه: أنا أقتل محمداً فجاء وشدّ على رسول اللّه (ص) بالسيف وقال: من ينجيك منّى؟

فقال (ص): ربّى وربّك، فنسفه جبرئيل عن فرسه فسقط، فقام رسول اللّه (ص) فأخذ السيف وجلس على صدره وقال: من ينجيك منّى؟

قال: جودك وكرمك، فتركه (ص)، وقام الرجل فجاء إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس، فأسلم بسببه جماعة.

وفى رواية: انه عندما جلس (ص) على صدره قال له: تشهد أن لا إله إلا اللّه وانى رسول اللّه؟ فقال الرجل: اعاهدك أن لا أُقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى (ص) سبيله، فجاء الرجل إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس...

ثبات وصمود

ثم انصرف رسول اللّه (ص) بأصحابه راجعاً إلى المدينة، وذلك بعد أن أصابوا بعض الغنائم، وفى الطريق باتوا فى فم شعب، فانتدب عباد بن بشير وعمار بن ياسر للحراسة يتناوبانها بينهما.

فنام عمّار وقام عباد للحراسة واشتغل بالصلاة، وفى الأثناء جاء رجل من الأعداء وهو يريد اصابة شىء أو اراقة دم، فلما رأى طليعتهم عباد أخذ يرميه بالسهم تلو الآخر وعباد صامد لا يتحرك حتى إذا غلبه الدم ركع وسجد وأتمّ صلاته ثم أيقظ صاحبه وأخبره الخبر.

فقال له عمار: ألا أخبرتنى أول ما رماك!

قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم اُحب أن أقطعها، وأيم اللّه لولا خوفى أن اُضيّع ثغراً أمرنى رسول اللّه (ص) بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها.

تفقّد الرسول (ص) أصحابه

وكان رسول اللّه (ص) يسير فى مؤخّر القوم ليسعف الضعيف منهم، ويحمل معه من قعد به مركبه وعجز به عن حمله، وفى هذه المرّة وفى طريق العودة من ذات الرقاع التقى بجابر بن عبداللّه الأنصارى وقد تخلّف عن القوم فقال له:

ما لك يا جابر؟

قال جابر وهو يشير إلى جمله: أبطأ بى هذا.

فدنى رسول اللّه (ص) إلى الجمل، ومسح يده عليه فقوى الجمل وأخذ يواهق ناقته مواقهة، ثم قال لجابر: يا جابر أتبيعنى جملك هذا؟

قال: بل أهبه لك يا رسول اللّه.

قال (ص): لا، ولكن بعنيه.

قال: اذن فساوِمنى عليه يا رسول اللّه.

قال (ص): قد أخذته بدرهم.

قال: إذن تغبننى يا رسول اللّه.

قال (ص): فبدرهمين.

قال جابر: لا.

فلم يزل يرفع له رسول اللّه (ص) فى ثمنه حتى بلغ الأوقية. فقال (ص): أرضيت يا جابر؟

قال جابر: نعم رضيت يا رسول اللّه فهو لك.

قال (ص): قد أخذته ولك ظهره إلى المدينة.

ثم قال له رسول اللّه (ص): هل تزوّجت يا جابر؟

قال: نعم يا رسول اللّه (ص).

قال (ص): ثيباً أم بكراً؟

قال: بل ثيباً، فابتسم رسول اللّه (ص) وقال: أفلا جارية؟

قال جابر وقد تنفّس الصعداء: يا رسول اللّه إنّ أبى اُصيب يوم اُحد وترك سبع بنات فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤسهنّ وتقوم عليهنّ.

وهنا تأثّر رسول اللّه (ص) حتى ظهر على قسمات وجهه الشريف آثاره وقال مستحسناً عمل جابر: أحسنت وأصبت يا جابر.

ثم سأله عن دَين أبيه فأخبره. فقال (ص) له: إذا دخلت المدينة وأردت أن تجذّ نخلك وتأخذ تمرها فأخبرنى.

قال جابر: فدخلت المدينة وحدثت زوجتى الحديث وما قال لى رسول اللّه(ص). فقالت مستبشرة: فدونك، سمع وطاعة.

قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل حتى أنخته على باب المسجد، ثم جلست فى المسجد قريباً منه، فخرج رسول اللّه (ص) إلى المسجد فرأى الجمل فقال: ما هذا؟

قالوا: يا رسول اللّه هذا جمل جابر.

قال (ص): وأين جابر هو؟ فدُعى له، فلما مثل بين يديه قال (ص) له: ياابن أخى خذ برأس جملك فهو لك، ثم دعا بلالاً وقال له: اذهب بجابر فاعطيه اوقية.

قال جابر: فذهبت معه فأعطانى اوقية وزادنى.

اللّه أرحم بكم

ومما يذكر وقوعه فى غزوة ذات الرقاع: انّ رجلاً جاء وفى يده فرخ طائر حتى إذا وصل إليهم رأوا انّ أبوى هذا الفرخ يرفرفان فوق رأسه، فلما استقرّ الرجل بينهم طرحا أنفسهما على فرخهما ولم يعبئا بالخطر شفقة ورحمة بفرخهما، فتعجّب الناس من ذلك.

فالتفت إليهم رسول اللّه (ص) وقال: أتعجبون من هذا الطائر، أخذتم فرخه، فطرح نفسه رحمة بفرخه؟ واللّه لربّكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه. ثم التفت (ص) بعد ذلك إلى الرجل وأمره بإطلاقه.

غزوة بدر الأخيرة

ولما قدم رسول اللّه (ص) من غزوة ذات الرقاع إلى المدينة أقام بها جمادى الاُولى إلى آخر رجب، ثم خرج فى شعبان وقيل: أقام بها إلى آخر شوّال، ثم خرج فى هلال ذى القعدة فى السنة الرابعة من الهجرة النبوية المباركة إلى بدر لميعاد أبى سفيان.

وذلك انّ أبا سفيان قال يوم اُحد عند انصرافه منهزماً إلى مكة: الموعد بيننا وبينكم بدر العام القابل.

فقال رسول اللّه (ص) لعلى (ع) قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

فخرج رسول اللّه (ص) وحمل لوائه على (ع) وسار معه ألف وخمسمائة من أصحابه، والخيل عشرة أفراس، وذلك بعد أن استعمل على المدينة عبداللّه بن رواحة.

فلما وصلوا إلى بدر الصغرى وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون إليها فى كل عام ثمانية أيام أقاموا عليها ينتظرون أبا سفيان.

وخرج أبو سفيان من مكّة ومعه ألفان وخمسون فرساً حتى نزل مجنّة من ناحية مرّ الظهران ثم بدا له الرجوع، فبعث من يثبط المسلمين عن الخروج إليهم ووعده على ذلك عشرة من الإبل يضعها له على يدى سهيل بن عمرو إن هو فعل ذلك.

ثم التفت أبو سفيان إلى مَن معه وقال: يا معشر قريش انه لا يصلحكم إلا عام خصب، وإن عامكم هذا عام جدب، وانى راجع فارجعوا، فرجع ورجع من كان معه.

فسمّاهم أهل مكة: جيش السويق يقولون: انما خرجتم تشربون السويق.

وأقام رسول اللّه (ص) وأصحابه ببدر ثمانية أيام لم يلقوا فيها أحداً من المشركين، ووافقوا السوق وكانت لهم تجارات فباعوها وأصابوا الدرهم درهمين، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين.

مع أشجع وبنى ضمرة

وفى الطريق مرّ رسول اللّه (ص) ومعه أصحابه قريباً من بلاد أشجع وبنى ضمرة، وكان قد هادن بنى ضمرة ووادعهم من قبل.

فقال أصحاب رسول اللّه (ص): يا رسول اللّه هذه بنو ضمرة قريباً منّا، ونخاف أن يخالفونا إلى المدينة، أو يعينوا علينا قريشاً، فلو بدأنا بهم؟

فقال رسول اللّه (ص): كلا انهم أبرّ العرب بالوالدين، وأوصلهم للرحم، وأوفاهم بالعهد.

وكانت (أشجع) بلادهم قريباً من بلاد بنى ضمرة وهم بطن من كنانة، وكان بين أشجع وبنى ضمرة حلف فى المراعاة والأمان، فأُجدبت بلاد أشجع، وأُخصبت بلاد بنى ضمرة، فصارت أشجع إلى بلاد بنى ضمرة، فكان محالّها البيضاء والجبل والمستباح، وبذلك كانوا قد قربوا من رسول اللّه (ص) فهابوا لقربهم منه وخطرهم عليه، أن يبعث إليهم رسول اللّه (ص) من يغزوهم.

كما انّ رسول اللّه (ص) خافهم بسبب قربهم أن يصيبوا من أطرافه شيئاً، فهمّ بالمسير إليهم، فبينا هو على ذلك، إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعود بن رخيلة وهم سبعمائة فنزلوا شعب سلع، عندها دعى رسول اللّه (ص) أُسيد بن حضير وقال له: اذهب أنت ونفر من أصحابك حتى تنظر ما أقدم أشجع؟

فخرج اسيد ومعه ثلاثة من أصحابه، فوقف عليهم وقال: ما أقدمكم؟

فقام إليه رئيس أشجع مسعود بن رخيلة فسلّم على اسيد وعلى أصحابه وقال: جئنا لنوادع محمداً، فرجع اسيد إلى رسول اللّه (ص) وأخبره بالخبر.

فقال رسول اللّه (ص): خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بينى وبينهم، ثم بعث إليهم بعشرة أحمال تمر فقدّمها أمامه ثم قال: (نعم الشيء الهدية أمام الحاجة) ثم أتاهم (ص) فقال: يا معشر أشجع ما أقدمكم؟

قالوا: قربت دارنا منك، وليس فى قومنا أقلّ عدداً منّا، فضقنا بحربك لقرب دارنا منك، وضقنا بحرب قومنا لقلّتنا فيهم، فجئنا لنوادعك.

فقبل النبى (ص) ذلك منهم ووادعهم فأقاموا يومهم ثم رجعوا إلى بلادهم، وفيهم نزلت هذه الآية: (إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم ان يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم)(۳).

غزوة دومة الجندل

و(دومة الجندل) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة أو ست عشرة.

وكـان سـببها أنه بلغه (ص) أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مرّ بهم، من المسافرين والتجّار، وانهم يريـدون الإغارة على المدينـة، فخرج لخمس ليال بقين من ربيع سـنة خمس للهجرة النبوية المباركة، وذلك فى ألف من أصحابه، فكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى إذا دنا من دومة الجندل بلغ أهلها خبره فتفرّقوا من فورهم.

فنزل (ص) بساحتهم فلم يلق بها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا وفرقها، فرجعوا بعد يوم ولم يصادفوا منهم أحداً.

ثم عاد رسول اللّه (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً. وكان ذلك تمهيداً لما حدث بعد ذلك من فتح الشام.

۱ الحشر: ۹. ۲ وقيل: بعد فتح بنى قريضة. ۳ النساء: ۹۰.

غزوة الخندق (الأحزاب)

وكانت فى شوال سنة خمس من الهجرة النبوية المباركة.

وذلـك ان نفراً من اليهـود منهم: سـلام بن أبى الحقيـق النضـيرىّ، وحيىّ بن أخطب، وكنانـة بن الربيـع، وهوذة بن قيس الوالـبى، وأبو عمارة الوالبى فى نفر من بنى النضـير، ونفر من بنى وائل، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فقالوا لهم: انّ محمداً قد وترنا ووتركم، وأجلانـا من المدينـة من ديارنـا وأموالنا، وأجلا بنى عمنا بنى قينقاع، فسـيروا فى الأرض وأجمعوا حلفاءكم وغيرهم حتى نسير إليهم، فإنه قـد بقى من قومنا بيثرب سـبعمائة مقاتل وهم بنو قريظـة وبينهم وبين محمد عهد وميثاق، وإنّا نحملهم على نقض العهد بينهم وبين محمـد ويكونون معنا عليهم، فتأتونه أنتم من فوق، وهم من أسـفل، وكان موضع بنى قريظـة من المدينـة على قدر ميلين وهو الموضع الذى يسمىّ ببئر بنى المطّلب، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وانكم أولى بالحق منه.

فـأنزل اللّه تعالى فيهم على روايـة: (ألم تر إلى الـذين أُوتوا نصـيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للـذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً)(۱) إلى قوله: (وكفى بجهنّم سعيراً)(۲).

فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول اللّه(ص).

وجـاءهم أبو سـفيان فقـال لهم: قـد مكّنكم اللّه من عـدوّكم، هـذه اليهود تقاتـل معكم ولن تنفـك عنكم حتى نأتى على جميعهم، أو نستأصلهم، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج ذلك النفر من اليهود حتى أتوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول اللّه (ص) وأخبروهم أنهم سـيكونون معهم عليه، وأنّ قريشاً قد تابعوهم على ذلك.

فخرجت قريش وقائدهم إذ ذاك أبو سـفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن فى بنى قرارة، والحارث بن عوف فى بنى مرة، ومسعر بن دخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع، وتوجّهوا فى عشرة آلاف، وقيل: فى ثمانية عشر ألف رجل، نحو المدينة.

المشورة تهدى إلى الظفر

فلما سمع بهم رسول اللّه (ص) استشار أصحابه، فكان رأيهم على المقام فى المدينة وحرب القوم إن جاءوا إليهم على أنقابها.

فأشار سلمان الفارسى بالخندق واستحسنه القوم، ونزل جبرئيل على رسول اللّه (ص) بصواب رأى سلمان.

فخرج رسول اللّه (ص) فحـدّد حفر الخنـدق من ناحيـة أُحـد إلى راتـج، حيث كان سائر أنحاء المدينة مشـبك بالنخيل والبنيان، وخطّ موضع الحفر بخـط على الأـرض، فضـرب الخنـدق على المدينـة فعمل فيه رسول اللّه (ص) ترغيباً للمسـلمين فى الأجر فحفر بنفسه فى موضع المهـاجرين، وعلى (ع) ينقـل التراب من الحفرة، حتى عرق رسول اللّه (ص) وعيى وقال: (لا عيش إلا عيش الآخرة، اللّهم اغفر

للأنصار والمهاجرين).

فقالوا مجيبين له:

(نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا)

وكان سلمان رجلاً قويّاً، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقالت الأنصار: سلمان منّا، فقال النبى (ص): (سلمان منّا أهل البيت).

وكان لكل عشرة منهم أربعون ذراعاً يحفرونها، فبدأ رسول اللّه (ص) فعمل فيه وعمل فيه المسلمون، فدأب فيه فدأبوا.

وأبطأ عن رسول اللّه (ص) وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورّون بالضعف عن العمل، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول اللّه (ص) ولا إذن.

وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة من الحاجة التى لابدّ منها ذكرها لرسول اللّه (ص) واستأذنه باللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبةً فى الخير واحتساباً له، فأنزل اللّه فى أُولئك المؤمنين: (إنّما المؤمنون الذين آمنوا باللّه ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه)(۳).

ثم قال تعالى فى المنافقين الذين كانوا يتسلّلون من العمل ويذهبون بغير إذن: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً، قد يعلم اللّه الذين يتسلّلون منكم لواذاً)(۴).

وكان الذى أشار بالخندق سلمان فقال: يا رسول اللّه، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، ولم تكن تعرفه العرب قبل ذلك، ولذا قال المشركون لما رأوا الخندق: انها مكيدة فارسية ما كانت العرب تكيدها.

النبى (ص) يجوع ليَشبع الآخرون

قال على (ع): كنا مع النبى (ص) فى حفر الخندق إذ جاءته فاطمة(ع) ومعها كسرة من خبز، فدفعتها إلى النبى (ص) فقال: يا فاطمة ما هذه؟

قالت (ص): قرص خَبَزته للحسن والحسين (عليه السلام) جئتك منه بهذه الكسرة.

فقال النبى (ص): أما إنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث.

بوارق الفتح

وبينا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم تعمل فيه المعاول، فبعثوا جابر بن عبداللّه الأنصارى إلى رسول اللّه (ص) يعلمه بذلك.

قال جابر: فجئت إلى رسول اللّه (ص) وقد شدّ على بطنه حجر المجاعة، وأخبرته بالخبر.

فأقبل (ص) ودعا بماء فى اناء، فشرب منه ثم مجّ ذلك الماء فى فيه، ثم صبه على ذلك الحجر، ثم أخذ معولاً فقال: بسم اللّه، فضرب ضربة، فبرقت برقة، فنظرنا فيها إلى قصور الشام، ثم ضرب أُخرى فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور المدائن، ثم ضرب أُخرى فبرقت برقة أُخرى فنظرنا فيها إلى قصور اليمن.

فقال رسول اللّه (ص): أما انه سيفتح اللّه عليكم هذه المواطن التى برقت فيها البرقة، ثم انهال علينا الجبل كما ينهال الرمل.

فى ضيافة جابر

قال جابر: فلما رأيت رسول اللّه (ص) قد شدّ على بطنه حجراً علمتُ بأنه جائع، فقلت له: يا رسول اللّه هل لك فى الغداء؟

قال (ص): ما عندك يا جابر؟

قلت: عناق وصاع من شعير.

قال (ص) تقدّم وأصلح ما عندك.

قال جابر: فجئتُ إلى أهلى فأمرتها فطحنت الشعير، وذبحت العنز وسلختها، وأمرتها أن تخبز وتطبخ وتشوّى، فلما فرغت من ذلك، جئت إلى رسول اللّه (ص) فقلت: بأبى وأُمّى أنت يا رسول اللّه قد فرغنا، فاحضر مع من أحببت.

فقام رسول اللّه (ص) إلى شفير الخندق ثم قال: يا معاشر المهاجرين والأنصار أجيبوا جابراً، وكان فى الخندق سبعمائة رجل، فخرجوا كلّهم! ثم لم يمرّ (ص) بأحد من المهاجرين والأنصار إلا قال: أجيبوا جابراً!

قال جابر: فأسرعت إلى البيت وقلت لأهلى: قد واللّه أتاك رسول اللّه (ص) بما لاقبل لك به.

فقالت: هل أنت أعلمته بما عندنا؟

قال: نعم.

قالت: هو أعلم بما أتى.

قال جابر: فدخل رسول اللّه (ص) فنظر فى القدر، ثم نظر فى التنور، ثم دعى بصحفة فثرد فيها وغرف، فقال: يا جابر أدخل علىّ عشرة، فأدخلت عشرة، فأكلوا حتى نهلوا، وما يرى فى القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر علىّ بالذراع، فأتيته بالذراع فأكلوه.

ثم قال: أدخل علىّ عشرة، فدخلوا فأكلوا حتى نهلوا وما يرى فى القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر علىّ بالذراع، فأتيته فأكلوا وخرجوا.

ثم قال: أدخل علىّ عشرة، فأدخلتهم فأكلوا حتى نهلوا ولم ير فى القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر علىّ بالذراع، فأتيته بالذراع فتعجّبت وقلت: يا رسول اللّه كم للشاة من ذراع؟

قال (ص): ذراعان.

قلت: والذى بعثك بالحقّ نبيّاً لقد أتيتك بثلاثة.

فقال: أما لو سكتّ يا جابر لأكلوا كلهم من الذراع.

قال جابر: فأقبلت أُدخل عليه عشرة عشرة فيأكلون حتى أكلوا كلهم، وبقى واللّه لنا من ذلك الطعام ما عشنا به أياماً.

المشركون ومحاصرة المدينة

قال: وحفر رسول اللّه (ص) الخندق وأتمّه قبل قدوم قريش بثلاثة أيام، وقد طال حفره مايقارب من شهر واحد، وذلك بعد أن جعل له ثمانية أبواب، وجعل على كل باب رجلاً من المهاجرين ورجلاً من الأنصار مع جماعة يحفظونه.

ثم ضرب (ص) عسكره هناك وكانوا ثلاثة آلاف، فجعل الخندق أمامه، وجعل ظهره إلى سلع وهو جبل بالمدينة، وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام، وذلك بعد أن استعمل ابن أُمّ مكتوم على المدينة.

وقدمت الأحزاب وعلى رأسهم قريش ومعهم حيىّ بن أخطب، فلما نزلوا العقيق جاء حيىّ بن أخطب إلى بنى قريظة فى جوف الليل، وكانوا فى حصنهم وقد تمسّكوا بما عاهدوا عليه رسول اللّه (ص) فدقّ باب الحصن، فسمعه كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان هو بنفسه الذى وادع رسول اللّه (ص) على قومه وعاقده على ذلك، فعرف انه حيىّ بن أخطب، فأغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له.

فناداه حيىّ: ويحك يا كعب افتح لى.

قال: ويحك يا حيى إنك امرؤ مشؤوم، وانى قد عاهدت محمداً، وانك لست بناقض مابينى وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً.

قال: ويحك افتح لى أُكلّمك.

فقال: ما أنا بفاعل.

قال حيىّ، وقد فكّر فى كلام يثير به كعب: واللّه ما أغلقت الباب دونى إلا عن جشيشتك التى فى التنور تخاف أن آكل منها.

فأحفظ الرجل ففتح له وقال: لعنك اللّه لقد دخلت علىّ من باب دقيق.

فقال حيىّ: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمى إلى جانب اُحد قد عاهدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

قال كعب: جئتنى واللّه بذلّ الدهر وبجهام قد هرق ماؤه، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شىء، ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً.

فلم يزل حيى يفتله فى الذروة والغارب ويقول له: بأن محمداً لا يفلت من هذا الجمع أبداً، وان فاتك هذا الوقت لاتدرك مثله أبداً، حتى سمع له على أن أعطاه عهداً من اللّه وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك.

وبهذا تمكّن حيى من اقناع كعب، فلما اقتنع كعب بذلك أرسل إلى كل من كان فى الحصن من رؤساء اليهود وقال لهم: ما ترون؟

قالوا: أنت سيّدنا وصاحب عهدنا فإن نقضت نقضنا معك، وإن أقمت أو خرجت كنا معك.

فقال لهم (ابن باطا) وكان أحد رؤسائهم: انه قرأ فى التوراة وصف هذا النبى وانه لو ناوته الجبال الرواسى لغلبها، فلا يهولنّه هؤلاء وجمعهم، وحذرهم مغبّة نقضهم العهد معه.

وهنا انبرى حيى وقال: ليس هذا ذاك، ذلك النبى من بنى إسرائيل، وهذا من العرب، ومازال يقلّبهم عن رأيهم حتى أجابوه، ثم طلب حيىّ الكتاب الذى كان بينهم وبين رسول اللّه (ص) فمزّقه وقال: قد وقع الأمر فتجهّزوا للقتال، فنقضوا عهدهم وعزموا على القتال.

وجاء حيىّ بن أخطب إلى أبى سفيان والأحزاب فأخبرهم بنقض بنى قريظة عهدهم ففرحوا بذلك.

بنى قريظة يعلنون خيانتهم

ثم بدأ بنو قريظة يظهرون خيانتهم ونقضهم للعهد، وحاولوا أن يغيروا على المدينة من منافذها المؤدية إلى مساكن النساء والأطفال فبعثوا أحدهم ليطّلع على المنافذ ويخبرهم بها.

وفى أثناء استطلاعه بصرت به صفية بنت عبدالمطلب وهى مع جماعة من النسوة والأطفال وفيهم حسان بن ثابت كانوا فى حصن فارع حصن حسّان بن ثابت، فقالت لحسّان: لو نزلت إلى هذا اليهودى لتقتله، فإنه يريد أن يدلّ بنى قريظة على المنافذ المؤدية إلى الحصن.

فقال حسّان: يا بنت عبدالمطلب لقد علمت ما أنا بصاحب هذا.

وهنا تحزّمت صفية ثم نزلت وأخذت عموداً وقتلته به، ثم عادت إلى الحصن وقالت لحسّان: الآن فاخرج واسلبه.

أجابها حسّان: لا حاجة لى فى سلبه.

النبى (ص) وأخبار بنى قريظة

ولما نقض بنو قريظة عهدهم، انتهى خبرهم إلى رسول اللّه (ص) فبعث إليهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبداللّه بن رواحة وخوّات بن جُبير وقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟ فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه ولا تفتّوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول اللّه (ص) وقالوا: من رسول اللّه؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلاً فيه حدة.

فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

ثم أقبل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومن معهما إلى رسول اللّه (ص) فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة. أى: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع.

فقال رسول اللّه (ص): اللّه أكبر أبشروا بنصر اللّه يا معشر المسلمين، وكان (ص) يبعث الحرس إلى المدينة خوفاً على الذرارى من بنى قريظة.

لكن عظم على المسلمين البلاء واشتدّ الخوف عندما أتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم وحاصروهم حول الخندق حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: قد كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب لقضاء حاجته. وأنزل اللّه تعالى: (وإذ يقول المنافقون والّذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا اللّه ورسوله إلّا غروراً)(۵).

وقال رجال معه: (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا).

وقال بعضهم: يا رسول اللّه ان بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا فنرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة، فأنزل اللّه سبحانه: (وما هى بعورة إن يريدوا إلّا فراراً).

مفاوضات عسكرية

فلمّا اشتدّ البلاء على المسلمين من كثرة الأحزاب وطول محاصرتهم، بعث رسول اللّه (ص) إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان، ففاوضهما بأن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهما عنه وعن أصحابه، وذلك ليفتّ فى عضد المشركين، فجرى بينه وبينهما مذاكرة الصلح، ولم تقم الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة فى ذلك.

فبعث رسول اللّه إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول اللّه أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك اللّه به لابدّ لنا من العمل به فافعله، أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال (ص): بل شىء أصنعه لكم، وما أصنع ذلك إلا لأنّى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وجاؤوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرمّا.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول اللّه قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك باللّه وعبادة الأوثان ولا نعبد اللّه ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمرنا تمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا اللّه بالإسلام وهدانا به نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، واللّه لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم بحكمه.

فقال رسول اللّه (ص): الآن قد عرفت ما عندكم، فكونوا على ما أنتم عليه، فإن اللّه تعالى لن يخذل نبيّه ولن يسلمه حتى ينجز له ما وعده.

وكان هذا بالإضافة إلى الفتّ فى أعضاد المشركين، واستخبار معنويات المسلمين، تعليماً من الرسول (ص) فى استشارة الحكام أهل الخبرة أيضاً.

بدء القتال

ولما علم رسول اللّه (ص) عزم أصحابه وعلوّ معنوياتهم رغم طول المحاصرة حيث دامت بضعاً وعشرين ليلة ولم يكن بينهم حرب إلا الرمى بالنبل والحصى، قام (ص) يشجّع اُولئك الذين أصابهم الضعف والوهن خوفاً من المشركين، ويحرّضهم على جهادهم، ويعدهم النصر من اللّه تعالى، ويحثهم بذلك على المجابهة إذا نشب القتال.

وفى هذه الأثناء انتدبت فوارس من قريش، وعلى رأسهم فارس يليل: عمرو بن عبدود العامرى، خرج مُعلماً ليرى مشهده، وكان يعدّ بألف فارس، فأقبلوا على خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: واللّه إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع، وكان عمرو العامرى هذا ومن معه أول من عبر الخندق.

فخرج على بن أبى طالب (ع) فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى اقتحموا منها ومنعوا من عبور الآخرين، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم.

وكان عمرو بن عبدود ينادى تارة: ألا رجل يبارزنى؟

ويصرخ اُخرى: أين جنّتكم التى تزعمون انّ من قتل منكم دخلها؟ ويرتجز ثالثة ويقول:

ولقد بُححت من النداء بجمعكم هل من مبارز؟

ووقفت إذ جبن الشجاع مواقف البطل المناجز

انى كذلك لم أزل متسرّعاً نحو الهزاهز

إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

الايمان كله مع الشرك كله

وفى كل مرة يطلب عمرو المبارزة، كان رسول اللّه (ص) يقول لأصحابه: أيّكم يبرز إلى عمرو؟ وأضمن له على اللّه الجنّة؟

وفى كل مرة يقوم على بن أبى طالب (ع) ويقول: أنا له يا رسول اللّه، فيأمره بالجلوس انتظاراً منه ليتحرّك غيره، والمسلمون ناكسوا رؤوسهم كأنّ على رؤوسهم الطير، لمكان عمرو بن عبدود.

فلما طال نداء عمرو بالبراز وتتابع قيام على (ع) قال له رسول اللّه (ص): يا على هذا عمرو بن عبدود فارس يليل.

قال: وأنا على بن أبى طالب.

فقال (ص): إذن اُدن منّى يا على، فدنى منه، فنزع (ص) عمامته من رأسه وعمّمه بها، وأعطاه سيفه ذاالفقار وقال له: (اذهب وقاتل بهذا).

ثم رفع (ص) يديه نحو السماء وقال: (اللّهمّ انّك أخذت منّى عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبدالمطلب يوم اُحُد، وهذا أخى على بن أبى طالب، ربّ لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين، اللّهمّ أعنه، اللّهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته).

فلما برز على (ع) قال (ص): (برز الايمان كله إلى الشرك كله)(۶).

ولما برز على بن أبى طالب (ع) إلى عمرو، برز وهو يهرول فى مشيته ويرتجز ويقول مجيباً لعمرو:

لاتعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيّة وبصيرة والصدق منجى كلّ فائز

انى لأرجو أن اُقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

على أعتاب المصاولة

ولما اقترب على (ع) من عمرو، قال له عمرو: من أنت؟

قال: أنا على بن أبى طالب ابن عم رسول اللّه (ص) وختنه.

قال: واللّه انّ أباك كان لى صديقاً، وانى أكره أن أقتلك، ما أمن ابن عمّك حين بعثك إلىّ أن اختطفك برمحى هذا، فأترككك بين السماء والأرض لا حيّاً ولا ميّتاً؟

فأجابه على (ع) قائلاً: قد علم ابن عمّى انك إن قتلتنى دخلتُ الجنّة وأنت فى النار، وإن قتلتك فأنت فى النار وأنا فى الجنّة.

فقال عمرو: كلتاهما لك يا على، تلك إذن قسمةٌ ضيزى.

فقال على (ع): دع هذا يا عمرو، انى سمعتك تقول: لا يعرض علىّ أحد فى الحرب ثلاث خصال إلا أجبته إلى واحدة منها، وأنا أعرض عليك ثلاث خصال فأجبنى إلى واحدة.

قال عمرو: هات يا على.

قال (ع): تشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمداً رسول اللّه.

قال: نحّ عنى هذا، فأين ما أنفقت فيكم مالاً لبداً؟ وكان قد أنفق مالاً فى الصدّ عن سبيل اللّه فأنزل اللّه فيه: (يقول أهلكت مالاً لبداً)(۷).

قال (ع): فالثانية: أن ترجع من حيث جئت وترد هذا الجيش عن رسول اللّه (ص)، فإن يك صادقاً فأنتم أعلى به عيناً، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره.

قال: إذن تتحدّث نساء قريش بأنى جبنت ورجعت.

قال (ع): فالثالثة: أن تنزل إلىّ وتقاتلنى، فإنى راجل وأنت راكب.

فنزل عمرو عن فرسه وعرقبه وقال: هذه خصلة ما كنت أظن انّ أحداً من العرب يسومنى عليها، وانى لأكره أن أقتل رجلاً كريماً مثلك، وقد كان أبوك لى صديقاً.

قال على (ع): لكنى اُحبّ أن أقتلك.

فغضب عندها عمرو وبدأ بالقتال فضرب علياً (ع) بالسيف على رأسه، فاتقاه بالدرقة فقطعها، وثبت السيف على رأسه (ع).

ثم بدره على (ع) فضربه على ساقيه فقطعهما جميعاً، وارتفعت بينهما عجاجة، وكبّر على (ع).

فانكشف من كان مع عمرو حتى عبروا الخندق منهزمين، فوقع نوفل بن عبدالعزّى فى الخندق، فطعنه على (ع) فى ترقوته فمات فى الخندق.

ضربة على (ع) يوم الخندق

ولما انكشفت العجاجة نظروا فإذا بعلى (ع) على صدر عمرو قد أخذ بلحيته يريد أن يذبحه، فلمّا همّ أن يذبحه تركه وقام فخطا خطوات ثم رجع إليه وأخذ بلحيته ثانية ليذبحه وهو يكبّر اللّه ويمجّده، فقال له عمرو: يا على إذا قتلتنى فلا تسلبنى حلّتى.

فقال (ع): هى أهون علىّ من ذلك، فذبحه وتركه، ثم أخذ رأسه وأقبل نحو رسول اللّه (ص) والدماء تسيل على رأس على (ع) من ضربة عمرو، وسيفه يقطر منه الدم، وهو يقول والرأس بيده:

أنا على وابن عبدالمطلب الموت خير للفتى من الهرب

يقول ذلك وهو يخطر فى مشيته.

فقال بعض: ألا ترى يا رسول اللّه إلى علىّ كيف يتبختر فى مشيه؟

فقال رسول اللّه (ص): انها لمشية لا يمقتها اللّه فى هذا المقام.

ثم استقبله رسول اللّه (ص) ومسح الغبار عن عينيه وقال له: أبشر يا على فلو وزن اليوم عملك بعمل اُمّة محمد لرجح عملك بعملهم، وذاك انه لم يبق بيت من المشركين إلّا وقد دخله ذلّ بقتل عمرو، ولم يبق بيت من المسلمين إلّا وقد دخله عزّ بقتل عمرو.

ثم قال (ص): ضربة على (ع) يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين.

وسُمع منادياً ينادى ولا يرى شخصه يقول:

قتل على عمرا قصم على ظهراً

ابرم على أمراً

ووقعت الهزيمة بالمشركين وتفرّقت الأحزاب خائفين مرعوبين.

فقال رسول اللّه (ص): الآن نغزوهم ولا يغزونا، فكان كما قال (ص) فلم يغزهم قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوهم حتى فتح اللّه عليهم مكّة.

ولما سألوا علياً (ع) عن سبب قيامه عن صدر عمرو ثم العود إليه ثانية، وعن تركه سلبه؟

قال (ع): ان عمروا تجاسر عليه مما أثار غضبه، فقام يخطو خطوات يطفىء بها غضبه ليكون قتله إيّاه خالصاً لوجه اللّه تعالى لا يشوبه شىء من التشفى والإنتقام لنفسه، كما انه ترك سلبه، لأن عمروا قد سأله ذلك وطلب منه أن لايسلبه بعد قتله.

ضربتان: أعزّ وأشأم

روى الأودى قال: سمعت ابن عياش يقول: لقد ضَرب علىّ (ع) ضربة ما كان فى الإسلام ضربة أعزّ منها، يعنى بها ضربة عمرو بن عبدود العامرى، ولقد ضُرب على (ع) ضربة ما كان فى الإسلام أشأم منها، يعنى بها ضربة ابن ملجم المرادى، وفى قتل عمرو بن عبدود يقول حسّان بن ثابت:

أمسى الفتى عمرو بن عبد يبتغى بجنوب يثرب غارة لم تنظر

ولقد وجدت سيوفنا مشهورة ولقد وجدت جيادنا لم تقصر

ولقد رأيت غداة بدر عصبة ضربوك ضرباً غير ضرب المخسر

أصبحت لا تدعى ليوم عظيمة يا عمرو أو لجسيم أمر منكر

فسمعه أحد بنى عامر فأجابه وهو يرد عليه افتخاره بالأنصار قائلاً:

كذبتم وبيت اللّه لم تقتلوننا ولكن بسيف الهاشميين فافخروا

بسيف ابن عبداللّه أحمد فى الوغا بكف علىّ نلتمُ ذاك فاقصروا

فلم تقتلوا عمرو بن عبد ببأسكم ولكنه الكفو الهزبر الغضنفر

علىّ الذى فى الفخر طال بناؤه ولا تكثتروا الدعوى علينا فتحقروا

مع ابنة عبدود

وروى انه لما قتل على (ع) عمرو بن عبدودّ نعى إلى اُخته عمرة بنت عبدود، فلما جاءت إليه ورأته على حلّته لم يسلبه قاتله، قالت: من ذا الذى اجترأ عليه؟

قالوا لها: على بن أبى طالب.

قالت: لم يعد موته إلا على يد كفو كريم، لا رقأت دمعتى ان هرقتها عليه، قتل الأبطال، وبارز الأقران، وكانت منيته على يد كفو كريم من قومه، ما سمعت بأفخر من هذا يا بنى عامر، ثم أنشأت تقول:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنتُ أبكى عليه آخر الأبد

لكن قاتل عمرو لا يعاب به من كان يدعى قديماً بيضة البلد

ثم قالت: واللّه لا ثأرت قريش بأخى ما حنّت النيب والنيب جمع ناب وهى المسنّة من النوق كناية عن انها لاتستطيع ذلك أبداً.

فى الحرب ومع المشركين فقط

كان نعيم بن مسعود الأشجعى ممن يجيد فنّ الشغب والفتنة، فأتى رسول اللّه (ص) فى جوف الليل وكان قد أسلم قبل قدوم قريش بثلاثة أيام، فقال: يا رسول اللّه انى قد آمنتُ باللّه وصدقتك، وكتمتُ ايمانى عن الكفرة، فإن أمرتنى أن آتيك وأنصرك بنفسى فعلت، وإن أمرتنى ان اُخذّل بين اليهود وبين قريش فعلت حتى لايخرجوا من حصنهم.

فقال رسول اللّه (ص): خذّل بين اليهود وبين قريش، فإنه أوقع عندى.

فجاء إلى أبى سفيان وقال له: انك تعرف مودّتى لكم ونصحى، وقد بلغنى انّ محمداً قد وافق اليهود على أن يأخذوا رهائن من أشرافكم ليسلّموهم إلى محمد يضرب أعناقهم، ثم يدخلوا بين عسكركم ويميلوا عليكم، ووعدهم إذا فعلوا ذلك أن يردّ عليهم جناحهم الذى قطعه بنى النضير وقينقاع، فلا أرى أن تدعوهم يدخلوا عسكركم حتى تأخذوا منهم رهناً تبعثوا بهم إلى مكّة، فتأمنوا مكرهم وغدرهم.

فقال له أبو سفيان: وفّقك اللّه وأحسن جزاءك، مثلك من أهدى النصائح.

ثم جاء نعيم من فوره ذلك إلى بنى قريظة وقال لكعب وكان نديماً له فى الجاهلية: يا كعب انّك تعلم مودّتى لكم ونصحى، وقد بلغنى انّ أبا سفيان قال: نخرج هؤلاء اليهود فنضعهم فى نحر محمّد، فإن ظفروا كان الفخر لنا، وإن خسروا كانوا هؤلاء مقاديم الحرب، فلا أرى لكم أن تدعوهم يدخلوا عسكركم حتى تأخذوا منهم عشرة من أشرافهم يكونون فى حصنكم، فإنهم إن لم يظفروا بمحمد رجعوا إلى مكة وغزاكم محمد فقتلكم، لكن إن أخذتم رهائن منهم، لم يذهبوا حتّى يردّوا عليكم عهدكم الذى جعلتموه بينكم وبين محمد.

فقال له كعب: أحسنت وأبلغت فى النصيحة لانخرج من حصننا حتى نأخذ منهم رهناً يكونون فى حصننا.

وكان كذلك، فإنهم طلبوا رهناً حينما طلب منهم أبوسفيان أن يبدأوا القتال، فقال أبوسفيان: صدق نعيم، فاختلفت كلمتهم.

الأحزاب ينهزمون

لما قَتل على (ع) عمرو بن عبدود دخل الوهن والذلّ معسكر الأحزاب، واضطربوا أشدّ اضطراب، فلما جنّ اللّيل قام رسول اللّه (ص) على التلّ الذى عليه مسجد الفتح، وكانت ليلة ظلماء قرّة فقال: من يذهب فيأتينا بخبرهم وله الجنّة؟ أعادها فلم يقم أحد، ثم قال: من هذا؟ وكان حذيفة قريباً منه، فقال: أنا حذيفة يا رسول اللّه.

فقال: اقترب يا حذيفة أما تسمع كلامى؟

فقام حذيفة وهو يقول: القرّ والضرّ جعلنى اللّه فداك منعانى أن اُجيبك.

فقال رسول اللّه (ص): انطلق حتى تسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم.

فقال حذيفة: نعم يا رسول اللّه، ثم قام فأخذ سيفه وقوسه وترسه، وليس به ضرّ ولا قرّ واتّجه نحوهم.

فقال له رسول اللّه (ص) بعد أن دعا له: يا حذيفة لاتحدث شيئاً حتى تأتينى، فلما ذهب حذيفة رفع رسول اللّه (ص) يديه إلى السماء

ودعا قائلاً: (يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرّين، ويا مغيث المهمومين، اكشف همّى وغمّى وكربى، فقد ترى حالى وحال أصحابى) وما أن تمّ دعاؤه حتى نزل جبرئيل وهو يقول: يا رسول اللّه انّ اللّه عزّ ذكره قد سمع مقالتك ودعاءك وقد أجابك وكفاك هول عدوّك، فجثا رسول اللّه (ص) على ركبتيه، وبسط يديه، وأرسل عينيه، ثم قال: (شكراً شكراً، كما رحمتنى ورحمت أصحابى).

ثم قال: ان اللّه عزّ وجل قد بعث عليهم ريحاً من السماء الدنيا فيها حصى وأرسل عليهم ريحاً من السماء الرابعة فيها جندل.

حذيفة ودعاء الرسول (ص)

قال حذيفة: خرجت فلما وصلت إليهم، أقبل جند اللّه الأول ريح فيها حصى، فما تركت لهم ناراً إلّا أذرّتها، ولا خباءاً إلّا طرحته، ولا رمحاً إلا ألقته، حتى جعلوا يتترّسون من الحصى.

فجلست بين رجلين من المشركين، فقام أبو سفيان وقال: إن كنّا نقاتل أهل الأرض فنحن بالقدرة عليه، وإن كنّا نقاتل أهل السماء كما يقول محمد فلا طاقة لنا بأهل السماء، انظروا بينكم لا يكون لمحمد عين بيننا، فليسأل بعضكم بعضاً.

قال حذيفة: فبادرتُ إلى الذى عن يمينى وقلت له: من أنت؟

قال معاوية.

وقلت للذى عن يسارى: من أنت؟

فقال: عمرو بن سهيل، ولم يسألانى عن اسمى.

ثم أقبل جند اللّه الأعظم. ريح فيها جندل، فقام أبو سفيان إلى راحلته، ثم صاح فى قريش: النجاء النجاء، ولما أراد أن يركب راحلته أمكننى قتله، فلما هممت بذلك تذكرت قول رسول اللّه (ص): (لا تحدثن حدثاً حتى ترجع إلىّ) فكففت ورجعت بعد أن انهزم المشركون وذهب الأحزاب.

فأخبرتُ رسول اللّه (ص) الخبر وقد طلع الفجر، فتهيّأ وتهيّئنا معه للصلاة، فصلّى بنا الفجر ثم نادى مناديه: لا يبرحنّ أحد مكانه إلى أن تطلع الشمس، فلما طلعت الشمس انصرفنا مع رسول اللّه (ص) إلى داخل المدينة وهو يقول على رواية: (لا إله إلّا اللّه وحده وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فله الملك وله الحمد، يحيى ويميت، ويميت ويحيى، وهو حىّ لا يموت بيده الخير وهو على كلّ شىء قدير).

القرآن وغزوة الأحزاب

ثم انّ اللّه تعالى أوحى إلى نبيّه (ص) سورة الأحزاب يذكّر المسلمين فيها بما أصابهم ذلك اليوم من ضرّ، وبما منّ عليهم من الفتح وبما أنزل عليهم من النصر، اضافة إلى ما فى تسمية السورة بالأحزاب من اشارة إلى أهمية الأمر وعظم الواقعة حيث يقول تعالى:

(يا أيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة اللّه عليكم، إذ جاءتكم جنود، فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وكان اللّه بما تعملون بصيراً، إذ جاءوكم من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنّون باللّه الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)(۸) إلى قوله تعالى: (وردّ اللّه الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان اللّه قويّاً عزيزاً)(۹).

ثمّ بشّرهم بفتح حصون اليهود حيث يقول تعالى: (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها، وكان اللّه على كلّ شىء قديراً)(۱۰).

۱ النساء: ۵۱. ۲ النساء: ۵۵. ۳ النور: ۶۲.

۴ النور: ۶۳. ۵ الأحزاب: ۱۲.

۶ راجع شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى ج ۱۳ ص ۲۶۱ ط دار إحياء التراث العربى.

۷ البلد: ۶. ۸ الأحزاب: ۹ ۱۱. ۹ الأحزاب: ۲۵.

۱۰ الأحزاب: ۲۶ ۲۷.

غزوة بنى قريظة

لما انصرف رسول اللّه (ص) من الخندق ودخل المدينة واللواء معقود، أراد أن يغتسل من الغبار، فناداه جبرئيل: عذيرك من محارب، واللّه ما وضعت الملائكة لامتها، فكيف تضع لامتك؟ ان اللّه يأمرك أن لا تصلّى العصر إلا ببنى قريظة، فإنى متقدّمك ومزلزل بهم حصنهم.

فخرج رسول اللّه (ص) وقال: ادعوا لى علياً، فجاء على (ع) فقال له: ناد فى الناس أن لايصلينّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة، فنادى فيهم، فخرج الناس، فبادروا إلى بنى قريظة، وخرج رسول اللّه (ص) وعلى (ع) بين يديه مع الراية العظمى فى ثلاثة آلاف رجل وثلاثين فرساً، وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة.

وكان حيّ بن أخطب لما انهزم الأحزاب جاء فدخل حصن بنى قريظة، فجاء على (ع) فأحاط بحصنهم، فأشرف عليهم كعب بن أسد من الحصن يشتمهم ويشتم نبيّهم.

فأقبل رسول اللّه (ص) وأنزل العسكر حول حصنهم فحاصرهم ثلاثة أيام، فنزل بعدها أحدهم إليه وقال: يا محمد تعطينا ما أعطيت إخواننا من بنى النضير؟

فقال: لا، أو تنزلون على حكمى.

فرجع، واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة.

فلما اشتد عليهم ذلك وأيقنوا انّ رسول اللّه (ص) غير منصرف عنهم، قام سيّدهم كعب بن أسد وعرض عليهم ثلاث خصال: اما الإسلام، وإما قتل ذراريهم ونسائهم ثم القتال حتى يموتوا، وإما تبييت النبى (ص) وأصحابه ليلة السبت، فإن المسلمين قد أمنوا منهم.

فأبوا كل ذلك، فأرسلوا إلى رسول اللّه (ص) أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبدالمنذر أخا بنى عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، ليستشيروه فى أمرهم، فأرسله إليهم.

زلة أبى لبابة وتوبته

فلما جاء أبو لبابة إلى بنى قريظة أحاطوا به وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.

قال أبو لبابة: فواللّه ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنتُ اللّه ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول اللّه (ص) حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده وقال: لا أبرح من مكانى هذا حتى يتوب اللّه علىَّ مما صنعت، وعاهد اللّه أن لا يطأ بنى قريظة أبداً، ولا يراه اللّه فى بلد خان اللّه ورسوله فيه أبداً.

فلما سمع رسول اللّه (ص) خبره وكان قد استبطأه قال: أما لو جاءنى لاستغفرتُ له، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب اللّه عليه.

فنزلت توبة أبى لبابة على رسول اللّه (ص)، فتولّى رسول اللّه (ص) إطلاقه بيده الكريمة، فنزلت بنو قريظة على حكم رسول اللّه (ص).

حكمية سعد بن معاذ

فلما نزلت بنو قريظة على حكم رسول اللّه (ص) قالت الأوس: يا رسول اللّه قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد فعلت وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا.

فقال رسول اللّه (ص): ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟

قالوا: بلى فمن هو؟

قال (ص): فذلك سعد بن معاذ.

قالوا: قد رضينا بحكمه.

وكان رسول اللّه (ص) قد جعل سعد بن معاذ لما به من الجراح الذى أصابه من وقعة الأحزاب فى خيمة فى المسجد تسكنها رفيدة امرأة صالحة تقوم على المرضى وتداوى الجرحى تحتسب بذلك الأجر، ليعوده من قريب، فأرسل رسول اللّه (ص) إلى سعد ليؤتى به ليحكم فى بنى قريظة، فأُتى به فى محفّة وهو سرير يحمل عليه المريض، وأحاط به قومه وهم يقولون: يا أباعمرو، أحسن فى مواليك، فإنما ولّاك رسول اللّه (ص) ذلك لتحسن فيهم.

فقال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى اللّه لومة لائم، فأحسّ قومه من كلامه هذا، انه يريد أن يحكم فيهم بما حكم به اليهود أنفسهم: من الحكم بقتل المحاربين وسبى ذراريهم ونسائهم ومصادرة أموالهم إذا كان الفتح لهم، وبما عاهد اليهود أنفسهم رسول اللّه (ص): من انهم لو نقضوا عهدهم معه كان له الحق فى قتلهم ومصادرة أموالهم وسبى ذراريهم ونسائهم، ولذلك قالوا: واقوماه ذهب واللّه بنو قريظة.

فلما استقرّ بسعد المجلس، التفت إلى اليهود وقال لهم: يا معشر اليهود أرضيتم بحكمى فيكم؟

قالوا: بلى قد رضينا بحكمك، فأعاد عليهم القول.

فقالوا: بلى يا أبا عمرو.

عندها التفت سعد إلى رسول اللّه (ص) وقال اجلالاً له: بأبى أنت واُمّى يا رسول اللّه ما ترى؟

قال (ص): احكم فيهم يا سعد، فقد رضيت بحكمك فيهم.

فقال سعد: قد حكمت يا رسول اللّه أن تقتل رجالهم، وتسبى نساءهم وذراريهم، وتقسّم غنائمهم وأموالهم بين المهاجرين والأنصار.

فنفّذ المسلمون حكم سعد فيهم فساقوا الأُسارى إلى المدينة، وأمر رسول اللّه (ص) بأن يحفروا حفراً فى البقيع، فلما أمسى أمر بإخراج رجل رجل، فأُخرج كعب بن أسد، فلما نظر إليه رسول اللّه (ص) قال له: يا كعب أما نفعك وصية ابن حواش الحبر الذى أقبل من الشام وقال: تركت الخمر والخمير، وجئت إلى البؤس والتمور، لنبى يبعث، هذا أوان خروجه، يكون مخرجه بمكّة، وهذه دار هجرته، وهو الضحوك الذى يجتزئ بالكسرة والتميرات، ويركب الحمار العارى، فى عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، يضع سيفه على عاتقه لا يبالى من لاقى منكم، يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر؟

فقال كعب: قد كان ذلك يا محمد، ولولا أن اليهود يعيّرونى انى جزعت عند القتل لآمنتُ بك وصدقتك، ولكنى على دين اليهود عليه أحيا وعليه أموت.

فأمر رسول اللّه (ص) بضرب عنقه، فضربت.

ثم قدّم حيىّ بن أخطب فضربت عنقه، ثم ضربت أعناق الباقين، وكانوا قليلين جداً.

ويؤيّد ذلك سيرة الرسول (ص) فى التقليل من القتل حسب الإمكان.

واصطفى (ص) لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو ثم قسم رسول اللّه (ص) بين المسلمين الأموال والنساء والذرارى، وذلك بعد أن أخرج خمسها.

شهداء الخندق وقريظة

وكان قد استشـهد من المسـلمين يوم الخندق وقريظة: سعد بن معاذ، فإنه بعد أن حكم فى بنى قريظة، انفجر جرحه بالدم فأرجعوه إلى خيمته الـذى ضـربت عليه فى المسـجد، فمـا لبث أن نزل جبرئيل على رسول اللّه (ص) وقال: من هـذا العبـد الصالـح الـذى مات، فقد فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش.

فخرج رسول اللّه (ص) إلى المسجد فإذا بسعد بن معاذ قد قبض.

وممن استشـهد يوم الخندق وقريظة: الطفيل بن النعمان، وأنس به اوس، وعبداللّه بن سهل، وثعلبة بن غنمة، وكعب بن زيد، وخلاد بن سويد الذى طرحت عليه امرأة من بنى قريظة رحى فقتلته به، ومات فى الحصار أبوسنان بن محصن أخو عكاشة بن محصن.

مع ابن باطا

وكان لابن باطا وهو من رؤساء بنى قريظـة يد عند ثابت بن قيس، فأتى ثابت رسول اللّه (ص) وقال: يا رسول اللّه كان لابن باطا عندى يد وقد أحببتُ أن أجزيه بها فهب لى دمه.

فقال رسول اللّه (ص): هو لك.

فأتاه فأخبره بذلك.

فقال ابن باطا: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟

فأتى ثابت إلى رسول اللّه (ص) وقال: يا رسول اللّه أهله وولده.

قال (ص): هم لك.

فأتاه فأخبره بذلك.

فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟

فأتى ثابت إلى رسول اللّه (ص) وقال: ماله يا رسول اللّه.

قال (ص): هو لك.

فأتاه فأخبره بأنّ ماله له وفاءاً.

عند ذلك قال ابن باطا لثابت: أين كعب بن أسد؟

قال ثابت: قتل.

قال: فما فعل حيىّ بن أخطب؟

قال: قتل.

قال: وما هى حال غزال بن شمول؟

قال: قتل.

فلما سـمع ابن باطا بقتل هؤلاء قال لثابت: أسألك بيـدى عندك يا ثابت إلّا ما ألحقتنى بالقوم، فواللّه ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فمـا أنـا بصـابر حتى ألقى الأحبّـة، فلمّـا رأى ثـابت هـذه اللجاجـة من ابن باطـا مع ما منّ عليه رسول اللّه(ص) من العفو عنه وعن أهله وأولاده وماله غضب وقال: لا بأس، ثم قدمه وضرب عنقه.

سرية ابن مسلمة إلى نجد

ثم بعث رسول اللّه (ص) خيلاً قبل نجد وجعل عليهم محمد بن مسلمة، فظفروا برجل من بنى حنيفة يقال له: ثمامة بن اُثال، وكان قد قتل من المسلمين، فأسروه وجاءوا به إلى المدينة فربطوه بسارية من سوارى المسجد، وقيل: أودعوه فى غرفة على باب المسجد.

فخرج إليه رسول اللّه (ص) وقال له: ما عندك يا ثمامة؟

فقال: عندى خير يا محمد، إن تقتلنى تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل منه ما شئت.

فتركه حتى كان الغد، ثم قال (ص) له: ما عندك يا ثمامة؟

قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر إلى آخره.

فتركه حتى كان بعد الغد فقال (ص) له: ما عندك يا ثمامة؟

قال: عندى ما قلت.

قال (ص): أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لاإله إلاّ اللّه وأنّ محمّداً رسول اللّه، يا محمد، واللّه ما كان على الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك، وأما الآن فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إلىّ، واللّه ما كان من دين أبغض إلىَّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إلىَّ، واللّه ما كان من بلد أبغض إلىَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إلىّ، وإن خيلك أخذتنى وأنا اُريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشّره رسول اللّه (ص) وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟

قال: لا ولكن أسلمت مع محمّد رسول اللّه (ص)، ولا واللّه لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى (ص)، وكانت اليمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش، فكتبوا إلى رسول اللّه (ص) يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى لهم حمل الطعام، ففعل رسول اللّه(ص) ذلك.

غزوة الغابة

وتعرف بذى قرَد بفتح القاف والراء، وهو ماء على بريد من المدينة بطريق الشام، وكانت هذه الغزوة فى ربيع الأول سنة ست من الهجرة النبويّة المباركة.

وسببها: أنه كان لرسول اللّه (ص) عشرون لقحة وهى ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة ترعى بالغابة فأغار عليها عيينة بن حصن الفزارى ليلة الأربعاء فى أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا الراعى، وكان فيهم رجل من غفار وامرأته، قتلوا الرجل وسبوا المرأة.

ونودى: يا خيل اللّه اركبى، وكان أول ما نودى بها، كما انه كان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمى، كان ناهضاً إلى الغابة، فلما علا ثنية الوداع نظر إلى خيل الكفار فصاح، فأنذر المسلمين، ثم نهض فى آثارهم فأبلى بلاء حسناً عظيماً، ورماهم بالنبل حتى استنقذ ما كان بأيديهم من اللقاح، واستخلص المرأة، واستلب منهم ثلاثين بردة.

فلما وقعت الصيحة بالمدينة كان أول من أتى إلى رسول اللّه (ص) من الفرسان المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر الأشهلى، واُسيد بن حضير أخو بنى حارثة، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة الأسدى الأخرم، وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت الزرقى.

فلما اجتمعوا خرج رسول اللّه (ص) حتى أدرك ابن الأكوع.

فلما رأى ابن الأكوع رسول اللّه (ص) قال: يا رسول اللّه قد حميت القوم الماء فابعث إليهم الساعة.

فقال (ص): يابن الأكوع إذا ملكت فاسجح، أى: سهّل وحسّن العفو.

ثم ان أول من لحق بهم محرز بن نضلة الأخرم، فأخذ ابن الأكوع بعنان فرسه، وقال: يا أخرم ان القوم قليل فاحذرهم لايقتطعوك حتى

يلحق بنا أصحابنا.

فقال الأخرم: يابن الأكوع لا تحل بينى وبين الشهادة، فخلّى سبيله، فالتقى هو والفزارى فعقر الأخرم فرسه، فطعنه الفزارى فقتل رحمه اللّه، ولحق أبو قتادة فقتل قاتل الأخرم، وولّى المشركون منهزمين.

وبلغ رسول اللّه (ص) ماء يقال له ذو قرد، ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة، وأقام (ص) يوماً وليلة ثم رجع إلى المدينة، وأقبلت امرأة الغفارى على ناقة رسول اللّه (ص)، فلما أتت المدينة نذرت أن تنحرها، فأخبرها رسول اللّه (ص) انه لانذر لأحد فيما لا يملك، كما لا نذر فى معصية.

سرية عكاشة إلى الغمرة

والغمرة: ماء لبنى أسد، على ليلتين من فيد، أرسل إليهم رسول اللّه (ص) حين سمع بأنهم يريدون الإغارة على المدينة عكاشة بن محصن فى أربعين رجلاً، وذلك فى آخر شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة النبوية المباركة.

فلما أحسّ القوم بهم بكّروا فى الهروب وتركوا مكانهم مائتى بعير، فساقها عكاشة إلى المدينة.

سرية زيد الى العيص

والعيص هى: منطقة على أربعة أميال من المدينة، خرج إليها فى جمادى الأُولى زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راكباً ليأخذوا عيراً لقريش قد أخذت طريق العراق.

فالتقوا بأبى العاص ابن الربيع زوج زينب بنت رسول اللّه (ص)، وذلك عند مرجعه من الشام، وكان رجلاً مأموناً، وكانت معه بضائع لقريش، فاستاقوا عيره وأفلت، وقدموا على رسول اللّه (ص) بما أصابوا، فقسّمه بينهم.

وأتى أبو العاص المدينة فدخل على زينب بنت رسول اللّه (ص) مستجيراً بها وسألها أن تطلب من رسول اللّه (ص) ردّ ماله عليه، وما كان معه من أموال الناس.

فدعا رسول اللّه (ص) السرية وقال: إنّ هذا الرجل منا بحيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً ولغيره، وهو فيء اللّه الذى أفاء عليكم، فإن رأيتم أن تردوا عليه فافعلوا، وإن كرهتم فأنتم وحقكم.

قالوا: بل نرد عليه يا رسول اللّه، فردوا عليه ما أصابوا، حتى إن الرجل يأتى بالشيء والرجل يأتى بالإداوة والرجل بالحبل، فما تركوا قليلاً مما أصابوا ولا كثيراً إلا ردوه عليه.

ثم خرج أبو العاص بالبضائع حتى قدم مكة فأدّى إلى الناس بضائعهم، حتى إذا فرغ قال: يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم مال لم أرده عليه؟

قالوا: لا، فجزاك اللّه خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً.

قال: واللّه ما منعنى أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا توقّياً أن تظنّوا انى أسلمت لأذهب بأموالكم، ثم قال معلناً: انى أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

سرية ابن حارثة إلى بنى فزارة

وفى شهر رجب سنة ست من الهجرة النبوية المباركة بعث رسول اللّه (ص) زيد بن حارثة على رأس جماعة إلى وادى القرى وذلك لأن زيداً كان يذهب إلى الشام فى تجارة ومعه بضائع من أصحاب النبى (ص)، فلما قربوا من وادى القرى أغار عليهم قوم من فزارة، فقتلوا المسلمين، ونجى زيد بنفسه، فلما قدم زيد المدينة وقد خلص بنفسه، بعثه رسول اللّه (ص) مع جماعة إلى بنى فزارة، فلقيهم

بوادى القرى فأصاب منهم أموالاً وقتل منهم رجالاً ورجع إلى المدينة بعد أن وطّد الأمن فى الطريق.

غزوة بنى المصطلق

ثم كانت غزوة بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة، ورأسهم الحارث بن أبى ضرار، وقد تهيّأ للزحف على المدينة حيث سار الحارث فى قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول اللّه (ص) فأجابوه.

فلما سمع بهم رسول اللّه (ص) خرج إليهم فى بشر كثير لليلتين خلتا من شعبان سنة ست من الهجرة النبوية المباركة، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى وقيل: نميلة بن عبداللّه الليثى، فلقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول اللّه (ص) أصحابه أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فما أفلت منهم انسان، وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم، وسبى رسول اللّه (ص) النساء والذرارى، وغنم الأموال والشاء والنعم.

وكان من السبى أُم المؤمنين (جويرية) بنت الحارث بن أبى ضرار سيّد بنى المصطلق، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فأدّى رسول اللّه (ص) عنها وأعتقها فتزوّجها وسمّاها برّة، فلما بلغ المسلمون ذلك أعتقوا إجلالاً لرسول اللّه (ص) ما كان فى أيديهم من السبايا وكانوا مائة أهل بيت من بنى المصطلق وقالوا: أصهار رسول اللّه (ص)، فما علم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

فى طريق المدينة

وفى رجوع رسول اللّه (ص) من هذه الغزوة قال عبداللّه بن أُبىّ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، وذلك لشرّ وقع بين جهجاه بن مسعود الغفارى من المهاجرين وبين سنان بن وبر الجهنى من الأنصار.

فنادى الغفارى: يا للمهاجرين.

ونادى الجهنى: يا للأنصار.

فقال رسول اللّه (ص): أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟

وبلّغ زيد بن أرقم رسول اللّه (ص) مقالة عبداللّه بن أُبى فنزل فى ذلك من عند اللّه سورة المنافقين، وتبرأ عبداللّه بن عبداللّه بن أُبى من أبيه، وأتى رسول اللّه (ص) فقال له: يا رسول اللّه أنت واللّه الأعزّ وهو الأذلّ، واللّه لئن شئت لنخرجنّه يا رسول اللّه، ووقف لأبيه قرب المدينة فقال: لا تدخلها حتى يأذن لك رسول اللّه (ص) فى الدخول.

فشكى الأب ابنه إلى رسول اللّه (ص) فأرسل إليه: أن خلّ عنه يدخل.

فقال: الآن وقد جاء الإذن فنعم.

وقال أيضاً: بلغنى أنك يا رسول اللّه تريد قتل أبى وانى أخشى إن أمرتَ بذلك غيرى ألا تدعنى نفسى أرى قاتل عبداللّه يمشى على الأرض فأقتله وأدخل النار إذا قتلت مؤمناً بكافر، وقد علمت الأنصار أنى من أبرّها لأبيه، ولكن يا رسول اللّه إن أردت قتله فمرنى بذلك فأنا واللّه أحمل إليك رأسه.

فقال له رسول اللّه (ص) خيراً، وأخبره أنه يحسن صحبة أبيه مادام هو معهم.

سرية الفهرى إلى عرينة

وفى شهر شوّال سنة ست من الهجرة النبوية المباركة كانت قصة العريتيين، وذلك انه قدم على رسول اللّه (ص) عرينة وكانوا ثمانية أشخاص فأسلموا، فاستوبأوا المدينة واستوخموها.

فأمر رسول اللّه (ص) بهم إلى لقاحه وكانت خمس عشرة لقحة واللقحة ذات اللبن القريبة العهد بالولادة وقال: (لو خرجتم إلى ذود لنا

فشربتم من ألبانها).

فلما خرجوا إليها قتلوا الراعى وقطعوا يده ورجله، وغرسوا الشوك فى لسانه وعينه حتى مات، واستاقوا الإبل.

فبلغ ذلك إلى رسول اللّه (ص) فبعث فى اثرهم عشرين فارساً واستعمل عليهم ابن جابر الفهرى، فعقّبوهم حتى أدركوهم، فلما أدركوهم أحاطوا بهم وأسروهم واستردّوا الإبل وقدموا بهم المدينة.

قال جابر بن عبداللّه ان رسول اللّه (ص) كان قد دعا لما بعث إليهم وقال: (اللّهمّ اعم عليهم الطريق) فعمى عليهم الطريق، فلما أُتى بهم، أمر (ص) بقتلهم.

الجزء الثانى

الجزء الثانى

الفصل الأول: معارك على طريق الفتح

الفصل الثانى: فتح مكة و الغزوات التى تلت الفتح

الفصل الثالث: الوفودو الرسل

الفصل الرابع: حجة الوداع

الفصل الخامس: الولاية و الامامة

الفصل السادس: الأيام الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم

خاتمة

المسلمون يثوبون

ثم أقبل رسول اللّه (ص) نحو المسلمين، وكان أول من عرفه كعب بن مالك الشاعر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول اللّه (ص).

فأشار إليه رسول اللّه (ص) أن اصمت، فانحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم النبى (ص) على الفرار.

فقالوا: يا رسول اللّه فديناك بآبائنا وأُمهاتنا أتانا الخبر بأنك قتلت، فرعبت قلوبنا فولّينا مدبرين، فأنزل اللّه تعالى: (وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ اللّه شيئاً وسيجزى اللّه الشاكرين)(۸).

وقيل: نزلت هذه الآية عندما رجع رسول اللّه (ص) من أُحد إلى المدينة، فاستقبله أهلها بأجمعهم وهم يبكون ويطلبون التوبة ويقرّون بالذنب، ونساء الأنصار قد خدشن الوجوه، ونشرن الشعور، وجززن النواصى، وخرقن الجيوب، وحزمن البطون على النبى (ص)، فلمّا رأينه قال لهنّ خيراً وأمرهنّ أن يتستّرن ويدخلن منازلهنّ، وقال: ان اللّه عزوجل وعدنى أن يظهر دينه على الأديان كلها، ثم قال لهم رسول اللّه (ص):

(أيها الناس انكم رغبتم بأنفسكم عنّى، ووازرنى على وواسانى، فمن اطاعه فقد أطاعنى، ومن عصاه فقد عصانى وفارقنى فى الدنيا والآخرة)(۹).

صاحب المهراس

روى انه لما صاح ابليس بالمدينة: قتل محمد لم يبق أحد من نساء المهاجرين والأنصار إلّا وخرجت، كما وخرجت فاطمة بنت رسول

اللّه (ص) تعدو على قدميها، حتى وافته وقعدت بين يديه تبكى لما رأت ما أصاب أبيها رسول اللّه (ص) من الجراحات، وأقبل على بن أبى طالب (ع) وقد ملأ درقته بماء من المهراس(۱۰) فجاء به رسول اللّه (ص) ليشرب منه، ثم غسل به عن وجهه الدم، وإليه يشير قول على (ع) يوم الشورى: (نشدتكم باللّه هل فيكم أحد وقفت الملائكة معه يوم اُحد حين ذهب الناس غيرى؟ قالوا: لا- قال: نشدتكم باللّه هل فيكم أحد سقى رسول اللّه (ص) من المهراس غيرى؟ قالوا لا).

وعن سهل: انه سئل عن جرح رسول اللّه (ص) فقال: واللّه إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول اللّه (ص) ومن كان يسكب الماء؟ كانت فاطمة ابنته تغسله وعلى بن أبى طالب يسكب الماء، فلما رأت فاطمة أن الماء لايزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فاستمسك الدم.

الصلاة فى زوال اُحد

وذكر مولى عفرة: ان النبى (ص) صلّى الظهر يوم اُحد قاعداً من الجراح، وكذلك صلّى المسلمون خلفه قعوداً من شدة ما بهم، وقد انهزم قوم من المسلمين يومئذ فبلغ بعضهم إلى الحلوب دون الأعوص.

فلمّا قدموا بعد ثلاثة أيام من هزيمتهم قال لهم رسول اللّه (ص): إلى أين انتهيتم؟

قالوا: إلى الأعوص.

قال: لقد ذهبتم فيها عريضة، أى: واسعة.

دأب بنى اُمية وأتباعهم

ولما انكشف المسلمون عن رسول اللّه (ص) اشتغل المشركون ونساؤهم بقتلى المسلمين يمثلون بهم ويقطعون الآذان والأُنوف وغيرها، ويبقرون البطون، ويستخرجون منها الأكباد والكلى.. فلما تتبع المسلمون قتلاهم لم يجدوا قتيلاً إلّا وقد مثلوا به، إلّا حنظلة غسيل الملائكة، فإنّ أباه وهو أبو عامر الراهب الذى سماه رسول اللّه (ص) أبو عامر الفاسق وهو صاحب مسجد ضرار، كان مع المشركين فترك له، وكان حمزة عم النبى (ص) أكثر من مثّل به من بين القتلى.

۱ الأنفال: ۳۶.

۲ تفسير على بن إبراهيم قال: وحدّثنى أبى، عن ابن أبى عمير، عن هشام، عن أبى عبد الله (ع) انه سئل عن معنى قول طلحة بن أبى طلحة لما بارزه على (ع): يا قضم؟ قال (ع): إن رسول الله (ص) كان بمكة لم يجسر عليه أحد لموضع أبى طالب، فأغروا به الصبيان، وكانوا إذا خرج رسول الله (ص) يرمونه بالحجارة والتراب، فشكى ذلك إلى على (ع) فقال: بأبى أنت واُمى يا رسول الله إذا خرجت فأخرجنى معك، فخرج رسول الله (ص) ومعه على (ع) فتعرض الصبيان لرسول الله (ص) كعادتهم، فحمل عليهم على (ع) وكان يقضمهم فى وجوههم وآنافهم وآذانهم فكان الصبيان يرجعون باكين إلى آبائهم ويقولون: قضمنا على، قضمنا على، فسمى لذلك: القُضَم. (راجع بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۵۲ ب ۱۲ ح ۳).

۳ راجع بحار الأنوار: ج ۳۹ ص ۴۷ ب ۷۳ ح ۱۵ بيان، و: ج ۴۲ ص ۵۷ ب ۱۱۸ ح ۱.

۴ بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۱۰۵ ب ۱۲ ح ۳۰.

۵ الكافى: ج ۸ ص ۳۱۸ ب ۸ ح ۵۰۲ وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد: ج ۱۰ ص ۱۸۲ ب ۱۹۰ و ج ۱۳ ص ۲۶۱ وج ۱۴ ص ۲۵۱ دار إحياء التراث العربى ط ۲.

۶ النحل: ۱۲۶. ۷ بحار الأنوار: ج ۲۷ ص ۲۰۶ ب ۸ ح ۱۴. ۸ آل عمران: ۱۴۴.

۹ بحار الأنوار: ج ۲۰ ص ۱۰۶ ب ۱۲ ح ۳۰.

۱۰ قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيراً، وقيل: هو اسم ماء بأحد.

خاتمة القتال

ولما قتل جمع من المسلمين وفرّ آخرون، واضطربت الصفوف وتداخلت، جَمَع رسول اللّه (ص) من بقى معه من المسلمين ثم حمل هو (ص) وعلى (ع) والمسلمون معه حملة رجل واحد على القوم، فانهزم المشركون وتشتّت أمرهم وانصرفوا إلى مكة ولم يصلوا إلى ما أرادوا من قتل الرسول (ص) وابادة المسلمين، فكان النصر أخيراً للمسلمين وإن قتل منهم جمع كثير.

هتافات متقابلة

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: انعمت فعال، ان الأيام دول، وان الحرب سجال، يوم بيوم بدر.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟

قالوا: يا رسول اللّه ما نقول؟

قال (ص): قولوا: لا سواء، قتلانا فى الجنّة وقتلاكم فى النار.

فقال أبو سفيان: لنا العزّى ولا عزّى لكم.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟

قالوا: يا رسول اللّه ما نقول؟

قال (ص): قولوا: اللّه مولانا ولا مولى لكم.

فقال أبو سفيان: اعل هبل.

فقال رسول اللّه (ص): ألا تجيبونه؟ قولوا: اللّه أعلى وأجلّ.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: أحىّ ابن أبى كبشة؟ فأما ابن أبى طالب فقد رأيناه مكانه.

فقال له على (ع): أى والذى بعثه بالحقّ انه (ص) ليسمع كلامك.

فقال أبو سفيان: لعن اللّه ابن قمئة زعم انه قتل محمداً، ثم قال: انه قد كانت فى قتلاكم مُثلة، وانّ موعدنا وموعدكم بدراً فى العام القابل.

فقال رسول اللّه (ص) لعلى (ع): قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

استطلاع أخبار القوم

ثم بعث رسول اللّه (ص) على بن أبى طالب (ع) وقال: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأُناجزنهم.

قال على (ع): فخرجت فى أثرهم أنظر ما يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجهوا إلى مكة، فلما وقع نظر أبى سفيان على على (ع) قال له: يا على ما تريد هو ذا نحن ذاهبون إلى مكة، فانصرف إلى صاحبك فأخبره.

فأتبعهم جبرئيل (ع)، فكلّما سمعوا حافر فرسه جدّوا فى السير، وكان يتلوهم فإذا ارتحلوا قالوا: هو ذا عسكر محمد قد أقبل، ومازالوا كذلك حتى دخلوا مكة منهزمين ومرعوبين.

انّ اللّه بالغ أمره

وروى: انه لما انصرف أبو سفيان ومن معه من غزاة اُحد وبلغوا الروحاء، ندموا على انصرافهم عن المسلمين وتلاوموا فقالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم.

فبلغ ذلك الخبر رسول اللّه (ص) فأراد أن يرهب العدوّ ويريهم من نفسه وأصحابه قوّة، فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان وقال: (ألا عصابة تشدّد لأمر اللّه تطلب عدوّها، فإنها انكاء للعدوّ وأبعد للسمع) فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من القرح والجرح الذى أصابهم يوم اُحُد وامتثلوا ما أمرهم به.

مدفن الشهداء

ولما وضعت الحرب أوزارها يوم اُحد، حمل كل واحد قتيله على جمل ليدفنوهم فى المدينة، فكانوا كلما توجّهوا بهم نحو المدينة بركت الجمال، وإذا توجّهوا بهم نحو المعركة أسرعت.

فشكوا ذلك إلى رسول اللّه (ص) فقال: ألم تسمعوا قول اللّه تعالى: (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم)(۱) فأرجعهم (ص) إلى مكانهم ودفنهم بثيابهم الملطّخة بالدماء كل رجلين فى قبر على رواية الاّ ـ حمزة (ع) فإنه دفن وحده.

على مشارف المدينة

ثم انصرف المسلمون مع النبى (ص) إلى المدينة، فاستقبلته فاطمة(ع) ومعها اناء فيه ماء، فغسل به وجهه، فلمّا رأته فاطمة(ع)(۲) قد شجّ فى وجهه واُدمى فوه ادماءاً بكت(ع) وجعلت تمسح الدم وتقول: اشتد غضب اللّه على من أدمى وجه رسول اللّه (ص).

وكان معه (ص) على (ع) وقد خضب الدم يده إلى كتفه، ومعه ذو الفقار، فناوله فاطمة(ع) وقال لها: خذى هذا السيف فقد صدقنى اليوم، وأنشأ يقول:

أفاطم هاك السيف غير ذميم فلست برعديد ولا بمليم

لعمرى لقد أعذرت فى نصر أحمد وطاعة ربٍ بالعباد عليم

اميطى دماء القوم عنه فإنه سقى آل عبدالدار كأس حميم

وقال رسول اللّه (ص): خذيه يا فاطمة فقد أدّى بعلك ما عليه، وقد قتل اللّه بسيفه صناديد قريش.

مع ابنة جحش

فلما ارتحل رسول اللّه (ص) ودخل المدينة، استقبلته النساء يولولن ويبكين، فاستقبلته زينب بنت جحش، فقال لها رسول اللّه (ص): احتسبى.

فقالت: من يا رسول اللّه؟

قال (ص): أخاك.

قالت: (إنّا للّه وإنّا إليه راجعون)(۳) هنيئاً له الجنّة.

ثم قال (ص) لها: احتسبى.

فقالت: من يا رسول اللّه؟

قال (ص): حمزة بن عبدالمطلب.

قالت: (إنّا للّه وإنّا إليه راجعون)(۴) هنيئاً له الشهادة.

ثم قال لها: احتسبى.

فقالت: من يا رسول اللّه؟

قال (ص): زوجك مصعب بن عمير.

قالت: واحزناه.

فقال رسول اللّه (ص): انّ للزوج عند المرأة لحدّاً ما لأحد مثله.

فقيل لها: لم قلت ذلك فى زوجك؟

قالت: ذكرت يتم ولده.

النساء المخلصات

وكانت امرأة من بنى النجار قتل أبوها وزوجها وأخوها مع رسول اللّه (ص)، فدنت من رسول اللّه (ص) والمسلمون قيام على رأسه، فقالت لرجل متسائلة بتلهّف: أحيّ رسول اللّه (ص)؟

قال: نعم.

قالت وهى مستبشرة: أستطيع أن أنظر إليه؟

قال: نعم.

فأوسعوا لها، فدنت منه (ص) وقالت: كل مصيبة جلل بعدك يا رسول اللّه، ثم انصرفت.

البكاء على حمزة

ولما انصرف رسول اللّه (ص) إلى المدينة بعد أن صلّى على القتلى ودفنهم بثيابهم ودمائهم، مرّ بدور فى المدينة، فسمع بكاء النوائح على قتلاهنّ، فترقرقت عينا رسول اللّه (ص) بالدموع وبكى ثم قال: لكن حمزة لا بواكى له.

فلمّا سمعها سعد بن معاذ واسيد بن حضير قالا: لا تبكينّ امرأة حميمها حتى تأتى فاطمة(ع) فتسعدها بالبكاء.

فلما سمع رسول اللّه (ص) الواعية على حمزة وهو عند فاطمة(ع) على باب المسجد قال: ارجعن يرحمكنّ اللّه فقد آسيتنّ بأنفسكنّ.

غزوة حمراء الأسد

ولما وافى اليوم الثانى من انتهاء معركة اُحد، أذّن مؤذّن رسول اللّه (ص) فى الطلب للعدو، وعهد رسول اللّه (ص) أن لا يخرج معه أحد إلا من حضر المعركة يوم اُحد، حيث قال: ألا لا يخرجنّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، ألا من كانت به جراحة فليخرج، ومن لم تكن به جراحة فليقم.

فخرج معه سبعون رجلًا ممّن أثقلهم الجراح وهم يأملون أن لا تفوتهم غزوة مع رسول اللّه (ص).

وقدّم (ص) علياً (ع) بين يديه براية المهاجرين، واستأذنه جابر بن عبداللّه فى أن يفسح له فى الخروج معه، ففسح له فى ذلك، فخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح، وإنما خرج (ص) مرهباً للعدوّ ومتجلّداً، وذلك بعد أن استخلف على المدينة ابن اُمّ مكتوم، فبلغ حمراء الأسد، وهى على ثمانية أميال من المدينة.

وهناك مرّ برسول اللّه (ص) معبد بن أبى معبد الخزاعى، وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول اللّه (ص) مسلمهم وكافرهم، لايخفون عليه

شيء، ومعبد يومئذ مشرك. فقال: يا محمد، أما واللّه لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن اللّه عافاك فيهم.

ثم خرج معبد من عند رسول اللّه (ص) حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا على الرجعة إلى رسول اللّه (ص) وأصحابه وهم يقولون: أصبنا جلّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم؟ فلنكرنّ على بقيتهم فلنفرغن منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبداً، قال: ما وراءك يا معبد؟

قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما ضيّعوا وفيهم من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال: ويلك ما تقول؟

قال: واللّه ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل.

فساء ذلك أبا سفيان ومن معه، ووقع فى قلوبهم الرعب مما دعاهم إلى الإنصراف عما عزموا عليه، والرجوع إلى مكة.

هذا ورسول اللّه (ص) لما نزل بحمراء الأسد أمر أصحابه فى الليل بأن يوقدوا حولهم نيراناً كثيرة، فأوقدوا خمسمائة نار كانت ترى من بعيد.

فتصوّر المشركون ان النبى (ص) يقفوا أثرهم فى عدد عظيم من أصحابه، فتشاوروا فيما بينهم ثم عزموا على الإنصراف إلى مكة.

وأقام رسول اللّه (ص) بأصحابه هناك ثلاثة أيام، فلما اطمئنّوا من انصراف المشركين عن الكرّة عليهم رجعوا إلى المدينة فوصلوها يوم الجمعة بعد أن غابوا عنها خمسة أيّام.

سرية الغنوىّ إلى الرجيع

والرجيع بفتح الراء وكسر الجيم اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان، وكانت الوقعة بالقرب منه.

وذلك انه قدم على رسول اللّه (ص) أوائل شهر صفر على رأس أربعة أشهر من اُحد نفر من عضل والقارة، وقيل: من عضل والديش، وهما بطنان من العرب، فذكروا للنبى (ص) أنّ فيهم إسلاماً، ورغبوا أن يبعث معهم نفراً من المسلمين يعلّمونهم القرآن ويفقّهونهم فى الدين.

فبعث رسول اللّه (ص) ستة رجال من أصحابه، وقيل: سبعة، وقيل: عشرة، فيهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى، فجعله أميراً عليهم حتى إذا صاروا بالرجيع غدروا بهم، واستصرخوا عليهم هذيلاً، فوقع بين الجانبين قتال شديد أسفر عن غلبة المشركين لكثرتهم، وانحدار المجموعة الصغيرة من المسلمين لقلّتهم وعدم تهيّئهم للحرب والقتال.

سرية منذر إلى بئر معونة

وبئر معونة بضم العين موضع ببلاد هذيل بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم، وهى الى حرة بنى سليم أقرب.

وذلك فى أواسط شهر صفر على رأس أربعة أشهر من اُحد أيضاً، ولكن قبل أن يصل إلى المدينة أنباء الغدر بسرية الغنوى إلى الرجيع.

وكان سببها: ان أبا البراء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة قدم على رسول اللّه (ص)، فعرض (ص) عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد: انّ أمرك هذا الذى تدعو إليه حسن جميل، فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك.

فقال رسول اللّه (ص): إنّى أخشى أهل نجد عليهم.

فقال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم.

فبعث (ص) المنذر بن عمرو فى بضعة وعشرين رجلاً وقيل: فى أربعين رجلاً وقيل: فى سبعين، وكانوا من خيار المسلمين ومن القرّاء، يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل، ويتدارسون القرآن.

فساروا حتى إذا نزلوا بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بكتابه (ص) إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله.

ثم استصرخ عليهم بنى عامر فلم يجيبوه وقالوا: نحن لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ قبائل من بنى سليم: عصيّة ورعلا وذكوان، فأجابوه إلى ذلك.

ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وأسر عمرو بن أُميّة الضمرىّ، فلما أخبرهم أنه من مضر أخذه عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أُمه.

فقدم عمرو بن أُميّة الضمرى إلى رسول اللّه (ص) وأخبره الخبر، فنعاهم إلى أصحابه وقال: انّ أصحابكم قد أُصيبوا وانهم قد سألوا ربهم وقالوا: ربّنا أبلغ عنّا قومنا بأنا قد لقينا ربّنا فرضى عنّا ورضينا عنه.

ولما بلغ ذلك أبا براء، شقّ عليه اخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول اللّه (ص) بسببه وجواره، ونزل به الموت، فحمل ربيعة بن أبى براء لما وصله الخبر على عامر بن الطفيل وهو فى نادى قومه فأخطأ مقاتله فأصاب فخذه.

فقال عامر: هذا عمل عمى أبى براء، فلم يجرأ على الثأر منه.

وقيل: ان خبر بعث الرجيع، وخبر أصحاب بئر معونة أتى النبى (ص) فى ليلة واحدة فحزّ ذلك فى قلبه وقلوب المسلمين، وعرف المسلمون ان الغدر والفتك من عادة الجاهلية والجاهليّين، ولايمكن قلعه ولا اجتثاث جذوره إلّا بنشر الإسلام وابلاغ تعاليمه الأخلاقية إلى الناس كافة، فاندفعوا وبكل قوّة إلى نشر الإسلام وتبليغ أحكامه والإلتزام بإطاعة اللّه ورسوله (ص).

۱ آل عمران: ۱۵۴.

۲ قد سبق أنها (صلوات الله عليها) خرجت إلى أُحد بعدما سمعت النداء بقتل أبيها (ص) وذلك على رواية، أو أنها رجعت بعد ذلك ثم استقبلته (ص) عند رجوعه.

۳ البقرة: ۱۵۶. ۴ البقرة: ۱۵۶.

غزوة بنى النضير

مضى فيما سبق: انه لما دخل رسول اللّه (ص) المدينة صالحه بنو النضير كبقيّة اليهود على أن لايقاتلوه، ولايقاتلوا معه، فقبل ذلك منهم.

فلما غزا رسول اللّه (ص) بدراً وظهر على المشركين قالوا: واللّه انه للنبىّ الذى وجدنا نعته فى التوراة لاتردّ له راية، فلما غزا أُحد وانهزم المسلمون ارتابوا ونقضوا العهد وأتوا قريشاً وحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمد (ص)، فنزل جبرئيل وأخبر النبى (ص) بالخبر.

ولكى يظهر النبى (ص) نوايا بنى النضير العدوانية التى أضمروها للمسلمين، ويكشف واقعهم السيّء للرأى العام، خرج (ص) إليهم يوم السبت فى شهر ربيع الأول وصلى فى مسجد قبا ومعه نفر من أصحابه دون العشرة، ثم أتاهم فكلّمهم أن يقرضوه فى دية بعض القتلى وكان الإستقراض جارياً بينهم فقالوا: نقرضك ما أحببت.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحال. وكان (ص) إلى جنب جدار من بيوتهم.

فقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش، فقال: أنا لذلك.

فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، واللّه ليخبرنّ بما هممتم به، وانه لنقض العهد الذى بيننا وبينه.

فجاء جبرئيل وأخبر رسول اللّه (ص) الخبر، فخرج راجعاً إلى المدينة، وذلك بعد أن أوصى علياً (ع) بأن لايبرح من مكانه، وأن يخبر من سأله عنه من أصحابه بتوجّهه إلى المدينة، ففعل ذلك، ثم لحقوا به فقالوا: قمت يا رسول اللّه ولم نشعر.

فقال: همّت اليهود بالغدر فأخبرنى اللّه بذلك فقمت.

ثم أرسل (ص) إليهم من يأمرهم بالجلاء من منازلهم، وكانت منازلهم بناحية الفرع وما والاها بقرية يقال لها: زهرة، وأمهلهم عشرة أيام.

فوصل الخبر إلى ابن اُبى فأرسل إليهم من ينهاهم عن الخروج ويعدهم نصرة قومه لهم، وامداد قريظة وحلفاءهم من غطفان، فطمعوا فى ذلك.

فخرج إليهم رسول اللّه (ص) فصلّى العصر بفناء بنى النضير وعلى (ع) يحمل رايته واستخلف على المدينة ابن اُمّ مكتوم.

فلما رأوا رسول اللّه (ص) قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة، فاعتزلتهم قريظة، وخفرهم ابن اُبىّ، فحاصرهم رسول اللّه (ص) إحدى وعشرين ليلة، وقذف اللّه الرعب فى قلوبهم فعزموا على الخروج من المدينة من دون قتال.

فقال لهم رسول اللّه (ص): اُخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة وهى السلاح.

فخرجوا بالنساء والصبيان يزمّرون ويضربون بالدفوف، وتحمّلوا على ستمائة بعير حتى ان الرجل منهم يقلع باب بيته ويضعه على بعيره، ثم يخربون بيوتهم بأيديهم ويخرجون، فمنهم من صار إلى خيبر، ومنهم من صار إلى الشام، ومنهم من صار إلى الحيرة.

أموال بنى النضير

وقبض رسول اللّه (ص) السلاح والأموال صافية له، لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب، وانما قذف اللّه فى قلوبهم الرعب، فسلّموا بدون قتال ولا اراقة دماء، فكان ممّا أفاءه اللّه على رسوله.

فدعى رسول اللّه (ص) حينئذ الأنصار كلها الأوس والخزرج، فحمد اللّه وأثنى عليه وذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، وانزالهم إيّاهم فى منازلهم، واثرتهم على أنفسهم، ثم قال (ص): ان أحببتم قسّمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء اللّه علىّ من بنى النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى فى مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم.

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول اللّه بل تقسّمه للمهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا.

ونادت الأنصار: رضينا وسلّمنا يا رسول اللّه.

فقال رسول اللّه (ص): (اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار) وقسّم ما أفاء اللّه عليه بين المهاجرين دون الأنصار إلا رجلين من الأنصار كانا محتاجين، ووسّع (ص) فى الناس فى أموال بنى النضير، وأنزل اللّه تعالى فى قصة بنى النضير سورة الحشر، ومدح الأنصار على رواية بقوله: (ويؤثرون على أنفسهم)(۱).

وفى مجمع البيان عن أبى هريرة: ان الآية نزلت فى شأن على (ع) وفاطمة(ع) فى ضيافة كانت لهما قد آثرا ضيفهما على أنفسهما.

وفى هذه الغزوة أبلى على (ع) بلاءاً حسناً حيث قتل اليهود العشرة بقيادة رئيسهم عازورا الذين خرجوا من الحصن فى ظلام الليل لعمليات تخريبية واغتيال النبى (ص) وكفى اللّه المؤمنين به شرهم، وفيه يقول حسّان بن ثابت:

اللّه أىّ كريهة أبليتها ببنى نضير والنفوس تطلّع

أردى رئيسهم وآب بتسعة طوراً يشلّهم وطوراً يدفع

من أسلم من بنى النضير

ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان: يامين بن عمير، وهو ابن عم عمرو بن جحاش الذى انتدب لإلقاء الصخرة على رسول اللّه (ص)، وأبو سعد بن وهب.

أسلما على أموالهما، واحرازها، وحسن اسلامهما، حتى أن يامين على ما قيل: جعل لرجل جعلاً على أن يقتل له ابن عمه عمرو بن جحاش على ما أراده من اغتيال رسول اللّه (ص) ففعل الرجل ذلك.

غزوة بنى لحيان

ثم كانت بعد غزوة بنى النضير غزوة بنى لحيان، فقد خرج اليهم رسول اللّه (ص) يطلب بأصحاب الرجيع الذين غدر بهم بنو لحيان وقتلوهم عن آخرهم.

وأظهر (ص) عند خروجه إليهم انه يريد الشام ليصيب من القوم غرة يفاجئهم بها فيستسلموا من دون حرب فيقل القتل وسفك الدماء، ولذلك خرج (ص) وأخذ فى السير حتى نزل على منازل بنى لحيان بين أمَج وعسفان، فوجدهم قد حذروا وتمنّعوا فى رؤس الجبال، فتركهم.

عندها قال المسلمون: لو انا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة انا قد جئنا مكة، فسار (ص) وهو فى مائتى راكب حتى نزل عسفان تخويفاً لمشركى مكة، وجاز على قبر اُمه فزارها، وأرسل فارسين من الصحابة حتى بلغا كراع الغميم، ثم عادَ ولم يلق حرباً.

غزوة ذات الرقاع

وبعد مضى شهرين من غزوة بنى النضير(۲) كانت غزوة ذات الرقاع، وسمّيت ذات الرقاع لأنهم رقعوا راياتهم.

وقيل: لأنهم كانوا بقرب جبل فيه بقعٌ بياض وسواد وحمرة.

وقيل: لأن أقدامهم نقبت فيها، فكانوا يلفّون على أقدامهم الخِرق.

وقيل: لوقوع صلاة الخوف فيها وصلاة الخوف ترقيع للصلاة.

وكان سببها: ان قادماً قدم المدينة بمتاع له، فأخبر رسول اللّه (ص) بأن انماراً وثعلبة قد جمّعوا له الجموع يريدون اجتياح المدينة.

فخرج (ص) اليهم ليلة السبت لعشر خلون من المحرم فى أربعمائة رجل، وقيل: فى سبعمائة، وقيل: فى ثمانمائة من أصحابه، فسار حتى نزل فى محالّهم بذات الرقاع وهى جبل، فلقى المشركين ولم يقع بينهم حرب، ولكن خاف المسلمون أن يُغير المشركون عليهم، فنزلت صلاة الخوف، فصلّى رسول اللّه (ص) بأصحابه صلاة الخوف، وكان أول ما صلاّها.

كرم رسول اللّه (ص) وحلمه

ونزل رسول اللّه (ص) فى غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه وبين أصحابه، فرآه رجل من المشركين، فقال لقومه: أنا أقتل محمداً فجاء وشدّ على رسول اللّه (ص) بالسيف وقال: من ينجيك منّى؟

فقال (ص): ربّى وربّك، فنسفه جبرئيل عن فرسه فسقط، فقام رسول اللّه (ص) فأخذ السيف وجلس على صدره وقال: من ينجيك منّى؟

قال: جودك وكرمك، فتركه (ص)، وقام الرجل فجاء إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس، فأسلم بسببه جماعة.

وفى رواية: انه عندما جلس (ص) على صدره قال له: تشهد أن لا إله إلا اللّه وانى رسول اللّه؟ فقال الرجل: اعاهدك أن لا اُقاتلك ولا

أكون مع قوم يقاتلونک، فخلى (ص) سبيله، فجاء الرجل إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس...

ثبات وصمود

ثم انصرف رسول اللّه (ص) بأصحابه راجعاً إلى المدينة، وذلک بعد أن أصابوا بعض الغنائم، وفى الطريق باتوا فى فم شعب، فانتدب عباد بن بشير وعمار بن ياسر للحراسة يتناوبانها بينهما.

فنام عمّار وقام عباد للحراسة واشتغل بالصلاة، وفى الأثناء جاء رجل من الأعداء وهو يريد اصابة شىء أو اراقة دم، فلما رأى طليعتهم عباد أخذ يرميه بالسهم تلو الآخر وعباد صامد لا يتحرک حتى إذا غلبه الدم ركع وسجد وأتمّ صلاته ثم أيقظ صاحبه وأخبره الخبر.

فقال له عمار: ألا أخبرتنى أول ما رماک!

قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم اُحب أن أقطعها، وأيم اللّه لولا خوفى أن اُضيّع ثغراً أمرنى رسول اللّه (ص) بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها.

تفقّد الرسول (ص) أصحابه

وكان رسول اللّه (ص) يسير فى مؤخّر القوم ليسعف الضعيف منهم، ويحمل معه من قعد به مركبه وعجز به عن حمله، وفى هذه المرّة وفى طريق العودة من ذات الرقاع التقى بجابر بن عبداللّه الأنصارى وقد تخلّف عن القوم فقال له:

ما لک يا جابر؟

قال جابر وهو يشير إلى جمله: أبطأ بى هذا.

فدنى رسول اللّه (ص) إلى الجمل، ومسح يده عليه فقوى الجمل وأخذ يواهق ناقته مواقهة، ثم قال لجابر: يا جابر أتبيعنى جملک هذا؟

قال: بل أهبه لک يا رسول اللّه.

قال (ص): لا، ولكن بعنيه.

قال: اذن فساوِمنى عليه يا رسول اللّه.

قال (ص): قد أخذته بدرهم.

قال: إذن تغبننى يا رسول اللّه.

قال (ص): فبدرهمين.

قال جابر: لا.

فلم يزل يرفع له رسول اللّه (ص) فى ثمنه حتى بلغ الأوقية. فقال (ص): أرضيت يا جابر؟

قال جابر: نعم رضيت يا رسول اللّه فهو لک.

قال (ص): قد أخذته ولک ظهره إلى المدينة.

ثم قال له رسول اللّه (ص): هل تزوّجت يا جابر؟

قال: نعم يا رسول اللّه (ص).

قال (ص): ثيّباً أم بكراً؟

قال: بل ثيباً، فابتسم رسول اللّه (ص) وقال: أفلا جارية؟

قال جابر وقد تنفّس الصعداء: يا رسول اللّه إنّ أبى اُصيب يوم اُحد وترک سبع بنات فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤسهنّ وتقوم

عليهنّ.

وهنا تأثّر رسول اللّه (ص) حتى ظهر على قسمات وجهه الشريف آثاره وقال مستحسناً عمل جابر: أحسنت وأصبت يا جابر.

ثم سأله عن دَين أبيه فأخبره. فقال (ص) له: إذا دخلت المدينة وأردت أن تجذّ نخلك وتأخذ تمرها فأخبرنى.

قال جابر: فدخلت المدينة وحدثت زوجتى الحديث وما قال لى رسول اللّه(ص). فقالت مستبشرة: فدونك، سمع وطاعة.

قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل حتى أنخته على باب المسجد، ثم جلست فى المسجد قريباً منه، فخرج رسول اللّه (ص) إلى المسجد فرأى الجمل فقال: ما هذا؟

قالوا: يا رسول اللّه هذا جمل جابر.

قال (ص): وأين جابر هو؟ فدُعى له، فلما مثل بين يديه قال (ص) له: ياابن أخى خذ برأس جملك فهو لك، ثم دعا بلالاً وقال له: اذهب بجابر فاعطيه اوقية.

قال جابر: فذهبت معه فأعطانى اوقية وزادنى.

اللّه أرحم بكم

ومما يذكر وقوعه فى غزوة ذات الرقاع: انّ رجلاً جاء وفى يده فرخ طائر حتى إذا وصل إليهم رأوا انّ أبوى هذا الفرخ يرفرفان فوق رأسه، فلما استقرّ الرجل بينهم طرحا أنفسهما على فرخهما ولم يعبئا بالخطر شفقة ورحمة بفرخهما، فتعجّب الناس من ذلك.

فالتفت إليهم رسول اللّه (ص) وقال: أتعجبون من هذا الطائر، أخذتم فرخه، فطرح نفسه رحمة بفرخه؟ واللّه لربّكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه. ثم التفت (ص) بعد ذلك إلى الرجل وأمره بإطلاقه.

غزوة بدر الأخيرة

ولما قدم رسول اللّه (ص) من غزوة ذات الرقاع إلى المدينة أقام بها جمادى الأُولى إلى آخر رجب، ثم خرج فى شعبان وقيل: أقام بها إلى آخر شوّال، ثم خرج فى هلال ذى القعدة فى السنة الرابعة من الهجرة النبوية المباركة إلى بدر لميعاد أبى سفيان.

وذلك انّ أبا سفيان قال يوم اُحد عند انصرافه منهزماً إلى مكة: الموعد بيننا وبينكم بدر العام القابل.

فقال رسول اللّه (ص) لعلى (ع) قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

فخرج رسول اللّه (ص) وحمل لوائه على (ع) وسار معه ألف وخمسمائة من أصحابه، والخيل عشرة أفراس، وذلك بعد أن استعمل على المدينة عبداللّه بن رواحة.

فلما وصلوا إلى بدر الصغرى وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون إليها فى كل عام ثمانية أيام أقاموا عليها ينتظرون أبا سفيان.

وخرج أبو سفيان من مكّة ومعه ألفان وخمسون فرساً حتى نزل مجنّة من ناحية مرّ الظهران ثم بدا له الرجوع، فبعث من يثبّط المسلمين عن الخروج إليهم ووعده على ذلك عشرة من الإبل يضعها له على يدى سهيل بن عمرو إن هو فعل ذلك.

ثم التفت أبو سفيان إلى مَن معه وقال: يا معشر قريش انه لا يصلحكم إلا عام خصب، وإن عامكم هذا عام جدب، وانى راجع فارجعوا، فرجع ورجع من كان معه.

فسمّاهم أهل مكة: جيش السويق يقولون: انما خرجتم تشربون السويق.

وأقام رسول اللّه (ص) وأصحابه ببدر ثمانية أيام لم يلقوا فيها أحداً من المشركين، ووافقوا السوق وكانت لهم تجارات فباعوها وأصابوا الدرهم درهمين، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين.

مع أشجع وبنى ضمرة

وفى الطريق مرّ رسول اللّه (ص) ومعه أصحابه قريباً من بلاد أشجع وبنى ضمرة، وكان قد هادن بنى ضمرة ووادعهم من قبل.

فقال أصحاب رسول اللّه (ص): يا رسول اللّه هذه بنو ضمرة قريباً منّا، ونخاف أن يخالفونا إلى المدينة، أو يعينوا علينا قريشاً، فلو بدأنا بهم؟

فقال رسول اللّه (ص): كلا انهم أبرّ العرب بالوالدين، وأوصلهم للرحم، وأوفاهم بالعهد.

وكانت (أشجع) بلادهم قريباً من بلاد بنى ضمرة وهم بطن من كنانة، وكان بين أشجع وبنى ضمرة حلف فى المراعاة والأمان، فأُجدبت بلاد أشجع، وأُخصبت بلاد بنى ضمرة، فصارت أشجع إلى بلاد بنى ضمرة، فكان محالّها البيضاء والجبل والمستباح، وبذلك كانوا قد قربوا من رسول اللّه (ص) فهابوا لقربهم منه وخطرهم عليه، أن يبعث إليهم رسول اللّه (ص) من يغزوهم.

كما انّ رسول اللّه (ص) خافهم بسبب قربهم أن يصيبوا من أطرافه شيئاً، فهمّ بالمسير إليهم، فبينا هو على ذلك، إذ جاءت أشجع ورئيسها مسعود بن رخيلة وهم سبعمائة فنزلوا شعب سلع، عندها دعى رسول اللّه (ص) أُسيد بن حضير وقال له: اذهب أنت ونفر من أصحابك حتى تنظر ما أقدم أشجع؟

فخرج اسيد ومعه ثلاثة من أصحابه، فوقف عليهم وقال: ما أقدمكم؟

فقام إليه رئيس أشجع مسعود بن رخيلة فسلّم على اسيد وعلى أصحابه وقال: جئنا لنوادع محمداً، فرجع اسيد إلى رسول اللّه (ص) وأخبره بالخبر.

فقال رسول اللّه (ص): خاف القوم أن أغزوهم فأرادوا الصلح بينى وبينهم، ثم بعث إليهم بعشرة أحمال تمر فقدّمها أمامه ثم قال: (نعم الشيء الهدية أمام الحاجة) ثم أتاهم (ص) فقال: يا معشر أشجع ما أقدمكم؟

قالوا: قربت دارنا منك، وليس فى قومنا أقلّ عدداً منّا، فضقنا بحربك لقرب دارنا منك، وضقنا بحرب قومنا لقلّتنا فيهم، فجئنا لنوادعك.

فقبل النبى (ص) ذلك منهم ووادعهم فأقاموا يومهم ثم رجعوا إلى بلادهم، وفيهم نزلت هذه الآية: (إلّا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم ان يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم)(۳).

غزوة دومة الجندل

و(دومة الجندل) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة أو ست عشرة.

وكان سببها أنه بلغه (ص) أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مرّ بهم، من المسافرين والتجّار، وانهم يريدون الإغارة على المدينة، فخرج لخمس ليال بقين من ربيع سنة خمس للهجرة النبوية المباركة، وذلك فى ألف من أصحابه، فكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى إذا دنا من دومة الجندل بلغ أهلها خبره فتفرّقوا من فورهم.

فنزل (ص) بساحتهم فلم يلق بها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا وفرقها، فرجعوا بعد يوم ولم يصادفوا منهم أحداً.

ثم عاد رسول اللّه (ص) إلى المدينة ولم يلق كيداً. وكان ذلك تمهيداً لما حدث بعد ذلك من فتح الشام.

۱ الحشر: ۹. ۲ وقيل: بعد فتح بنى قريضة. ۳ النساء: ۹۰.

غزوة الخندق (الأحزاب)

وكانت فى شوال سنة خمس من الهجرة النبوية المباركة.

وذلك ان نفراً من اليهود منهم: سلام بن أبى الحقيق النضيرىّ، وحيىّ بن أخطب، وكنانة بن الربيع، وهوذة بن قيس الوالبى، وأبو عمارة الوالبى فى نفر من بنى النضير، ونفر من بنى وائل، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فقالوا لهم: انّ محمداً قد وترنا ووتركم، وأجلانا من المدينة من ديارنا وأموالنا، وأجلا بنى عمنا بنى قينقاع، فسيروا فى الأرض وأجمعوا حلفاءكم وغيرهم حتى نسير إليهم، فإنه قد بقى من قومنا بيثرب سبعمائة مقاتل وهم بنو قريظة وبينهم وبين محمد عهد وميثاق، وإنّا نحملهم على نقض العهد بينهم وبين محمد ويكونون معنا عليهم، فتأتونه أنتم من فوق، وهم من أسفل، وكان موضع بنى قريظة من المدينة على قدر ميلين وهو الموضع الذى يسمىّ ببئر بنى المطّلب، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وانكم أولى بالحق منه.

فأنزل اللّه تعالى فيهم على رواية: (ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً)(۱) إلى قوله: (وكفى بجهنّم سعيراً)(۲).

فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول اللّه(ص).

وجاءهم أبو سفيان فقال لهم: قد مكّنكم اللّه من عدوّكم، هذه اليهود تقاتل معكم ولن تنفك عنكم حتى نأتى على جميعهم، أو نستأصلهم، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج ذلك النفر من اليهود حتى أتوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول اللّه (ص) وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأنّ قريشاً قد تابعوهم على ذلك.

فخرجت قريش وقائدهم إذ ذاك أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن فى بنى قرارة، والحارث بن عوف فى بنى مرة، ومسعر بن دخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع، وتوجّهوا فى عشرة آلاف، وقيل: فى ثمانية عشر ألف رجل، نحو المدينة.

المشورة تهدى إلى الظفر

فلما سمع بهم رسول اللّه (ص) استشار أصحابه، فكان رأيهم على المقام فى المدينة وحرب القوم إن جاءوا إليهم على أنقابها.

فأشار سلمان الفارسى بالخندق واستحسنه القوم، ونزل جبرئيل على رسول اللّه (ص) بصواب رأى سلمان.

فخرج رسول اللّه (ص) فحدّد حفر الخندق من ناحية أُحد إلى راتج، حيث كان سائر أنحاء المدينة مشبك بالنخيل والبنيان، وخطّ موضع الحفر بخط على الأرض، فضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول اللّه (ص) ترغيباً للمسلمين فى الأجر فحفر بنفسه فى موضع المهاجرين، وعلى (ع) ينقل التراب من الحفرة، حتى عرق رسول اللّه (ص) وعيى وقال: (لا عيش إلا عيش الآخرة، اللّهم اغفر للأنصار والمهاجرين).

فقالوا مجيبين له:

(نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا)

وكان سلمان رجلاً قويّاً، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقالت الأنصار: سلمان منّا، فقال النبى (ص): (سلمان منّا أهل البيت).

وكان لكل عشرة منهم أربعون ذراعاً يحفرونها، فبدأ رسول اللّه (ص) فعمل فيه وعمل فيه المسلمون، فدأب فيه فدأبوا.

وأبطأ عن رسول اللّه (ص) وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورّون بالضعف عن العمل، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير علم من رسول اللّه (ص) ولا إذن.

وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته نائبة من الحاجة التى لابدّ منها ذكرها لرسول اللّه (ص) واستأذنه باللحوق بحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبةً فى الخير واحتساباً له، فأنزل اللّه فى أُولئك المؤمنين: (إنّما المؤمنون الذين آمنوا باللّه

ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه)(۳).

ثم قال تعالى فى المنافقين الذين كانوا يتسلّلون من العمل ويذهبون بغير إذن: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً، قد يعلم اللّه الذين يتسلّلون منكم لواذاً)(۴).

وكان الذى أشار بالخندق سلمان فقال: يا رسول اللّه، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، ولم تكن تعرفه العرب قبل ذلك، ولذا قال المشركون لما رأوا الخندق: انها مكيدة فارسية ما كانت العرب تكيدها.

النبى (ص) يجوع ليَشبع الآخرون

قال على (ع): كنا مع النبى (ص) فى حفر الخندق إذ جاءته فاطمة(ع) ومعها كسرة من خبز، فدفعتها إلى النبى (ص) فقال: يا فاطمة ما هذه؟

قالت (ص): قرص خَبَزته للحسن والحسين (عليه السلام) جئتك منه بهذه الكسرة.

فقال النبى (ص): أما إنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث.

بوارق الفتح

وبينا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم تعمل فيه المعاول، فبعثوا جابر بن عبداللّه الأنصارى إلى رسول اللّه (ص) يعلمه بذلك.

قال جابر: فجئت إلى رسول اللّه (ص) وقد شدّ على بطنه حجر المجاعة، وأخبرته بالخبر.

فأقبل (ص) ودعا بماء فى اناء، فشرب منه ثم مجّ ذلك الماء فى فيه، ثم صبه على ذلك الحجر، ثم أخذ معولاً فقال: بسم اللّه، فضرب ضربة، فبرقت برقة، فنظرنا فيها إلى قصور الشام، ثم ضرب اُخرى فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور المدائن، ثم ضرب اُخرى فبرقت برقة اُخرى فنظرنا فيها إلى قصور اليمن.

فقال رسول اللّه (ص): أما انه سيفتح اللّه عليكم هذه المواطن التى برقت فيها البرقة، ثم انهال علينا الجبل كما ينهال الرمل.

فى ضيافة جابر

قال جابر: فلما رأيت رسول اللّه (ص) قد شدّ على بطنه حجراً علمتُ بأنه جائع، فقلت له: يا رسول اللّه هل لك فى الغداء؟

قال (ص): ما عندك يا جابر؟

قلت: عناق وصاع من شعير.

قال (ص) تقدّم وأصلح ما عندك.

قال جابر: فجئتُ إلى أهلى فأمرتها فطحنت الشعير، وذبحت العنز وسلختها، وأمرتها أن تخبز وتطبخ وتشوّى، فلما فرغت من ذلك، جئت إلى رسول اللّه (ص) فقلت: بأبى واُمّى أنت يا رسول اللّه قد فرغنا، فاحضر مع من أحببت.

فقام رسول اللّه (ص) إلى شفير الخندق ثم قال: يا معاشر المهاجرين والأنصار أجيبوا جابراً، وكان فى الخندق سبعمائة رجل، فخرجوا كلّهم! ثم لم يمرّ (ص) بأحد من المهاجرين والأنصار إلا قال: أجيبوا جابراً!

قال جابر: فأسرعت إلى البيت وقلت لأهلى: قد واللّه أتاك رسول اللّه (ص) بما لاقبل لك به.

فقالت: هل أنت أعلمته بما عندنا؟

قال: نعم.

قالت: هو أعلم بما أتى.

قال جابر: فدخل رسول اللّه (ص) فنظر فى القدر، ثم نظر فى التنور، ثم دعى بصحفة فثرد فيها وغرف، فقال: يا جابر أدخل علىّ عشرة، فأدخلت عشرة، فأكلوا حتى نهلوا، وما يرى فى القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر علىّ بالذراع، فأتيته بالذراع فأكلوه.

ثم قال: أدخل علىّ عشرة، فدخلوا فأكلوا حتى نهلوا وما يرى فى القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر علىّ بالذراع، فأتيته فأكلوا وخرجوا.

ثم قال: أدخل علىّ عشرة، فأدخلتهم فأكلوا حتى نهلوا ولم ير فى القصعة إلا آثار أصابعهم.

ثم قال: يا جابر علىّ بالذراع، فأتيته بالذراع فتعجّبت وقلت: يا رسول اللّه كم للشاة من ذراع؟

قال (ص): ذراعان.

قلت: والذى بعثك بالحقّ نبيّاً لقد أتيتك بثلاثة.

فقال: أما لو سكتّ يا جابر لأكلوا كلهم من الذراع.

قال جابر: فأقبلت أُدخل عليه عشرة عشرة فيأكلون حتى أكلوا كلهم، وبقى واللّه لنا من ذلك الطعام ما عشنا به أياماً.

المشركون ومحاصرة المدينة

قال: وحفر رسول اللّه (ص) الخندق وأتمّه قبل قدوم قريش بثلاثة أيام، وقد طال حفره مايقارب من شهر واحد، وذلك بعد أن جعل له ثمانية أبواب، وجعل على كل باب رجلاً من المهاجرين ورجلاً من الأنصار مع جماعة يحفظونه.

ثم ضرب (ص) عسكره هناك وكانوا ثلاثة آلاف، فجعل الخندق أمامه، وجعل ظهره إلى سلع وهو جبل بالمدينة، وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام، وذلك بعد أن استعمل ابن أُمّ مكتوم على المدينة.

وقدمت الأحزاب وعلى رأسهم قريش ومعهم حيىّ بن أخطب، فلما نزلوا العقيق جاء حيىّ بن أخطب إلى بنى قريظة فى جوف الليل، وكانوا فى حصنهم وقد تمسّكوا بما عاهدوا عليه رسول اللّه (ص) فدقّ باب الحصن، فسمعه كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان هو بنفسه الذى وادع رسول اللّه (ص) على قومه وعاقده على ذلك، فعرف انه حيىّ بن أخطب، فأغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له.

فناداه حيىّ: ويحك يا كعب افتح لى.

قال: ويحك يا حيى إنك امرؤ مشؤوم، وانى قد عاهدت محمداً، وانك لست بناقض مابينى وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً.

قال: ويحك افتح لى أُكلّمك.

فقال: ما أنا بفاعل.

قال حيىّ، وقد فكّر فى كلام يثير به كعب: واللّه ما أغلقت الباب دونى إلا عن جشيشتك التى فى التنور تخاف أن آكل منها.

فأحفظ الرجل ففتح له وقال: لعنك اللّه لقد دخلت علىّ من باب دقيق.

فقال حيىّ: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمى إلى جانب أُحد قد عاهدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

قال كعب: جئتنى واللّه بذلّ الدهر وبجهام قد هرق ماؤه، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شىء، ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً.

فلم يزل حيى يفتله فى الذروة والغارب ويقول له: بأن محمداً لا يفلت من هذا الجمع أبداً، وان فاتك هذا الوقت لاتدرك مثله أبداً، حتى سمع له على أن أعطاه عهداً من اللّه وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك.

وبهذا تمكّن حيى من اقناع كعب، فلما اقتنع كعب بذلك أرسل إلى كل من كان فى الحصن من رؤساء اليهود وقال لهم: ما ترون؟ قالوا: أنت سيّدنا وصاحب عهدنا فإن نقضت نقضنا معك، وإن أقمت أو خرجت كنا معك.

فقال لهم (ابن باطا) وكان أحد رؤسائهم: انه قرأ فى التوراة وصف هذا النبى وانه لو ناوته الجبال الرواسى لغلبها، فلا يهولنّه هؤلاء وجمعهم، وحذرهم مغبّة نقضهم العهد معه.

وهنا انبرى حيى وقال: ليس هذا ذاك، ذلك النبى من بنى إسرائيل، وهذا من العرب، ومازال يقلّبهم عن رأيهم حتى أجابوه، ثم طلب حيّ الكتاب الذى كان بينهم وبين رسول اللّه (ص) فمزّقه وقال: قد وقع الأمر فتجهّزوا للقتال، فنقضوا عهدهم وعزموا على القتال.

وجاء حيّ بن أخطب إلى أبى سفيان والأحزاب فأخبرهم بنقض بنى قريظة عهدهم ففرحوا بذلك.

بنى قريظة يعلنون خيانتهم

ثم بدأ بنو قريظة يظهرون خيانتهم ونقضهم للعهد، وحاولوا أن يغيروا على المدينة من منافذها المؤدية إلى مساكن النساء والأطفال فبعثوا أحدهم ليطّلع على المنافذ ويخبرهم بها.

وفى أثناء استطلاعه بصرت به صفية بنت عبدالمطلب وهى مع جماعة من النسوة والأطفال وفيهم حسان بن ثابت كانوا فى حصن فارع حصن حسّان بن ثابت، فقالت لحسّان: لو نزلت إلى هذا اليهودى لتقتله، فإنه يريد أن يدلّ بنى قريظة على المنافذ المؤدية إلى الحصن.

فقال حسّان: يا بنت عبدالمطلب لقد علمت ما أنا بصاحب هذا.

وهنا تحزّمت صفية ثم نزلت وأخذت عموداً وقتلته به، ثم عادت إلى الحصن وقالت لحسّان: الآن فاخرج واسلبه.

أجابها حسّان: لا حاجة لى فى سلبه.

النبى (ص) وأخبار بنى قريظة

ولما نقض بنو قريظة عهدهم، انتهى خبرهم إلى رسول اللّه (ص) فبعث إليهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبداللّه بن رواحة وخوّات بن جُبير وقال: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟ فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه ولا تفتّوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس.

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول اللّه (ص) وقالوا: من رسول اللّه؟ لاعهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلاً فيه حدة.

فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

ثم أقبل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومن معهما إلى رسول اللّه (ص) فسلموا عليه ثم قالوا: عضل والقارة. أى: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع.

فقال رسول اللّه (ص): اللّه أكبر أبشروا بنصر اللّه يا معشر المسلمين، وكان (ص) يبعث الحرس إلى المدينة خوفاً على الذرارى من بنى قريظة.

لكن عظم على المسلمين البلاء واشتدّ الخوف عندما أتاهم عدوّهم من فوقهم ومن أسفل منهم وحاصروهم حول الخندق حتى ظن

المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: قد كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يـذهب لقضاء حاجته. وأنزل اللّه تعالى: (وإذ يقول المنافقون والّـذين فى قلوبهم مرض ما وعـدنا اللّه ورسوله إلّا غروراً)(۵).

وقال رجال معه: (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا).

وقال بعضهم: يا رسول اللّه ان بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا فنرجع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة، فأنزل اللّه سبحانه: (وما هى بعورة إن يريدوا إلّا فراراً).

مفاوضات عسكرية

فلمّـا اشـتدّ البلاء على المسـلمين من كثرة الأحزاب وطول محاصـرتهم، بعث رسول اللّه (ص) إلى عيينـة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهمـا قائـدا غطفـان، ففاوضـهما بأن يعطيهما ثلث ثمار المدينـة على أن يرجعوا بمن معهما عنه وعن أصـحابه، وذلك ليفتّ فى عضد المشركين، فجرى بينه وبينهما مذاكرة الصلح، ولم تقم الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة فى ذلك.

فبعث رسول اللّه إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول اللّه أمراً تحبه فنصـنعه، أم شـيئاً أمرك اللّه به لابدّ لنا من العمل به فافعله، أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال (ص): بل شـىء أصـنعه لكم، وما أصنع ذلك إلا لأنّى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وجاؤوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرمّا.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول اللّه قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك باللّه وعبادة الأوثان ولا نعبد اللّه ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمرنا تمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا اللّه بالإسلام وهدانا به نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، واللّه لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم بحكمه.

فقـال رسول اللّه (ص): الآن قـد عرفت ما عنـدكم، فكونوا على ما أنتم عليه، فإن اللّه تعالى لن يخـذل نبيّه ولن يسـلمه حتى ينجز له ما وعده.

وكان هذا بالإضافة إلى الفتّ فى أعضاد المشـركين، واسـتخبار معنويات المسـلمين، تعليماً من الرسول (ص) فى استشارة الحكام أهل الخبرة أيضاً.

بدء القتال

ولما علم رسول اللّه (ص) عزم أصـحابه وعلوّ معنوياتهم رغم طول المحاصرة حيث دامت بضعاً وعشرين ليلة ولم يكن بينهم حرب إلا الرمى بالنبل والحصى، قام (ص) يشجّع اُولئك الذين أصابهم الضعف والوهن خوفاً من المشركين، ويحرّضهم على جهادهم، ويعدهم النصر من اللّه تعالى، ويحثهم بذلك على المجابهة إذا نشب القتال.

وفى هـذه الأثناء انتدبت فوارس من قريش، وعلى رأسـهم فارس يليل: عمرو بن عبدود العامرى، خرج مُعلماً ليرى مشـهده، وكان يعدّ بـألف فـارس، فأقبلوا على خيلهم حتى وقفوا على الخنـدق، فلما رأوه قالوا: واللّه إنّ هـذه لمكيـدة ما كانت العرب تكيـدها، ثم تيمموا مكاناً ضـيقاً من الخندق فضـربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم خيلهم فى السبخة بين الخندق وسلع، وكان عمرو العامرى هذا ومن معه أول من عبر الخندق.

فخرج على بن أبى طـالب (ع) فى نفر من المسـلمين حـتى أخـذوا عليهم الثغرة الـتى اقتحمـوا منهـا ومنعوا من عبور الآـخرين، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم.

وكان عمرو بن عبدود ينادى تارة: ألا رجل يبارزنى؟

ويصرخ اُخرى: أين جنّتكم التى تزعمون انّ من قتل منكم دخلها؟ ويرتجز ثالثة ويقول:

ولقد بُحت من النداء بجمعكم هل من مبارز؟

ووقفت إذ جبن الشجاع مواقف البطل المناجز

انى كذلك لم أزل متسرّعاً نحو الهزاهز

إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

الايمان كله مع الشرک كله

وفى كل مرة يطلب عمرو المبارزة، كان رسول اللّه (ص) يقول لأصحابه: أيّكم يبرز إلى عمرو؟ وأضمن له على اللّه الجنّة؟

وفى كل مرة يقوم على بن أبى طالب (ع) ويقول: أنا له يا رسول اللّه، فيأمره بالجلوس انتظاراً منه ليتحرّک غيره، والمسلمون ناكسوا رؤوسهم كأنّ على رؤوسهم الطير، لمكان عمرو بن عبدود.

فلما طال نداء عمرو بالبراز وتتابع قيام على (ع) قال له رسول اللّه (ص): يا على هذا عمرو بن عبدود فارس يليل.

قال: وأنا على بن أبى طالب.

فقال (ص): إذن اُدن منّى يا على، فدنى منه، فنزع (ص) عمامته من رأسه وعمّمه بها، وأعطاه سيفه ذاالفقار وقال له: (اذهب وقاتل بهذا).

ثم رفع (ص) يديه نحو السماء وقال: (اللّهمّ انّک أخذت منّى عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبدالمطلب يوم اُحُد، وهذا أخى على بن أبى طالب، ربّ لاتذرنى فرداً وأنت خير الوارثين، اللّهمّ أعنه، اللّهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته).

فلما برز على (ع) قال (ص): (برز الايمان كله إلى الشرک كله)(۶).

ولما برز على بن أبى طالب (ع) إلى عمرو، برز وهو يهرول فى مشيته ويرتجز ويقول مجيباً لعمرو:

لاتعجلنّ فقد أتاک مجيب صوتک غير عاجز

ذو نيّة وبصيرة والصدق منجى كلّ فائز

انى لأرجو أن اُقيم عليک نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

على أعتاب المصاولة

ولما اقترب على (ع) من عمرو، قال له عمرو: من أنت؟

قال: أنا على بن أبى طالب ابن عم رسول اللّه (ص) وختنه.

قال: واللّه انّ أباک كان لى صديقاً، وانى أكره أن أقتلک، ما أمن ابن عمّک حين بعثک إلىّ أن اختطفک برمحى هذا، فأترككک بين السماء والأرض لا حيّاً ولا ميّتاً؟

فأجابه على (ع) قائلاً: قد علم ابن عمّى انک إن قتلتنى دخلتُ الجنّة وأنت فى النار، وإن قتلتک فأنت فى النار وأنا فى الجنّة.

فقال عمرو: كلتاهما لک يا على، تلک إذن قسمةٌ ضيزى.

فقال على (ع): دع هذا يا عمرو، انى سمعتک تقول: لا يعرض علىّ أحد فى الحرب ثلاث خصال إلا أجبته إلى واحدة منها، وأنا

أعرض عليك ثلاث خصال فأجبنى إلى واحدة.

قال عمرو: هات يا على.

قال (ع): تشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمداً رسول اللّه.

قال: نحّ عنى هذا، فأين ما أنفقت فيكم مالاً ـ لبداً؟ وكان قد أنفق مالاً ـ فى الصدّ عن سبيل اللّه فأنزل اللّه فيه: (يقول أهلكت مالاً لبداً)(۷).

قال (ع): فالثانية: أن ترجع من حيث جئت وترد هذا الجيش عن رسول اللّه (ص)، فإن يك صادقاً فأنتم أعلى به عيناً، وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره.

قال: إذن تتحدّث نساء قريش بأنى جبنت ورجعت.

قال (ع): فالثالثة: أن تنزل إلىّ وتقاتلنى، فإنى راجل وأنت راكب.

فنزل عمرو عن فرسه وعرقبه وقال: هذه خصلة ما كنت أظن انّ أحداً من العرب يسومنى عليها، وانى لأـكره أن أقتل رجلاً ـ كريماً مثلك، وقد كان أبوك لى صديقاً.

قال على (ع): لكنى اُحبّ أن أقتلك.

فغضب عندها عمرو وبدأ بالقتال فضرب علياً (ع) بالسيف على رأسه، فاتقاه بالدرقة فقطعها، وثبت السيف على رأسه (ع).

ثم بدره على (ع) فضربه على ساقيه فقطعهما جميعاً، وارتفعت بينهما عجاجة، وكبّر على (ع).

فانكشف من كان مع عمرو حتى عبروا الخندق منهزمين، فوقع نوفل بن عبدالعزّى فى الخندق، فطعنه على (ع) فى ترقوته فمات فى الخندق.

ضربة على (ع) يوم الخندق

ولما انكشفت العجاجة نظروا فإذا بعلى (ع) على صدر عمرو قد أخذ بلحيته يريد أن يذبحه، فلمّا همّ أن يذبحه تركه وقام فخطا خطوات ثم رجع إليه وأخذ بلحيته ثانية ليذبحه وهو يكبّر اللّه ويمجّده، فقال له عمرو: يا على إذا قتلتنى فلا تسلبنى حلّتى.

فقال (ع): هى أهون علىّ من ذلك، فذبحه وتركه، ثم أخذ رأسه وأقبل نحو رسول اللّه (ص) والدماء تسيل على رأس على (ع) من ضربة عمرو، وسيفه يقطر منه الدم، وهو يقول والرأس بيده:

أنا على وابن عبدالمطلب الموت خير للفتى من الهرب

يقول ذلك وهو يخطر فى مشيته.

فقال بعض: ألا ترى يا رسول اللّه إلى علىّ كيف يتبختر فى مشيه؟

فقال رسول اللّه (ص): انها لمشية لا يمقتها اللّه فى هذا المقام.

ثم استقبله رسول اللّه (ص) ومسح الغبار عن عينيه وقال له: أبشر يا على فلو وزن اليوم عملك بعمل اُمّة محمد لرجح عملك بعملهم، وذاك انه لم يبق بيت من المشركين إلاّ وقد دخله ذلّ بقتل عمرو، ولم يبق بيت من المسلمين إلاّ وقد دخله عزّ بقتل عمرو.

ثم قال (ص): ضربة على (ع) يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين.

وسُمع منادياً ينادى ولا يرى شخصه يقول:

قتل على عمرا قصم على ظهراً

ابرم على أمراً

ووقعت الهزيمة بالمشركين وتفرّقت الأحزاب خائفين مرعوبين.

فقال رسول اللّه (ص): الآن نغزوهم ولا يغزونا، فكان كما قال (ص) فلم يغزهم قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوهم حتى فتح اللّه عليهم مكّة.

ولما سألوا علياً (ع) عن سبب قيامه عن صدر عمرو ثم العود إليه ثانية، وعن تركه سلبه؟

قال (ع): ان عمرواً تجاسر عليه مما أثار غضبه، فقام يخطو خطوات يطفىء بها غضبه ليكون قتله إيّاه خالصاً لوجه اللّه تعالى لا يشوبه شيء من التشفى والإنتقام لنفسه، كما انه ترك سلبه، لأن عمرواً قد سأله ذلك وطلب منه أن لايسلبه بعد قتله.

ضربتان: أعزّ وأشأم

روى الأودى قال: سمعت ابن عياش يقول: لقد ضَرب علىّ (ع) ضربة ما كان فى الإسلام ضربة أعزّ منها، يعنى بها ضربة عمرو بن عبدود العامرى، ولقد ضُرب على (ع) ضربة ما كان فى الإسلام أشأم منها، يعنى بها ضربة ابن ملجم المرادى، وفى قتل عمرو بن عبدود يقول حسّان بن ثابت:

أمسى الفتى عمرو بن عبد يبتغى بجنوب يثرب غارة لم تنظر

ولقد وجدت سيوفنا مشهورة ولقد وجدت جيادنا لم تقصر

ولقد رأيت غداة بدر عصبة ضربوك ضرباً غير ضرب المخسر

أصبحت لا تدعى ليوم عظيمة يا عمرو أو لجسيم أمر منكر

فسمعه أحد بنى عامر فأجابه وهو يرد عليه افتخاره بالأنصار قائلاً:

كذبتم وبيت اللّه لم تقتلوننا ولكن بسيف الهاشميين فافخروا

بسيف ابن عبداللّه أحمد فى الوغا بكف علىّ نلتمُ ذاك فاقصروا

فلم تقتلوا عمرو بن عبد ببأسكم ولكنه الكفو الهزبر الغضنفر

علىّ الذى فى الفخر طال بناؤه ولا تكثتروا الدعوى علينا فتحقروا

مع ابنة عبدود

وروى انه لما قتل على (ع) عمرو بن عبدودّ نعى إلى اُخته عمرة بنت عبدود، فلما جاءت إليه ورأته على حلّته لم يسلبه قاتله، قالت: من ذا الذى اجترأ عليه؟

قالوا لها: على بن أبى طالب.

قالت: لم يعد موته إلا على يد كفو كريم، لا رقأت دمعتى ان هرقتها عليه، قتل الأبطال، وبارز الأقران، وكانت منيته على يد كفو كريم من قومه، ما سمعت بأفخر من هذا يا بنى عامر، ثم أنشأت تقول:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنتُ أبكى عليه آخر الأبد

لكن قاتل عمرو لا يعاب به من كان يدعى قديماً بيضة البلد

ثم قالت: واللّه لا ثأرت قريش بأخى ما حنّت النيب والنيب جمع ناب وهى المسنّة من النوق كناية عن انها لاتستطيع ذلك أبداً.

فى الحرب ومع المشركين فقط

كان نعيم بن مسعود الأشجعى ممن يجيد فنّ الشغب والفتنة، فأتى رسول اللّه (ص) فى جوف الليل وكان قد أسلم قبل قدوم قريش بثلاثة أيام، فقال: يا رسول اللّه انى قد آمنتُ باللّه وصدقتك، وكتمتُ ايمانى عن الكفرة، فإن أمرتنى أن آتيك وأنصرك بنفسى

فعلت، وإن أمرتنى ان اُخذّل بين اليهود وبين قريش فعلت حتى لايخرجوا من حصنهم.

فقال رسول اللّه (ص): خذّل بين اليهود وبين قريش، فإنه أوقع عندى.

فجاء إلى أبى سفيان وقال له: انك تعرف مودّتى لكم ونصحى، وقد بلغنى انّ محمداً قد وافق اليهود على أن يأخذوا رهائن من أشرافكم ليسلّموهم إلى محمد يضرب أعناقهم، ثم يدخلوا بين عسكركم ويميلوا عليكم، ووعدهم إذا فعلوا ذلك أن يردّ عليهم جناحهم الذى قطعه بنى النضير وقينقاع، فلا أرى أن تدعوهم يدخلوا عسكركم حتى تأخذوا منهم رهناً تبعثوا بهم إلى مكّة، فتأمنوا مكرهم وغدرهم.

فقال له أبو سفيان: وفّقك اللّه وأحسن جزاءك، مثلك من أهدى النصائح.

ثم جاء نعيم من فوره ذلك إلى بنى قريظة وقال لكعب وكان نديماً له فى الجاهلية: يا كعب انّك تعلم مودّتى لكم ونصحى، وقد بلغنى انّ أبا سفيان قال: نخرج هؤلاء اليهود فنضعهم فى نحر محمّد، فإن ظفروا كان الفخر لنا، وإن خسروا كانوا هؤلاء مقاديم الحرب، فلا أرى لكم أن تدعوهم يدخلوا عسكركم حتى تأخذوا منهم عشرة من أشرافهم يكونون فى حصنكم، فإنهم إن لم يظفروا بمحمد رجعوا إلى مكة وغزاكم محمد فقتلكم، لكن إن أخذتم رهائن منهم، لم يذهبوا حتّى يردّوا عليكم عهدكم الذى جعلتموه بينكم وبين محمد.

فقال له كعب: أحسنت وأبلغت فى النصيحة لانخرج من حصننا حتى نأخذ منهم رهناً يكونون فى حصننا.

وكان كذلك، فإنهم طلبوا رهناً حينما طلب منهم أبوسفيان أن يبدأوا القتال، فقال أبوسفيان: صدق نعيم، فاختلفت كلمتهم.

الأحزاب ينهزمون

لما قَتل على (ع) عمرو بن عبدود دخل الوهن والذلّ معسكر الأحزاب، واضطربوا أشدّ اضطراب، فلما جنّ اللّيل قام رسول اللّه (ص) على التلّ الذى عليه مسجد الفتح، وكانت ليلة ظلماء قرّة فقال: من يذهب فيأتينا بخبرهم وله الجنّة؟ أعادها فلم يقم أحد، ثم قال: من هذا؟ وكان حذيفة قريباً منه، فقال: أنا حذيفة يا رسول اللّه.

فقال: اقترب يا حذيفة أما تسمع كلامى؟

فقام حذيفة وهو يقول: القرّ والضرّ جعلنى اللّه فداك منعانى أن اُجيبك.

فقال رسول اللّه (ص): انطلق حتى تسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم.

فقال حذيفة: نعم يا رسول اللّه، ثم قام فأخذ سيفه وقوسه وترسه، وليس به ضرّ ولا قرّ واتّجه نحوهم.

فقال له رسول اللّه (ص) بعد أن دعا له: يا حذيفة لاتحدث شيئاً حتى تأتينى، فلما ذهب حذيفة رفع رسول اللّه (ص) يديه إلى السماء ودعا قائلاً: (يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرّين، ويا مغيث المهمومين، اكشف همّى وغمّى وكربى، فقد ترى حالى وحال أصحابى) وما أن تمّ دعاؤه حتى نزل جبرئيل وهو يقول: يا رسول اللّه انّ اللّه عزّ ذكره قد سمع مقالتك ودعاءك وقد أجابك وكفاك هول عدوّك، فجثا رسول اللّه (ص) على ركبتيه، وبسط يديه، وأرسل عينيه، ثم قال: (شكراً شكراً، كما رحمتنى ورحمت أصحابى).

ثم قال: ان اللّه عزّ وجل قد بعث عليهم ريحاً من السماء الدنيا فيها حصى وأرسل عليهم ريحاً من السماء الرابعة فيها جندل.

حذيفة ودعاء الرسول (ص)

قال حذيفة: خرجت فلما وصلت إليهم، أقبل جند اللّه الأول ريح فيها حصى، فما تركت لهم ناراً إلّا أذرّتها، ولا خباءاً إلّا طرحته، ولا رمحاً إلا ألقته، حتى جعلوا يتترّسون من الحصى.

فجلست بين رجلين من المشركين، فقام أبو سفيان وقال: إن كنّا نقاتل أهل الأرض فنحن بالقدرة عليه، وإن كنّا نقاتل أهل السماء كما يقول محمد فلا طاقة لنا بأهل السماء، انظروا بينكم لا يكون لمحمد عين بيننا، فليسأل بعضكم بعضاً.

قال حذيفة: فبادرتُ إلى الذى عن يمينى وقلت له: من أنت؟

قال معاوية.

وقلت للذى عن يسارى: من أنت؟

فقال: عمرو بن سهيل، ولم يسألانى عن اسمى.

ثم أقبل جند اللّه الأعظم. ريح فيها جندل، فقام أبو سفيان إلى راحلته، ثم صاح فى قريش: النجاء النجاء، ولما أراد أن يركب راحلته أمكننى قتله، فلما هممت بذلك تذكرت قول رسول اللّه (ص): (لا تحدثن حدثاً حتى ترجع إلىّ) فكففت ورجعت بعد أن انهزم المشركون وذهب الأحزاب.

فأخبرتُ رسول اللّه (ص) الخبر وقد طلع الفجر، فتهيّأ وتهيّئنا معه للصلاة، فصلّى بنا الفجر ثم نادى مناديه: لا يبرحنّ أحد مكانه إلى أن تطلع الشمس، فلما طلعت الشمس انصرفنا مع رسول اللّه (ص) إلى داخل المدينة وهو يقول على رواية: (لا إله إلاّ اللّه وحده وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فله الملك وله الحمد، يحيى ويميت، ويميت ويحيى، وهو حىّ لا يموت بيده الخير وهو على كلّ شىء قدير).

القرآن وغزوة الأحزاب

ثم انّ اللّه تعالى أوحى إلى نبيّه (ص) سورة الأحزاب يذكّر المسلمين فيها بما أصابهم ذلك اليوم من ضرّ، وبما منّ عليهم من الفتح وبما أنزل عليهم من النصر، اضافة إلى ما فى تسمية السورة بالأحزاب من اشارة إلى أهمية الأمر وعظم الواقعة حيث يقول تعالى:

(يا أيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة اللّه عليكم، إذ جاءتكم جنود، فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وكان اللّه بما تعملون بصيراً، إذ جاءوكم من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنّون باللّه الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)(۸) إلى قوله تعالى: (وردّ اللّه الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان اللّه قويّاً عزيزاً)(۹).

ثمّ بشّرهم بفتح حصون اليهود حيث يقول تعالى: (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها، وكان اللّه على كلّ شىء قديراً)(۱۰).

۱ النساء: ۵۱. ۲ النساء: ۵۵. ۳ النور: ۶۲.

۴ النور: ۶۳. ۵ الأحزاب: ۱۲.

۶ راجع شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المعتزلى ج ۱۳ ص ۲۶۱ ط دار إحياء التراث العربى.

۷ البلد: ۶. ۸ الأحزاب: ۹ ۱۱. ۹ الأحزاب: ۲۵.

۱۰ الأحزاب: ۲۶ ۲۷.

غزوة بنى قريظة

لما انصرف رسول اللّه (ص) من الخندق ودخل المدينة واللواء معقود، أراد أن يغتسل من الغبار، فناداه جبرئيل: عذيرك من محارب، واللّه ما وضعت الملائكة لامتها، فكيف تضع لامتك؟ ان اللّه يأمرك أن لا تصلّى العصر إلا ببنى قريظة، فإنى متقدّمك ومزلزل بهم حصنهم.

فخرج رسول اللّه (ص) وقال: ادعوا لى علياً، فجاء على (ع) فقال له: ناد فى الناس أن لايصلينّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة، فنادى فيهم، فخرج الناس، فبادروا إلى بنى قريظة، وخرج رسول اللّه (ص) وعلى (ع) بين يديه مع الراية العظمى فى ثلاثة آلاف رجل وثلاثين فرساً، وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة.

وكان حيّ بن أخطب لما انهزم الأحزاب جاء فدخل حصن بنى قريظة، فجاء على (ع) فأحاط بحصنهم، فأشرف عليهم كعب بن أسد من الحصن يشتمهم ويشتم نبيّهم.

فأقبل رسول اللّه (ص) وأنزل العسكر حول حصنهم فحاصرهم ثلاثة أيام، فنزل بعدها أحدهم إليه وقال: يا محمد تعطينا ما أعطيت إخواننا من بنى النضير؟

فقال: لا، أو تنزلون على حكمى.

فرجع، واستمر الحصار خمساً وعشرين ليلة.

فلما اشتد عليهم ذلك وأيقنوا انّ رسول اللّه (ص) غير منصرف عنهم، قام سيّدهم كعب بن أسد وعرض عليهم ثلاث خصال: اما الإسلام، وإما قتل ذراريهم ونسائهم ثم القتال حتى يموتوا، وإما تبييت النبى (ص) وأصحابه ليلة السبت، فإن المسلمين قد أمنوا منهم.

فأبوا كل ذلك، فأرسلوا إلى رسول اللّه (ص) أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبدالمنذر أخا بنى عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، ليستشيروه فى أمرهم، فأرسله إليهم.

زلة أبى لبابة وتوبته

فلما جاء أبو لبابة إلى بنى قريظة أحاطوا به وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.

قال أبو لبابة: فواللّه ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنتُ اللّه ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول اللّه (ص) حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده وقال: لا أبرح من مكانى هذا حتى يتوب اللّه علىَّ مما صنعت، وعاهد اللّه أن لا يطأ بنى قريظة أبداً، ولا يراه اللّه فى بلد خان اللّه ورسوله فيه أبداً.

فلما سمع رسول اللّه (ص) خبره وكان قد استبطأه قال: أما لو جاءنى لاستغفرتُ له، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب اللّه عليه.

فنزلت توبة أبى لبابة على رسول اللّه (ص)، فتولّى رسول اللّه (ص) إطلاقه بيده الكريمة، فنزلت بنو قريظة على حكم رسول اللّه (ص).

حكمية سعد بن معاذ

فلما نزلت بنو قريظة على حكم رسول اللّه (ص) قالت الأوس: يا رسول اللّه قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد فعلت وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا.

فقال رسول اللّه (ص): ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟

قالوا: بلى فمن هو؟

قال (ص): فذلك سعد بن معاذ.

قالوا: قد رضينا بحكمه.

وكان رسول اللّه (ص) قد جعل سعد بن معاذ لما به من الجراح الذى أصابه من وقعة الأحزاب فى خيمة فى المسجد تسكنها رفيدة امرأة صالحة تقوم على المرضى وتداوى الجرحى تحتسب بذلك الأجر، ليعوده من قريب، فأرسل رسول اللّه (ص) إلى سعد ليؤتى به

ليحكم فى بنى قريظة، فأُتى به فى محفّة وهو سرير يحمل عليه المريض، وأحاط به قومه وهم يقولون: يا أباعمرو، أحسن فى مواليك، فإنما ولّاك رسول اللّه (ص) ذلك لتحسن فيهم.

فقال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى اللّه لومة لائم، فأحسّ قومه من كلامه هذا، انه يريد أن يحكم فيهم بما حكم به اليهود أنفسهم: من الحكم بقتل المحاربين وسبى ذراريهم ونسائهم ومصادرة أموالهم إذا كان الفتح لهم، وبما عاهد اليهود أنفسهم رسول اللّه (ص): من انهم لو نقضوا عهدهم معه كان له الحق فى قتلهم ومصادرة أموالهم وسبى ذراريهم ونسائهم، ولذلك قالوا: واقوماه ذهب واللّه بنو قريظة.

فلما استقرّ بسعد المجلس، التفت إلى اليهود وقال لهم: يا معشر اليهود أرضيتم بحكمى فيكم؟

قالوا: بلى قد رضينا بحكمك، فأعاد عليهم القول.

فقالوا: بلى يا أبا عمرو.

عندها التفت سعد إلى رسول اللّه (ص) وقال اجلالاً له: بأبى أنت واُمّى يا رسول اللّه ما ترى؟

قال (ص): احكم فيهم يا سعد، فقد رضيت بحكمك فيهم.

فقال سعد: قد حكمت يا رسول اللّه أن تقتل رجالهم، وتسبى نساءهم وذراريهم، وتقسّم غنائمهم وأموالهم بين المهاجرين والأنصار.

فنفّذ المسلمون حكم سعد فيهم فساقوا الاُسارى إلى المدينة، وأمر رسول اللّه (ص) بأن يحفروا حفراً فى البقيع، فلما أمسى أمر بإخراج رجل رجل، فاُخرج كعب بن أسد، فلما نظر إليه رسول اللّه (ص) قال له: يا كعب أما نفعك وصية ابن حواش الحبر الذى أقبل من الشام وقال: تركت الخمر والخمير، وجئت إلى البؤس والتمور، لنبى يبعث، هذا أوان خروجه، يكون مخرجه بمكّة، وهذه دار هجرته، وهو الضحوك الذى يجتزئ بالكسرة والتميرات، ويركب الحمار العارى، فى عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، يضع سيفه على عاتقه لا يبالى من لاقى منكم، يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر؟

فقال كعب: قد كان ذلك يا محمد، ولولا أن اليهود يعيّرونى انى جزعت عند القتل لآمنتُ بك وصدقتك، ولكنى على دين اليهود عليه أحيا وعليه أموت.

فأمر رسول اللّه (ص) بضرب عنقه، فضربت.

ثم قدّم حيىّ بن أخطب فضربت عنقه، ثم ضربت أعناق الباقين، وكانوا قليلين جداً.

ويؤيّد ذلك سيرة الرسول (ص) فى التقليل من القتل حسب الإمكان.

واصطفى (ص) لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو ثم قسم رسول اللّه (ص) بين المسلمين الأموال والنساء والذرارى، وذلك بعد أن أخرج خمسها.

شهداء الخندق وقريظة

وكان قد استشهد من المسلمين يوم الخندق وقريظة: سعد بن معاذ، فإنه بعد أن حكم فى بنى قريظة، انفجر جرحه بالدم فأرجعوه إلى خيمته الذى ضربت عليه فى المسجد، فما لبث أن نزل جبرئيل على رسول اللّه (ص) وقال: من هذا العبد الصالح الذى مات، فقد فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش.

فخرج رسول اللّه (ص) إلى المسجد فإذا بسعد بن معاذ قد قبض.

وممن استشهد يوم الخندق وقريظة: الطفيل بن النعمان، وأنس به اوس، وعبداللّه بن سهل، وثعلبة بن غنمة، وكعب بن زيد، وخلاد بن سويد الذى طرحت عليه امرأة من بنى قريظة رحى فقتلته به، ومات فى الحصار أبوسنان بن محصن أخو عكاشة بن محصن.

مع ابن باطا

وكان لابن باطا وهو من رؤساء بنى قريظة يد عند ثابت بن قيس، فأتى ثابت رسول اللّه (ص) وقال: يا رسول اللّه كان لابن باطا عندى يد وقد أحببتُ أن أجزيه بها فهب لى دمه.

فقال رسول اللّه (ص): هو لك.

فأتاه فأخبره بذلك.

فقال ابن باطا: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟

فأتى ثابت إلى رسول اللّه (ص) وقال: يا رسول اللّه أهله وولده.

قال (ص): هم لك.

فأتاه فأخبره بذلك.

فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟

فأتى ثابت إلى رسول اللّه (ص) وقال: ماله يا رسول اللّه.

قال (ص): هو لك.

فأتاه فأخبره بأنّ ماله له وفاءاً.

عند ذلك قال ابن باطا لثابت: أين كعب بن أسد؟

قال ثابت: قتل.

قال: فما فعل حيىّ بن أخطب؟

قال: قتل.

قال: وما هى حال غزال بن شمول؟

قال: قتل.

فلما سمع ابن باطا بقتل هؤلاء قال لثابت: أسألك بيدى عندك يا ثابت إلاّ ما ألحقتنى بالقوم، فواللّه ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر حتى ألقى الأحبّة، فلمّا رأى ثابت هذه اللجاجة من ابن باطا مع ما منّ عليه رسول اللّه(ص) من العفو عنه وعن أهله وأولاده وماله غضب وقال: لا بأس، ثم قدمه وضرب عنقه.

سرية ابن مسلمة إلى نجد

ثم بعث رسول اللّه (ص) خيلاً قبل نجد وجعل عليهم محمد بن مسلمة، فظفروا برجل من بنى حنيفة يقال له: ثمامة بن أُثال، وكان قد قتل من المسلمين، فأسروه وجاءوا به إلى المدينة فربطوه بسارية من سوارى المسجد، وقيل: أودعوه فى غرفة على باب المسجد.

فخرج إليه رسول اللّه (ص) وقال له: ما عندك يا ثمامة؟

فقال: عندى خير يا محمد، إن تقتلنى تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل منه ما شئت.

فتركه حتى كان الغد، ثم قال (ص) له: ما عندك يا ثمامة؟

قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر إلى آخره.

فتركه حتى كان بعد الغد فقال (ص) له: ما عندك يا ثمامة؟

قال: عندى ما قلت.

قال (ص): أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لاإله إلاّ اللّه وأنّ محمّداً رسول اللّه، يا محمد، واللّه ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، وأما الآن فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ، واللّه ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين إليَّ، واللّه ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتنى وأنا اُريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشّره رسول اللّه (ص) وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟

قال: لا ولكن أسلمت مع محمّد رسول اللّه (ص)، ولا واللّه لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى (ص)، وكانت اليمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش، فكتبوا إلى رسول اللّه (ص) يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى لهم حمل الطعام، ففعل رسول اللّه(ص) ذلك.

غزوة الغابة

وتعرف بذى قرَد بفتح القاف والراء، وهو ماء على بريد من المدينة بطريق الشام، وكانت هذه الغزوة فى ربيع الأول سنة ست من الهجرة النبويّة المباركة.

وسببها: أنه كان لرسول اللّه (ص) عشرون لقحة وهى ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة ترعى بالغابة فأغار عليها عيينة بن حصن الفزارى ليلة الأربعاء فى أربعين فارساً فاستاقوها وقتلوا الراعى، وكان فيهم رجل من غفار وامرأته، قتلوا الرجل وسبوا المرأة.

ونودى: يا خيل اللّه اركبى، وكان أول ما نودى بها، كما انه كان أول من نذر بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمى، كان ناهضاً إلى الغابة، فلما علا ثنية الوداع نظر إلى خيل الكفار فصاح، فأنذر المسلمين، ثم نهض فى آثارهم فأبلى بلاء حسناً عظيماً، ورماهم بالنبل حتى استنقذ ما كان بأيديهم من اللقاح، واستخلص المرأة، واستلب منهم ثلاثين بردة.

فلما وقعت الصيحة بالمدينة كان أول من أتى إلى رسول اللّه (ص) من الفرسان المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر الأشهلى، واُسيد بن حضير أخو بنى حارثة، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة الأسدى الأخرم، وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وأبو عياش عبيد بن زيد بن صامت الزرقى.

فلما اجتمعوا خرج رسول اللّه (ص) حتى أدرك ابن الأكوع.

فلما رأى ابن الأكوع رسول اللّه (ص) قال: يا رسول اللّه قد حميت القوم الماء فابعث إليهم الساعة.

فقال (ص): يابن الأكوع إذا ملكت فاسجح، أى: سهّل وحسّن العفو.

ثم ان أول من لحق بهم محرز بن نضلة الأخرم، فأخذ ابن الأكوع بعنان فرسه، وقال: يا أخرم ان القوم قليل فاحذرهم لايقتطعوك حتى يلحق بنا أصحابنا.

فقال الأخرم: يابن الأكوع لا تحل بينى وبين الشهادة، فخلّى سبيله، فالتقى هو والفزارى فعقر الأخرم فرسه، فطعنه الفزارى فقتل رحمه اللّه، ولحق أبو قتادة فقتل قاتل الأخرم، وولّى المشركون منهزمين.

وبلغ رسول اللّه (ص) ماء يقال له ذو قرد، ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة، وأقام (ص) يوماً وليلة ثم رجع إلى المدينة، وأقبلت امرأة الغفارى على ناقة رسول اللّه (ص)، فلما أتت المدينة نذرت أن تنحرها، فأخبرها رسول اللّه (ص) انه لانذر لأحد فيما لا يملك، كما لا نذر فى معصية.

سرية عكاشة إلى الغمرة

والغمرة: ماء لبنى أسد، على ليلتين من فيد، أرسل إليهم رسول اللّه (ص) حين سمع بأنهم يريدون الإغارة على المدينة عكاشة بن محصن فى أربعين رجلاً، وذلك فى آخر شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة النبوية المباركة.

فلما أحسّ القوم بهم بكّروا فى الهروب وتركوا مكانهم مائتى بعير، فساقها عكاشة إلى المدينة.

سرية زيد الى العيص

والعيص هى: منطقة على أربعة أميال من المدينة، خرج إليها فى جمادى الأُولى زيد بن حارثة فى مائة وسبعين راكباً ليأخذوا عيراً لقريش قد أخذت طريق العراق.

فالتقوا بأبى العاص ابن الربيع زوج زينب بنت رسول اللّه (ص)، وذلك عند مرجعه من الشام، وكان رجلاً مأموناً، وكانت معه بضائع لقريش، فاستاقوا عيره وأفلت، وقدموا على رسول اللّه (ص) بما أصابوا، فقسّمه بينهم.

وأتى أبو العاص المدينة فدخل على زينب بنت رسول اللّه (ص) مستجيراً بها وسألها أن تطلب من رسول اللّه (ص) ردّ ماله عليه، وما كان معه من أموال الناس.

فدعا رسول اللّه (ص) السرية وقال: إنّ هذا الرجل منا بحيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً ولغيره، وهو فيء اللّه الذى أفاء عليكم، فإن رأيتم أن تردوا عليه فافعلوا، وإن كرهتم فأنتم وحقكم.

قالوا: بل نرد عليه يا رسول اللّه، فردوا عليه ما أصابوا، حتى إن الرجل يأتى بالشيء والرجل يأتى بالإداوة والرجل بالحبل، فما تركوا قليلاً مما أصابوا ولا كثيراً إلا ردوه عليه.

ثم خرج أبو العاص بالبضائع حتى قدم مكة فأدّى إلى الناس بضائعهم، حتى إذا فرغ قال: يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم مال لم أرده عليه؟

قالوا: لا، فجزاك اللّه خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً.

قال: واللّه ما منعنى أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا توقّياً أن تظنّوا انى أسلمت لأذهب بأموالكم، ثم قال معلناً: انى أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمّداً عبده ورسوله.

سرية ابن حارثة إلى بنى فزارة

وفى شهر رجب سنة ست من الهجرة النبوية المباركة بعث رسول اللّه (ص) زيد بن حارثة على رأس جماعة إلى وادى القرى وذلك لأن زيداً كان يذهب إلى الشام فى تجارة ومعه بضائع من أصحاب النبى (ص)، فلما قربوا من وادى القرى أغار عليهم قوم من فزارة، فقتلوا المسلمين، ونجى زيد بنفسه، فلما قدم زيد المدينة وقد خلص بنفسه، بعثه رسول اللّه (ص) مع جماعة إلى بنى فزارة، فلقيهم بوادى القرى فأصاب منهم أموالاً وقتل منهم رجالاً ورجع إلى المدينة بعد أن وطّد الأمن فى الطريق.

غزوة بنى المصطلق

ثم كانت غزوة بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة، ورأسهم الحارث بن أبى ضرار، وقد تهيّأ للزحف على المدينة حيث سار الحارث فى قومه ومن قدر عليه من العرب فدعاهم إلى حرب رسول اللّه (ص) فأجابوه.

فلما سمع بهم رسول اللّه (ص) خرج إليهم فى بشر كثير لليلتين خلتا من شعبان سنة ست من الهجرة النبوية المباركة، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى وقيل: نميلة بن عبداللّه الليثى، فلقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول اللّه (ص) أصحابه أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فما أفلت منهم انسان، وقتل عشرة منهم وأسر سائرهم، وسبى رسول اللّه (ص)

النساء والذرارى، وغنم الأموال والشاء والنعم.

وكان من السبى أُم المؤمنين (جويرية) بنت الحارث بن أبى ضرار سيّد بنى المصطلق، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فأدّى رسول اللّه (ص) عنها وأعتقها فتزوّجها وسمّاها برّة، فلما بلغ المسلمون ذلك أعتقوا إجلالاً لرسول اللّه (ص) ما كان فى أيديهم من السبايا وكانوا مائة أهل بيت من بنى المصطلق وقالوا: أصهار رسول اللّه (ص)، فما علم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

فى طريق المدينة

وفى رجوع رسول اللّه (ص) من هذه الغزوة قال عبداللّه بن أُبىّ: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، وذلك لشرّ وقع بين جهجاه بن مسعود الغفارى من المهاجرين وبين سنان بن وبر الجهنى من الأنصار.

فنادى الغفارى: يا للمهاجرين.

ونادى الجهنى: يا للأنصار.

فقال رسول اللّه (ص): أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟

وبلّغ زيد بن أرقم رسول اللّه (ص) مقالة عبداللّه بن أُبى فنزل فى ذلك من عند اللّه سورة المنافقين، وتبرأ عبداللّه بن عبداللّه بن أُبى من أبيه، وأتى رسول اللّه (ص) فقال له: يا رسول اللّه أنت واللّه الأعزّ وهو الأذلّ، واللّه لئن شئت لنخرجنّه يا رسول اللّه، ووقف لأبيه قرب المدينة فقال: لا تدخلها حتى يأذن لك رسول اللّه (ص) فى الدخول.

فشكى الأب ابنه إلى رسول اللّه (ص) فأرسل إليه: أن خلّ عنه يدخل.

فقال: الآن وقد جاء الإذن فنعم.

وقال أيضاً: بلغنى أنك يا رسول اللّه تريد قتل أبى وانى أخشى إن أمرتَ بذلك غيرى ألا تدعنى نفسى أرى قاتل عبداللّه يمشى على الأرض فأقتله وأدخل النار إذا قتلت مؤمناً بكافر، وقد علمت الأنصار أنى من أبرّها لأبيه، ولكن يا رسول اللّه إن أردت قتله فمرنى بذلك فأنا واللّه أحمل إليك رأسه.

فقال له رسول اللّه (ص) خيراً، وأخبره أنه يحسن صحبة أبيه مادام هو معهم.

سرية الفهرى إلى عرينة

وفى شهر شوّال سنة ست من الهجرة النبوية المباركة كانت قصة العريّيين، وذلك انه قدم على رسول اللّه (ص) عرينة وكانوا ثمانية أشخاص فأسلموا، فاستوبأوا المدينة واستوخموها.

فأمر رسول اللّه (ص) بهم إلى لقاحه وكانت خمس عشرة لقحة واللقحة ذات اللبن القريبة العهد بالولادة وقال: (لو خرجتم إلى ذود لنا فشربتم من ألبانها).

فلما خرجوا إليها قتلوا الراعى وقطعوا يده ورجله، وغرسوا الشوك فى لسانه وعينه حتى مات، واستاقوا الإبل.

فبلغ ذلك إلى رسول اللّه (ص) فبعث فى اثرهم عشرين فارساً واستعمل عليهم ابن جابر الفهرى، فعقّبوهم حتى أدركوهم، فلما أدركوهم أحاطوا بهم وأسروهم واستردّوا الإبل وقدموا بهم المدينة.

قال جابر بن عبداللّه ان رسول اللّه (ص) كان قد دعا لما بعث إليهم وقال: (اللّهمّ اعم عليهم الطريق) فعمى عليهم الطريق، فلما أُتى بهم، أمر (ص) بقتلهم.

غزوة الفتح

خرج رسول اللّه (ص) يوم الجمعة حين صلّى العصر بالناس، بكتائب الإسلام وجنود الرحمن، وهم عشرة آلاف من المسلمين، ونحو من أربعمائة فارس، وذلك لنقض قريش العهد الذى وقع بينهم وبين رسول اللّه (ص) بالحديبيّة.

وكان خروجه فى شهر رمضان من السنة الثامنة من الهجرة النبويّة المباركة، بعد أن استخلف على المدينة أبا لبابة، وقيل: أبا ذر الغفارى.

وكان سببها: ان بنى بكر بن عبد مناة من كنانة، كانت بينهم وبين خزاعة حروب قبل الإسلام وقتل، فلما جاء الإسلام تشاغل الناس به، فلما كانت الهدنة عام الحديبية دخلت بنو بكر من كنانة فى عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة فى عهد رسول اللّه (ص) وعقده.

فلما مضت سنتان من القضية، وقد استتبّ الأمن فى البلاد وساد الهدوء فى المنطقة، وصلت قريش أنباء حرب مؤتة وانهزام المسلمين بعد أن قتل فيها اُمراؤها الثلاثة، مما أطمعهم فى التجرؤ على إثارة البلبلة فى البلاد، والإخلال بأمن المنطقة، ونقض العهد الذى وقعوه مع رسول اللّه (ص) بالحديبية.

فعمدوا إلى توزيع الأسلحة فى حلفائهم بنى بكر من كنانة، وحرّضوهم على أن يبيّتوا خزاعة حلفاء المسلمين، ويغيروا عليهم ليلاً ويصيبوا الثأر منهم، كما وعدوهم بأن يمدّوهم بالرجال أيضاً، ثم بدأوا بإشعال فتيل نار الفتنة، وذلك عبر المخطّط التالى: فقد أوعزوا إلى رجل من كنانة أن يقعد فى صراط خزاعة، ويروى هجاء رسول اللّه (ص).

فلما فعل ذلك مرّ عليه رجل من خزاعة وقال له: يا هذا كفّ عن قولك.

فأجابه قائلاً: وما أنت وذاك؟

فردّ عليه مهدداً: لئن عدت لأكسرنّ فاك.

فأعادها الكنانى، فرفع الخزاعى يده وضرب بها فاه الكنانى، فاستنصر الكنانى قومه، والخزاعى قومه، وبدأت المناوشات بين الجانبين.

قريش تنقض عهدها

ولما بدأت المناوشات بين الجانبين خرج نوفل بن معاوية فى نفر من بنى بكر فبيت خزاعة على ماء بأسفل مكة يقال له الوتير، وأصاب منهم رجالاً ـ وأموالاً ـ ثم اقتتلوا قتالاً ـ شديداً، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً، وكان من بينهم عكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم.

فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل انا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك.

فقال نوفل: لا إله له اليوم، يا بنى بكر أصيبوا ثأركم، فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

فقاتلوهم حتى لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى ودار مولى لهم، وخرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكباً، حتى قدموا على رسول اللّه (ص) يخبرونه بما قد وقع، ويستنصرونه.

وكان رسول اللّه (ص) إذ ذاك بين أصحابه فى المسجد، فوقف عليه عمرو بن سالم الخزاعى وقال:

يا رب انّى ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكّدا

هم بيّتونا بالوتير هُجّدا وقتلونا ركّعاً وسجّداً

فقال رسول اللّه (ص): حسبك يا عمرو، ثم قام (ص) فدخل دار زوجته ميمونة وقال: اسكبوا لى ماءاً، فجعل يغتسل ويقول: (لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب) وهم رهط عمرو بن سالم الخزاعى.

وقيل: إنّ ميمونة سمعت رسول اللّه (ص) يقول فى متوضّئه ليلاً: لبيك لبيك (ثلاثاً)، نصرت نصرت (ثلاثاً).

فلما خرج قالت: يا رسول اللّه، سمعتك تقول فى متوضئك: لبيك لبيك ثلاثاً، نصرتَ نصرت ثلاثاً، كأنك تكلّم إنساناً، فهل كان

معك أحد؟

فقال (ص): هذا راجز بنى كعب يستصرخنى ويزعم أنّ قريشاً أعانت عليهم بنى بكر.

ثم خرج بـديل بن الورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول اللّه (ص) فأخبروه بما اُصـيب منهم ومظاهرة قريش بنى بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكّة.

ندامة قريش

ثم ندمت قريش على ما صـنعت، وعلموا أنّ ذلك نقض لما كان بينهم وبين رسول اللّه (ص) وخافوا ردّه الحاسم عليهم، فبعثوا إليه أبا سفيان ليشدّد العقد.

وقد كان رسول اللّه (ص) قال للناس: كأنّكم بأبى سفيان قد جاء ليشدّد العقد ويزيد فى المدّة.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة، فدخل على ابنته اُمّ حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول اللّه (ص) طوته عنه.

فقال: يا بنية أرغبتِ بى عن هذا الفراش، أم رغبتِ به عنّى؟

قالت: بل هو فراش رسول اللّه (ص)، ما كنت لتجلس عليه وأنت رجس مشرك باللّه تعالى.

فقال: واللّه لقد أصابك يا بنية بعدى شرّ.

ثم خرج حتى أتى رسول اللّه (ص) فقال: يا محمد احقن دم قومك، وأجر بين قريش، وزدنا فى المدة.

فقال (ص): أغدرتم يا أبا سفيان؟

قال: لا.

قال (ص): فنحن على ما كنا عليه.

ثم لقى أبو سفيان أحد الصحابة فكلّمه أن يكلّم رسول اللّه (ص). فقال: ما أنا بفاعل.

ثم لقى صحابياً آخر، فقال له مثل ذلك.

ثم أتى إلى منزل على بن أبى طـالب (ع) وفاطمـة (ع) بنت رسـول اللّه (ص) وعنـدهما الحسن والحسـين (عليهمـا السـلام) يـدبان بين يديهما.

فقال: يا بنت سيّد العرب تجيرين بين قريش، وتزيدين فى المدة، فتكونين أكرم سيّدة فى الناس؟

فقالت (ع): جوارى جوار رسول اللّه (ص).

فقال: أتأمرين ابنَيْكِ أن يجيرا بين الناس فيكونا سيدى العرب إلى آخر الدهر؟

قالت (ع): واللّه ما بلغ ابناى أن يجيرا بين الناس، وما يجير على رسول اللّه (ص) أحد.

فقال عنـدها، وقـد التفت إلى على (ع): يا أبا الحسن أنت أمسّ القوم بى رحماً، وانى قـد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لى إلى رسول اللّه (ص).

فقال (ع): ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول اللّه (ص) على أمر لا نستطيع أن نكلّمه فيه.

فقال: يا أبا الحسن، انى أرى الاُمور قد اشتدّت علىّ، فانصحنى واجعل لى منها وجهاً.

فقال له على (ع): أنت شيخ قريش فاذهب وقم على باب المسجد فاجر بين قريش، ثم الحق بأرضك.

فقال: أو ترى ذلك مغنياً عنّى شيئاً؟

قال (ع): لا واللّه ما أظن ذلك، ولكن ما أجد لك غيره.

ولعله قـال له على (ع) ذلـك حتى يفتـح باب الأمل عليه، فيلزمه عبرها بالصـلح ويسـد عليه طريق التفكير فى تجييش الجيوش لمحاربة

المسلمين من جديد.

فقام أبو سفيان فى المسجد، فقال: أيها الناس، إنى قد أجرت بين قريش، ثم ركب بعيره فانطلق.

فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟

قال: أتيت محمداً فكلّمته، فواللّه ما ردّ علىَّ شيئاً، ثم جئت أحد الصحابة فلم أجد عنده خيراً، ثم أتيت صحابياً آخر فكان كذلك، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار علىّ بشىء صنعته، فواللّه ما أدرى هل يغنى شيئاً أم لا؟

قالوا: وبمَ أمرك؟

قال: أمرنى أن اُجير بين الناس، ففعلت.

قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟

قال: لا.

قالوا: ويلك ما زاد الرجل على أن لعب بك، أو أنت تجير بين قريش؟ مايغنى عنا ما قلت.

قال: لا واللّه ما وجدت غير دلك.

النبى (ص) يتجهّز للفتح

ثم أمر رسول اللّه (ص) الناس بالجهاز، وأعلمهم انه سائر إلى مكـة، وقال: اللّهمّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها، فتجهَّز الناس.

فكتب حاطب بن أبى بلتعـة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم بمسـير رسول اللّه(ص) إليهم، وسـلّم الكتاب إلى امرأة سوداء اسـمها سارة مع عشرة دنانير لتوصله إلى أهل مكة.

وسارة هذه هى مولاة أبى عمرو بن صيفى بن هشام، وكانت قد أتت رسول اللّه (ص) من مكة إلى المدينة.

فقال لها رسول اللّه (ص): أمسلمة جئت؟

قالت: لا.

قال (ص): أمهاجرة جئت؟

قالت: لا.

قال (ص): فما جاء بك؟

قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالى، وقد ذهبت موالى واحتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطونى وتكسونى وتحملونى.

قال (ص): فأين أنت من شباب المشركين؟ وكانت مغنيّة نائحة.

قالت: ما طلب منّى بعد وقعة بدر.

فحثّ عليها رسول اللّه (ص) بنى عبدالمطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة.

فلما كان رسول اللّه (ص) يتجهّز لفتح مكة، أتاها حاطب وسلّمها الكتاب وأمرها أن تأخذ على غير الطريق. فلما خرجت سارة بالكتاب نزل جبرئيل على رسول اللّه (ص) وأخبره بذلك.

فاسـتدعى (ص) علياً (ع) وقال له: إنّ بعض أصـحابى قـد كتب إلى أهل مكـة يخبرهم بخبرنا، وقـد كنت سألت اللّه أن يعمى أخبارنا عليهم، والكتاب مع امرأة سوداء قد أخذت على غير الطريق، فخذ سيفك وألحقها وانتزع الكتاب منها وخلّها، وصر به إلىَّ.

ثم استدعى (ص) الزبير وقال له: امض مع على بن أبى طالب فى هذا الوجه.

فمضيا، فلما أدركاها، قال لها الزبير: أين الكتاب الذى معك؟

فأنكرت وحلفت وبكت.

فقال الزبير وقد التفت إلى علىّ (ع): ما أرى معها يا أبا الحسن كتاباً، فارجع بنا إلى رسول اللّه (ص) نخبره ببراءتها.

فقال على (ع): يخبرنى رسول اللّه (ص) انّ معها كتاباً ويأمرنى بأخذه منها، وتقول أنت: انه لا كتاب معها؟!

ثم اخترط (ع) السيف وتقدّم إليها وقال: أما واللّه لئن لم تخرجى الكتاب ثم لأضربنّ عنقك.

فقالت لما رأت الجدّ: إذا كان لا بدّ من ذلك فأعرض يابن أبى طالب بوجهك عنّى، فأعرض بوجهه، فكشفت قناعها وأخرجت الكتاب من عقيصتها، فأخذه على (ع) وصار به إلى رسول اللّه (ص).

مع حاطب بن أبى بلتعة

ولما كان أمر حاطب هذا، يتطلّب تهييج الرأى العام ضده، حتى يرتدع كل من يفكّر فى ارتكاب أمثالها، ولعله لذلك نرى انّ رسول اللّه (ص) أمر بالصلاة جامعة، ثم صعد المنبر وأخذ الكتاب بيده وقال: أيها الناس انى قد كنتُ سألتُ اللّه عزّوجلّ أن يخفى أخبارنا عن قريش، وانّ رجلاً منكم كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب، وإلّا فضحه الوحى.

فلم يقم أحد، فأعادها ثانية، فقام حاطب بن أبى بلتعة وقال: أنا يا رسول اللّه صاحب الكتاب، وما أحدثت نفاقا بعد اسلامى ولا شكاً بعد يقينى.

فقال له رسول اللّه (ص): فما الذى حملك على أن كتبت هذا الكتاب؟

قال وهو يلتمس لنفسه عذراً: يا رسول اللّه انّ لى أهلاً بمكة، وليس لى بها عشيرة يدفعون عن أهلى، فأردتُ أن تكون لى عند القوم يد يدفع اللّه بها عن أهلى ومالى، إذ ليس أحد من المهاجرين إلّا وله هناك من عشيرته من يدفع اللّه به عن أهله وماله.

فأعذره رسول اللّه (ص) وعفا عنه وقال لأصحابه يوصيهم به: لا تقولوا له إلّا خيراً.

فقام أحد الصحابة وقال: يا رسول اللّه دعنى أضرب عنق هذا المنافق، إنه قد خان اللّه ورسوله والمؤمنين.

فقال له رسول اللّه (ص): اتركه، ونهاه عن التعرّض له.

فأنزل اللّه تعالى فى حاطب: (يا أيّها الَّذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة) إلى قوله سبحانه: (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم واللّه بما تعملون بصير)(۱).

الزحف نحو مكة

وبعث رسول اللّه (ص) إلى من حوله من العرب فجلبهم: أسلم وغفّار ومزينة وجهينة وأشجع وسُليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لاقاه بالطريق.

وخرج (ص) فى عشرة آلاف من المسلمين، ونحو من أربعمائة فارس، ولم يتخلّف من المهاجرين والأنصار عنه أحد، وحيث انه كان فى شهر رمضان صام وصام الناس، حتى إذا بلغ كراع الغميم، نزل (ص) فأمر بالإفطار لنزول الوحى عليه بذلك، فأفطر وأفطر الناس، وصام قوم فسمّوا (العصاة) لأنهم صاموا، ظنّاً منهم بأن الصوم حتى فى مثل هذه الحال أفضل، فاجتهدوا مقابل نصّ رسول اللّه(ص) وأمره لهم بالإفطار، فأنذرهم القرآن وحذّرهم مغبّة التقدّم على رسول اللّه (ص)، وأمرهم بالتقوى والتحرز عن الإجتهاد مقابل نصوصه الصريحة بقوله: (يا أيُّها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدى اللّه ورسوله واتّقوا اللّه إنّ اللّه سميع عليم)(۲).

من ذكريات الفتح

وقد كان العباس عم رسول اللّه (ص) خرج بأهله وعياله مهاجراً مسلماً فلقى رسول اللّه (ص) بالجحفة، فانضمّ إليه.

وكـان ممن لقى رسول اللّه (ص) بـالطريق أيضـاً: أبوسـفيان بن الحارث بن المطلب ابن عمه، وعبـداللّه بن أبى اُميـة ابن عمته، أخو اُم سلمة اُم المؤمنين، لقيا رسول اللّه (ص) بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فلم يأذن لهما.

فكلّمته اُم سلمة فيهما فقالت: يا رسول اللّه ابن عمك، وابن عمتك وصهرك.

قال (ص): لا حاجـة لى بهما، أما ابن عمّى فهتك عرضـى، وأما ابن عمتى وصـهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال، وكان من قوله له: (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً)(۳).

فلما خرج الخبر إليهما بـذلك قال أبو سـفيان بن الحارث ومعه ابن له: واللّه ليأذنّ لى أو لآخـذنّ بيـد ابنى هذا ثم لنذهبنّ فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما بلغ رسول اللّه (ص) ذلك رقّ لهما وأذن لهما.

وقيـل: انّ علياً (ع) قـال لأبى سـفيان بن الحارث: ائت رسول اللّه (ص) من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: (تاللّه لقد آثرك اللّه علينا وإن كنّا لخاطئين)(۴) ففعل ذلك أبو سفيان بن الحارث.

فقال رسول اللّه (ص) مجيباً له وهو لا يرضـى إلا بأن يتفوّق فى حسن القول عليه: (قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين)(۵).

فأنشده أبو سفيان بن الحارث أبياتاً، وقد أسلم وحسن إسلامه، وكذلك فعل عبداللّه بن أبى اُمية.

فى مرّ الظهران

ثم مضـى رسول اللّه (ص) حتى نزل مرّ الظهران عشاءً، أى: نزل على مشارف مكـة وقـد عميت أخباره عن قريش فأمر (ص) أصـحابه فأوقدوا أكثر من عشرة آلاف نار، ولم يبلغ قريشاً مسيره وهم مغتمّون لما يخافون من غزوه إياهم.

فقـال العبـاس: يـا سوء صـباح قريش، واللّه لئن دخـل رسول اللّه (ص) مكـة عنوة قبـل أن يأتوه فيسـتأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال: فركبتُ بغلة رسول اللّه (ص) فخرجت حتى أتيت الأراك، فقلت لعلّى أجد بعض الحطّابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول اللّه (ص)، فيأتوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة.

قال: فواللّه إنى لأسـير عليها إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، وأبوسفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط، ولا عسكراً.

قال: ويقول بديل: هذه واللّه خزاعة حمشتها الحرب.

فيقول أبوسفيان: خزاعة أقل وأذلّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة.

فعرف صوتى فقال: يا أباالفضل؟

قلت: نعم.

قال: ما وراك وما هذه النيران؟

قلت: هذا رسول اللّه (ص) وراك، قد جاء بما لاقبل لكم به، بعشرة آلاف من المسلمين.

قال أبو سفيان: فما الحيلة؟

قلت: واللّه لئن ظفر بك ليضـربنّ عنقك، فاركب فى عجز هـذه البغلـة حتى آتى بك رسول اللّه (ص) فأسـتأمنه لك، فردفنى، ورجع صاحباه.

المساعى الحميدة لعباس

انّ التقاء الشخصيات المرتبطة بالسماء كرسول اللّه (ص) له الأثر البالغ فى احتواء الطرف واستهوائه، فإن كان عدوّاً ضعفت روحيته واستسلم للحق، ولو عن عدم قناعة، وإن كان صديقاً أو محايداً قويت معنويته، واستلهم الحق عن قناعة، ولذلك تأبى قوى الشرّ وبكل إصرار أن يلتقى الناس ويتعرَّفوا على المرتبطين بالسماء، بينما العباس ذوالمكانة المعروفة، كان يريد الخير لأهل مكة، فقام بهذا الدور، ونال تأييد رسول اللّه (ص)، ولذلك أردف أباسفيان خلفه.

قال: فجئت به، فكلما مررنا بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول اللّه (ص) وأنا عليها، قالوا: عم رسول اللّه (ص) على بغلة رسول اللّه (ص).

حتى مررت بنار أحد الصحابة فقال: من هذا؟ فلما رأى أباسفيان على عجز الدابة قال: هذا أبوسفيان عدوّ اللّه؟ الحمد للّه الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول اللّه (ص)، فركضت البغلة فسبقته بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطىء، واقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول اللّه (ص) ثم جلست وأخذت برأسه وقلت: واللّه لايناجيه الليلة أحد دونى.

فبينا أنا كذلك إذ دخل الصحابى وقال: يا رسول اللّه هذا أبوسفيان عدوّ اللّه قد أمكن اللّه منه بغير عهد ولا عقد، فدعنى أضرب عنقه.

فقلت: يا رسول اللّه انى قد أجرته.

فلما أكثر الصحابى فى شأنه قلت له: مهلاً، فواللّه ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بنى عبد مناف، ولو كان من بنى فلان ما قلت هذا.

قال الصحابى: مهلاً يا عباس، فواللّه إسلامك كان أحبّ إلىّ من إسلام أبى لو أسلم، وما ذلك إلا انى قد عرفت انّ إسلامك كان أحبّ إلى رسول اللّه(ص).

عندها التفت رسول اللّه (ص) الى عمّه العباس وقال يقطع حوارهما: اذهب به ياعباس إلى رحلك فقد آمنّاه، فإذا أصبحت فأتنى به.

قال: فذهبت به إلى رحلى.

الأمر الذى لابدّ منه

قال العباس: فلما أصبحت غدوت بأبى سفيان على رسول اللّه (ص)، فلما رآه رسول اللّه (ص) قال: ويحك يا أباسفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلاّ اللّه؟

قال: بأبى أنت وأُمّى ما أحلمك وأكرمك، وأرحمك وأوصلك، واللّه لقد ظننت أن لو كان مع اللّه إله غيره لأغنى عنّى شيئاً يوم بدر ويوم اُحد.

قال (ص): ويحك يا أباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّى رسول اللّه؟

قال: بأبى أنت واُمى ما أحلمك وأكرمك وأرحمك وأوصلك، أمّا هذه ففى النفس منها شىء.

فقال له العبّاس: ويحك أسلم واشهد بشهادة الحق، إشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأنّ محمداً رسول اللّه قبل أن تضرب عنقك.

فتشهد وقد تلجلج بها لسانه شهادة اضطرار، فأسلم اضطراراً.

فقال العباس: يا رسول اللّه، انّ أباسفيان رجل يحبّ الفخر، فاجعل له شيئاً.

قال (ص): نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن.

قال أبو سفيان: دارى؟!

قال (ص): دارك، ثم قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

ومع ذلك كله لم يأمن رسول اللّه (ص) أبا سفيان من الغدر إن تركه يذهب إلى مكة، ولذلك التفت إلى عمّه العباس وقال (ص): خذه يا عم إلى خيمتك، وكانت قريبة.

فلما جلس أبو سفيان فى الخيمة ندم على مجيئه مع العباس وقال فى نفسه: من فعل بنفسه مثل ما فعلت أنا؟ جئت فأعطيت بيدى، ولو كنت انصرفت إلى مكة فجمعت الأحابيش وغيرهم فلعلّى كنت أهزمه!

فناداه رسول اللّه (ص) من خيمته قائلاً: يا أبا سفيان إذن: كان اللّه يخزيك.

فسقط أبو سفيان فى يده ولم يقل شيئاً.

فلما أصبح وقت الصلاة سمع بلالاً يؤذّن فقال: ما هذا المنادى يا أبا الفضل؟

قال: هذا مؤذّن رسول اللّه (ص) للصلاة.

ثم خرج به إلى رسول اللّه (ص) فرآه يتوضّأ وأيدى المسلمين تحت شعره، فليس قطرة تصيب رجلاً منهم إلا مسح بها وجهه، فقال أبو سفيان: باللّه ما رأيت كاليوم قط كسرى ولا قيصر.

احتياطات

ثم أمر رسول اللّه (ص) العباس أن يحبسه بمضيق من الوادى عند خطم الجبل تمر به جنود اللّه فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها.

قال العباس: وكان كلما مرت قبيلة قال لى أبو سفيان: يا عباس من هذه؟

فأقول: سُليم.

فيقول: ما لى ولسُليم.

ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟

فأقول: مزينة.

فيقول: ما لى ولمزينة، حتى نفدت القبائل، ما تمر قبيلة إلا سألنى عنها، فأخبرته بهم، وكلما أخبرته عنها قال: ما لى ولبنى فلان، حتى مرّ به رسول اللّه(ص) فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد.

فقال: يا عباس، من هؤلاء؟!

فقلت: هذا رسول اللّه (ص) فى المهاجرين والأنصار.

قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: واللّه يا أباالفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان انها النبوّة.

قال: فنعم إذن.

قلت: النجاء إلى قومك.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مرّ بأبى سفيان قال له:

(اليوم يوم الملحمة اليوم تسبى الحرمة)

يا معشر الأوس والخزرج ثاركم يوم الجبل.

فسمعها أبو سفيان، فأضمرها فى نفسه حتى إذا مرّ رسول اللّه (ص) به قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ انه قال كذا وكذا.

فقال (ص): ليس مما قال سعد شىء، ثم أرسل رسول اللّه (ص) إلى سعد فنزع الراية منه ودفعها إلى على (ع) وقال: اُدخلها ادخالاً رفيقاً.

فأخذ على (ع) الراية بيده، ثم جعل ينادى ويقول:

اليوم يوم المرحمة اليوم تحفظ الحرمة

أبو سفيان: الداعية الجديد

ثم انّ رسول اللّه (ص) التفت إلى أبى سفيان وقال له: يا أباسفيان تقدّم إلى مكة، فأعلمهم بالأمان.

فمضى أبوسفيان حتى جاء قريشاً فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لاقبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن.

قالوا: قاتلك اللّه وما تغنى عنّا دارك؟

قال: ومن أغلق بابه فهو آمن.

فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وسار رسول اللّه (ص) فدخل مكة من أعلاها.

۱ الممتحنة: ۱ ۳. ۲ الحجرات: ۱. ۳ الإسراء: ۹۰.

۴ يوسف: ۹۱. ۵ يوسف: ۹۲.

الدخول إلى مكة

فلما ظهر رسول اللّه (ص) بكتيبته على ثنية أذاخر دخل من ناحيتها، وضربت له خيمة من أدم بالحجون عند قبر عمّه أبى طالب (ع) وأبى أن يدخل بيته أو بيوتهم بمكة الذى صادره المشركون.

وكان ذلك بعد أن أمر كتائب أصحابه وأُمراء عسكره أن يحيطوا بمكة كاملة، ثم يدخلوها من جميع المداخل والطرق النافذة إليها من أعلاها وأسفلها، ومن كل جوانبها حتى يسدّوا على أهلها طريق المجابهة، وأمرهم أن يكفّوا أيديهم عن القتال، ولا يقاتلوا إلا مَن قاتلهم.

كما وعقد لواءاً لأبى رويحة الخثعمى وأمره أن ينادى بين أهل مكة: ألا ومن دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن، إضافة إلى المآمن الثلاثة المذكورة، ولذلك اطمئنّ الناس وألقوا أسلحتهم ودخلوا بيوتهم آمنين لم تُسب لهم ذرّية ولم يُسفك منهم دم.

وقيل: انه بعث رسول اللّه (ص) الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كدل على مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه.

وقيل: انه بعث خالد بن الوليد فى قبائل قضاعة وسُليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يفرز رايته عند أدنى البيوت.

وبعث ابن عبادة فى كتيبة الأنصار فى مقدمة رسول اللّه (ص) وأمرهم أن يكفّوا أيديهم عن القتال، ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

على مشارف مكة

ولما انتهى رسول اللّه (ص) فى كتيبته الخضراء فاتحاً منتصراً إلى ذى طوى وهو موضع مرتفع يرى منه بيوت مكة ومنازلها، ولمح بطرفه منازل مكة وبيوتها، ونظر إلى مسقط رأسه وموطنه الذى خرج منه عنوة، واليوم قد دخلها وفتحها، وتلمّس الفتح الذى منّ اللّه تعالى به عليه، والعودة التى بشّره جبرئيل (ع) بها، اغرورقت عيناه بدموع الشوق والرحمة، وسجد للّه تعالى تواضعاً وشكراً، وحمده على نعمه وأياديه.

ثم نزل فى خيمته التى ضربت له بالحجون عند قبر عمّه أبى طالب (ع) ليستريح فيها قليلاً، ويتهيّأ منها لزيارة المسجد الحرام والطواف حول بيت اللّه العتيق.

تطهير البيت من الأصنام

ثم انّ رسول اللّه (ص) بعد أن استراح قليلاً فى خيمته اغتسل وركب راحلته القصواء واتّجه نحو المسجد الحرام، ولم يكن محرماً لحجّ ولا عمرة، وعليه السلاح، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، وعليهم السلاح، وهم يردّدون مع رسول اللّه (ص) قوله تعالى: (جاء الحقّ وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقاً)(۱).

وقد ارتجَّت مكة من قولهم، حتى دخل الرسول (ص) المسجد الحرام، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت وهو على راحلته، وفى يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستّون صنماً، فجعل يطعنها (ص) بالقوس ويقول: (جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً)(۲) (جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد)(۳) والأصنام تتساقط على وجوهها.

ثم رفع (ص) علياً (ع) على منكبيه حتى أسقط ما تبقّى من الأصنام التى كانت على الكعبة، وكان رسول اللّه (ص) قد خصّ علياً (ع) بهذه المنقبة دون غيره، وإليه أشار ابن العرندس حيث يقول فى قصيدته:

وصعود غارب أحمد فضل له دون القرابة والصحابة أفضلا

وأمر رسول اللّه (ص) ابن أسد الخزاعى فحدد أنصاب الحرم، وبث رسول اللّه (ص) سراياه إلى الأوثان التى كانت فكسرت كلها. ومما كسرها رسول اللّه (ص) اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأُخرى، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنماً إلّا كسره.

من ذكريات الكعبة

فلما فرغ من طوافه أتى الصفا، فعلا عليه، وقيل: جلس فى ناحية من المسجد حتى نظر إلى البيت، فجعل يحمد اللّه ويدعو ما شاء أن يدعو، ثم دعا بسادن الكعبة وهو يومئذ عثمان بن طلحة، وكان قد أغلق باب البيت لما بلغه انّ النبى (ص) قد دخل مكة، وامتنع من تسليم المفتاح. فقام إليه على (ع) وأخذه منه وسلّمه إلى رسول اللّه (ص).

فأمر (ص) بباب الكعبة ففتحت، فدخلها، فرأى فيها صورتين، فدعا بثوب فبلّه فى ماء ثم محاهما، فانطمستا، ثم صلّى بين العمودين على الرخامة الحمراء ركعتين، ثم أقبل على أركان البيت وكبّر إلى كل ركن منه.

ثم قصد (ص) الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينظرون ماذا يفعل بهم، وهم يظنون حسب أعراف الجاهلية الخشناء ان السيف لا يرفع عنهم، وانهم سوف يبادون عن آخرهم، لكن الواقع لم يكن كذلك، فإن الإسلام هو دين المكارم والمحاسن، والنبى (ص) هو رسول الرحمة والإنسانية، ولذلك رأوه (ص) أقبل حتى أخذ بعضادتى الباب وخطب فيهم الخطبة التالية:

لائحة حقوق الإنسان

ابتدأ رسول اللّه (ص) خطابه بحمد اللّه تعالى والثناء عليه وقال:

لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثم قال: ألا كل مأثرة، أو مال، أو دم يدّعى، أو مظلمة، أو احنة كانت فى الجاهلية، فهو تحت قدمىّ هاتين، إلّا سدانة البيت وسقاية الحاج، فإنهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إن مكة محرمة بتحريم اللّه، لم تحلّ لأحد كان قبلى، ولم تحلّ لى إلا ساعة من نهار، وهى محرّمة إلى أن تقوم الساعة، لا يختلى خلاها، ولا يقطع شجرها، ولا ينفر صيدها، ولاتحلّ لقطتها إلا لمنشد.

ثم قال: أيّها الناس ليبلّغ الشاهد الغائب إن اللّه قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية والتفاخر بآبائها وعشائرها، ألا انكم من آدم، وآدم من طين، وعلى رواية: وآدم من تراب.

ثم تلا قوله تعالى: (يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم)(۴) الآية.

ثم قال: ألا إنّ خير عباد اللّه عبد اتّقى اللّه، ان العربيّة ليست بأب والد، ولكنها لسان ناطق، فمن قصر به عمله لم يبلغ به حسبه.

ثم التفت إلى القوم وقال وهو يخاطبهم: ألا ـ لبئس جيران النبى كنتم، لقد كذبتم، وطردتم، وأخرجتم، وآذيتم، ثم ما رضيتم حتى جئتمونى فى بلادى تقاتلونى، والآن يا معشر قريش ماذا تقولون؟ وماذا تظنون انى فاعل بكم؟

قالوا: نظن خيراً، ونقول خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت.

قال (ص): فإنّى أقول لكم كما قال يوسف (ع) لإخوته: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين)(۵) اذهبوا فأنتم الطلقاء.

فخرج القوم كأنما انشروا من القبور، ودخلوا فى الإسلام، وقد كان اللّه سبحانه أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئاً، فلذلك سمّى أهل مكة: (الطلقاء).

مع سدانة الكعبة

ثم جلس رسول اللّه (ص) فى المسجد، فقام إليه على (ع) ومفتاح الكعبة فى يده، ليُسلّمها إليه، فقام العباس وسأل رسول اللّه (ص) أن يعطيه المفتاح، فنزل: (إنّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها)(۶).

فأمر رسول اللّه (ص) علياً (ع) أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة.

فلمّا ردّه إليه قال عثمان بن طلحة، وكان لا يتوقّع أن يُردّ المفتاح إليه: يا على أخذته منى بكره، وجئت به إلىّ برفق؟

قال (ع): نعم، لقد أنزل اللّه عزّوجل فيك قرآناً يقول: (إنَّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها).

فلمّا سمع عثمان بن طلحة ذلك، أسلم، فأقرّه النبى (ص) فى يده.

وروى: عن عثمان بن طلحة انه قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الإثنين والخميس، فأقبل النبى (ص) يوماً وهو يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، وذلك قبل الهجرة، فأغلقت له ونلت منه.

فحلم (ص) عنّى ثم قال: يا عثمان لعلّك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت.

فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت.

فقال (ص): بل عمرت وعزّت يومئذ، ودخل الكعبة، فوقعت كلمته منّى موقعاً ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال.

فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان ائتنى بالمفتاح، فأبيت أن آتيه به، فأخذه منّى على، ثم دفعه إليه، فلما أتم صلاته وزيارته داخل البيت ردّه علىَّ وقال: يا عثمان بن طلحة إنّ اللّه استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

قال: فلما وليت نادانى فقال: ألم يكن الذى قلتُ لك؟

قال: فذكرت قوله (ص) لى بمكة قبل الهجرة، فقلت: بلى أشهد أنّك رسول اللّه.

أول أذان على سطح الكعبة

فلما دخل وقت صلاة الظهر، أمر رسول اللّه (ص) بلالاً أن يصعد فيؤذّن على الكعبة، وأبوسفيان بن حرب وخالد وعتاب ابنا اُسيد والحارث بن هشام وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة.

فقال خالد: لقد أكرم اللّه اُسيداً ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه.

وقال الحارث: أما واللّه لو أعلم أنه حق لاتّبعته.

وقال أبو سفيان: واللّه لا أقول شيئاً، ولو تكلمت بشىء لأخبرت عنى هذه الحصباء والجدد، هذا وعتاب يسمع كلامهم.

فبعث إليهم النبى (ص) فقال لهم: قد علمت الذى قلتم، ثم ذكر لهم ذلك.

فقال أبو سفيان: أنت تعلم انى لم أقل شيئاً.

فقال (ص): اللّهمّ اهد قومى فإنهم لا يعلمون.

عندها قال الحارث وخالد: نشهد أنّك رسول اللّه، واللّه ما اطّلع على هذا أحد معنا فنقول أخبرك.

وقال عتاب لما جاء إليه: نستغفر اللّه ونتوب إليه، قد واللّه يا رسول اللّه قلنا ذلك، فأسلم وحسن إسلامه، فولّاه رسول اللّه (ص) مكة.

وكان فتح مكة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان.

فى دار اُم هانى

ثم ان رسول اللّه (ص) كان قد عهد إلى المسلمين أن لا يقتلوا بمكة إلا من قاتلهم، سوى نفر كانوا يؤذون النبى (ص) ومن أسلم معه، ويحرّضون على حربهم ومقاتلتهم، ويصدّون الناس عن سبيل اللّه والحقّ، مثل هبار بن الأسود الذى تعرّض لزينب بنت رسول اللّه (ص) حين هجرتها فأرعبها مما سبّب إسقاط جنينها ومرضها حتّى ماتت منه.

ومثل: عكرمة بن أبى جهل الذى كان أحد مثيرى الحروب ومؤجّجى نيران الفتن ضد المسلمين.

ومثل: قينتين كانتا تغنّيان بهجاء رسول اللّه (ص) وتحضّضان المشركين يوم أحد عليه.

فاستتر هؤلاء عن أعين المسلمين، فبلغ علياً (ع) أن نفرين منهم وكانا حموين لاُم هانى اُخت على (ع) قد استجارا باُم هانى فأجارتهما فى بيتها، فقصد على (ع) نحو دارها مقنعاً بالحديد، ونادى: أخرجوا من آويتم، فرعبا، وخافت اُم هانى عليهما، فخرجت إليه (ع) وهى لا تعرفه، فقالت: يا عبد اللّه أنا اُم هانى بنت عم رسول اللّه (ص) واُخت على بن أبى طالب (ع) فانصرف عن دارى.

فقال (ع): اخرجوهم.

فقالت: واللّه لأشكونّك إلى رسول اللّه (ص).

فنزع على (ع) المغفر عن رأسه فعرفته، فجاءت إليه تشتدّ حتى التزمته وقالت: فديتك، حلفت لأشكونّك إلى رسول اللّه (ص).

فقال لها: اذهبى فبرّى قسمك، فإنه بأعلى الوادى.

فجاءت إليه تشتد، فلما سمع رسول اللّه (ص) كلامها قال لها: مرحباً بكِ يا اُم هانى، قد أجرنا من أجرتِ يا اُمّ هانى.

وأمّا هبار: ففرّ، ثم أسلم، وعفى (ص) عنه.

واستؤمن رسول اللّه (ص) لسارة وإحدى القينتين فأمنهما فأسلمتا.

وأما ابن أبى سرح فإنه أسلم فجاء به عثمان، فاستأمن له رسول اللّه (ص)، فأمنه، وكان قد أسلم قبل ذلك ثم هاجر ثم ارتدّ ورجع إلى مكة.

مع فضالة بن الملوح

وقيل: إن فضالة بن عمير بن الملوح همّ أن يقتل رسول اللّه (ص) وهو يطوف بالبيت، فلمّا دنا منه قال رسول اللّه (ص): أفضالة؟

قال: نعم.

قال (ص): ماذا تحدّث به نفسك؟

قال: لا شىء كنت أذكر اللّه.

فضحك النبى (ص) ثم قال: استغفر اللّه، ثم وضع يده إلى صدره فسكن قلبه.

وكان فضالة يقول: واللّه ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق اللّه شيئاً أحبّ إلىّ منه.

قال فضالة: فرجعتُ إلى أهلى، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت شعراً، فأجبتها شعراً:

قالت هلمّ إلى الحديث فقلت: لا يأبى الإله عليك والإسلام

لو قد رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين اللّه أضحى بيننا والشرك يغشى وجهه الاظلام

من مكارم رسول اللّه (ص)

ثم ان أكثر هؤلاء النفر الـذين أهدر رسول اللّه (ص) دمهم اسـتأمن لهم بعض معارفهم، فخرجوا من اسـتتارهم، وجاءوا إلى رسول اللّه (ص) فأسلموا على يديه، فقبل إسلامهم وعفا عنهم.

وكـان أحـد هؤلاء: صـفوان بن اُميـة، وقـد فرَّ يومئـذ، فاسـتأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول اللّه (ص)، فأمنه، وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة.

فلحقه عمير وهو يريـد أن يركب البحر فردّه وقال: يا صـفوان، اذكر اللّه فى نفسك أن تهلكها، فهـذا أمان رسول اللّه (ص) قد جئتك به.

فقال صفوان، وهو يستبعد ذلك حسب رأيه: اُغرب عنى فلا تكلّمنى.

فقـال له عمير، وهـو يريـد أن يُطمئنه: أى صـفوان اُعلمـك انّ أفضـل النـاس وأبرّ النـاس وخير النـاس ابن عمـك، عزّه عزّك، وشـرفه شرفك، وملكه ملكك.

فقال صفوان، وهو يبدى ما فى قرارة نفسه وما انطوى عليه الجاهليون من الغدر: إنى أخافه على نفسى.

فقال له عمير: انه ليس كما تتصوّر، هو أحلم من ذلك وأكرم.

فاطمأنّ صفوان لما أراه عمير عمامة رسول اللّه (ص) بعثها إليه علامة لأمانه، فرجع معه حتى وقف به على رسول اللّه (ص)، فقال: هذا يزعم أنك أمنتنى؟

فقال (ص): صدق.

قال: فاجعلنى بالخيار شهرين.

قال (ص): أنت بالخيار أربعة أشهر.

وكـان ممّـن اسـتأمن لهم فـآمنهم رسـول اللّه (ص) عكرمـة بن أبى جهـل، حيث اسـتأمنت له زوجته اُم حكيم بنت الحـارث بن هشـام وأخبرت زوجها بـذلك وهى تقول له: جئتك من عنـد أوصل الناس، وأبرّ الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك وقـد اسـتأمنت لك، فآمنك.

فجاء معها إلى رسول اللّه (ص) وأسلم على يديه، ثم قال: يا رسول اللّه مرنى بخير ما تعلم فاعلمه.

قال (ص): قل أشهد أن لا إله إلاّ اللّه، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وجاهد فى سبيل اللّه.

ولهذه الأخلاق الكريمة، والسيرة الطيّبة أسلم الناس زرافات زرافات، ورسول اللّه (ص) يقرأ على رواية:

(بسم اللّه الرحمن الرحيم إذا جـاء نصـر اللّه والفتـح ورأيت الناس يـدخلون فى دين اللّه أفواجاً فسـبّح بحمـد ربّك واسـتغفره إنّه كان توّاباً)(۷).

البيعة رجالاً ونساءاً

ثم اجتمع الناس للبيعة، فجلس رسول اللّه (ص) على الصفا يبايع الناس، فبايعه الرجال على الإسلام والجهاد والطاعة للّه ولرسوله.

ولما فرغ من بيعة الرجال، أقبلت النساء يبايعنه وهو على الصفا، فأنزل اللّه عزّوجلّ:

(يا أيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن باللّه شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصينك فى معروف فبايعهنّ واستغفر لهنّ اللّه إنّ اللّه غفور رحيم)(۸).

فقالت هند، وكانت بين النساء وهى متنكّرة حتى لا يعرفها رسول اللّه (ص) لما صنعت بحمزة (ع): إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال!

ثم قالت: أما المال فقد أصبتُ من مال أبى سفيان هنات لأنه رجل ممسك لا يوسّع على عياله.

فقال لها رسول اللّه (ص): وانكِ لهند؟

قالت: نعم، فاعف عمّا سلف، عفى اللّه عنك.

ثم قالت: وأما الزنا فلا تزنى الحرّة، وأمّا الولد فقد ربّيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر.

فتأثّر رسول اللّه (ص) من ذلك ولم يقل لها شيئاً، ثم قالت: وأما البهتان فإنه قبيح، وما تأمرنا إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق، وأما انه لا نعصيك فى معروف، فإنّا ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء.

وقيل: انها لما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك فى غرور.

ثم ان أُم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجة عكرمة بن أبى جهل كانت بين النساء أيضاً فقالت: يا رسول اللّه ما ذلك المعروف الذى أمرنا اللّه أن لا نعصيك فيه؟

فقال (ص): لا تلطمنّ خدّاً، ولا تخمشن وجهاً، ولا تنتفن شعراً، ولا تدعين بويل وثبور.

وكان ذلك دأب النساء على موتى الجاهلية فقد كنّ ينتفن شعر رأسهنّ حتى لا يبقى فى رأسهنّ طاقة شعر، ويدعين بالويل والثبور.

فقالت: يا رسول اللّه كيف نبايعك؟

قال (ص): إننى لا اُصافح النساء، ثم دعا بقدح من ماء، فأدخل يده فيه ثم أخرجها وقال: ادخلن أيديكنّ فى هذا الماء فهى البيعة، ففعلن.

معيار التفاضل فى الإسلام

ثم قام رسول اللّه (ص) على الصفا يخطب فى عشيرته، بنى هاشم وبنى عبدالمطلب، ويوصيهم بوصاياه، لأنهم هم الذين سيخلّفونه إذا ارتحل عن مكة، ويجسّدونه فى أعمالهم وتصرّفاتهم، وأهل مكة الذين هم حديثوا عهد بالإسلام ينظرون إليهم نظر اقتداء وتأسّى، لأنهم يرونهم رهط رسول اللّه (ص) وعشيرته، وممثّلوه فيهم.

ولذلك خطب (ص) عليهم يحفّزهم على الخير والتقوى، وعلى العمل للآخرة، ويحذّرهم الإتّكال على الأمانى والإقتناع بحسبهم ونسبهم والإشتغال بالدنيا، فقال (ص):

(يا بنى هاشم، ويا بنى عبد المطلب، انّى رسول اللّه إليكم، وانى شفيق عليكم، لا تقولوا انّ محمداً منّا، فواللّه ما أوليائى منكم ولا من غيركم إلّا المتّقون، ألا فلا أعرفكم تأتونى يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم، ويأتى الناس يحملون الآخرة، ألا وإنى قد أعذرت فيما بينى وبينكم، وفيما بين اللّه عزّوجل وبينكم، وانّ لى عملى ولكم أعمالكم).

مع بديل بن ورقاء

ثم ان العباس الذى كان يقوم بدور الوسيط بين النبى (ص) وشخصيات قريش وكبار الجاهليين ويسعى لجذبهم وتقريب قلوبهم إلى الإسلام، جاء يوم الفتح بالخزاعى: بديل بن ورقاء حتى أوقفه بين يدى رسول اللّه (ص) وقال: يا رسول اللّه هذا يوم قد شرفت فيه

قوماً، فما بال خالك (بـديل بن ورقاء) وهو قعيـد حيه؟ أى لم يشـرف كبقيـة الشخصـيات بوسام، ولم يعهد إليه أمر من قبل رسول اللّه (ص).

وكان بـديل شـيخاً طاعناً فى السنّ، وقـد جاء متلثّماً، فالتفت إليه رسول اللّه (ص) وقال: (إحسـر عن حاجبيك يا بـديل)، فحسـر عنهما وحدر لثامه.

فرأى رسول اللّه (ص) سواداً بعارض بديل.

فقال (ص) له: كم سنّوك يا بديل؟

فقال: سبع وتسعون يا رسول اللّه.

فتبسّم رسول اللّه (ص) وقال: (زادك اللّه جمالاً وسواداً، وأمتعك وولـدك)، لكن رسول اللّه قـد نيف على السّتين وقد أسـرع الشـيب فيه.

ثم قال (ص) له: يا بديل اركب جملك هذا الأورق وناد فى الناس: انها أيام أكل وشرب.

وكـان بـديل جهير الصوت، فأتمر بأمر رسول اللّه (ص) وأخـذ ينتقل بين خيامهم ويقول: أنا رسول رسول اللّه (ص) إليكم يقول لكم: إنها أيام أكل وشرب، وهى لغة خزاعة يعنى: الإجتماع والأُلفة.

وهكـذا كـان يكرم رسول اللّه (ص) كبار القوم، ويبقيهم فى مكانتهم، أو يمنحهم مكانـة وجاهاً، حتى يسـتهوى قلوبهم ويشـدّهم إلى الإسلام والايمان، ويجذب الآخرين الذين لم تطلهم يد رسول اللّه (ص) ولم يسلموا بعد إلى الإسلام.

سرية غالب الى بنى مدلج

ثم ان رسول اللّه (ص) بعث بعد ان فتح مكة السرايا فيما حول مكة، يدعون الناس الى اللّه عز وجل، ولم يأمرهم بقتال.

فبعث (ص) غالب بن عبد اللّه الى بنى مدلج.

فقالوا: لسنا عليك ولسنا معك.

فقال الناس: اغزهم يا رسول اللّه.

فقال: ان لهم سيداً اديباً أريباً، وربَّ غازٍ من بنى مدلج شهيد فى سبيل اللّه(۹).

سرية عمرو الى بنى الديل

وبعث رسول اللّه (ص) ايضاً عمرو بن اُميـة الضمرى الى بنى الديل، فدعاهم إلى اللّه ورسوله، فأبوا أشد الإباء.

فقال الناس: اغزهم يا رسول اللّه.

فقال (ص): ان سيدهم قد أسلم، فيقول لقومه: اسلموا، فيقولون: نعم ويسلمون، وهكذا كان.

سرية عبد اللّه بن سهيل

كما وبعث رسول اللّه (ص) ايضاً عبـد اللّه بن سـهيل بن عمرو الى بنى محارب بن فهر، فقبلوا منه وأسـلموا، وجاء معه نفر منهم ليلتقوا برسول اللّه (ص) من قريب ويتعلموا منه الاسلام وأحكامه.

سرية خالد الى بنى جذيمة

وكان ممن بعث رسول اللّه (ص) بعد فتح مكة ليدعو الناس إلى اللّه خالد بن الوليد، بعثه إلى بنى جذيمة داعياً ولم يبعثه مقاتلاً، وانما

بعث اليهم خالداً للترة التى كانت بينه وبينهم، فقد أصابوا فى الجاهلية الفاكه بن المغيرة عم خالد، وعوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن، وكانا قد أقبلا فى تجارة من اليمن، فأخذت بنو جذيمة ما معهما وقتلتهما، ولذلك أنفذ رسول اللّه (ص) عبد الرحمن بن عوف مع خالد للترة أيضاً التى كانت بين ابن عوف وبينهم.

هذا و رسول اللّه (ص) كان قد خطب يوم الفتح وقال: (ألا كل مال، أو مأثرة، أو دم، أو مظلمة، أو احنة كانت فى الجاهلية فهو تحت قدمى).

فلما نزل خالد بمن معه على الغميصاء وهو ماء من مياه بنى جذيمة، اخذ بنو جذيمة السلاح وقالوا: يا خالد إنا لم نأخذ السلاح على اللّه وعلى رسوله، ونحن مسلمون، فانظر فان كان بعثك رسول اللّه (ص) ساعياً فهذه ابلنا وغنمنا فاغد عليها.

فقال خالد: ضعوا السلاح.

قالوا: انا نخاف منك أن تأخذنا باحنة الجاهلية وقد اماتها اللّه ورسوله.

فانصرف عنهم بمن معه ونزلوا قريباً، ثم شنّ عليهم الخيل فقتل وأسر منهم رجالاً، ثم أمر بهم خالد فكتفوا، ثم عرضهم على السيف وقتلهم.

أنباء الغدر وتداركها

فلما غدر خالد ببنى جذيمة جاء رسولهم إلى رسول اللّه (ص) وأخبره بما فعل خالد بهم، فرفع (ص) يديه إلى السماء بعد أن صعد المنبر وأعلم الناس بفعل خالد وقال:

(اللّهم إنى ابرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد) يعيد ذلك ثلاث مرات وبكى.

ثم دعا (ص) علياً (ع) وقد قدم عليه تبر ومتاع، فأعطى علياً (ع) التبر وقال: يا على أئت بنى جذيمة فانظر فى أمرهم وارضهم مما صنع خالد، ثم رفع (ص) قدميه وقال: يا على اجعل قضاء اهل الجاهلية تحت قدميك.

فلما أتاهم على (ع) حكم فيهم بحكم اللّه تعالى، فلما رجع الى النبى (ص) قال: يا على اخبرنى بما صنعت.

قال (ع) له: يا رسول اللّه عمدت فأعطيت لكل دم دية، ولكل جنين غرّة، ولكل مال مالاً، وفضلت معى فضلة فأعطيتهم لميلغة كلابهم، وحيلة رعاتهم، وروعة نسائهم، وفزع صبيانهم، ولما يعلمون ولما لا يعلمون، ثم فضلت معى فضلة، فأعطيتهم ليرضوا عنك يا رسول اللّه.

فقال عندها رسول اللّه (ص) وقد ظهر الرضا على وجهه المبارك مؤكداً: يا على أعطيتهم ليرضوا عنى؟ رضى اللّه عنك، واللّه ما يسرنى يا على أن لى بما صنعت حمر النعم.

ثم قال (ص): يا على إنما أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى، يا على أنت هادى اُمتى، ألا إن السعيد كل السعيد من أحبك وأخذ بطريقتك ألا إن الشقى كل الشقى من خالفك ورغب عن طريقك إلى يوم القيامة(۱۰).

۱ الإسراء: ۸۱. ۲ الإسراء: ۸۱. ۳ سبأ: ۴۹.

۴ الحجرات: ۱۳. ۵ يوسف: ۹۲. ۶ النساء: ۵۸.

۷ النصر: ۱۳. ۸ الممتحنة: ۱۲.

۹ وهذا التعبير: (ان لهم سيداً أديباً أريباً) والذى يأتى بعده: (أن سيدهم قد أسلم) يدل على دور القيادة الصالحة فى إسعاد الأمة والعكس بالعكس.

۱۰ بحار الأنوار: ج۲۱ ص۱۴۳ ب۲۷ ح۶.

غزوة حنين

ولما فتح رسول اللّه (ص) مكة، مكث فيها خمسة عشر يوماً يدبّر أمرها ويبعث السرايا منها، فلما أراد مغادرتها جعل عليها (عتاب بن اسيد) لإدارة اُمورها وإقامة الصلاة بالناس، وكان على قول ابن إحدى وعشرين سنة، فأقام بها أميراً على مكة حتى قبض رسول اللّه (ص).

كما وعين (معاذ بن جبل) لتعليم الناس القرآن وأحكام الإسلام.

ثم خرج (ص) منها أوائل شوال فى اثنى عشر ألف رجل: عشرة آلاف ممن كانوا معه، وألف رجل من بنى سليم، وألف رجل من مزينة، واتجه بهم إلى منطقة حنين، وحنين واد جنب ذى المجاز على مقربة من الطائف، وبينها وبين مكة ثلاث ليال.

وذلك بعد أن عقد اللواء الأكبر ودفعه الى على (ع) إضافة الى الرايات التى كانت معهم حين دخول مكة وفتحها.

وسبب هذه الغزوة: ان اللّه لما فتح على رسوله (ص) مكة إنصاعت له قبائل العرب كلها وأسلموا، إلّا (هوازن) و(ثقيف) فإنهم عتوا عن أمر رسول اللّه (ص) وفكّروا فى اجتياح المسلمين والإغارة عليهم، فاجتمعوا وجمعوا الجموع والسلاح وقالوا: إن محمداً قاتله قوم لم يحسنوا القتال ولم يكن لهم علم بالحرب فغلب عليهم، ونحن اُولوا بصيرة فى الحرب وتجربة فى القتال، فسوف نغلبه.

ثم عزموا على قصده قبل أن يقصدهم، وقالوا: قبل أن يظهر ذلك منه سيروا إليه.

فقصدوا جانب المسلمين بعد أن اجتمعت هوازن وثقيف كلها، وكان على هوازن رئيسهم مالك بن عوف النصرى، وعلى ثقيف رئيسهم قارب بن الأسود، واتفق معهما نضر وجشم وسعد بن بكر وناس من بنى هلال.

هوازن وشيخ بنى جشم

ثم خرجوا جميعاً بأموالهم وأولادهم ونسائهم لئلا يفروا وليكون ذلك أدعى لهم للحرب وللإستماتة من أجلها، وكان فيهم دريد بن الصمة الجشمى رئيس بنى جشم وكان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر، وكان صاحب رأى وتدبير وله معرفة بالحروب، فساروا حتى انتهوا إلى أوطاس، فلما نزلوا بأوطاس اجتمع الناس، وفيهم دريد بن الصمة، فلما نزل قال: فى أى وادٍ أنتم؟

قالوا: بأوطاس.

قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس.

ثم قال: مالى أسمع رُغاء البعير وخوار البقر ونهاق الحمير وثغاء الشاء وبكاء الصغير؟

قيل له: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ليقاتل كل أمرىء عن نفسه وماله وأهله فيكون أشد لحربه.

فقال دريد: راعى ضأن ورب الكعبة ماله وللحرب؟

ثم قال: أين مالك؟ فدعى له.

فقال: يا مالك إنك أصبحت رئيس قومك وانك تقاتل رجلًا كريماً وان هذا اليوم له ما بعده من الأيام، ثم مالى أسمع رُغاء البعير وخوار البقر ونهاق الحمير وغثاء الشاء وبكاء الصغير؟

قال: قد سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، أردت ان اجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم.

قال: راعى ضأن واللّه، وهل يردّ المنهزم شىء؟ إن كانت لك لم ينفعك الّا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك.

ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟

قالوا: لم يشهدها منهم أحد.

قال: غاب الجد والجد، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟

قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر.

قال: ذلك الجذعان لا ينفعان ولا يضران.

ثم التفت إلى مالك وقال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن فى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم الى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم الق الصبأة على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وان كانت عليك ألفاك ذلك وقد احرزت أهلك ومالك.

قال: لا واللّه لا أفعل، انك قد كبرت ووهن عقلك، واللّه لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكأنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى.

وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى.

قالوا: أطعناك.

قال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه، ثم قال:

(يا ليتنى فيها جذع أخبّ فيها وأضع)

(أقود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع)

عيون هوازن والمسلمين

وبعث مالك بن عوف عيوناً من رجاله فأتوه مرعوبين مذعورين فقال: ويلكم ما شأنكم؟

قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، واللّه ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

ولما سمع بهم النبى (ص) بعث إليهم عبد اللّه بن أبى حدود الأسلمى وأمره أن يدخل فى الناس، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول اللّه (ص) فأتاه وأخبره الخبر، وقال: سمعت مالك بن عوف رئيسهم يخطب على هوازن ويقول: يا معشر هوازن انكم احدّ العرب واعدّه، وان هذا الرجل لم يلق قوماً يصدقونه القتال، فإذا لقيتموه فاكسروا جفون سيوفكم واحملوا عليه حملة رجل واحد.

الاستعداد لمواجهة هوازن

فلما أجمع رسول اللّه (ص) المسير الى هوازن، ذكر له ان عند صفوان بن اُمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل (ص) اليه وهو يومئذ مشرك فقال (ص): يا أبا اُمية أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا.

فقال: أغصباً يا محمد؟

فقال (ص): بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك.

قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، وقيل: أربعمائة، فلبس رسول اللّه (ص) درعين منها ولبس المغفر والبيضة أيضاً.

ثم خرج رسول اللّه (ص) عامداً إلى حنين راكباً بغلته البيضاء دلدل وهو يسير خلف جيشه ليتدارك ضعيفهم والمنقطع منهم وكانوا اثنى عشر ألفاً، وكان جيش العدو أربعة آلاف رجل.

ولذلك قال بعضهم لما رأى كثرة عددهم وقلّة عدوهم: لو لقينا بنى شيبان ما بالينا، لن نغلب اليوم من قلة، فشقّ ذلك على رسول اللّه (ص) غير انه لم يبدها لهم ولم يقل لهم شيئاً، فانتصر اللّه له فأنزل فيهم:

(لقد نصركم اللّه فى مواطن كثيرةٍ ويوم حنينٍ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم

مدبرين)(۱).

وكان قد خرج مع رسول اللّه (ص) ناس من المشركين منهم صفوان بن اُمية، فلما كان عشية ذلك اليوم جاء فارس فقال: يا رسول اللّه إنى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم.

فتبسم رسول اللّه (ص) وقال: تلك غنيمة للمسلمين غداً إن شاء اللّه.

ثم قال: من يحرسنا الليلة؟

قال أنس بن أبى مرثد الغنوى: أنا يا رسول اللّه.

قال (ص): اركب. فركب فرسا له، فقال (ص): استقبل هذا الشعب حتى تكون فى أعلاه. ففعل. فلما أصبح جاء وقال: طلعت الشعبين كلاهما فلم أر أحداً.

فقال له رسول اللّه (ص): هل نزلت الليلة؟

قال: لا إلّا مصلياً أو قاضى حاجة.

فقال رسول اللّه (ص): فلا عليك أن تعمل عملاً بعد هذا.

فى وادى حنين

فلما انتهى النبى (ص) الى حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال وكان قد سار إليها يوم السبت لست خلون منه، كان قد سبقهم مالك بن عوف فأدخل جيشه بالليل فى ذلك الوادى وفرقهم فى الطرق والمداخل وحرضهم على قتال المسلمين وأمرهم أن يكمنوا لهم ويرشقوهم أول ما طلعوا ويحملوا عليهم حملة واحدة وقال: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدّة واحدة.

فلما كان وقت السحر واندلع الفجر عبأ رسول اللّه (ص) جيشه بعد أن صلى بهم صلاة الفجر وعقد ألويته والرايات وفرقها على الناس ودفع اللواء الأكبر الى على (ع) ثم انحدروا نحو الوادى وكانت بنو سليم على مقدمتهم.

قال جابر بن عبد اللّه: لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى وادٍ من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحداراً، وذلك فى عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا فى شعابه وأخبائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيأوا، فواللّه ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب بايديها السيوف والعمد والقنى، قد شدوا علينا شدة رجل واحد، فانكشف الناس راجعين لا يلوى أحداً على أحد.

وانحاز رسول اللّه (ص) ذات اليمين ثم قال: إلىّ أيها الناس هلم الىّ، أنا رسول اللّه، أنا محمد بن عبد اللّه، والناس يفرّون لا يلوون على شىء.

فلم يبقَ مع رسول اللّه (ص) الاّ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، منهم وفى طليعتهم على بن ابى طالب (ع) وأخوه عقيل والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث واُسامة بن زيد وأيمن بن عبيد وقتل يومئذ ورسول اللّه (ص) مصلت سيفه فى المجتلد وهو على بغلته البيضاء دلدل، وعلى (ع) بين يديه يضرب وجوه الناس ويردّهم عنه.

صاحب المواطن المشهورة

قال الفضل بن عباس: التفت العباس حين انقشع الناس عن بكرة أبيهم يوم حنين فلم يرَ علياً (ع) فقال لى: أفى مثل هذه الحال يرغب ابن ابى طالب بنفسه عن رسول اللّه (ص) وهو صاحب المواطن المشهورة؟

فقلت: يا أبة نقّص قولك لابن أخيك.

قال: ما ذاك يا فضل؟

قلت: أما تراه يقاتل فى الرعيل الأول، أما تراه يناجز فى الرهج؟

قال: أشعره لى يا بنى.

قلت: هو ذو كذا وكذا ذو البردة.

فأمعن النظر اليه وقال: فما تلك البرقة؟

قلت: سيفه يزيل به بين الأقران.

فقال: برّ بن برّ، فداه عم وخال.

قال: فضرب على (ع) يومئذ أربعين مبارزاً كلهم يقدّه حتى انفه فيموت من فوره.

شيبة يعلن إسلامه

وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة: لما رأيت رسول اللّه (ص) يوم حنين وقد انكشف عنه أصحابه ذكرت أبى وعمى وقتل على وحمزة إياهما، فقلت: أدرك ثارى اليوم من محمد، فذهبت لأجيئه عن يمينه فاذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة، يكشف عنها العجاج، فقلت فى نفسى: عمه ولن يخذله.

ثم جئته عن يساره فإذا أنا بأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقلت فى نفسى: ابن عمه ولن يخذله.

ثم جئته من خلفه فلم يبق لى إلاّ أن اسوره سورة بالسيف إذ رفع لى شواظ من نار بينى وبينه كأنه برق، فخفت ان يمحشنى، فوضعت يدى على بصرى ومشيت القهقرى.

فالتفت اليّ رسول اللّه (ص) وقال: يا شيب يا شيب، اُدنُ منى، ثم قال (ص): اللّهمّ أذهب عنه الشيطان.

قال: فرفعت إليه بصرى ولهو أحبّ إليَّ من سمعى وبصرى.

وقال (ص): يا شيب قاتل الكفار. ثم اخبرنى بما اضمرته فى نفسى. فاستحييت واعتذرت منه وأسلمت على يديه.

كرٌّ بعد فرّ

ولما رأى رسول اللّه (ص) هزيمة القوم عنه، قال لعمه العباس وكان رجلاً جهورياً صيّتاً: يا عم نادِ بالقوم، وذكّرهم العهد.

فنادى العباس بأعلى صوته: يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، إلى أين تفرون؟ اذكروا العهد الذى عاهدتم عليه رسول اللّه (ص).

والقوم على وجوههم قد ولّوا مدبرين. عندها رفع رسول اللّه (ص) يديه نحو السماء وقال: (اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان).

فنزل جبرئيل فقال: يا رسول اللّه دعوت بما دعا به موسى حيث فلق له البحر، ونجّاه من فرعون.

ثم التفت رسول اللّه (ص) الى أبى سفيان بن الحارث وقال: ناولنى كفاً من حصى، فناوله فرماه فى وجوه المشركين وقال: شاهت الوجوه، ثم رفع رأسه نحو السماء وقال: اللّهم ان تهلك هذه العصابة لم تعبد، وان شئت أن لا تعبد، لا تعبد.

فلما سمعت الأنصار نداء العباس عطفوا وكسروا جفون سيوفهم وهم يقولون: لبيك، وكانت ليلة ظلماء ورسول اللّه (ص) فى الوادى والمشركون قد خرجوا عليه من شعاب الوادى وجنباته ومضايقه مصلتين سيوفهم وعمدهم وقسيّهم.

قال الراوى: فنظر رسول اللّه (ص) ببعض وجهه فى الظلماء فأضاء كأنه القمر ليلة البدر ثم نادى المسلمين: أين ما عاهدتم اللّه عليه؟

فأسمع أولهم وآخرهم، فلم يسمعها رجل إلا رمى بنفسه إلى الأرض وانحدروا إلى حيث كانوا من الوادى، حتى لحقوا بالعدوّ فقاتلوه، وكان على(ع) قد قتل حامل رايتهم: أباجرول وخذل القوم بقتله وولّوا منهزمين.

قال جابر بن عبداللّه: ما رجعت راجعة الناس حتى وجدوا الاُسارى مكتفين بين يدى رسول اللّه (ص) وهو يقول: اللّهمّ إنك أذقت

أول قريش نكالاً، فأذق آخرها نوالاً.

هوازن تنهزم

ولما قتل أبو جرول وخذل القوم بقتله، وضع المسلمون سيوفهم فيهم حتى قتل من القوم كثير والنبى (ص) ينظر إلى قتالهم ويقول: الآن حمى الوطيس كناية عن شدة الأمر واضطرام الحرب وهى من أحسن الإستعارات، وكان النبى (ص) أول من قالها.

ثم كانت الهزيمة والأسر حينئذ وجيء بالأسرى إلى رسول اللّه (ص) مكتفين، وكان أبوسفيان صخر بن حرب بن اُمية فى هذه الغزوة، فانهزم فى جملة من المسلمين، فالتقى به ابنه معاوية وتلاوما على ما ارتكباه من الهزيمة، ثم وقف فاجتمع معه الناس من أهل مكة، ثم رجعوا وأعادوا الكرة عليهم، وفى ذلك يقول مالك بن عبادة الغافقى:

لم يواس النبى غير بنى هاشم عند السيوف يوم حنين

هرب الناس غير تسعة رهط فهمُ يهتفون بالناس أين؟

ثم قاموا مع النبى على الموت فأتوا زيناً لنا غير شين

وقال العباس بن عبد المطلب عم النبى (ص) فى ذلك أيضاً:

نصرنا رسول اللّه فى الحرب تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا

وقولى إذا ما الفضل شدّ بسيفه على القوم اخرى يا بنىّ ليرجعوا

وعن البراء بن عازب أنه قال رجل: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول اللّه (ص) يوم حنين؟

فقال: لكن رسول اللّه (ص) لم يفر، ان هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول اللّه (ص) على بغلته البيضاء فنزل واستنصر وقال: اللّهمّ أنزل نصرك، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته.

قال البراء: وكنا واللّه إذا احمر البأس نتّقى برسول اللّه (ص).

مغانم حنين

ولما نصر اللّه تعالى نبيّه (ص) يوم حنين على المشركين، وانهزم المشركون، وقع منهم فى أيدى المسلمين غنائم كثيرة وسبى كثير، قيل: إن السبى كان أربعة آلاف رأس، وقيل: ستة آلاف رأس، ومن الإبل اثنى عشر ألفاً، وقيل: أربعة وعشرين ألفاً، سوى ما لا يعلم من الغنائم.

وقد استجاب اللّه لنبيّه (ص) حيث كان يدعوه ويقول: (اللّهمّ انّك أذقت أول قريش نكالاً، فأذق آخرها نوالاً).

فإن تفريق رسول اللّه (ص) بين قريش الغنائم أغنى قريشاً وأثراهم، وقد خلّف رسول اللّه (ص) الأنفال والأموال والسبايا كلها بالجعرانة حتى يفرغ المسلمون من عدوّهم، وولى عليها بديل بن ورقاء الخزاعى. فلما فرغ رسول اللّه (ص) من حنين والطائف قسم الغنائم بينهم وذلك على ما سيأتى.

سرية أبى عامر إلى أوطاس

فلما فضّ اللّه تعالى جمع المشركين بحنين تفّرقوا فرقتين، فأخذت الأعراب ومن تبعهم إلى أوطاس، وأخذت ثقيف ومن تبعها إلى الطائف، فبعث رسول اللّه (ص) أبا عامر الأشعرى على جيش فيهم أبو موسى الأشعرى إلى أوطاس، وذلك لملاحقة الأعراب ومن تبعهم بها، فلما بلغها هو ومن معه تقدم بالراية وقاتل حتى قتل دونها.

فقال المسلمون لأبى موسى: أنت ابن عمّ الأمير وقد قتل، فخذ الراية مكانه حتى نقاتل دونها، فأخذها أبو موسى فقاتل المسلمون دونها حتى فتح اللّه عليهم، ورجعوا إلى رسول اللّه (ص) بالسبى والغنائم فاتحين.

فأمر رسول اللّه (ص) بضمها إلى غنائم حنين وسبيها، وذلك فى الجعرانة.

وقيل: انه قال أبو موسى: كنت مع أبى عامر فرمى أبو عامر فى ركبته فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟

فأشار إلى الذى رماه وقال: ذاك قاتلى الذى رمانى، فقصدته فلحقته، فلما رآنى ولّى، فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحى؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبى عامر: قتل اللّه صاحبك.

فقال: يابن أخى اقرء النبى (ص) منّى السلام وقل له يستغفر لى.

ثم قال أبو موسى: واستخلفنى أبو عامر على الناس، فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبى (ص) فى بيته فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عامر وأنه قال قل له يستغفر لى، فدعا (ص) بماء فتوضّأ ثم رفع يديه ودعا له بالمغفرة.

وقيل: انه استشهد من المسلمين يوم حنين أربعة نفر منهم أيمن بن أُم أيمن، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحارث رجل من الأنصار وأبو عامر الأشعرى الذى قتل فى أوطاس، وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلاً.

سرية أبى سفيان إلى الطائف

كما وبعث رسول اللّه (ص) أبا سفيان صخر بن حرب إلى الطائف لملاحقة ثقيف ومن تبعهم الذين لجأوا إليها، فلما بلغها هو ومن معه لقيته ثقيف فضربوه على وجهه فانهزم ورجع إلى النبى (ص) يقول: بعثتنى يا رسول اللّه (ص) مع قوم لا يرفع بهم الدلاء من هذيل والأعراب، فسكت عنه رسول اللّه (ص) ولم يقل له شيئاً، وعزم على أن يسير إلى الطائف بنفسه.

۱ التوبة: ۲۵.

غزوة الطائف

والطائف منطقة سياحية ومصيف من مصايف الحجاز قديماً وحديثاً، وهى تبعد عن مكة اثنى عشر فرسخاً إلى نحو الجنوب الشرقى منها، وثقيف التى هى من القبائل القوية والكثيرة العدد كانت تسكنها.

سار إليها رسول اللّه (ص) بأصحابه فى أواخر شوّال من السنة الثامنة من الهجرة النبويّة المباركة.

وسببها: اشتراك ثقيف فى حرب رسول اللّه (ص) مع هوازن، ولجوئهم بعد هزيمتهم النكراء مع رئيس هوازن مالك بن عوف إليها.

وسلك رسول اللّه (ص) فى طريقه إلى الطائف نخلة اليمانية، ثم على قرن، ثم على نجرة الرعاء من لية فابتنى فيها مسجداً فصلّى فيه.

ثم سلك (ص) فى طريق، فسأل عن اسمها فقيل: الضيقة فقال: بل اجعلوا اسمها اليسرى، ثم خرج (ص) منها حتى نزل تحت سدرة قريباً من مال رجل من ثقيف، ثم مضى حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه فضرب به عسكره.

فرموا المسلمين رمياً شديداً حتى أُصيب ناس من المسلمين بجراحة، وفقئت عين أحدهم فأخذها بيده، فرآه رسول اللّه (ص) فقال له: أيهما أحب إليك، عين فى الجنّة أو ادعو اللّه أن يردّها عليك؟

فقال: عين فى الجنّة، فبارك عليه النبى (ص) وعلى إيمانه.

وقتل منهم يومئذ اثناعشر رجلاً سبعة من قريش، ورجل من بنى ليث، وأربعة من الأنصار، فارتفع (ص) إلى موضع مسجد الطائف اليوم ووضع عسكره هناك، وكان معه من نسائه أُم سلمة وزينب، فضرب لهما قبّتين، وبقى رسول اللّه(ص) محاصراً لحصنهم بضع عشرة ليلة.

الطائف فى محاصرة المسلمين

ثم شاور رسول اللّه (ص) أصحابه فى حصن الطائف، فقال سلمان: أرى أن تنصب المنجنيق على حصنهم وتشدخه به حتى يحدث فى الحصن ثغرة ننفذ منها إليهم، فأمر به فعمل منجنيق.

ويقال: قدم بالمنجنيق ودبابتين إليه، والدبّابة آلة لها سقف تحفظ الذين يستخدمون المنجنيق من سهام العدوّ وقذائفهم، فأرسل عليهم ثقيف قذائفهم: سككَ الحديد المحماة بالنار، فأحرقت الدبّابتين.

فأمر (ص) بقطع أعناب ثقيف وتحريقها، فسألوه أن يدعها للّه وللرحم، فقال (ص): إنى أدعها للّه وللرحم، فتركها.

ثم نادى منادى رسول اللّه (ص): أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا من الحصن فهو حرّ، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، منهم أبو بكرة وكان عبداً للحارث بن كلدة، اسمه نقيع بن الحارث، فتسوّر حصن الطائف وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقى عليها فكنّاه رسول اللّه (ص) (أبا بكرة).

ومنهم: المنبعث وكان اسمه المضطجع فسمّاه رسول اللّه (ص) المنبعث، وغيرهما، فأعتق رسول اللّه (ص) من نزل منهم، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمله، وأمرهم أن يُقرئوهم القرآن ويعلّموهم السنن.

فشق ذلك على أهل الطائف مشقّة شديدة، حتى انه لما أسلم أهل الطائف بعد ذلك تكلّم نفر منهم فى أُولئك العبيد وقالوا: يا رسول اللّه ردّ علينا رقيقنا الذين أتوك.

فقال رسول اللّه (ص): لا، أُولئك عتقاء اللّه.

فى أيام المحاصرة

وخرج من الحصن فى أيام محاصرة النبى (ص) حصن الطائف نافع بن غيلان بن معتب فى خيل من ثقيف، فلقيه على (ع) فى خيله، فالتقوا ببطن وجّ وهو بلد بالطائف ودار بينهم قتال شديد فقتله على (ع) وانهزم من كان مع نافع من المشركين ودخلوا حصنهم خائبين مرعوبين، فلحق القوم على أثر ذلك رعب كبير، فنزل منهم جماعة إلى النبى (ص) وأسلموا على يديه.

مهمة كسر الأصنام

ثم انّ رسول اللّه (ص) أنفذ علياً (ع) فى خيل عند محاصرته أهل الطائف إلى النواحى والأطراف وأمره أن يكسر كل صنم وجده.

فخرج (ع) فلقيه جمع كثير من خثعم، فبرز له رجل من القوم وقال: هل من مبارز؟

فلم يقم له أحد، فقام إليه على (ع). ثمّ ضربه فقتله ومضى حتى كسر الأصنام وانصرف إلى رسول اللّه (ص) وهو بعد محاصر لأهل الطائف.

فك الحصار عن الطائف

قال جابر: فلما قدم على (ع) فكأنّما كان رسول اللّه (ص) على وجل، فارتحل.

وكان قد أشار عليه بعض أصحابه ممن هو خبير بأوضاع المنطقة، وبأحوال ثقيف، وبجزئيات الحصن ومعدّاته وذخائره بترك المحاصرة والإرتحال عنهم.

كما كان قد سأله القوم أن يبرح عنهم ويترك محاصرتهم، ليقدم عليه وفدهم فيفاوضونه فى أمرهم فيشترط له ويشترطون لأنفسهم.

وقيل: انه لما حاصر رسول اللّه (ص) الطائف فلم ينل منهم شيئاً قال: إنا قافلون غداً إن شاء اللّه، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟

فقال: اغدوا على القتال، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: إنا قافلون غداً إن شاء اللّه، فأعجبهم، فضحك النبى (ص).

وقد استشار النبى (ص) أصحابه فى البقاء أو الرجوع، فأشاروا عليه بالرجوع.

فسار رسول اللّه (ص) حتى نزل مكـة، فقدم عليه نفر منهم بإسـلام قومهم، ولم ينجع القوم له بالصـلاة ولا الزكاة أى: كانوا قد شـرطوا لأنفسهم الإسلام على أن لا يصلّوا ولا يزكوا.

فرفض ذلك رسول اللّه (ص) رفضاً باتاً وقال: انه لا خير فى دين لا ركوع فيه ولا سـجود، أما والذى نفسى بيده ليقيمنّ الصلاة وليؤتنّ الزكاة، أو لأبعثنّ إليهم رجلاً امتحن اللّه قلبه للإيمان هو منّى كنفسـى، فليضـرب أعناق مقاتليهم وليسبينّ ذراريهم، هو هـذا، وأخذ بيد على (ع) فأشالها.

فلما صار القوم إلى قومهم بالطائف أخبروهم بما سمعوا من رسول اللّه(ص) فأقرّوا له بالصلاة والزكاة وبما شرطه عليهم.

فتنة تقسيم الغنائم

ثم رجع رسول اللّه (ص) إلى الجعرانة بمن معه من الناس، وذلك عند دخول شـهر ذى القعدة لأجل تقسيم غنائم حنين وأوطاس التى أودعت هنـاك، فبـدأ يقسم بينهم الأـموال، فقسـمها كلهـا بأمر اللّه تعالى، وقيل: الخمس منها فقط فى المؤلّفـة قلوبهم من قريش ومن سائر العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء قليل ولا كثير.

وقيل: انه جعل للأنصار شيئاً يسيراً، وأعطى الجمهور للمتألّفين من وجوه القبائل.

فأعطى أبا سـفيان بن حرب مائـة من الإبل، وروى أنّ أبا سـفيان بن حرب جاء إلى النبى (ص) والأموال من نقود وغيره مجموعة عنده فقال له: يا رسول اللّه أنت اليوم أغنى قريش، فتبسّم رسول اللّه (ص) ضاحكاً من قوله.

فقال أبو سفيان وقد اغتنم الفرصة: يا رسول اللّه حظنا من هذه الأموال؟

فأمر رسول اللّه (ص) بلالاً فأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضّة.

فقال: حظ ابنى يزيد.

فأعطاه أيضاً مائة من الإبل وأربعين أوقية.

فقـال أبو سـفيان: فـأين حظ ابنى معاويـة، فأمر له بمائـة من الإبل وأربعين أوقيـة حتى أخـذ أبو سـفيان يومئـذ ثلاثمائـة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضّة.

فقال أبو سفيان عند ذلك: بأبى أنت وأُمّى يا رسول اللّه، لأنت كريم فى الحرب والسلم، هذا غاية الكرم جزاك اللّه خيراً.

وأعطى (ص) صفوان بن اُمية من الإبل مائة، وقيل: ثم مائة ثم مائة.

وأعطى (ص) حكيم بن حزام مائة من الإبل. وقيل: فسأله مائة اُخرى، فأعطاه ايّاها.

وأعطى (ص) الحارث بن الحارث إبن كلدة مائة من الإبل.

وأعطى كلاً من الحـارث بن هشام أخا أبى جهل، وعبـد الرحمن بن يربوع المخزوميين، وسـهيل بن عمرو، وحويطب بن عبـد العزّى، والعلاء بن حارثـة الثقفى (وعـدّه بعضـهم فى أهل الخمسـين) والأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى، ومالك بن عوف النصرى مائة من الإبل.

وأعطى دون المائة رجالاً من قريش وغيرهم، منهم: مخرمة بن نوفل، وعمير بن وهب، وهشام بن عمرو أخو بنى عامر بن لؤى.

وأعطى (ص) كلاً من سعيد بن يربوع المخزومى، وعدى بن قيس السهمى، وعثمان بن نوفل خمسين من الإبل.

وأعطى عباس بن مرداس أربعاً فسخطها وأنشأ يقول:

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع

فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ فلم أُعط شيئاً ولم أُمنع

فطلبه رسول اللّه (ص) فلما جاءه قال له: أنت القائل: أتجعل نهبى نهب العبيد؟ ثم التفت إلى على (ع) وقال له: يا على قم إليه فاقطع لسانه.

فظن ابن مرداس ان الكلام على ظاهره، فقال لعلى (ع): يا على انك لقاطع لسانى؟

قال (ع): إنّى ممض فيك ما أُمرت، ثم أدخله الحظائر وقال له: اعقل ما بين أربعة إلى مائة.

فقال لما رأى ذلك: بأبى أنتم وأُمى ما أكرمكم وأحلمكم، وأجملكم وأعلمكم؟

فقال له على (ع): انّ رسول اللّه (ص) أعطاك أربعاً وجعلك من المهاجرين، فإن شئت فخذها، وإن شئت فخذ المائة وكن مع أهل المائة.

فقال: أشِر أنت علىَّ.

فقال له على (ع): إنى أرى أن تأخذ ما أعطاك وترضى، ففعل.

وقال لرسول اللّه (ص) قائل من أصحابه: اعطيت كلاًّ من عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وتركت جعيل بن سراقة الضمرى؟

فقال رسول اللّه (ص): انى تألفتهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه.

مع ذى الخويصرة

عن جابر بن عبد اللّه قال: أتى رجل بالجعرانة فى منصرفه (ص) من حنين، وفى رواية عن أبى سعيد الخدرى: أتاه ذو الخويصرة، وفى ثوب بلال فضّة ورسول اللّه (ص) يقبض منها يعطى الناس.

فقال: يا محمد اعدل.

فقال (ص): ويلك من يعدل إن أنا لم أعدل؟ لقد خبت أو خسرت إن أنا لم أعدل؟

ألا ترى قسّمتُ الشاة حتى لم يبق معى شاة، أو لم أُقسّم البقر حتى لم يبق معى بقرة واحدة؟ أو لم أُقسم الإبل حتى لم يبق معى بعير واحد؟!

فقال أحد الصحابة: يا رسول اللّه ائذن لى فى قتل هذا المنافق؟

فقال (ص): معاذ اللّه أن يتحدّث الناس أنّى أقتل أصحابى، إن هذا يخرج فى قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة، يخرجون على خير فرقة من الناس.

قال أبو سعيد الخدرى: فأشهد أنى سمعت هذا من رسول اللّه (ص) وأشهد أنّ على بن أبى طالب (ع) قاتلهم وأنا معه، وأمر بذلك الرجل فالتمس، فوجد، فأُتى به حتى نظرت إليه على نعت رسول اللّه (ص) الذى نعت.

حكمة تأليف القلوب

ولما قسّم رسول اللّه (ص) بأمر من اللّه تعالى غنائم حنين فى قريش خاصة، وأجزل القسمة للمؤلّفة قلوبهم، غضبت الأنصار واجتمعت إلى سعد بن عبادة، فانطلق بهم إلى رسول اللّه (ص) بالجعرانة فقال: يا رسول اللّه أتأذن لى فى الكلام؟

فقال (ص): نعم.

قال: إن كان هذا الأمر من هذه الأموال التى قسّمت بين قومك شيئاً أنزله اللّه، رضينا، وإن كان غير ذلك لم نرض.

فقال رسول اللّه (ص) للأنصار وقد التفت إليهم: يا معشر الأنصار، أكلّكم على قول سيّدكم سعد؟

قالوا: سيّدنا اللّه ورسوله.

فأعادها عليهم ثانية فأعادوها، ثم قالوا فى الثالثة: نحن على مثل قوله ورأيه.

وهنا قال زرارة: قال أبو جعفر (ع): فحطّ اللّه نورهم، وفرض للمؤلّفة قلوبهم سهماً فى القرآن، ثم قال: فلما كان من قابل جاء الذين تألّفهم رسول اللّه(ص) بضعف ما أخذوا، وأسلم ناس كثيرون.

فقام رسول اللّه (ص) خطيباً وقال: هذا خير أم الذى قلتم؟ قد جاءوا من الإبل بضعف ما أعطيتهم، وقد أسلم للّه عالم وناس كثير، والذى نفس محمد بيده لوددت انّ عندى ما أعطى كل إنسان ديته وهى مائة من الإبل مثلاً على أن يسلم للّه ربّ العالمين.

اعتراض واسترضاء

وروى: انّ رسول اللّه (ص) بلغه لما قسّم غنائم حنين فى قريش خاصة يتألفهم به أن الأنصار يحبون أن يصيبوا ما أصاب الناس من القسمة، فكأنهم غضبوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، حتى أنّ بعضهم قال: يغفر اللّه لرسوله، يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

وقال بعضهم: لقى الرجل أهله وبنى عمّه، ونحن أصحاب كل كريهة!

فأمر رسول اللّه (ص) أن يجتمعوا ولا يكن غير أنصارى معهم.

فلما اجتمعوا جاءهم رسول اللّه (ص) يتبعه على (ع) حتى جلس وسطهم.

فقال (ص): ما حديث بلغنى عنكم؟

فقال له ذوو الأسنان من الأنصار: أما ذوو رأينا فلم يقولوا شيئاً، وأما اُناس حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر اللّه لرسوله يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

فقال (ص): إنى أُعطى رجالاً حديثى عهد بكفر أتألّفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال والشاء، وتذهبون بالنبى إلى رحالكم؟! فواللّه لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به.

قالوا: يا رسول اللّه قد رضينا.

فقال لهم النبى (ص): ستجدون بعدى أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا اللّه ورسوله، فإنى على الحوض.

قالوا: سنصبر.

وقد قصد رسول اللّه (ص) بذلك ما يلاقونه بعده من مثل واقعة الحرّة وأشباهها.

النبى (ص) يستغفر للأنصار

وفى رواية: انه (ص) لما اجتمعوا جاء إليهم شبه المغضب ويتبعه على (ع) حتى جلس فى وسطهم وقال لهم: إنى سائلكم عن أمر فأجيبونى عنه.

فقالوا: قل يا رسول اللّه.

فقال (ص): يا معشر الأنصار ألستم كنتم ضالّين فهداكم اللّه بى؟

قالوا: بلى واللّه، فللّه المنّة ولرسوله.

قال (ص): ألم تكونوا على شفا حفرة من النار فأنقذكم اللّه بى؟

قالوا: بلى واللّه، فللّه المنّة، ولرسوله المنّ والطول والفضل علينا.

قال (ص): ألم تكونوا أعداءاً فألّف اللّه بين قلوبكم بى؟

قالوا: بلى، وللّه المنّة ولرسوله.

قال (ص): ألم تكونوا قليلاً فكثّركم اللّه بى؟

قالوا: بلى، وللّه المنّة ولرسوله.

وقال (ص) ماشاء أن يقول، ثم سكت هنيئة.

ثم قال (ص): ألا تجيبونى بما عندكم يا معشر الأنصار؟

قالوا: بم نجيبك فداؤك آباؤنا وأُمهاتنا يا رسول اللّه، فلقد أجبناك: بأنّ لك الفضل والمنّ والطول علينا.

قال (ص): أما لو شئتم لقلتم: وأنت قد كنت جئتنا طريداً فآويناك، وجئتنا خائفاً فآمنّاك، وجئتنا مكذّباً فصدّقناك.

فارتفعت أصواتهم بالبكاء، وقام شيوخهم وساداتهم إليه وقبّلوا يديه ورجليه وركبتيه ثم قالوا: رضينا باللّه وعنه، وبرسوله وعنه، وهذه أموالنا أيضاً بين يديك، فإن شئت فاقسمها على قومك، وإنما قال مَن قال منّا على غير وغر صدر، وغلّ فى قلب، ولكنهم ظنوا سخطاً عليهم وتقصيراً بهم، وقد استغفروا اللّه من ذنوبهم، فاستغفر لهم يا رسول اللّه.

فقال رسول اللّه (ص): اللّهمّ اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار.

ثم قال (ص): يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع غيركم بالشاء والنعم، وترجعون أنتم وفى سهمكم رسول اللّه؟

قالوا: بلى رضينا.

فقال (ص) حينئذ: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللّهمّ اغفر للأنصار.

مع أسرى هوازن

وقد كان فى السبى أُخت رسول اللّه (ص) الرضاعية: شيماء بنت حليمة السعدية، من بنى سعد، حيث إن بنى سعد قد شاركوا هوازن الحرب ضد رسول اللّه (ص)، فلما قامت على رأسه قالت: يا محمّد أُختك شيماء بنت حليمة سبى.

قال: فنزع رسول اللّه (ص) برده فبسطه لها، فأجلسها عليه، ثم أكبّ عليها يسائلها، وهى التى كانت تحتضنه إذ كانت أُمها ترضعه، وكانت شفيقة عليه.

وكان قد أدرك وفد هوازن رسول اللّه (ص) بالجعرانة، وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول اللّه لنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا، منّ اللّه عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول اللّه، إنما فى الحظائر خالاتك وبنات خالاتك، وحواضنك وبنات حواضنك اللاتى أرضعنك، ولسنا نسألك مالاً وانما نسألكهنّ، وقد كان رسول اللّه (ص) قسّم منهنّ ما شاء اللّه.

فلما كلّمته أُخته قال (ص): أما نصيبى ونصيب بنى عبدالمطلب فهو لك، وأما ما كان للمسلمين فاستشفعى بى عليهم.

فلما صلّوا الظهر قامت فتكلّمت وتكلّموا، فوهب لها الناس أجمعون وردّوا إليهم نساءهم وأبناءهم.

كما وكلمته أُخته فى مالك بن عوف رئيس هوازن ومشعل نار الحرب فى حنين.

فقال لها رسول اللّه (ص): إن جاءنى مسلماً فهو آمن، فأتاه مسلماً، فردّ عليه ماله، وأعطاه مائة من الإبل اضافة إلى ماله، فأنشأ مالك حينئذ يقول:

ما ان سمعت ولا رأيت بمثله فى الناس كلهم كمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى وإذا تشأ يخبرك عما فى غد

فاستعمله رسول اللّه (ص) على من أسلم من قومه.

وقيل: ان شيماء قالت: يا رسول اللّه إنى اُختك من الرضاعة، فبسط (ص) لها رداءه فأجلسها عليه، ودمعت عيناه، وخيَّرها وقال: إن أحببت فأقيمى عندى محببة مكرمة، وإن أحببت أمتعتك وترجعى إلى قومك فعلت.

قالت: بل تمتعنى وتردنى إلى قومى.

فأسلمت فمنحها رسول اللّه (ص) هداياه وردّها إلى قومها.

وجاءته (ص) اُمه من الرضاعة حليمة السعدية بنت أبى ذئيب من هوازن، وهى التى أرضعته حتى أكملت رضاعه، فالتفت (ص) إليها وبسط لها رداءه فجلست عليه.

قال جمع: وقد أسلمت وأسلم زوجها.

معدن الحلم والكرم

قالوا: لما فرغ رسول اللّه (ص) من تقسيم الغنائم ركب واتبعه الناس يقولون: يا رسول اللّه أقسم علينا فيئنا، حتى الجأوه إلى شجرة، فانتزع عنه رداؤه.

فقال: أيها الناس ردّوا علىّ ردائى، فوالّذى نفسى بيده لو كان عندى عدد شجرتها نعماً لقسّمته عليكم، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً.

ثم جاءه رجل يخبره بمقالة أحدهم فيه، وطعنه فى القسمة، فأجابه رسول اللّه (ص) وهو يريد أن يخفّف عليه شدّة ما تحامل عليه البعض فيما يخص القسمة قائلاً: (قد اوذى أخى موسى بأكثر من هذا فصبر).

وقيل: إنه (ص) لما أراد أن يقسم الغنائم أمر زيد بن ثابت حتى أحضر الناس، ثم عدّ الإبل والغنم وقسّمها على الناس، فوقع فى سهم كل رجل أربع من الإبل مع أربعين شاة من الغنم، وإن كان فارساً وقع فى سهمه اثناعشر بعيراً مع مائة وعشرين شاة من الغنم.

من معجزات الرسول (ص)

روى انه لما حاصر رسول اللّه (ص) أهل الطائف قال عيينة بن حصن الفزارى وكان من المؤلّفة قلوبهم: إئذن لى حتى آتى الحصن فاُكلّمهم، فأذن له، فجاءهم وقال: أدنو منكم وأنا آمن؟

قالوا: نعم، وعرفه أبو محجن فقال: اُدن.

فدخل عليهم وقال لهم: فداكم أبى واُمّى لقد سرّنى ما رأيت منكم، وما فى العرب أحد غيركم، واللّه ما فى محمد مثلكم، ولقد قلّ المقام وطعامكم كثير، وماؤكم وافر لا تخافون قطعه، وشجّعهم على المقاومة والمجابهة.

فلما خرج قالت ثقيف لأبى محجن: إنّا قد كرهنا دخوله وخشينا أن يخبر محمداً بخلل يراه فينا أو فى حصننا.

فقال أبو محجن: أنا كنت أعرف به، ليس أحد منا أشدّ على محمد منه، وإن كان معه.

فلما رجع عيينة إلى رسول اللّه (ص) قال: قلت لهم: إدخلوا فى الإسلام، فو اللّه لا يبرح محمد من عقر داركم حتى تنزلوا وتأخذوا لأنفسكم أماناً.

فقال له رسول اللّه (ص): لقد قلت بخلاف ما تقول، قلت لهم كذا وكذا، وأخبره بكل ما قاله لهم، فعاتبه جماعة وأنّبوه على فعله.

فقال: استغفر اللّه وأتوب إليه ولا أعود أبداً.

فعفا رسول اللّه (ص) عنه.

مغادرة مكة

ثم خرج رسول اللّه (ص) بعد تقسيم الغنائم من الجعرانة إلى مكة معتمراً، فلما فرغ رسول اللّه (ص) من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة، وكانت عمرته فى منتصف ذى القعدة، فقدم رسول اللّه (ص) المدينة فى بقية ذى القعدة أو فى أول ذى الحجة.

وذلك بعد أن استخلف عتاب بن اُسيد على مكة، وخلّف معه معاذ بن جبل يفقّه الناس فى الدين ويعلّمهم الأحكام.

ثم حجّ عتاب بن اُسيد بالناس تلك السنة، وهى السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة، وعتاب بن اسيد هذا، هو الذى استعمله رسول اللّه (ص) على مكة وكان ابن عشرين سنة أو أكثر بقليل، وكان فى غاية الورع والزهد، وهو أول أمير أقام الحج فى الإسلام.

كما واستعمل (ص) على هوازن مالك بن عوف، وعلى ثقيف عثمان بن أبى العاص، وكانا شابين أيضاً.

وكانت مدة غيبة رسول اللّه (ص) منذ خرج من المدينة إلى فتح مكة وأوقع بهوازن وحارب الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يوماً.

معيار الأفضلية فى الإسلام

وكان استخلاف رسول اللّه (ص) عتّاباً على مكة وهو ابن عشرين سنة وأقرانه على هوازن وثقيف مثاراً للجدل والنقاش بين بعض أهل مكة، الذين كانوا يرون المناصب للشيوخ وذوى الأسنان منهم، ولذلك قالوا: إنّ محمداً لا يزال يستخفّ بنا حتى ولّى علينا غلاماً حدث السن ابن ثمانية عشر سنة، ونحن مشايخ ذوو الأسنان، وجيران حرم اللّه الآمن، وخير بقعة على وجه الأرض.

فكتب رسول اللّه (ص) إلى عتّاب كتاباً أجابهم فيه على ذلك قائلاً: لا يحتجّ محتجّ منكم فى مخالفته بصغر سنّه، فليس الأكبر هو الأفضل، بل الأفضل هو الأكبر، وهو الأكبر فى موالاتنا وموالاة أوليائنا، ومعاداة أعدائنا، فلذلك جعلناه الأمير عليكم، والرئيس عليكم، فمن أطاعه فمرحباً به، ومن خالفه فلا يُبعد اللّه غيره.

وبقوله (ص): (ليس الأكبر هو الأفضل بل الأفضل هو الأكبر) أبطل مقاييس الجاهلية فى تفويض المناصب إلى الشيوخ وذوى الأسنان وإن لم يكونوا أكفاءاً، وأثبت مقياس الإسلام والقرآن بتفويض المناصب إلى ذوى الكفاءات وإن لم يكونوا شيوخاً وذوى اسنان، وهذا هو منطق العقل أيضاً.

وكأنّ رسول اللّه (ص) باستخلاف عتّاب وأمثاله كان يريد تمهيد الأمر لاستخلافه علياً (ع) من بعده بأمر اللّه تعالى.

عروة بن مسعود

وقيل: إنّ رسول اللّه (ص) لما انصرف عنهم من الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام.

فقال له رسول اللّه (ص): إنهم قاتلوك، وعرف رسول اللّه (ص) أنّ فيهم نخوة الإمتناع الذى كان منهم.

فقال له عروة: يا رسول اللّه أنا أحب إليهم من أبصارهم، وكان فيهم كذلك محبباً مجاباً مطاعاً.

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام ورجا أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف عليهم على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله.

فقيل له: ما ترى فى دمك؟

فقال: كرامة أكرمنى اللّه بها وشهادة ساقها اللّه إلىَّ، فليس فىَّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول اللّه (ص) قبل أن يرتحل عنكم، فادفنونى معهم.

فقال رسول اللّه (ص): مثله فى قومه كمثل صاحب ياسين فى قومه.

إسلام ثقيف

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لاطاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا، وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع؟

فائتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول اللّه (ص) رجلاً كما أرسلوا عروة، فكلموا عبديا ليل بن عمرو بن عمير وكان فى سن عروة بن مسعود وعرضوا ذلك عليه، فأبى أن يفعل، وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً، فأجمعوا أن يرسلوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونون ستة، فبعثوا كما أراد.

ولما قدموا ضرب رسول اللّه (ص) قبة عليهم فى ناحية مسجده.

وقيل: كان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول اللّه(ص) حتى كتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذى يكتب كتابهم بيده، وكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول اللّه (ص) حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم.

وقد كانوا فيما سألوا رسول اللّه (ص) أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول اللّه (ص) ذلك، فما برحوا يسألونه سنة سنة وهو يأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، وإنما يريدون فى ذلك على ما قيل أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم، ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول اللّه (ص)، وقد كانوا سألوه أيضاً أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم.

فقال رسول اللّه (ص): أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا، فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه.

فقالوا: يا محمد فسئؤتكها.

فلما أسلموا وكتب لهم رسول اللّه (ص) كتابهم أمر عليهم عثمان بن أبى العاص، وكان من أحدثهم سنّاً، وذلك: لأنه كان أحرصهم على التفقّه فى الدين وفى الإسلام.

فلما فرغوا من أمرهم وتوجّهوا إلى بلادهم راجعين بعث معهم رسول اللّه(ص) من يهدم لهم صنمهم، فهدمه دون حدوث شىء مما كانوا يزعمونه، فوقفوا عند ذلك على سخافة ما كانوا يعتقدونه وخرافته.

مع لامية كعب بن زهير

ولما رجع رسول اللّه (ص) إلى المدينة كتب بجير بن زهير، إلى أخيه كعب بن زهير، وزهير هذا هو زهير بن أبى سلمى أحد شعراء الجاهلية، وصاحب إحدى المعلّقات السبع التى كانت من مفاخرهم، وقد نصبوها فى الكعبة حتى قُبيل نزول القرآن الحكيم، وقد مات زهير وخلّف من بعده ابنين:

أحدهما: بجير وكان قد أسلم وشهد مع رسول اللّه (ص) فتح مكة وغزوة حنين والطائف.

والآخر: كعب وكان شاعراً يهجو فى شعره رسول اللّه (ص) ولم يكن أسلم بعد.

فلما عاد بجير مع رسول اللّه (ص) والمسلمين إلى المدينة، كتب إلى أخيه شفقةً منه عليه ونصيحةً له: يا كعب إن كانت لك فى نفسك حاجة، فطِر إلى رسول اللّه (ص) فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً.

فلما وصل الكتاب إلى كعب خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبين ذلك الرجل معرفة وصداقة، فغدا به إلى مسجد رسول اللّه(ص) وهو يتهيّأ لصلاة الصبح.

فصلّى كعب مع رسول اللّه (ص) صلاة الصبح لأوّل مرّة، وبعد السلام أشار له الرجل إلى رسول اللّه (ص) وقال: هذا رسول اللّه (ص) فقم إليه واستأمنه.

فقام كعب إلى رسول اللّه (ص) حتى جلس إليه فوضع يده فى يده وقال: يا رسول اللّه إنّ كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟

قال رسول اللّه (ص): نعم.

قال: أنا يا رسول اللّه كعب بن زهير، ثم قام وأنشد قصيدته اللامية المشهورة التى كان قد أنشأها من قبل، والتى قال فى مطلعها:

باتت سعاد فقلبى اليوم متبولُ متيّم إثرها لم يغد مكبولُ

إلى أن قال:

كل ابن اُنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

نبئت أنّ رسول اللّه (ص) أوعدنى والعفو عند رسول اللّه (ص) مأمول

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنّى بأقوال الوشاة ولم اُذنب ولو كثرت فىَّ الأقاويل

إلى أن قال:

ان الرسول لنور يستضاء به مهنّد من سيوف اللّه مسلول

إلى آخر الأشعار.

فلما فرغ كعب من إنشاد قصيدته على مسامع رسول اللّه (ص) والمسلمين، كساه رسول اللّه (ص) بردة كانت عليه.

ويقال: انه لما كان زمن معاوية، ومعاوية كان يحاول إضفاء الشرعية على حكومته بعث إلى كعب من يقول له: بعنا بُردة رسول اللّه (ص) بعشرة آلاف.

فقال: ما كنت لاُوثر بثوب رسول اللّه (ص) أحداً.

فلمّا مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً وأخذها منهم، وتوارثها من بعده الأمويّون واحداً بعد واحد، ثم انتقلت منهم إلى العباسيين.

جباية الزكوات

ولما دخلت سنة تسع بعث رسول اللّه (ص) المصدّقين يأخذون الصدقات من الأعراب.

وقيل: انه لما رأى رسول اللّه (ص) هلال المحرم سنة تسع بعث المصّدقين يصدقون الأعراب:

فبعث (ص) عيينة بن حصن إلى بنى تميم، كما وبعث يزيد ابن الحصين إلى أسلم وغفار، وبعث رافع بن مكيث إلى جهينة، وبعث عمرو بن العاص إلى فزارة، وبعث الضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب، وبعث بشير بن سفيان إلى بنى كعب.

وبعث ابن اللتبية الأزدى إلى بنى ذبيان.

هذا وقد أمرهم رسول اللّه (ص) أن يأخذوا العفو منهم ويتوّقوا كرائم أموالهم. وبعث المهاجر بن اُمية إلى صنعاء.

وكذا بعث (ص) زياد بن لبيد إلى حضرموت، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بنى حنظلة.

وفرّق صدقات بنى سعد على رجلين: فبعث الزبرقان ابن بدر على ناحية، وقيس بن عاصم على ناحية.

وبعث العلاء بن الحضرمى على البحرين. وبعث علياً (ع) إلى نجران ليجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم.

سرية الفزارى إلى بنى تميم

ثم ان بعض القبائل رغم تحقق النصر الكبير للمسلمين ودخول الناس فى دين اللّه أفواجاً بقوا على شركهم وأصرّوا على عنادهم

ومحاربتهم للمسلمين، ولجّوا فى صدهم عن سبيل اللّه وقطع الطريق على الآمنين، ولأجل دفع شرّهم وفسادهم بعث رسول اللّه (ص) بعوثاً وسرايا:

منها: سرية عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم، وذلك فى المحرم من هذه السنة فى خمسين فارساً ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم فى صحراء، وقد سرحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولّوا فأخذ منهم أحد عشر رجلاً وعشرين امرأة وثلاثين صبياً، فساقهم إلى المدينة، فنزلوا فى دار رملة بنت الحارث.

فقدم فيهم عدة من رؤسائهم: عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورياح بن الحارث، فلما رأوا نساءهم وذراريهم بكوا إليهم.

فعجلوا فجاءوا إلى باب النبى (ص) فنادوه: يا محمد إخرج إلينا لنفاخرك ونشاعرك، فنزل فيهم: (إنّ الّذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون)(۱) الآية.

فخرج إليهم رسول اللّه (ص) فأقام بلال الصلاة وتعلّقوا برسول اللّه (ص) يكلّمونه فوقف معهم، ثم مضى فصلّى الظهر، ثم جلس فى صحن المسجد، فقدّموا عطارد بن حاجب فتكلّم وخطب.

عندها أمر (ص) ثابت بن قيس بن شماس فأجابهم فغلبهم.

فقام بعد ذلك الزبرقان شاعر بنى تميم فأنشد مفاخراً فقال:

نحن الكرام فلا حى يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

وكم قسرنا من الأحياء كلهم عند النهاب وفضل العز يُتّبع

ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشواء إذا لم يؤنس القزع

بما ترى الناس تأتينا سراتهم من كل أرض هوياً ثم نصطنع

فننحر الكوم عبطاً فى أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

فلا ترانا إلى حى نفاخرهم إلا استقادوا وكاد الرأس يقتطع

فمن يفاخرنا فى ذاك يعرفنا فيرجع القول والأخبار تستمع

إنا أبينا ولم يأب لنا أحد إنّا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان حسان غائباً فبعث إليه رسول اللّه (ص).

قال حسان: جاءنى رسول رسول اللّه (ص) فأخبرنى أنه إنما دعانى لأُجيب شاعر بنى تميم، فخرجت إلى رسول اللّه (ص) مسرعاً.

مع شاعر الرسول (ص)

قال شاعر الرسول (ص) حسان بن ثابت: فلما انتهيت إلى رسول اللّه (ص) وقام شاعر القوم فقال ما قال، قال لى رسول اللّه (ص): قم يا حسّان فأجب الرجل، فقمت وقلت:

ان الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنّة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجيةٌ تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

إن كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

لا يبخلون على جار بفضلهم ولا يمسهم من مطمع طبع
إذا نصبنا لحى لم ندبّ لهم كما يدبّ إلى الوحشية الذرع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها اذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم وإن أُصيبوا فلا خور ولا هلع
كأنهم فى الوغى والموت مكتنع أُسدٌ بحَلية فى أرساغها فدع
خذ منهمُ ما أتوا عفوا إذا غضبوا ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
فإن فى حربهم فاترك عداوتهم شراً يخاض عليه السم والسلع
أكرم بقوم رسول اللّه شيعتهم إذا تقرّقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتى قلب يوازره فيما أحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ان جد بالناس جد القول أو شمعوا

فلمّا فرغ حسان قال الأقرب بن حابس: إن هـذا الرجل لمؤتى، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشـعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم أسلموا فأجازهم رسول اللّه (ص) فأحسن جوائزهم وردّ عليهم نساءهم وأبناءهم.

سرية ابن عامر إلى تبالة

وبعث رسول اللّه (ص) قطبة بن عامر فى عشـرين رجلًا إلى حى من خثعم بناحية تبالة كانوا يسـتعدّون للإغارة على المدينة، وأمره أن يشن الغارة عليهم.

فخرجوا على عشـرة أبعرة فاعتقبوها فشـنوا الغارة عليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى فى الفريقين، وقتل قطبة بن عامر من قتل وانهزم الباقون، فساقوا النعم والشاء إلى المدينة.

ثم ان القوم اجتمعوا وركبوا فى آثـارهم، فلمـا اقتربوا منهم أرسـل اللّه سـيلاً عظيماً حال بينهم وبين المسـلمين فساقوا النعم والشاء وهم ينظرون لا يستطيعون أن يعبروا إليهم.

سرية الضحاك إلى بنى كلاب

وفى ربيع الأول سنة تسع من الهجرة النبويـة المباركـة، بعث رسـول اللّه (ص) جيشـاً إلى بنى كلاب كـانوا يريـدون الزحـف على المسـلمين، وجعـل عليهم الضـحاك بن سـفيان بن عـوف ومعهم الأصـيد بن سـلمة، فلقوهم بـالرخوخ، فـدعوهم إلى الإسـلام، فـأبوا، فقاتلوهم فهزموهم، فلحق الأصـيد أباه سـلمة وسـلمة على فرس له فى غـدير بالرخ، فدعا أباه إلى الإسـلام وأعطاه الأمان، فسـبّه وسـبَّ دينه.

فلما رأى الأصـيد انّ أباه يسبّ دينه ويتعرّض لعقيـدته ضـرب عرقوب فرس أبيه، ولما وقع الفرس على عرقوبه ارتكز سـلمة على الرمح فى الماء ثم استمسك حتى جاءه أحد المسلمين فقتله.

وبهذا وأمثاله من التضحيات أثبت المسلمون الأوائل تصلبهم فى عقيدتهم ومحافظتهم على دينهم.

سرية علقمة بن محرز المدلجى

وفى ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة بلغ رسول اللّه (ص) أنّ أُناساً من الحبشة يتعرّضون للمسلمين، ويريدون الفساد فى الأرض والصـدّ عن سبيل اللّه، فبعث إليهم علقمـة بن محرز فى ثلاثمائـة فانتهى إلى جزيرة، وقـد خاض إليهم البحر فهربوا منه، فرجع

ومن معه من غير قتال.

سرية على (ع) إلى طيّ

وفى هذه السنة وهى السنة التاسعة من الهجرة النبوية المباركة، بعث رسول اللّه (ص) على بن أبى طالب (ع) فى مائة وخمسين رجلاً من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى الفلس وهو صنم طىء ليهدمه.

فشنوا الغارة على موضع ذلك الصنم مع الفجر والناس نيام، حتى لا يقع تصادم أو قتال، وإذا وقع كان قليلاً، وكان كذلك، فقد استطاعوا هدم الصنم بلا مقاومة تذكر، سوى قليل ممّن تعرض لهم، فوقعوا فى أسرهم، فاستاقوا معهم إلى المدينة ما وقع فى أيديهم: من السبى والنعم والشاء، وفى السبى سفانة أُخت عدى بن حاتم، وكان عدى قد هرب إلى الشام، ووجدوا فى خزانته ثلاثة أسياف وثلاثة أدراع.

وفى المنتقى: فكان فيما أخذ من خزانته بعد تحطيم فلس سيفان: أحدهما يسمّى مخذماً، والآخر رسوباً، وكان الحارث بن أبى شمر الغسّانى ملك غسّان قد أهداهما إلى فلس، فوهبهما رسول اللّه (ص) لعلى (ع).

واستعمل على السبى أبا قتادة، وعلى الماشية والرقة عبد اللّه بن عتيك، وقسّم الغنائم فى الطريق، وعزل الصفى لرسول اللّه (ص)، ولم يقسّم السبى من آل حاتم حتى قدم بهم المدينة.

عدى يشرح قصته

قال عدى بن حاتم: ما كان رجل من العرب أشد كراهيّةً لرسول اللّه (ص) منّى حين سمعت به، وكنت امرءاً شريفاً، وكنت نصرانيّاً أدين بدين النصارى من غير أن أُبدى ذلك لأحد، وكنت أسير فى قومى بالمرباع بأن آخذ الربع من أرباحهم، وكنت فى نفسى على دين، وكنت ملكاً فى قومى.

فلما سمعت برسول اللّه (ص) كرهته، فقلت لغلام عربى لى وكان راعياً لإبلى: لا أباً لك، أعدَّ لى من إبلى أجمالاً ذللاً سماناً فاحبسها قريباً منى، فإذا سمعت بخيل محمد قد وطئت هذه البلاد فآذنّى، ففعل.

ثم انه أتانى ذات غداة فقال: يا عدى ما كنتَ صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإنى قد رأيت رايات، فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد.

قال: فقلت: قرّب لى أجمالى، فقرّبها، فاحتملت بأهلى وولدى، ثم قلت فى نفسى: ألحق بأهل دينى من النصارى بالشام، فسلكت الجوشية وهو جبل قرب أرض نجد، وقد تركت أُختى سفانة بنت حاتم الطائى فى قومى.

فلما قدمت الشام أقمت بها، وخالفتنى خيل رسول اللّه (ص) فأصابت ابنة حاتم فيمن أصابت، فقدم بها على رسول اللّه (ص) فى سبايا من طىء، وقد بلغ رسول اللّه (ص) هربى إلى الشام.

سفانة تشرح قصتها

تقول سفانة: أقبلوا بنا إلى المدينة وأودعونا قريباً من المسجد، حتى إذا كان وقت الصلاة جاء رسول اللّه (ص) إلى الصلاة فمرّ بى فتعرضت له وقلت: يا رسول اللّه هلك الوالد وغاب الوافد، وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة، فمنَّ علىَّ، منَّ اللّه عليك.

فقال (ص): من وافدك؟

قلت: عدى بن حاتم.

قال (ص): الذى فرَّ من رسول اللّه؟

ثم مضى رسول اللّه (ص) وتركنى، فلما كان من الغد مرّ بى، فقلت له مثل ذلك، وقال لى مثل ما قال بالأمس وتركنى.

حتى إذا كان بعد الغد مرّ بى وقد يئست من إجابته، فأشار إلىَّ على (ع) وكان يمشى خلفه أنْ قومى فكلّميه.

فقمت إليه فقلت: يا رسول اللّه، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علىَّ منَّ اللّه عليك.

فقال رسول اللّه (ص): قد فعلت، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنينى.

فأقمت حتى قدم ركب من بلّى أو قضاعة يريدون الشام، وفكّرتُ أن آتى أخى بالشام، فجئت رسول اللّه (ص) فأخبرته بقدوم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ.

فكسانى (ص) وحملنى وأعطانى نفقة، وساق معى من النعم والشاء ما شاء اللّه وقال (ص): لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه.

عند ذلك سألته أن يمنّ على من معى من السبى ففعل.

قال عدى: فواللّه انى لقاعد فى أهلى إذ أتتنى اُختى بالشام.

فقلت: ابنة حاتم؟

قالت: نعم، ثم أخذت فى ملامتى، فقالت: لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها، احتملت أهلك وولدك، وتركت بقيّة والدك عورتك.

فقلت لها: اى اُخيّة لا تقولى إلّا خيراً، فواللّه ما لى من عذر، لقد صنعت ما ذكرت.

ثم نزلت فأقامت عندى، فقلت لها، وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين فى أمر هذا الرجل؟

قالت: أرى أن تلحق به سريعاً، فائته راغباً أو راهباً، فقد أتاه فلان فأصاب منه، وفلان فأصاب منه.

بين يدى رسول اللّه (ص)

قال عدى: فأتيت رسول اللّه (ص) فى المدينة وهو جالس فى المسجد.

فقال لما رآنى: من الرجل؟

قلت: عدى بن حاتم، وقد جئت بغير أمان ولا كتاب.

فلما عرّفته نفسى قام (ص) فأخذ بيدى وانطلق بى إلى بيته، وفى الطريق لقيته امرأة عجوز كبيرة السن، ضعيفة الحال، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلّمه فى حاجتها.

فقلت فى نفسى: واللّه ما هذا بملك.

ثم أخذ بيدى حتى أتى داره فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقدمها إلىّ، فقال (ص): اجلس على هذه.

فقلت: بل أنت فاجلس عليها.

قال (ص): بل أنت.

فجلست عليها وجلس رسول اللّه (ص) على الأرض، فلما رأيت ذلك قلت فى نفسى: واللّه ما هذا بأمر ملك.

ثم قال (ص): ايه يا عدى بن حاتم، ألم تكن ركوسياً؟ (وهو دين بين الصابئة والنصرانية).

قلت: بلى.

قال (ص): أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع؟

قلت: بلى.

قال (ص): فإن ذلك لم يحل لك فى دينك.

قلت: أجل واللّه. وعرفت فى نفسى أنّه نبىّ مرسل يعرف ما يُجهل.

ثم قال (ص): يا عدى، لعلك إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فواللّه ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه.

ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوّهم وقلّة عددهم، فواللّه ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف.

ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم، وأيم اللّه ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل أن تفتح عليهم.

قال: فأسلمتُ.

فكان عدى يقول بعد ذلك: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، وواللّه لتكوننّ. قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحجّ هذا البيت، وواللّه لتكوننّ الثالثة، وليفيضنّ المال حتى لا يوجد من يأخذه.

عدى وقومه يُسلمون

وفى رواية: ان عدى قال: انتهيتُ إلى رسول اللّه (ص) وهو يقرأ من سورة البراءة هذه الآية: (اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه والمسيحَ ابن مريم)(...۲).

فلما فرغ منها قلت له: إنا لسنا نعبدهم.

فقال (ص): أليس يحرّمون ما أحلّ اللّه فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم اللّه فتستحلّونه؟

فقلت: بلى.

قال (ص): فتلك عبادتهم، ثم قال: ما يضرّك أن يقال: لا إله إلاّ اللّه؟ فهل تعلم من إله سوى اللّه؟

قلت: لا.

ثم تكلّم ساعة. ثم قال: إنما تقرّ أن يقال: اللّه أكبر، وهل تعلم شيئاً أكبر من اللّه؟

قلت: لا.

قال (ص): فإنّ اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالّون.

قلت: فإنّى حنيف مسلم، فرأيت وجهه منبسطاً فرحاً.

قال: ثم أمر بى فأنزلت عند رجل من الأنصار، وجعلت أغشاه وآتيه طرفى النهار.

قال: فبينا أنا عنده إذ جاء قوم فى ثياب من الصوف من هذه الثمار، فصلّى (ص) وقام فحث عليهم ثم قال:

أيها الناس ارضخوا من الفضل، ولو صاعاً، ولو بنصف صاع، ولو بقبضة، ولو ببعض قبضة، يقى أحدكم نفسه من جهنّم أو النار، ولو بتمرة، فإن أحدكم لاق اللّه وقائل له ما أقول لكم: ألم أجعل لك مالاً وولداً؟ فيقول: بلى. فيقول: أين ما قدمت لنفسك؟ فينظر قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ثم لا يجد شيئاً يقى به وجهه جهنّم، ليقِ أحدكم وجهه النار، ولو بشقّ تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيّبة، فإنّى لا أخاف عليكم الفاقة، فإن اللّه ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة أكثر ما تخاف على مطيتها السرق.

قال: فجعلت أقول فى نفسى: فأين لصوص طى؟

وقد حسن إسلام عدى ودعى قومه الذين لم يسلموا إلى الإسلام، فأسلموا.

وقد حسن إسلام عدى ودعى قومه الذين لم يسلموا إلى الإسلام، فأسلموا.

۱ الحجرات: ۴. ۲ التوبة: ۳۱.

غزوة تبوك

و(تبوك) موضع معروف من بلاد البلقاء، ذو قلعة حصينة رفيعة الجدران، عند عين ماء على منتصف طريق المدينة إلى دمشق.

وتسمّى هذه الغزوة: (الفاضحة) أيضاً، لافتضاح المنافقين فيها.وكذا تسمّى: (غزوة العسرة) أيضاً، لأنهم كانوا قد خرجوا فى قلة من الظهر، وشدّة من الحر، وجفاف من الماء، وجدب من البلاد، حتى كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان يلوك أحدهم التمر حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه فيمصّها، وهكذا، فسمّيت لذلك (غزوة العسرة).

وقيل: انهم كانوا ينحرون البعير فيشربون ما فى كرشه من الماء.

وكانت فى شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة النبوية المباركة، وهى آخر غزوات رسول اللّه (ص).

وسببها: انّ نصارى العرب الذين كانوا يقطنون المناطق الحدودية للشام كانوا قد كتبوا إلى هرقل ملك الروم يطلبون منه أن يبعث إليهم من يجهّزهم لمحاربة هذا الرجل الذى خرج يدّعى النبوّة، ومن معه من المسلمين.

فبعث إليهم رجلاً من عظمائهم وجهّز معه أربعين ألفاً.

فبلغ ذلك النبى (ص) بسبب الصيافة التى يمترون فى الصيف، حيث كانوا يقدمون إلى المدينة من الشام لبيع أمتعتهم، فأشاعوا فى المدينة: ان الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول اللّه (ص) فى عسكر عظيم، وانّ هرقل قد سار فى جمعه وجنوده، وجلب معه غسان وجذام وفهراً وعاملة، وقد قدم عساكره البلقاء، ونزل هو حمص.

فأمر اللّه تعالى رسوله (ص) بحرب الروم وغزوهم، وأمر رسول اللّه (ص) أصحابه بالتهيّؤ إلى تبوك، كما وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة وكانوا كلهم مسلمين فى هذا الوقت يستنفرهم.

وحضّ رسول اللّه (ص) من عنده من المسلمين على الجهاد، وأمر بعسكره فضرب فى ثنية الوداع، وأمر أهل الجدة أن يعينوا من لا قوّة به، ومن كان عنده شىء أخرجه، وحملوا وقوّوا وحثوا على ذلك، وخطب رسول اللّه (ص) عليهم خطبة غرّاء، جاء فيها بعد الحمد للّه والثناء عليه تعالى ما يلى:

من كلمات الرسول (ص)

(أيها الناس انّ أصدق الحديث كتاب اللّه، وأولى القول كلمة التقوى، وخير الملل ملّة إبراهيم، وخير السنن سنّة محمّد، وأشرف الحديث ذكر اللّه، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأُمور عزائمها، وشرّ الأُمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف القتل قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتّبع، وشرّ العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت، وشرّ الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا نزراً، ومنهم من لا يذكر اللّه إلاّ هجراً، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة اللّه، وخير ما أُلقى فى القلب اليقين، والارتياب من الكفر، والتباعد عمل الجاهلية، والغلول من جمر جهنّم، والسكر جمر النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الآثام، والنساء حبائل إبليس، والشباب شعبة من الجنون، وشرّ المكاسب كسب الربا، وشرّ المآكل أكل مال اليتيم ظلماً، والسعيد من وعظ بغيره، والشقىّ من شقى فى بطن اُمّه، وانما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتيمه، وأربى الربا الكذب، وكل ما هو آتٍ قريب، وشنآن المؤمن فسق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية اللّه، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن توكّل على اللّه كفاه، ومن صبر ظفر، ومن يعفُ يعفُ اللّه عنه، ومن كظم الغيظ يأجره اللّه، ومن يصبر على الرزيّة يعوّضه اللّه، ومن يتبع السمعة يسمّع اللّه به، ومن يصم يضاعف اللّه له، ومن

يعصِ اللّه يعذّبه، اللّهمّ اغفر لى ولاُمّتى، اللّهمّ اغفر لى ولاُمّتى، أستغفر اللّه لى ولكم)....

قال الراوى: فرغب الناس فى الجهاد لما سمعوا هذه الخطبة، وقدمت القبائل من العرب ممن استنفرهم، وقعد عنه قوم من المنافقين وغيرهم.

وكان رسول اللّه (ص) قلّ ما يخرج فى غزوة إلاّ كنّى عنها، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيّنها للناس لبعد الشقة وشدّة الزمان وكثرة العدوّ الذى يعمد له، ليتأهّب الناس لذلك أهبته. فأمر الناس بالجهاز وأخبر أنه يريد الروم.

مع الجدّ بن قيس

ثم ان رسول اللّه (ص) قال ذات يوم وهو فى جهازه ذلك لرجل من بنى سلمة يقال له (الجدّ بن قيس): يا أبا وهب ألا تنفر معنا فى هذه الغزوة؟

فقال: يا رسول اللّه أو تأذن لى أن اُقيم ولا تفتنى، فواللّه لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء منى، وإنى أخشى ان رأيت بنات الأصفر أنى لا أصبر.

فأعرض عنه رسول اللّه (ص) وأذن له، فأنزل اللّه تعالى على رسوله فى ذلك:

(ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين)(۱).

ثم قال الجد بن قيس: أيطمع محمد انّ حرب الروم مثل حرب غيرهم؟! لا يرجع من هؤلاء أحد أبداً.

كما وقال لقومه: لا تنفروا فى الحر زهادة فى الجهاد، وشكاً فى الحق، وإرجافاً بالرسول، فأنزل اللّه سبحانه: (فرح المخلّفون بمقعدهم خلاف رسول اللّه وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل اللّه وقالوا لا تنفروا فى الحرّ قل نار جهنّم أشدّ حرّاً).

إلى قوله تعالى: (وماتوا وهم فاسقون)(۲) ففضح اللّه الجدّ بن قيس وأصحابه.

وقيل: ان رهطاً من المنافقين كان يقول بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بنى الاصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ واللّه لكأنى بكم غداً مقرنين بالحبال، يقولون ذلك إرجافاً بالمؤمنين، فأرسل رسول اللّه (ص) إليهم عمار بن ياسر ينبّأهم بما قالوا، فانطلق إليهم عمار فنبأهم بقولهم، فأتوا رسول اللّه (ص) يعتذرون إليه وانتهوا عن مقالتهم.

هذا وقد نوى ابن اُبى أن يشترك فى غزوة تبوك فضرب خيمته فى معسكر المسلمين، لكنه عدل عن رأيه ساعة ارتحال المسلمين ورجع هو وأصحابه إلى المدينة وقد أضمر سوءاً، فغضّ عنه رسول اللّه (ص) ولم يعترضه بشىء.

الضعفاء

ثم إنّ رجالاً من المسلمين أتوا رسول اللّه (ص)، وكانوا سبعة نفر.

فكان من بنى عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وكان قد شهد بدراً.

ومن بنى حارثة: علبة بن زيد.

ومن بنى مازن بن النجار: أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب.

ومن بنى سلمة: عمرو بن غنمة.

ومن بنى زريق: سلمة بن صخر.

ومن بنى الغرّ: ناضر بن سارية السلمى.

ومن بنى واقف: هرمى بن عمير.

هؤلاء السبعة جاءوا وهم يبكون، فاستحملوا رسول اللّه (ص) وكانوا أهل الحاجة، فقال (ص): لا أجد ما أحملكم عليه.

وقيل: انهم جاءوا وقالوا: يا رسول اللّه ليس بنا قوّة أن نخرج معك، فأنزل اللّه تعالى فيهم: (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الّذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا للّه ورسوله) إلى قوله سبحانه: (تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون)(۳).

وقد كان نفر من المسلمين أهل نيات وبصائر تخلفوا عن رسول اللّه (ص) من غير شك ولا ارتياب، ولكنهم قالوا: نلحق برسول اللّه (ص)، منهم: كعب بن مالك أخو بنى سلمة، ومرارة بن الربيع أخو بنى عمرو بن عوف، وهلال بن اُميّة أخو بنى واقف، وأبو خيثمة أخو بنى سالم، وكانوا نفر صدق لا يتهمون فى إسلامهم.

الإستخلاف وحديث المنزلة

فلما اجتمع لرسول اللّه (ص) الخيول ارتحل من ثنيّة الوداع، وذلك بعد أن استخلف علياً (ع) على المدينة، فإنّ جبرئيل كان قد أتاه وقال له: إنّ العلىّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول لك: إمّا أن تخرج أنت ويقيم على، أو تقيم أنت ويخرج على.

فلمّا خلّفه على المدينة وأمره بالإقامة فيهم، أرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً منه وتشؤماً به، فلما بلغ ذلك عليّاً (ع) أخذ سيفه وسلاحه ثم خرج حتى أتى رسول اللّه (ص) وهو نازل بالجرف.

فقال له رسول اللّه (ص) لما رآه مقبلاً: يا على ألم اُخلّفك على المدينة؟

قال (ع): نعم يا رسول اللّه، ولكن زعم المنافقون انك انما خلفتنى لأنك استثقلتنى وتشأمت بى.

فقال (ص): كذب المنافقون يا على، ولكنّى خلّفتك لما تركت ورائى، أما يكفيك انك جلدة ما بين عينى ونور بصرى، وكالروح فى بدنى، فارجع فاخلفنى، فإن المدينة لا تصلح إلاّ بى وبك، أفلا ترضى يا على أن تكون أخى وأنا أخوك، وأنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبىّ بعدى، وأنت خليفتى فى اُمّتى، وأنت وزيرى وأخى فى الدنيا والآخرة؟

فرجع على (ع) إلى المدينة.

مع أبى خيثمة

ثم إنّ أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول اللّه (ص) أياماً إلى أهله فى يوم حارّ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائط قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت فيه ماءاً وهيّأت له فيه طعاماً.

فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: لا واللّه ما هذا بإنصاف، رسول اللّه (ص) فى وهج الشمس ولفح الريح قد حمل السلاح يجاهد فى سبيل اللّه، وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيّأ وامرأتين حسناوين فى ماله وعريشه مقيم! لا واللّه ما هذا بالنصف.

ثم قال: واللّه لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول اللّه (ص)، فهيّئا لى زاداً، ففعلتا، ثم قدّم ناقته فشدّ عليها رحله، ثم خرج فى طلب رسول اللّه (ص) حتى أدركه حين نزل تبوك.

وقد كان أدرك أبو خيثمة عمير بن وهب الجمحى فى الطريق يطلب رسول اللّه (ص) فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إنّ لى ذنباً فما عليك أن تتخلّف عنى حتى آتى رسول اللّه (ص)، ففعل، حتى إذا دنا من رسول اللّه (ص) وهو نازل بتبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق.

فقال رسول اللّه (ص): كن أبا خيثمة.

فقالوا: يا رسول اللّه (ص) هو واللّه أبو خيثمة.

فلما أناخ أقبل فسلّم على رسول اللّه (ص) وأخبره خبره.

فقال له رسول اللّه (ص) خيراً، ودعا له بخير.ثم التحق الجمحى بهم أيضاً.

من علامات النبوّة

روى: انه نال رسول اللّه (ص) والناس معه لما ساروا يومهم إلى تبوك عطش شديد، كادت تنقطع له أعناق الرجال والخيل عطشاً، فدعا (ص) بركوة فصبّ فيها ماءاً قليلاً من إداوة كانت معه ووضع أصابعه عليها فنبع الماء من تحت أصابعه، فاستقوا وارتووا والعسكر ثلاثون ألف رجل سوى الخيل والإبل.

وروى: انه لما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول اللّه (ص)، فدعا اللّه لهم بأن يسقيهم، فأرسل اللّه سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء، فقيل لبعض المنافقين: ويحك هل بعد هذا شيء؟

قال: سحابة مارّة.

حتى إذا كان رسول اللّه (ص) ببعض الطريق ضلّت ناقته القصوى، فخرج أصحابه فى طلبها، فقال عمارة بن حزم كالمستهزئ: يخبرنا محمد بخبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته!

فقال رسول اللّه (ص): إنّ رجلاً ـ قال: يخبرنا محمد بأمر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته؟ فاعلموا انى لا أعلم إلا ما علّمنى اللّه، وقد دلّنى اللّه عليها الآن، وهى فى هذا الوادى من شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتونى بها، فذهبوا فرأوها كما وصف، فأخذوها وجاءوا بها إليه.

مواساة أبى ذر

ثم مضى رسول اللّه (ص) سائراً، فجعل يتخلّف عنه الرجل فيقولون: يا رسول اللّه تخلّف فلان. حتى قيل: يا رسول اللّه تخلّف أبو ذر وأبطأ به بعيره، وقد كان مدة تخلّف أبى ذر عن رسول اللّه (ص) ثلاثة أيام، وذلك ان جمله كان أعجف، وقد وقف عليه فى بعض الطريق، فلما أبطأ عليه تركه وأخذ متاعه وثيابه، فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول اللّه (ص) ماشياً.

ونزل رسول اللّه (ص) فى بعض منازله، فلما ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل، فقالوا: يا رسول اللّه إنّ هذا الرجل يمشى على الطريق وحده.

فقال رسول اللّه (ص): كن أبا ذر.

فلما تأمّله القوم قالوا: يا رسول اللّه هو واللّه أبوذر.

فقال رسول اللّه (ص): أدركوه بالماء فإنه عطشان.

فأدركوه بالماء، ووافى أبو ذر رسول اللّه (ص) ومعه اداوة فيها ماء، فقال له: يا أباذر معك ماء وعطشت؟

فقال: نعم يا رسول اللّه بأبى أنت واُمّى، انتهيت إلى صخرة عليها ماء السماء فذقته فإذا هو عذب بارد، فقلت: لا اُشربه حتى يشربه حبيبى رسول اللّه(ص).

فقال له رسول اللّه (ص): يا أبا ذر رحمك اللّه أنت المطرود عن حرمى بعدى لمحبّتك لأهل بيتى، تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، وتدخل الجنّة وحدك، يسعد بك قوم من أهل العراق، يتولّون غسلك وتجهيزك والصلاة عليك ودفنك، اُولئك رفقائى فى جنّة الخلد التى وعد المتّقون.

أبو ذر فى الربذة

وتحقّق كل ما قاله رسول اللّه (ص) فى حقّ أبى ذر، فقد سيّره عثمان إلى الربذة، فمات فيها ابنه (ذر) غريباً، حيث لم يكن مع أبى ذر

بالربذة أحد إلا امرأته وابنه ذر، وابنته ذرّة.

فلما مات ابنه ذر وقف على قبره وقال: رحمك اللّه ياذر، لقد كنت كريم الخلق، باراً بالوالدين، وما علىّ فى موتك من غضاضة، وما بى إلى غير اللّه حاجة، وقد شغلنى الإهتمام لك عن الإغتمام بك، ولولا هول المطلع لأحببت أن أكون مكانك، فليت شعرى ما قالوا لك وما قلت لهم؟

ثم رفع يده نحو السماء وقال: اللّهمّ انك فرضت لك عليه حقوقاً، وفرضت لى عليه حقوقاً، فإنى قد وهبت له ما فرضت لى عليه من حقوقى، فهب له ما فرضت عليه من حقوقك، فإنك أولى بالحق والكرم منّى.

وكانت لأبى ذر غنيمات يعيش هو وعياله منها، فأصابها داء فماتت كلها، فأصاب أباذر وأهله وابنته الجوع، فماتت أهله.

فقالت ابنته: أصابنا الجوع وبقينا ثلاثة أيام لم نأكل شيئاً، فقال لى أبى: يابنيّة قومى بنا إلى الرمل نطلب القثّ وهو نبت له حبّ، فصرنا إلى الرمل فلم نجد شيئاً، فجمع أبى رملاً ووضع رأسه عليه ورأيت عينه قد انقلبت فبكيت وقلت: ياأبة كيف أصنع بك وأنا وحيدة؟

فقال: يا بنتى لا تخافى فإنى إذا متُّ جاءك من أهل العراق من يكفيك أمرى، فإنه أخبرنى حبيبى رسول اللّه (ص) فى غزوة تبوك فقال: (يا أبا ذر تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، وتدخل الجنّة وحدك، يسعد بك أقوام من أهل العراق، يتولّون غسلك وتجهيزك ودفنك) فإذا أنا متُّ فمدّى الكساء على وجهى، ثم اقعدى على طريق العراق، فإذا أقبل ركب فقومى إليهم وقولى: هذا أبو ذر صاحب رسول اللّه (ص) قد توفّى.

فلما عاين الموت قال: مرحباً بحبيب أتى على فاقة، لا أفلح من ندم، اللّهمّ خنّقنى خناقك، فوحقّك انك لتعلم انّى اُحب لقاءك.

فلما مات مددت الكساء عليه، ثم قعدت على طريق العراق، فجاء نفر فقلت لهم: يا معشر المسلمين هذا أبوذر صاحب رسول اللّه (ص) قد توفّى.

فنزلوا ومشوا يبكون، فجاءوا فغسّلوه وكفّنوه ودفنوه، وكان فيهم مالك الأشتر، فإنه قال: كفنته فى حلّة كانت معى قيمتها أربعة آلاف درهم.

ثم لما دفنوه وقف الأشتر على قبره وقال: اللّهمّ هذا أبو ذر صاحب رسول اللّه (ص) عَبَدَك فى العابدين، وجاهد فيك المشركين، لم يغيّر ولم يبدّل، لكنه رأى منكراً فغيّره بلسانه وقلبه حتى جفى ونفى وحرم واحتقر، ثم مات وحيداً غريباً، اللّهمّ فاقصم من حرمه، ونفاه من مهاجره وحرم رسولك (ص).

فقال من كان معه: آمين.

وقيل: انه لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة فأصابه بها قدَره لم يكن معه بها أحد إلّا امرأته وغلامه. فأوصاهما أن غسّلانى وكفّنانى، ثم ضعانى على قارعة الطريق، فأول راكب يمرّ بكم فقولوا: هذا أبوذر صاحب رسول اللّه (ص)، فأعينونا على دفنه.

فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبداللّه بن مسعود ومالك الأشتر فى رهط من أهل العراق عماراً، فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق، فقام إليهم الغلام فقال: هذا أبوذر صاحب رسول اللّه (ص) فأعينونا على دفنه، فاستهل عبداللّه يبكى ويقول: صدق رسول اللّه (ص)، تمشى وحدك، وتموت وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدثهم عبداللّه بن مسعود حديثه وما قال له رسول اللّه (ص) فى مسيره إلى تبوك.

وقود جهنم

ومرّ رسول اللّه (ص) مع من كان معه فى طريقه إلى تبوك بجبل يرشح الماء من أعلاه إلى أسفله من غير سيلان، فتعجّب القوم منه وقالوا: ما أعجب رشح هذا الجبل؟

فقال لهم رسول اللّه (ص): انه يبكى، فازداد تعجّبهم وقالوا: والجبل يبكى؟!

قال (ص): نعم، أتحبّون أن تعلموا ذلك؟

قالوا بتلهّف واشتياق: نعم نحبّ ذلك.

فالتفت رسول اللّه (ص) إلى الجبل وقال له وكأنّه يكلّم إنساناً: ممّ بكاؤك أيّها الجبل؟

فأجابه الجبل وقد سمعه الجماعة بلسان فصيح: يا رسول اللّه، مرّ بى عيسى بن مريم وهو يتلو: (ناراً وقودها الناس والحجارة)(۴) فأنا أبكى من ذلك اليوم خوفاً أن أكون من تلك الحجارة.

فقال له رسول اللّه (ص): اسكن من بكائك، فإنّك لست منها، إنما تلك الحجارة الكبريت، فسكن الجبل وجفّ ذلك الرشح منه فى الوقت حتى لم ير شىء من ذلك الرشح، ومن تلك الرطوبة التى كانت بعد ذلك.

فى أرض تبوك

وقدم رسول اللّه (ص) تبوك فى شعبان يوم الثلاثاء، وأقام بقية شعبان وأياماً من شهر رمضان المبارك، فكان مدّة إقامته بها قريباً من شهرين، ولما نزل رسول اللّه (ص) ومن معه بتبوك، واختلفت الرسل بينه وبين ملك الروم، طالت فى ذلك أياماً حتى نفد الزاد والأكل، فشكوا نفاد زادهم إلى رسول اللّه (ص).

فقال (ص): من كان معه شىء من الدقيق،أو التمر،أو السويق، فليأتنى به.

فجاء أحد بكف دقيق، والآخر بكف تمر، والثالث بكف سويق، فبسط رداءه وجعل ذلك عليه ووضع يده الكريمة على كل واحد منها ثم قال: نادوا فى الناس: من أراد الزاد فليأت، فأقبل الناس يأخذون الدقيق، والتمر، والسويق، حتى ملأوا جميع ما كان معهم من الأوعية، وذلك الدقيق والتمر والسويق على حاله لم ينقص من واحد منها شىء.

مع صاحب أيلة

وأتى رسول اللّه (ص) وهو بتبوك يُحنة بن رؤبة، صاحب أيله، وأيله بالفتح مدينة على الشريط الحدودى لبلاد الشام فصالحه على الجزية، وكتب له رسول اللّه (ص) كتاباً بذلك واشترط عليهم قرى من مرّ بهم من المسلمين، والكتاب عندهم.

وكذلك كتب لأهل جرباء، وأهل أذرح، وأهل مقنا، كتب لكل منهم كتاباً مستقلاً وصالحهم على الجزية وهى أيضاً من البلاد الواقعة على الشريط الحدودى لبلاد الشام.

سرية أبى عبيدة إلى جذام

وبعث رسول اللّه (ص) وهو بتبوك أباعبيدة بن الجراح إلى جمع من جذام، مع واحد منهم يقال له: زنباع بن روح الجذامى، فأصاب منهم طرفاً، وأصاب منهم سبايا، وبذلك قضى على غائلتهم وأمن المسلمون جانبهم.

سرية سعد إلى بنى سليم

كما وبعث رسول اللّه (ص) وهو بتبوك أيضاً سعد بن عبادة إلى ناس من بنى سليم وجموع من بلّى، فلما قارب القوم وأحسّوا به ولّوا هاربين وأقلعوا من طغيانهم وتمرّدهم.

سرية خالد إلى الاكيدر

وبعث رسول اللّه (ص) أيضاً وهو بتبوك خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارساً، وقيل: انه بعث الزبير وسماك بن خرشة فى

عشرين من المسلمين، إلى أكيدر بن عبدالملك من كندة، وكان ملكاً عليها، وكان نصرانياً وحاكماً على منطقة دومة الجندل، ودومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيء، ودومة هى من قريات من وادى القرى، وذكر أنّ عليها حصناً حصيناً يقال له مارد وهو حصن أكيدر الملك.

وأكيدر هذا كان يهدّد رسول اللّه (ص) بأنه سيقصده ويقتل أصحابه ويبيد خضراءهم، وكان المنافقون يهدّدون المسلمين بهم وبسطوهم عليهم.

ولذلك قال خالد: يا رسول اللّه كيف لى به وسط بلاد كلب وأنمار وما هو عليه من العدّة والعدد وأنا فى أُناس يسير؟

فقال رسول اللّه (ص): لعلّ اللّه يكفيكه بصيد البقر فتأخذه.

فخرج خالد ومن معه فلما بلغ قريباً من حصنه بمنظر للعين وكانت ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له فى الحصن ومعه امرأتين له يشرب الخمر معهما، إذ أقبلت البقر تنتطح وتحك بقرونها باب الحصن، فأشرفت امرأته على باب الحصن وقالتا لما رأتا البقر تحكّ بقرنها: هل رأيت مثل هذا قط؟

قال: لا واللّه.

قالتا: فمن يترك هذه الليلة؟

قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه فأُسرج له وركب معه نفر من أهل بيته ومعه أخوه حسّان، فخرجوا من حصنهم فطلبوها.

الاكيدر فى الأسر

فلما خرج الاكيدر ونفر معه يطلبون الصيد، تلقّتهم خيل رسول اللّه (ص)، فاستأسر أكيدر وامتنع حسّان فقاتل فقتل، وهرب من كان معه ودخل الحصن، وأغلقوا الباب دونهم، وكان على اكيدر قباء مخوَّص بالذهب، فقال: لى إليكم حاجة.

فقالوا: وما هى؟

قال: تأخذون قبائى هذا مع سيفى ومنطقتى وتبعثون بها إليه (ص)، ثم تحملوننى إليه فى قميصى لئلا يرانى فى هذا الزىّ، بل يرانى فى زىّ التواضع، فلعلّه أن يرحمنى.

ففعلوا ذلك، فلما وصل المبعوث بقباء اكيدر إلى رسول اللّه (ص) جعل المسلمون يلمسونه ويتعجّبون منه ويقولون: هذا من حلىّ الجنّة.

فقال رسول اللّه (ص): أتعجبون من هذا؟ لمنديل سعد بن معاذ فى الجنّة خير من هذا.

قالوا: وذلك خير من هذا؟

قال (ص): لخيط منه فى الجنّة أفضل من ملء الأرض إلى السماء مثل هذا الذهب.

ثم بعد أن بعث خالد بقباء اكيدر وسيفه ومنطقته إلى رسول اللّه (ص) أقبل بأكيدر وسار معه أصحابه إلى باب الحصن، حتى إذا وصله سألهم أن يفتحوه له، فأبوا.

فقال له اكيدر: أرسلنى أفتح الباب.

فأخذ عليه موثقاً وأرسله، فدخل وفتح الباب حتى دخل خالد وأصحابه، وأعطاه ثمانمائة رأس، وألفى بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وخمسمائة سيف.

فقبل ذلك منه وأقبل به إلى رسول اللّه (ص) فحقن (ص) دمه وصالحه على الجزية، وعلى أن يضيّفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام، وأن يزوّدوهم إلى المرحلة التى تليها، ثم خلّى سبيله بعد أن كتب له كتاباً بإمارته على قومه.

عبدالله ذو البجادين

قال عبـدالله بن مسـعود: قمت فى جوف ليلـة من الليالى ونحن فى غزوة تبوك، فرأيت شـعلة من نار فى ناحيـة العسـكر، فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول اللّه (ص) وجماعة، وإذا (عبداللّه ذو البجادين) قد مات، وإذا هم قد حفروا له ورسول اللّه (ص) فى حفرته.

فلما هيّأه لشقه قال: اللّهمّ إنى أمسيت راضياً عنه فارض عنه، وكان يقول عبداللّه بن مسعود: ياليتنى كنت صاحب الحفرة.

وانمـا سـمى (ذو البجـادين) لأـنه كـان ينازع إلى الإسـلام فيمنعه قومه من ذلك ويضـيقون عليه حتى تركوه فى بجاد ليس عليه غيره، والبجـاد: الكسـاء الغليـظ، فهرب منهم إلى رسول اللّه (ص)، فلمـا كان قريباً منه شق بجاده بإثنتين فاتّزر بواحـدة واشـتمل بالأُخرى، ثم أتى رسول اللّه (ص) فقيل له (ذو البجادين).

المفاوضات وفوائدها

ثم انه كانت نتيجة اختلاف الرسل بين رسول اللّه (ص) وبين هرقل ملك الروم، أن بعث هرقل رجلاً من خاصته ومورد ثقته وكان من غسّان فجاء لينظر إلى رسول اللّه (ص) وصـفته وعلاماته، وإلى خاتم النبوّة بين كتفيه، وسأل فإذا هو لا يقبل الصدقـة، فوعى أشـياء من صفات النبى (ص) ثم انصرف إلى هرقل فذكرها له.

فـدعا هرقل قومه إلى التصـديق به، فأبوا عليه حتى خافهم على ملكه فتركهم، ولكنه امتنع من قتال النبى (ص)، وكان اللّه قـد أخبر نبيّه من قبل بأنه لا يحتاج فى هذه الغزوة إلى حرب، ولا يبتلى بقتال عدوّ، وان الأُمور تنقاد له بغير سـيف، وانه يرجع منها بامتحان أصـحابه واختبارهم.

ولـذلك عـاد رسول اللّه (ص) من غير قتـال، وذلك بعـد أن أرعب جانب العـدوّ الرومى، وأبرم معاهـدات مع البلاد الحدوديـة للشام وصالحهم على الجزيـة، وعلى عـدم التعرّض ممّا مهّـد الطريق بعـدها كما مهـدت حرب مؤتـة من قبل الطريق لفتح بلاد الشام ودخول الناس فى الإسلام.

وقيل: انه شاور رسول اللّه (ص) أصحابه فى التقدّم والمسير إليهم، فقال بعضهم: إن كنت أمرت بالمسير فسر.

فقال رسول اللّه (ص): لو أمرت ما استشرتكم فيه.

فقالوا: يا رسول اللّه إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحـد من أهل الإسـلام، وقد دنوت وأفزعهم دنوّك، لو رجعت هذه السـنة حتى ترى أو يحدث اللّه لك فى ذلك أمراً عظيماً. فانصرف رسول اللّه (ص) إلى المدينة، ولم يلق كيداً.

وكان فى الطريق ماء يخرج من وشل يروى الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له: (وادى المشـقق)، فقال رسول اللّه (ص): من سبقنا إلى المـاء فلاـ يسـقينّ منه شـيئاً حتى نأتيه، فسـبقه إليه نفر من المنافقين، فاسـتقوا ما فيه، فلما أتاه رسول اللّه(ص) وقف عليه فلم ير فيه شيئاً.

فقال (ص): من سبقنا إلى هذا؟

فقيل: يا رسول اللّه فلان وفلان.

فقال (ص): ألم أنهكم أن تستقوا منه شيئاً حتى آتيه؟

ثم نزل ووضع يـده تحت الوشـل، فجعل يصب فى يـده ما شاء اللّه أن يصب، ثم نضـحه به ومسـحه بيـده ودعا بما شاء اللّه أن يـدعو، فانخرق من الماء وإن له حساً كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه.

فقال رسول اللّه (ص): لئن بقيتم أو بقى منكم لتسمعنّ بهذا الطريق وقد أخصب ما بينه وما خلفه.

المتآمرون على النبى (ص) وخليفته (ع)

وفى مرجع رسول اللّه (ص) من تبوك، همّ المنافقون الذين كانوا مع رسول اللّه (ص) فى تبوك بالغدر به وذلك فى ليلة العقبة فعصمه اللّه منهم، كما وهمّ من بقى من مردة المنافقين بالمدينة فى مؤامرة مشتركة بقتل على (ع)، فما قدروا على مغالبة ربّهم، وقد حملهم على ذلك حسدهم لرسول اللّه (ص) فى على (ع).

فعن حذيفة قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول اللّه (ص) أقود به، وعمّار يسوق الناقة، ومرّة أنا أسوق وعمّار يقوده، حتى إذا كنّا بالعقبة، فإذا أنا بسبعة عشر راكباً قد اعترضوه فيها.

قال: فصرخ بهم رسول اللّه (ص) وجعل عليهم لعنة اللّه، فولّوا مدبرين.

فقال لنا رسول اللّه (ص): هل عرفتم القوم؟

قلنا: يا رسول اللّه قد كانوا متلثّمين، ولكن عرفناهم برواحلهم.

قال (ص): هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، ثم قال (ص): هل تدرون ما أرادوا؟

قلنا: لا.

قال (ص): هذا جبرئيل نزل علىّ يخبرنى بأنهم أرادوا أن ينفروا بى فى العقبة فيقتلونى بها.

قلنا: يا رسول اللّه ألا تبعث لعشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟

قال (ص): لا، أكره أن تتحدّث العرب أنَّ محمداً قاتل بالقوم حتى إذا أظهره اللّه بهم أقبل عليهم يقتلهم.

ثم قال (ص): اللّهمّ ارمهم بالدبيلة.

قلنا: يا رسول اللّه وما الدبيلة؟

قال (ص): شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيورده النار وساءت مصيراً.

القرآن يفضح المتآمرين

ثم أخبر رسول اللّه (ص) حذيفة وعماراً بأسمائهم وأعدادهم، فكانوا اثنى عشر رجلاً من بنى اُميّة، وخمسة من غيرهم، وكلهم من قريش، وما همّوا به، وأمرهما أن يكتما عليهم، وكان حذيفة يقال له: صاحب السرّ الذى لا يعلمه غيره.

وفيهم أنزل تعالى: (يحذر المنافقون أن تُنزَّل عليهم سورة تنبّئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا إنّ اللّه مخرج ما تحذرون ولئن سألتهم ليقولنّ انما كنا نخوض ونلعب قل أباللّه وآياته ورسوله كنتم تستهزئون).

إلى قوله تعالى: (وما لهم فى الأرض من ولىّ ولا نصير)(۵).

وذلك ان القرآن مازال ينزل بكلام المنافقين حتى تركوا الكلام واقتصروا بالحواجب يغمزون. فقال بعضهم: ما تأمنون أن تسمّوا فى القرآن فتفتضحوا أنتم وأعقابكم؟ هذه عقبة بين أيدينا لو رميناه منها لتقطع، فقعدوا على العقبة ويقال لها: عقبة ذى فتق، وائتمروا بينهم ليقتلوه.

فقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: انما كنا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن لنقتلنّه، فحفظ اللّه رسوله من كيدهم، وأنزل فيهم تلك الآيات.

مع مسجد ضرار

ثم أقبل رسول اللّه (ص) من تبوك، فلمّا نزل بذى أوان وهو بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، جاءه خبر أبى عامر ومسجد الضرار من السماء.

وكان من قصّة أبى عامر الراهب الذى سماه رسول اللّه (ص) بالفاسق لتآمره على الإسلام والمسلمين وتجسّسه عليهم انه كتب إلى مَن

كان فى المدينة من المنافقين كتاباً جاء فيه: ابنوا مسجدكم واستعدّوا بما استطعتم من قوّة ومن سلاح، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم، فأُخرج محمداً وأصحابه من المدينة.

فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا رسول اللّه (ص) فقالوا: إنّا فرغنا من بناء مسجدنا، وقد بنيناه لذى العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، فنحبّ أن تصلّى لنا فيه وتدعو بالبركة.

فقال رسول اللّه (ص): إنى على جناح سفر، وكان يتجهّز إلى تبوك.

فانصرفوا، حتى إذا قدم رسول اللّه (ص) من تبوك غانماً ظافراً، ونزل بذى أوان، أتوه ثانية وسألوه اتيان مسجدهم، فأنزل اللّه تعالى عليه: (والّذين اتَّخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب اللّه ورسوله من قبل) إلى قوله سبحانه: (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطّع قلوبهم واللّه عليم حكيم)(۶).

فبعث إليه رسول اللّه (ص) بأمر من اللّه تعالى من يهدمه ويحرقه ويتّخذه كناسة تلقى فيه الجيف، ففعلوا ذلك، وتفرّق عنه أهله، وهم يتوقّعون مجيء أبى عامر، لكنه مات قبل أن يبلغ ملك الروم.

المتطهّرون والثناء عليهم

ولما كان فيما نزل على رسول اللّه (ص) بشأن مسجد ضرار وذمّه، ومدح مسجد قباء وأهله قوله تعالى: (لمسجد أُسِّس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه فيه رجال يحبّون أن يتطهَّروا واللّه يحبّ المطّهّرين)(۷).

قال رسول اللّه (ص) لأهل قباء: ماذا تفعلون فى طهركم، فإنّ اللّه تعالى قد أحسن الثناء عليكم؟

فقالوا: يا رسول اللّه إنا لا نكتفى بالإستنجاء بالأحجار، بل نغسل أثر الغائط ونتطهَّر منه ومن البول بالماء.

فقال رسول اللّه (ص): لقد أنزل اللّه تعالى فيكم: على رواية (واللّه يحبّ المطّهّرين).

وبهذا وأمثاله من التعليمات السماوية حافظ الإسلام على أُصول الصحّة، وأساس النظافة ورعاية آدابها بالنسبة إلى الفرد والمجتمع.

أول من يزوره الرسول (ص)

ثم انّ رسول اللّه (ص) قدم المدينة، وكان إذا قدم من سفر استقبل بالحسن والحسين (عليهما السلام) فأخذهما إليه وضمَّهما إلى صدره، وحفّ المسلمون به حتى يدخل أول ما يدخل على ابنته فاطمة الزهراء (ع) احتفاءاً بها، وتقديراً لها، وإظهاراً لما لها من الفضل عند اللّه تعالى ورسوله (ص)، والمسلمون يقعدون بالباب، فإذا خرج من عندها مشوا معه، فإذا دخل منزله تفرَّقوا عنه وودَّعوه إلى منازلهم.

هذه طابة

وعن أبى حميد الساعدى قال: أقبلنا مع رسول اللّه (ص) من غزوة تبوك، حتى إذا أشرفنا على المدينة، ألقى بنظرة إليها وقال (ص): هذه طابة، وهذا أُحد، جبل يحبّنا ونحبّه.

وفيه اشارة إلى مدح المدينة وأهلها وإلى بناء أمره على المحبّة والرحمة لكلّ شىء.

مع الشركاء الغائبين

ثم لما دنا رسول اللّه (ص) من المدينة التفت إلى أصحابه وقال: إنّ بالمدينة لأقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من وادٍ، إلا كانوا معكم فيه.

قالوا: يا رسول اللّه وهم بالمدينة؟

قال (ص): نعم، وهم بالمدينة حبسهم العذر.

وبهذا أشار رسول اللّه (ص) إلى انّ النية الحسنة لمن حبسه العذر الشرعى، لها الأثر الكبير فى تقرير مصير الإنسان وانّها تشرك أصحابها فى إحسان المحسنين، وتكسبهم من الأجر والثواب ما للمجاهدين عند اللّه من الأجر العظيم.

المتخلّفون عن تبوك

وقد تخلّف عن رسول اللّه (ص) قوم من المنافقين، وقوم من المؤمنين مستبصرين لم يعثر عليهم فى نفاق، منهم: كعب بن مالك الشاعر، ومرارة بن الربيع، وهلال بن اُمية الواقفى.

فلما تاب اللّه عليهم قال كعب: ما كنت قط أقوى منى فى ذلك الوقت الذى خرج رسول اللّه (ص) إلى تبوك، وما اجتمعت لى راحلتان قطّ إلاّ فى ذلك اليوم، فكنت أقول: أخرج غداً، أخرج بعد غد، فإنّى القوى وتوانيت، وبقيت بعد خروج النبى (ص) أياماً أدخل السوق ولا أقضى حاجة، فلقيت هلال بن اُمية، ومرارة بن الربيع، وقد كانا تخلّفا أيضاً، فتوافقنا أن نبكّر إلى السوق، فلم تقض لنا حاجة، فما زلنا نقول: نخرج غداً وبعد غد، حتى بلغنا إقبال رسول اللّه (ص) فندمنا.

فلما وافى رسول اللّه (ص) استقبلناه نهنّيه بالسلامة، فسلّمنا عليه، فلم يردّ علينا السلام، وأعرض عنّا، وسلّمنا على إخواننا فلم يردّوا علينا السلام، فبلغ ذلك إلى أهلينا فقطعوا كلامهم معنا، وكنا نحضر المسجد فلا يسلّم علينا أحد ولا يكلّمنا.

قصة المتخلفين

وقيل: انّ كعب بن مالك قال: ما تخلّفت عن رسول اللّه (ص) فى غزوة غزاها قط، غير أنى كنت قد تخلّفت عنه فى غزوة بدر، وكان فى غزوة بدر لم يُعاقب أحد تخلّف عنها، وذلك أنّ رسول اللّه (ص) إنما خرج يريد عير قريش، فجمع اللّه بينه وبين عدوّه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول اللّه (ص) العقبة، وما أحبّ أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر أذكر فى الناس منها، وكان من خبرى حين تخلّفت عنه فى غزوة تبوك انى لم أكن قطّ أقوى ولا- أيسر منى حين تخلّفت منه تلك الغزوة، واللّه ما اجتمعت لى راحلتان قط حتى اجتمعتا فى تلك الغزوة، وكان رسول اللّه (ص) قلّ ما يريد غزوة يغزوها إلاّ ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول اللّه (ص) فى حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلا للناس أمرهم ليتأهّبوا لذلك أهبته، وأخبرهم بوجهه الذى يريده، والمسلمون مع رسول اللّه (ص) كثير.

قال: وغزا رسول اللّه (ص) تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وجعلت أغدو لأتجهّز معه فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول فى نفسى: أنا قادر على ذلك إن أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى شمر بالناس الجد، وأصبح رسول اللّه (ص) غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً.

فقلت: أتجهّز بعد يوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهّز فرجعت فلم أقض شيئاً، ثم غدوت ورجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتنى فعلت ولم أفعل، وجعلت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول اللّه (ص) فطفت فيهم يحزننى أن لا- أرى إلا- رجلاً- مغموصاً عليه بالنفاق، أو رجلاً ممن عذره اللّه من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول اللّه (ص) حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟

فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول اللّه حبسه برداه ونظره فى عطفيه.

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، واللّه يا رسول اللّه ما علمنا منه إلاّ خيراً، فسكت رسول اللّه (ص).

فلما بلغنى أنّ رسول اللّه (ص) توجّه قافلاً حضرنى همّى وطفقت أُفكّر كيف أُقدّم عذرى لرسول اللّه (ص) وأُوجّه له تخلّفى عنه، فلم

أر شيئاً أحسن من الصدق، فأجمعت أن اُصدقه.

قال: وأصبح رسول اللّه (ص) قادماً إلى المدينة، وكان إذا قدم من سفر جاء إلى المسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل رسول اللّه (ص) علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى اللّه، حتى جئت فسلّمت عليه، فلما سلمت عليه تبسّم تبسّم المغضب ثم قال (ص): تعال، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال (ص): ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟

فقلت: بلى يا رسول اللّه ولئن حدثتك حديث صدق تجد علىّ فيه إنى لأرجو فيه عفو اللّه، لا واللّه ما كان لى من عذر، وما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلّفت.

فقال رسول اللّه (ص): أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى اللّه فيك.

فقمت وسألت رجالاً من بنى سلمة: هل لقى هذا معى أحد؟

قالوا: نعم رجلان قالوا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك.

فقلت: من هما؟

قالوا: مرارة بن الربيع العامرى وهلال بن اُميـة الواقفى، فذكروا لى رجلين صالحين شهدا بدر فيهما اُسوة، فمضيت حين ذكروهما لى، والتقيت بهما فكنتُ لهما ثالثاً.

هذا وكان قد نهى رسول اللّه (ص) المسلمين عن كلامنا فاجتنبنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف.

توبة المخلّفين الثلاثة

قال كعب: فلما رأينا ما حلّ بنا قلنا: ما يقعدنا بالمدينة ولا يكلّمنا رسول اللّه (ص) ولا إخواننا، ولا أهلونا؟ فهلمّوا نخرج إلى هذا الجبل فنقيم فيه حتى يتوب اللّه علينا أو نموت.

فخرجوا إلى ذناب جبل بالمدينة، فكانوا يصومون النهار ويحيون الليل، وكان أهلوهم يأتونهم بالطعام فيضعونه فى ناحية ثم يولّون عنهم ولا يكلّمونهم، فبقوا على هذه الحالة أياماً كثيرة يبكون بالليل والنهار، ويدعون اللّه أن يغفر لهم.

فلما طال عليهم الأمد قال لهم كعب: يا قوم قد سخط اللّه علينا، ورسوله قد سخط علينا، وإخواننا قد سخطوا علينا، وأهلونا قد سخطوا علينا، فلا يكلّمنا أحد، فلماذا لا يسخط بعضنا على بعض؟

فتفرَّقوا فى الجبل وحلفوا أن لا يكلّم أحد صاحبه حتى يموت أو يتوب اللّه عليه، فبقوا على هذه الحالة ثلاثة أيام، كل واحد منهم فى ناحية من الجبل، لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلّمه.

فلما كان فى الليلة الثالثة ورسول اللّه (ص) فى بيت اُمّ سلمة، نزلت توبتهم على رسول اللّه (ص) لما عرف اللّه من صدق نيّاتهم، وأنزل فيهم: (وعلى الثلاثة الّذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من اللّه إلاّ إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إنّ اللّه هو التوّاب الرّحيم)(۸).

فأصبح المسلمون يبتدرونهم ويبشّرونهم.

قال كعب: فجئتُ إلى رسول اللّه (ص) وهو فى المسجد، وكان إذا سرّ يستبشر كأن وجهه فلقة قمر، فقال لى ووجهه يشرق سروراً: أبشر بخير يوم طلع عليك شرفه منذ ولدتك اُمّك.

قال كعب: فقلت له: أمن عند اللّه أم عندك يا رسول اللّه؟

فقال (ص): من عند اللّه. وتصدّق كعب بثلث ماله شكراً للّه على توبته.

وفى رواية: انهم انطلقوا لما تاب اللّه عليهم فجاءوا بأموالهم إلى رسول اللّه (ص) وقالوا: يا رسول اللّه هذه أموالنا التى خلّفتنا عنك،

فخذها وتصدّق بها عنّا.

فقال (ص): ما اُمرت فيها بأمر، فنزل: (خذ من أموالهم صدقةً)(۹) الآيات.

المخلّفون وتوبتهم

وقيل: ان كعب بن مالك قال: لما نهى رسول اللّه (ص) عن كلامنا.. فما كلّمنا أحد حتى تسوّرت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحبّ الناس إلىّ، فسلّمت عليه، فواللّه ما ردّ علىّ السلام.

فقلت: يا أبا قتادة اُنشدك باللّه هل تعلمنى أحب اللّه ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: اللّه ورسوله أعلم، ففاضت عيناى وتولّيت حتى تسوّرت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلنى على كعب بن مالك؟

فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءنى دفع إلىَّ كتاباً من ملك غسّان، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه: (أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك اللّه بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك).

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فىَّ رجل من أهل الشرك، فتيممت بها التنور فسجرته بها.

حتى إذا مضت أيام وكملت خمسون ليلة آذن رسول اللّه (ص) بتوبة اللّه علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبى مبشّرون، فانطلقت إلى رسول اللّه (ص)، فتلقّانى الناس فوجاً فوجاً يهنّئونى بالتوبة ويقولون: ليهنك توبة اللّه عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول اللّه (ص) جالس وحوله الناس، فلما سلمت على رسول اللّه (ص)، قال رسول اللّه (ص) وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك اُمك.

قال: قلت: أمن عندك يا رسول اللّه أم من عند اللّه؟

قال (ص): لا، بل من عند اللّه، وكان رسول اللّه (ص) إذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول اللّه إن من توبتى أن أتخلع من مالى صدقة إلى اللّه وإلى رسوله.

قال رسول اللّه (ص): أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك.

قلت: فإنى أمسكت سهمى الذى بخيبر، ثم قلت: يا رسول اللّه إنما نجانى اللّه بالصدق، وإن من توبتى أن لا اُحدث إلا صدقاً ما بقيت، فواللّه ما أعلم أحداً من المسلمين ابتلاه اللّه فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه (ص) أحسن مما ابتلانى، وما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه (ص) إلى يومى هذا كذباً، وإنى لأرجو أن يحفظنى اللّه فيما بقى.

۱ التوبة: ۴۹. ۲ التوبة: ۸۱ ۸۴. ۳ التوبة: ۹۱ ۹۲.

۴ التحريم: ۶. ۵ التوبة: ۶۴ ۷۴. ۶ التوبة: ۱۰۷ ۱۱۰.

۷ التوبة: ۱۰۸. ۸ التوبة: ۱۱۸. ۹ التوبة: ۱۰۳.

نزول سورة (براءة)

وفى سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة نزلت على رسول اللّه (ص) سورة براءة واُمر بإبلاغها على المشركين، فدفعها (ص) إلى أبى بكر لينبذ بها عهد المشركين، فلما سار غير بعيد نزل جبرئيل (ع) على رسول اللّه (ص) وقال: إن اللّه يقرئك السلام ويقول لك: لا يؤدّى عنك إلا أنت أو رجل منك.

فاستدعى رسول اللّه (ص) علياً (ع) وقال له: اركب ناقتى العضباء وألحق أبابكر، فخذ براءة من يده وامض بها إلى مكة وانبذ بها عهد

المشركين إليهم.

فركب على (ع) ناقة رسول اللّه (ص) العضباء وسار حتى لحق بأبى بكر وأخذ منه براءة، فرجع أبو بكر إلى المدينة، فلما دخل على رسول اللّه (ص) قال: يا رسول اللّه انك أهّلتنى لأمر طالت الأعناق إليه، فلما توجّهت له رددتنى عنه، مالى أنزل فىّ قرآن؟

فقال له رسول اللّه (ص): ان الأمين جبرئيل هبط إلىّ عن اللّه عزّ وجل يقول: بأنه لا يؤدّى عنك إلا أنت أو رجل منك، وعلى (ع) منّى، ولا يؤدّى عنى إلا على (ع).

ثم انّ علياً (ع) سار ببراءة حتى أذّن بها بعرفة والمزدلفة ويوم النحر عند الجمار، وفى أيام التشريق، فكان هو المؤذّن، أذّن بأذان اللّه ورسوله يوم الحجّ الأكبر فى المواقف كلها، وكان ما نادى به: ألا لا يطوف بالبيت بعد هذا العام عريان، ولا يقرب المسجد الحرام بعد هذا العام مشرك، ومن كان له عهد فإلى مدّته، ومن لم يكن له عهد فإلى أربعة أشهر، ويحتج بقوله تعالى: (براءة من اللّه ورسوله إلى الّذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر)(۱).

ولما دخل مكة اخترط سيفه وقال: واللّه لا يطوف بالبيت عريان إلا ضربته بالسيف، حتى ألبسهم الثياب فطافوا وعليهم الثياب، وكان الطواف بالبيت عرياناً مما قد تعارف فى الجاهلية، فاستساغوه مع ما عليه من القبح والهتك لحرم اللّه سبحانه وتعالى، ولذلك نزلت براءة بكل قاطعية ونفّذها على (ع) بلا تهاون حتى استطاع قلع الناس عنه.

كتاب ملوك حمير إليه (ص)

وعند رجوعه (ص) من تبوك سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة قدم عليه كتاب من ملوك حمير، وهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان بن قَيل ذى رعين وهمدان ومعافر مع رسولهم وفيه خبر إسلامهم، وبعث زرعة ذو يزن إلى رسول اللّه (ص) مالك بن مرة الرهاوى بإسلامه ومفارقتهم الشرك وأهله، وقد كان رسول اللّه (ص) فى مسيره إلى تبوك يقول: إنى بشرت بالكنزين فارس والروم، وأمددت بالملوك ملوك حمير يأكلون فى اللّه ويجاهدون فى سبيل اللّه، فلما قدم مالك بن مرة بإسلامهم كتب (ص) إليهم:

بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه النبى، إلى الحارث بن عبد كلال، وإلى نعيم بن عبد كلال، وإلى النعمان بن قَيل ذى رعين وهمدان ومعافر، أما بعد: فإنى أحمد إليكم اللّه الذى لا إله إلا هو، فإنه قد وقع بنا رسولكم عند منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قلتم وأنبأنا بإسلامكم، وأنّ اللّه قد هداكم بهداه، إن أصلحتم وأطعتم اللّه ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس اللّه وسهم النبى وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة وبيّن (ص) لهم صدقة الزرع والإبل والبقر والغنم..

ثم قال (ص): فمن زاد فهو خير له، ومن أدّى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وله ذمة اللّه ورسوله، وانه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنّ له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على يهوديّته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أُنثى حرّ أو عبد دينار وافٍ من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً، فمن أدّى ذلك إلى رسول اللّه فإنّ له ذمّة اللّه وذمّة رسوله، ومن منعه فإنه عدوّ للّه ولرسوله.

وجاء فيما كتبه (ص) إلى زرعة: أما بعد: فإنّ محمداً النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن أن إذا أتاكم رسلى فأُوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل وعبداللّه بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم، وإن جمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم فأبلغوها رسلى، وان أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبنّ إلا راضياً.

وجاء فيما كتبه (ص) إليه أيضاً: أما بعد: فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا اللّه وأنه عبده ورسوله. ثم ان مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين، فأبشر بخير، وآمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإنّ رسول اللّه هو

مولى غنيّكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحلّ لمحمد ولا لأهل بيته، انما هى زكاة يزكى بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل، وإنّ مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيراً، وإنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى، وأولى دينهم وأولى عملهم، وآمركم بهم خيراً فإنه منظور إليهم، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

سرية خالد إلى نجران

ثم انه لما فتح رسول اللّه (ص) مكة وانقادت له العرب، وأرسل رسله إلى الأُمم، وكاتب كسرى وقيصر يدعوهما إلى الإسلام، أكبر شأنه نصارى نجران وخلطاؤهم على اختلافهم فى دين النصرانية، من المارونية، والنسطورية، والملكائية، وغيرها، وامتلأت قلوبهم على تفاوت منازلهم رهبةً ورعباً، وانهم كذلك إذ وردت عليهم رسل رسول اللّه (ص) بكتابه يدعوهم إلى الإسلام، فازداد القوم لذلك قلقاً واضطراباً واجتمعوا فى أعظم كنائسهم للمشورة.

فقام رؤساء القوم وكبارهم ومن كانوا يرون سيادتهم على الناس فى بقاء نصرانيتهم، فأشاروا عليهم بعدم الإستجابة وعدم الرضوخ والجزية، والإستمداد من الروم والإستعداد للحرب والزحف على المدينة.

وقام آخرون من ذوى العقل والإنصاف، وأشاروا عليهم بدراسة ما أوحى اللّه عزّوجل إلى المسيح من نعت محمد رسول اللّه (ص) وصفته وملك أُمته وذكر ذرّيته وأهل بيته (عليهم السلام).

وحضر نفر من أصحاب رسول اللّه (ص) شورهم بطلب من بعض رؤسائهم، فلما قُرىء على القوم ما أوحى اللّه عزّوجل إلى المسيح من نعت محمد رسول اللّه (ص) انحاز القوم إلى رأى ذوى العقل والإنصاف وسألوهم ما يعملون؟

فقالوا لهم: تمسّكوا بدينكم حتى نسير إلى المدينة وننظر ما جاء به وما يدعو إليه، ثم توجّهوا فيما يقرب من مائة شخص إلى المدينة.

وهنا لما أبطأ الأصحاب واستراث رسول اللّه (ص) خبر أصحابه أنفذ إليهم خالد بن الوليد فى خيل سرحها معه لمشارفة أمرهم، فألفوهم وهم متوجّهون إلى المدينة، فرجعوا معهم إلى المدينة.

اضطراب نصارى نجران

وقيل: انما تحرك وفد نصارى نجران إلى المدينة لأنّ رسول اللّه (ص) كتب إلى أهل نجران: باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد: فإنى أدعوكم إلى عبادة اللّه من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية اللّه من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب الإسلام.

فلما أتى إلى الأُسقف الكتاب فقرأه قطع به وذعر ذعراً شديداً، فبعث به إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة، وكان من أهل همدان، ولم يكن أحد يدعى إذا نزلت معضلة قبله، لا الأيهم ولا السيد ولا العاقب، فدفع إليه الأُسقف كتاب رسول اللّه (ص) فقرأه.

فقال الأُسقف: يا أبا مريم ما رأيك؟

فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد اللّه إبراهيم فى ذرّيّة اسماعيل من النبوّة، رأيى لو كان من أمر الدنيا أشرت عليك فيه برأى وجهدت لك فيه.

فقال الأُسقف: تنحَ فاجلس، ثم دعا الأُسقف رجلاً آخر منهم، يقال له: عبداللّه بن شرحبيل وهو من ذى أصبح، فقال مثل قول شرحبيل، فبعث إلى آخر، يقال له: جبار بن فيض من بنى الحارث بن كعب، فقال له مثل قول شرحبيل وعبداللّه.

فلما اجتمع الرأى على تلك المقالة جميعاً أمر الأُسقف بالناقوس فضرب به ورفعت المسوح فى الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا نزل أمر بالنهار، وإذا فزعهم ليلاً ضربوا بالناقوس ورفعت النيران فى الصوامع، فاجتمع أهل الوادى أعلاه وأسفله، وطول الوادى مسيرة

يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية ومائة ألف وعشرون مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول اللّه (ص) وسألهم عن الرأى فيه، فاجتمع رأى أهل الوادى منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمدانى وعبداللّه بن شرحبيل وجبار بن قيس الحارثى فيأتونهم بخبر رسول اللّه(ص).

نصارى نجران فى المدينة

فلما قدم نصارى نجران المدينة وفدوا على رسول اللّه (ص) وهم على قول ستّون راكباً، منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر يؤوّل إليهم أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبدالمسيح، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة ابن علقمة أخو بكر بن وائل أُسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه وموّلوه وخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم.

فلما توجهوا إلى رسول اللّه (ص) من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له متوجّهاً إلى رسول اللّه (ص)، وإلى جنبه أخ له يقال له: كرز بن علقمة يسايره، إذ عثرت بغلة أبى حارثة، فقال له كرز: تعس الأبعد.

فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست.

فقال: ولمَ يا أخى؟

قال: واللّه إنه للنبىّ الأُمىّ الذى ينتظرونه.

فقال له كرز: فما يمنعك وأنت تعلم هذا؟

فقال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا وموّلونا وكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا عنا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك.

فحضرت صلاتهم وهم فى المسجد، فأقبلوا يضربون بالناقوس وقاموا لصلاتهم.

فقال أصحاب رسول اللّه (ص): يا رسول اللّه هذا فى مسجدك؟

فقال (ص): دعوهم.

فلما فرغوا دنوا من رسول اللّه (ص) وقالوا: إلى ما تدعو؟

قال (ص): إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه، وانى رسول اللّه، وانّ عيسى عبد مخلوق يأكل ويشرب ويحدث.

قالوا: فمن أبوه؟

فنزل الوحى على رسول اللّه (ص) فقال: قل لهم: ما تقولون فى آدم؟ أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب، ويحدث وينكح؟ فسألهم رسول اللّه (ص) ذلك.

فقالوا: نعم.

فقال: من أبوه؟

فبهتوا وبقوا ساكتين لا يحيرون جواباً.

فأنزل اللّه تعالى: (إنَّ مثل عيسى عند اللّه كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة اللّه على الكاذبين)(۲).

المباهلة: الحل الأخير

ولما نزلت هـذه الآيات وأمر اللّه فيها رسوله (ص) بأن يباهل نصارى نجران، دعاهم رسول اللّه (ص) إلى أن يباهلوه، وذلك لأنهم قد افحموا فى منـاظرتهم، ووقفوا على خطـأهم، غير ان تعصـبهم لم يسـمح لهم بأن يـذعنوا للحق الـذى عرفوه فى قرارة أنفسـهم، ولم يبق سوى أن يروا الحق بأُم أعينهم، وذلك بالإبتهال إلى اللّه تعالى فى أن ينزل عذابه على المبطل منهما.

ولـذلك قـال لهم رسول اللّه (ص): بـاهلونى، فـإن كنت صادقـاً نزلت اللعنـة عليكم، وإن كنت كاذباً نزلت علىّ، وحيث لم ير نصارى نجران لأنفسهم طريقاً غير ذلك، ولم يشهدوا مناصفة كهذه قالوا: أنصفت، ثم تواعدوا للمباهلة.

تزلزل النصارى

ومن الواضـح: انه لا يتجرّأ أحد على أن يدعو أحداً للمباهلة إلّا وهو على يقين من حقانيته، ولذلك لما دعى رسول اللّه (ص) نصارى نجران للمباهلة، وتواعدوا لها، أُوجسوا فى أنفسهم خيفة.

فلما رجعوا إلى منازلهم قال رؤساؤهم: السـيد والعاقب والأهتم: انه لو لم يكن نبياً حقاً لما دعانا إلى المباهلـة، ثم جعلوا لـذلك علامة وقالوا: إن باهلنا بقومه باهلناه، فإنه ليس بنبىّ، وإن باهلنا بأهل بيته خاصة فلا نباهله، فإنه لا يقدم على أهل بيته إلا وهو صادق.

تفسير عملى لآية المباهلة

فلما أصـبح الصـباح من اليوم الرابع والعشـرين من شـهر ذى الحجّة من السـنة التاسـعة للهجرة النبوية المباركة خرج نصارى نجران إلى موعـدهم، وخرج رسول اللّه (ص) آخـذاً بيـد على (ع)، والحسن والحسـين (ع) بين يـديه، وفاطمـة (ع) تتبعه، وهو (ص) يقول: هؤلاء أبناؤنا: الحسن والحسين، وهذه نساؤنا: فاطمة(۳) وهذا أنفسنا: على.

وقد سأل النصارى عنهم وقالوا: من هؤلاء؟

فقيل لهم: هذا ابن عمه ووصيّه وختنه على بن أبى طالب (ع)، وهذه ابنته فاطمة (ع)، وهذان ابناه الحسن والحسين (ع).

وتقدّم رسول اللّه (ص) بهم فجثا لركبتيه وجعل علياً (ع) بين يديه، وفاطمة بين كتفيه، والحسن (ع) عن يمينه، والحسين (ع) عن يساره وقال (ص): إذا دعوتُ فأمّنوا، ورفع كفّه إلى السماء وفرَّج بين أصابعه ودعاهم إلى المباهلة.

فلما رأى ذلك أُسـقفهم عبدالمسـيح بن نونان قال: جثا واللّه محمد كما تجثوا الأنبياء للمباهلة، وانى أرى وجوهاً لو دعت اللّه سـبحانه لاستجاب.

وقال شرحبيل: إن كان هذا الرجل نبياً مرسلاً فلاعنّاه لا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك.

فقال له صاحباه: فما الرأى؟

فقال: رأيى أن أحكمه، فإنى أرى رجلاً لا يحكم شططاً أبداً.

فتآمروا فيما بينهم، وقالوا: واللّه إنه لنبىّ، ولئن باهلنا ليسـتجيبنّ اللّه له فيهلكنا، ولا ينجينا شـىء منه إلا أن نسـتقيله، فأقبلوا وقالوا لرسول اللّه (ص): نعطيك الرضا فاعفنا عن المباهلة وأقلنا.

وثيقة صلح نجران

فرجع رسول اللّه (ص) ولم يلاعنهم، فصالحهم على الجزية وأقالهم وكتب لهم هذا الكتاب:

(بسم اللّه الرحمن الرحيم، هـذا مـا كتب محمـد النبى رسول اللّه (ص) لنجران، إذا كـان عليهم حكمه: فى كـل ثمرة وفى كل صـفراء

وبيضاء وسوداء ورقيق فافضل عليهم وترك ذلك كله على ألفى حلة، فى كل رجب ألف حلة، وكل صفر ألف حلة، وكل حلة أوقية ما زادت على الخرج أو نقصت عن الأواقى فبحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بحساب، وعلى نجران مثواة رسلى ومنعهم من عشرين فدونه، ولايحبس رسول فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ذو معذرة، وما هلك مما أعاروا رسولى من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسولى حتى يؤدّيه إليهم، ولنجران وحِشْيتها جوار اللّه وذمّة النبيّ على أنفسهم وسكنهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم، وأن لا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملّتهم، ولا يغير أُسقف من أساقفتهم، ولا راهب من رهبانيتهم، ولا رقة من رقيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم ديـة ولا دم جاهلية ولا يخسرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل فيهم فيسهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا فذمّتى منه بريئة، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر، وعلى ما فى هذه الصحيفة بجوار اللّه وذمّة محمد رسول اللّه حتى يأتى اللّه بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مبتلين بظلم).

ثم قال لهم رسول اللّه (ص): أما والذى بعثنى بالحق لو باهلتكم بمن معى من أهل بيتى ما ترك اللّه على ظهر الأرض نصرانياً إلا أهلكه، ولأضرم اللّه عليكم الوادى ناراً تأجج، ثم ساقها إلى من وراءكم فى أسرع من طرفة العين فحرّقتهم تأجّجاً.

فهبط عليه (ص) جبرئيل وقال له: ان اللّه يقرؤك السلام ويقول لك: وعزّتى وجلالى وارتفاع مكانى، لو باهلت بهؤلاء الذين معك من أهل بيتك أهلَ السماء وأهل الأرض لتساقطت عليهم السماء كسفاً متهافتة، ولتقطّعت الأرضون زبراً سايحة، فلم تستقر عليها بعد ذلك.

عندها رفع رسول اللّه (ص) يديه إلى السماء وعيناه ترمقان إلى على وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال: على من ظلمكم حقكم وبخسنى الأجر الذى افترضه اللّه عليهم فيكم بهلة اللّه تتابع إلى يوم القيامة.

آية المباهلة: وسام من اللّه تعالى

عن على (ع) قال: خرج رسول اللّه (ص) حين خرج لمباهلة النصارى بى وبفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام).

وعن مجاهد قال: قلت لابن عباس: من الذين أراد رسول اللّه (ص) أن يباهل بهم؟

قال: على وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) والأنفس: النبى (ص) وعلى(ع)..

وعن الشعبى قال: قال جابر: (أنفسنا وأنفسكم): رسول اللّه (ص) وعلى(ع)، و(أبناءنا): الحسن والحسين (ع)، و(نساءنا): فاطمة (ع).

وعن سعد بن أبى وقاص انه قال: لما نزل قوله تعالى: (قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم)(۴) دعا رسول اللّه (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال: اللّهمّ هؤلاء أهلى.

وإلى غير ذلك ممّا يدلّ على انّ آية المباهلة وسام من اللّه تبارك وتعالى منحه وخصّه برسوله (ص) وأهل بيته (عليهم السلام) دون سائر خلقه.

سرية البجلى

وفى هذه السنة سنة تسع من الهجرة النبوية المباركة بعث رسول اللّه (ص) جرير بن عبداللّه البجلى إلى تخريب (ذى الخلصة) وهو صنم كان لقبائل من العرب.

وبعث (ص) أيضاً إلى ذى الكلاع فأسلم وأسلمت امرأته خزيمة بنت أبرهة بن الصباح، واسم ذى الكلاع سميفع، وقيل: انه كان قد استعلى أمره حتى ادعى الربوبية.

مع عمرو بن معدى كرب

لما عاد رسول اللّه (ص) من تبوك إلى المدينة قدم إليه عمرو بن معدى كرب وهو من بنى زبيد، ومن الشعراء الفرسان فى الجاهلية: وذلك أوائل السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة، فقال له رسول اللّه (ص): أسلم يا عمرو يؤمنك اللّه من الفزع الأكبر.

قال: وما الفزع الأكبر فإنى لا أفزع؟!

قال (ص): يا عمرو، انه ليس كما تظنّ وتحسب، ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة، فلا يبقى ميّت إلا نشر، ولا حىّ إلّا مات، إلّا ما شاء اللّه، ثم يصاح بهم صيحة اُخرى، فينشر من مات، ويصفّون جميعاً، وتنشقّ السماء وتهدّ الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً، وترمى النار بمثل الجبال شرراً، فلا يبقى ذو روح إلا انخلع قلبه، وذكر ذنبه، وشغل بنفسه، إلا من شاء اللّه، فأين أنت يا عمرو من هذا؟

قال عمرو: ألا إنى أسمع أمراً عظيماً، فآمن باللّه ورسوله وآمن معه من قومه ناس ورجعوا إلى قومهم، ثم ان عمرو بن معدى كرب نظر إلى قاتل أبيه فأخذ برقبته ثم جاء به إلى رسول اللّه (ص) وقال: أعنّى على هذا الفاجر الذى قتل والدى.

فقال له رسول اللّه (ص) بعد أن أمره بإطلاق سراحه: أهدر الإسلام ما كان فى الجاهلية، فاغتاظ عمرو من ذلك وانصرف مرتدّاً، وفى طريقه أغار على قوم من بنى الحارث بن كعب ثم مضى إلى قومه.

سريتان متزامنتان

فلما بلغ ذلك رسول اللّه (ص) استدعى علياً (ع) وأمّره على المهاجرين وأنفذه إلى بنى زبيد، وأرسل خالد بن الوليد فى الأعراب وأمره أن يعمد إلى جعفى بطن من مذحج فإذا التقيا فأمير الناس على (ع).

فسار على (ع) واستعمل على مقدّمته خالد بن سعيد بن العاص، واستعمل خالد على مقدمته أباموسى الأشعرى، فأما جعفى فإنها لما سمعت بالجيش افترقت فرقتين: فرقة ذهبت إلى اليمن، وفرقة انضمّت إلى بنى زبيد.

فبلغ ذلك علياً (ع) فكتب إلى خالد بن الوليد: ان قف حيث أدرككك رسولى، فلم يقف، فكتب (ع) إلى خالد بن سعيد بن العاص: بأن يتعرّض له حتى يحبسه، وأدركه على (ع)، ثم سار حتى لقى بنى زيد بواد يقال له: كِسر.

فلما رآه بنو زيد قالوا لعمرو: كيف أنت إذا لقيك هذا الغلام القرشى فأخذ منك الاتاوة؟

قال عمرو: سيعلم ان لقينى، فخرج عمرو يطلب مبارزاً.

فنهض إليه على (ع) وقام خالد بن سعيد وقال: يا أبا الحسن بأبى أنت واُمّى دعنى اُبارزه.

فقال له على (ع): إن كنت ترى انّ لى عليك طاعة فقف مكانك، فوقف.

ثم برز (ع) إليه فصاح به صيحة، فانهزم عمرو مولّياً، ولكن ثبت أخوه وابن أخيه فقتلا، وأخذت امرأته ركانة بنت سلامة وسبيت نساء منهم.

ثم انصرف على (ع) وخلّف على بنى زبيد خالد بن سعيد ليقبض صدقاتهم، ويؤمّن من عاد إليه من هرابهم مسلماً، فرجع عمرو بن معدى كرب واستأذن على خالد بن سعيد، فأذن له فعاد إلى الإسلام، فكلّمه فى امرأته وولده فوهبهم له، وكان لعمرو سيف يسمّيه: الصمصامة، فلما وهب خالد بن سعيد لعمرو امرأته وولده وهب له عمرو الصمصامة.

سريتان إلى اليمن

ثم ان رسول اللّه (ص) بعث خالد بن الوليد فى السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة، وذلك بعد قصة عمرو بن معدى كرب إلى أهل اليمن ليدعوهم إلى الإسلام، وأنفذ معه جماعة من المسلمين فيهم البراء بن عازب.

فلما وصلها أقام على القوم ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام فلم يجبه أحد.

فدعا رسول اللّه (ص) علياً (ع) وأمره أن يسير إلى اليمن وأن يقفل خالداً ومن معه، وقال له: إن أراد أحد ممن مع خالد أن يعقب معك فاتركه.

قال البراء بن عازب: فكنت ممن عقب معه، فلما بلغ القوم الخبر تجمعوا له، فصلّى بنا على بن أبى طالب (ع) الفجر، ثم تقدّم بين أيدينا فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قرأ على القوم كتاب رسول اللّه (ص) إليهم، فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد، وكتب بذلك على (ع) إلى رسول اللّه (ص).

فلما وصله كتاب على (ع) وقرىء عليه استبشر وابتهج وخرّ ساجداً شكراً للّه تعالى، ثم رفع رأسه وجلس وقال: السلام على همدان، ثم تتابع بعد إسلام همدان أهل اليمن على قبول الإسلام والدخول فيه.

من تعليمات السماء

قال على (ع): بعثنى رسول اللّه (ص) إلى اليمن وقال لى: يا على لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم اللّه لئن يهدى اللّه على يديك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت.

قال (ع): فقلت: يا رسول اللّه تبعثنى وأنا شاب أقضى بينهم؟

فضرب رسول اللّه (ص) بيده فى صدرى وقال: (اللّهمّ اهدِ قلبه، وثبّت لسانه) فوالّذى نفسى بيده ما شككت فى قضاء بين اثنين.

ثم أوصاه وقال له: يا على اُوصيك بالدعاء، فإن معه الإجابة، وبالشكر، فإن معه المزيد، وإياك أن تخفر عهداً وتعين عليه، وأنهاك عن المكر، فإنه لا يحيق المكر السيّئ إلا بأهله، وأنهاك عن البغى، فإنه من بغى عليه لينصرنّه اللّه.

أذى على (ع) أذى رسول اللّه (ص)

وروى عن الفريقين، عن عمرو بن شاس الأسلمى انه قال: كنت مع على ابن أبى طالب (ع) فى خيله إلى اليمن، فلحقنى من على (ع) أمر حسبته جفاءاً منه، فوجدت عليه فى نفسى، فلما قدمت المدينة اشتكيته عند من لقيته من أصحابى.

فوصل ذلك إلى رسول اللّه (ص) فأقبلت يوماً ورسول اللّه (ص) جالس فى المسجد، فنظر إلىّ حتى جلست إليه، فقال (ص): يا عمرو بن شاس لقد آذيتنى.

فقلت: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، أعوذ باللّه أن أكون قد آذيت رسول اللّه.

فقال (ص): (من آذى علياً فقد آذانى)(۵).

سرية اُسامة بن زيد

وكانت هذه آخر سرية بعثها رسول اللّه (ص) فى اُخريات أيامه، وسيأتى ذكرها(۶).

۱ التوبة: ۱ ۲. ۲ آل عمران: ۵۹ ۶۱.

۳ هذا وله (ص) يومئذ عدة نسوة لم يأتِ بإحداهنّ. ۴ آل عمران: ۶۱.

۵ راجع بحار الأنوار: ج ۲۱ ص ۳۶۰ ب ۳۴ ح ۱، وبحار الأنوار: ج ۳۹ ص ۲۳۲ ب ۸۹ ح ۱.

۶ راجع الفصل الأخير من الكتاب.

عام الرُّسُل والوفود

ولما فتح رسول اللّه (ص) مكة فى السنة الثامنة من الهجرة النبوية المباركة، ودانت له قريش، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف، وكذا عاد على بن أبى طالب(ع) من إعلان البراءة فى موسم الحج فى السنة التاسعة من الهجرة النبوية المباركة، أقبلت وفود القبائل العربية من شتى أنحاء الجزيرة تترى على المدينة.

كما وبعث رسول اللّه (ص) رسله إلى الآفاق فى السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة، فكانت الرسل والوفود بين فتح مكة وارتحاله (ص)، كما كانت مراسلاته ومكاتباته مع الملوك والرؤساء بعد صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة النبوية المباركة حتى ارتحاله (ص) أيضاً، وحيث كانت الوفود مستمرة حتى زمن ارتحاله (ص)، لذلك قال (ص) فى وصاياه: (أجيزوا الوفد).

وفد هوازن وثقيف

وكان ممن قدم عليه (ص): وفد هوازن، وقد مرّ ذكرهم، ووفد ثقيف، وذلك انه قدم على رسول اللّه (ص) عروة بن مسعود الثقفى مسلماً، ثم استأذن رسول اللّه (ص) فى الرجوع إلى قومه وإنذارهم، فقال (ص): إنى أخاف أن يقتلوك.

فقال: إنهم إن وجدونى نائماً ما أيقظونى، إشفاقاً منهم علىَّ.

فأذن له رسول اللّه (ص) فرجع إلى الطائف ودعاهم إلى الإسلام ونصح لهم، فعصوه، وأسمعوه الأذى، حتى إذا طلع الفجر قام فى غرفة من داره فأذّن وتشهّد، فرماه رجل بسهم فقتله.

ثم أقبل بعد ذلك وفد ثقيف بضعة عشر رجلاً هم من أشراف ثقيف، فأسلموا وذلك فى قصّة مفصّلة مرّ تفصيلها، ثم دعوا قومهم ثقيف إلى الإسلام، فأسلموا.

فلما أسلمت ثقيف، ضربت إلى رسول اللّه (ص) وفود العرب، فدخلوا فى دين اللّه أفواجاً، كما قال اللّه سبحانه فى سورة النصر:

(بسم اللّه الرحمن الرحيم إذا جاء نصر اللّه والفتح ورأيتَ الناس يدخلون فى دين اللّه أفواجا فسبِّح بحمد ربِّك واستغفره إنَّه كان توّاباً)(۱).

وفد بنى تميم

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى تميم فى جماعة من أشرافهم، منهم: الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، وعيينة بن حصن الفزارى، وعمرو بن الأهتم، وعلى رأسهم: عطارد بن حاجب بن زرارة، وكان الأقرع وعيينة شهدا مع رسول اللّه (ص) فتح مكة وحنيناً والطائف، فلما قدم وفد تميم دخلا معهم، فأجارهم رسول اللّه (ص) وأحسن جوارهم.

وفد بنى عامر

وممّن قدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى عامر بن صعصعة، وفيهم: عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس أخو لبيد بن ربيعة الشاعر لأُمه، وكان عامر وأربد يريدان أن يغدرا برسول اللّه (ص)، فقيل: يا رسول اللّه هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك.

فقال رسول اللّه (ص): دعوه، إن يرد اللّه به خيراً يهده.

فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لى إن أسلمت؟

قال (ص): لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم.

فقال: تجعل الأمر لى بعدك؟

قال (ص): ليس ذلك إلىّ، إنما ذلك إلى اللّه يجعله حيث يشاء.

قال: فاجعلنى على الوبر وأنت على المدر.

قال (ص): لا.

قال: فماذا تجعل لى؟

قال (ص): أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها.

قال: وليس ذلك إلىّ اليوم؟

وقيل: انه لما قدموا عليه قال عامر: يا محمد خالّنى.

فقال (ص): لا، حتّى تؤمن باللّه وحده، قالها مرّتين.

فلما أبى عليه قال عامر: واللّه لأملأنّها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مرداً.

وكان عامر قد قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل فأنا شاغل عنك وجهه، فإذا رأيتنى أُكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف. فدار أربد ليضربه، فاخترط من سيفه شبراً، فحبس اللّه يده، فلم يقدر على ذلك، فالتفت رسول اللّه (ص) فرأى أربد وما يصنع بسيفه..

فلما ولّى قال رسول اللّه (ص): اللّهمّ اكفنى عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، اللّهمّ اكفنيهما بما شئت.

فلما خرجوا من عند رسول اللّه (ص) قال عامر لأربد: أين ما أمرتك به؟

قال: ويحك واللّه ما هممت بالذى أمرتنى به إلا وحلتَ بينى وبينه، أفأضربك بالسيف؟

فأرسل اللّه على أربد وجمله صاعقة فأحرقتهما. وقيل: وأنزل اللّه عزّوجل: (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء)(۲).

وفى رواية: قال عامر: واللّه لأربطن بكل نخلة فرساً.

فقال رسول اللّه (ص): يمنعك اللّه من ذلك وأبناء قيلة، يعنى الأوس والخزرج.

وبعث اللّه على عامر بن الطفيل فى طريقه ذلك الطاعون فى عنقه فقتله فى بيت امرأة من سلول، وكان رسول اللّه (ص) قد قال فى عامر وأربد: اللّهمّ أبدلنى بهما فارسى العرب، فقدم عليه زيد بن مهلل الطائى، وهو زيد الخيل الذى سماه رسول اللّه (ص) زيد الخير، وعمرو بن معدى كرب الذى مرّ ذكره.

وفد طى

وقدم وفد طى على النبى (ص) وفيهم زيد الخيل وهو سيّدهم، وعدىّ بن حاتم، فلما انتهوا إليه (ص) كلمهم وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال (ص): ما ذكر لى رجل من العرب بفضل، ثم جاءنى إلا رأيته دون مايقال فيه، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه، ثم سماه (زيد الخير).

فلما خرج زيد من عند رسول اللّه (ص) راجعاً إلى المدينة قال رسول اللّه(ص): إن ينج زيد من حمى المدينة، فلما انتهى إلى ماء من مياه نجد يقال له فردة أصابته الحمى فمات بها.

وفد زبيد

وقدم وفد بنى زبيد على رسول اللّه (ص) فى المدينة، وفيهم: عمرو بن معدى كرب، وقد مرّت قصته عند ذكر إسلامه فيما سبق.

وقيل: انه قتل فى قتال الفرس.

وفد عبدالقيس

وقدم وفد عبدالقيس على رسول اللّه (ص) وهى قبيلة كبيرة ينسبون إلى عبدالقيس بن أفعمى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، فقال رسول اللّه(ص): ممن القوم؟

قالوا: من ربيعة.

قال (ص): مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى.

فقالوا: يا رسول اللّه إنّ بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام، فمرنا بأمر فصل نأخذ به من ورائنا وندخل به الجنّة.

فقال (ص): آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان باللّه وحده، أتدرون ما الإيمان باللّه؟ شهادة أن لا إله إلا اللّه وأنّ محمداً رسول اللّه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن أربع: الدبّاء، والحنتم، والنقير، والمزفت وكانت هذه الأربعة ظروفاً خاصة يصنع فيها الخمر، فنهاهم رسول اللّه (ص) عن الخمر وعن الشرب فيها، ثم أوصاهم قائلاً: فاحفظوهنّ وادعوا إليهنّ من ورائكم.

قالوا: يا رسول اللّه ما علمك بالنقير؟

قال (ص): بلى، جذع تنقرونه ثم تلقون فيه من التمر ثم تصبون عليه الماء حتى يغلى، فإذا سكن شربتموه، فعسى أن يضرب ابن عمه بالسيف أى: على أثر السكر وفى القوم رجل به ضربة لذلك. قال: وكنت أخبئُها حياءً من رسول اللّه (ص).

قالوا: ففيم نشرب الماء يا رسول اللّه؟

قال (ص): اشربوا فى أسقية الأدم التى تلاث أى تشد على أفواهها.

قالوا: يا رسول اللّه إنّ أرضنا كثيرة الجرذان لا تبقى بها أسقية الأدم.

قال (ص): وإن أكلتها الجرذان (مرتين أو ثلاثاً).

ثم قال رسول اللّه (ص) لأشج عبد القيس: إنّ فيك لخصلتين يحبّهما اللّه: الحلم والأناة.

وفد بنى حنيفة

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى حنيفة، وفيهم مسيلمة الكذاب الذى ارتدّ وادّعى النبوّة فيما بعد، وكانوا قد خلّفوا مسيلمة فى رحالهم، فلما أسلموا ذكروا له (ص) مكانه فقالوا: يا رسول اللّه إنا قد خلّفنا صاحباً لنا فى رحالنا وركابنا، فأمر له رسول اللّه (ص) بما أمر للقوم، ثم انصرفوا وجاءوه بالذى أعطاه.

فلما قدم مسيلمة اليمامة ارتدّ على عقبه وتنبّأ وقال: إنى أُشركت فى الأمر معه، ثم جعل يسجع السجعات فيقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: (لقد أنعم اللّه على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى) ووضع عنهم الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا ونحو ذلك، وكان مسيلمة الكذاب هذا صاحب يمامة، كما كان العنسى الكذاب صاحب صنعاء هو الآخر أيضاً الذى ادّعى النبوّة، وكذلك كانت سجاح التى ادّعت النبوّة كذباً، فأخزاهم اللّه جميعاً وأذلّهم.

وقيل: انه كتب مسيلمة لرسول اللّه (ص):

(من مسيلمة رسول اللّه إلى محمد رسول اللّه، أما بعد: فإنى قد أشركت فى الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، وليس قريش قوماً يعدلون).

فقدم عليه رسوله بهذا الكتاب، فكتب إليه رسول اللّه (ص): (بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللّه إلى مسيلمة الكذّاب، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد فإن الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتّقين).

وعن ابن عباس قال: لما قدم مسيلمة الكذاب على رسول اللّه (ص) فجعل يقول: إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتّبعته، وقدمها فى بشر كثير من قومه.

فأقبل النبى (ص) ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفى يد النبى (ص) قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال: إن

سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعد أمر اللّه فيك، ولئن أدبرت ليعقرنّك اللّه.

وقيل: انه (ص) قال: وإن أراك الذى رأيت فيه ما رأيت، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عنى، ثم انصرف.

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول اللّه (ص): وإن أراك الذى رأيت فيه ما رأيت، فأخبرنى أن النبى (ص) قال: بينا أنا نائم رأيت رؤيا، فأوحى إلىَّ فى المنام: أن كذّابين يخرجان من بعدى: أحدهما العنسى صاحب صنعاء، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة.

وفد كندة

وقدم وفد كندة على رسول اللّه (ص) فى ثمانين راكباً، وفيهم: الأشعث بن قيس، فدخلوا عليه (ص) مسجده وقد رجّلوا (أى: مشطوا) جممهم وتكحلوا، وعليهم جبات الحبرات مكفوفة بالحرير.

فلما دخلوا قال رسول اللّه (ص): أو لم تسلّموا؟

قالوا: بلى.

قال (ص): فما هذا الحرير فى أعناقكم؟ فشقّوه ونزعوه منها، فألقوه.

وفد بنى مراد

وقدم فروة بن مسيك المرادى مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لها إلى رسول اللّه(ص)، فقال له رسول اللّه (ص): هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟ وقد كان بين مراد وهمدان وقعة قبل الإسلام أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتى أثخنوهم فى يوم كان يقال له يوم الردم.

فقال: من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم ولا يسوؤه ذلك؟

فقال له رسول اللّه (ص): أما إنّ ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيراً، واستعمله على مراد وزبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه فى بلاده حتى توفى رسول اللّه (ص).

ولما توجّه فروة بن مسيك إلى رسول اللّه (ص) مفارقاً كندة قال:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت كالرِّجل خان الرِّجل عرق نسائها

يمّمت راحلتى أؤم محمدا أرجو فواضلها وحسن ثرائها

وفد الأشعريين

وقدم على رسول اللّه (ص) الأشعريون من أهل اليمن، وروى ان رسول اللّه (ص) قال قبل قدومهم: سوف يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوباً، فقدم الأشعريون، فجعلوا يرتجزون ويقولون:

غداً نلقى الأحبّة محمداً وحزبه

وفد أهل اليمن

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد من أهل اليمن فقالوا: يا رسول اللّه جئنا لنتفقّه فى الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر.

فقال لهم رسول اللّه (ص): كان اللّه ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء، وكتب فى الذكر كل شىء.

وفد أزد

وقدم على رسول اللّه (ص) صرد بن عبداللّه الأزدى فأسلم وحسن إسلامه، فأمّره رسول اللّه (ص) على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن.

فخرج يسير بأمر رسول اللّه (ص) حتى نزل بجرش وهى يومئذ مدينة كان يقطن بها بعض قبائل العرب، قال: وقد ضوت اليهم خثعم فدخلوا معهم حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم فحاصروهم قريباً من شهر، وامتنعوا فيها فرجع عنهم قافلاً حتى إذا كان فى جبل لهم، ظن أهل جرش انه انما ولى عنهم منهزماً، فخرجوا فى طلبه حتى إذا أدركوه، فوقع القتال بينهم.

وقيل: انه قد كان أهل جرش بعثوا إلى رسول اللّه (ص) رجلين منهم يرتادان وينظران، فبينما هما عند رسول اللّه (ص) عشية بعد العصر، إذ قال رسول اللّه (ص): بأى بلاد اللّه شكر؟

فقام الجرشيان فقالا: يا رسول اللّه ببلادنا جبل يقال له كسر، وكذلك يسميه أهل جرش.

فقال (ص): إنه ليس بكسر ولكنه شكر.

قالا: فما شأنه يا رسول اللّه؟

قال (ص): إن بدن اللّه لتنحر عنده الآن.

قال: فجلس الرجلان إلى أحد الصحابة فقال لهما: ويحكما إن رسول اللّه (ص) لينعى لكما قومكما، فقوما فاسألاه أن يدعو اللّه أن يرفع عن قومكما.

فقاما إليه فسألاه ذلك، فقال (ص): اللّهمّ ارفع عنهم.

فخرجا من عند رسول اللّه (ص) راجعين إلى قومهما فوجدا قومهما قد أُصيبوا فى اليوم الذى قال فيه رسول اللّه (ص) ما قال، وفى الساعة التى ذكر فيها ما ذكر، فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول اللّه (ص) فأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم.

وفد بجيلة

وقدم على رسول اللّه (ص) جرير بن عبداللّه البجلّى ومعه مائة وخمسون رجلاً من قومه، فقال رسول اللّه (ص) قبل قدومه: يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن، على وجهه مسحة ملك، فطلع جرير على راحلته ومعه قومه، فأسلموا وبايعوا.

وفد بنى كعب

وقدم وفد بنى الحارث بن كعب على رسول اللّه (ص) وفيهم: قيس بن الحصين، فسلّموا عليه وقالوا: نشهد أن لا إله إلا اللّه وانّك رسول اللّه.

فقال لهم رسول اللّه (ص): وأنا أشهد أن لا إله إلا اللّه وانّى رسول اللّه، ثم قال لهم: بم كنتم تغلبون من قاتلتم فى الجاهلية؟

قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرّق، ولا نبدأ أحداً بظلم.

قال (ص): صدقتم، وأمّر عليهم قيس بن الحصين، فرجعوا إلى قومهم، ثم بعث إليهم رسول اللّه (ص) بعد ذلك عمرو بن حزم الأنصارى ليفقّههم فى الدين، ويعلّمهم السنّة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقاتهم.

وفد همدان

وقدم عليه (ص) وفد همدان، وفيهم: مالك بن النمط ومالك بن أيفع وضمام بن مالك، وعمرو بن مالك فلقوا رسول اللّه (ص) وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية على الرواحل المهرية، ومالك بن النمط يرتجز بين يدى رسول اللّه (ص) ويقول:

همدان خير سوقة وأقيال ليس لها فى العالمين أمثال

محلها الهضب ومنها الأبطال لها اطابات بها وأكال

ويقول الآخر:

إليك جاوزن سواد الريف فى هبوات الصيف والخريف

مخطمات بحبال ليف

وذكروا له كلاماً كثيراً حسناً فصيحاً، فكتب لهم رسول اللّه (ص) كتاباً وأمر عليهم مالك بن النمط.

وفد مزينة

وقدم وفد مزينة على رسول اللّه (ص) وفيهم: النعمان بن مقرن.

قال النعمان: قدمنا على رسول اللّه (ص) أربعمائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال (ص): (زوّدوا القوم) فزوّدونا بتمر كثير.

وقيل: انه (ص) قال لبعض أصحابه: زوّد القوم.

فقال: ما عندى إلا شيء من تمر، ما أظنه يقع من القوم موقعاً.

قال (ص): إنطلق فزوّدهم.

فانطلق بهم فأدخلهم منزله ثم أصعدهم إلى علية، فلما دخلوا إذا فيه من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم.

قال النعمان: وكنت فى آخر من خرج، فنظرت وما أفقد موضع تمرة من مكانها.

وفد نجران

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد نصارى نجران وفيهم: السيد والعاقب والأتهم، وآل أمرهم إلى المباهلة فأحجموا عنها وقبلوا الجزية، فكتب لهم رسول اللّه (ص) كتاب صلح، وذلك فى قصة مفصّلة مرّ ذكرها فى حديث المباهلة.

وفد ملوك حمير

وقدم على رسول اللّه (ص) وافد ملوك حمير: مالك بن مرة بكتابهم إليه(ص)، وبإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، فكتب لهم رسول اللّه (ص) كتاباً وأرسله إليهم مع رسولهم مالك بن مرة وأوصاهم به خيراً، وقد سبق تفصيله.

وفد جماعة الأعراب

وقدم على رسول اللّه (ص) أُهيب بن سمّاع وكان كبير قوم من الأعراب.

قال الراوى: كان رسول اللّه (ص) يوماً جالساً فى نفر من أصحابه، وقد صلّى الغداة، إذ أقبل أعرابى على ناقة له حتى وقف بباب المسجد فأناخها ثم عقلها ودخل المسجد يتخطّى الناس والناس يوسّعون له، وإذا هو رجل مديد القامة، عظيم الهامة، متعجّر بعمامة، فلما مثل بين يدى رسول اللّه (ص) أسفر عن لثامه، ثم همّ أن يتكلّم فارتجّ، ثمّ همّ أن يتكلّم فارتجّ، حتى اعترضه ذلك ثلاث مرات.

فلما رآه رسول اللّه (ص) وقد ركبه الزمع أى: الدهشة لهى عنه بالحديث ليذهب عنه بعض الذى أصابه، وقد كسا اللّه نبيه (ص) جلالة وهيبة، فلما أنس وفرّخ روعه قال له النبى (ص): قل للّه أنت، ما أنت قائل، فأنشد أبياتاً اعتذاراً عما أصابه.

فاستوى رسول اللّه (ص) جالساً وقد كان متكئاً ثم قال له: أنت أُهيب بن سماع؟ ولم يره قطّ قبل ذلك.

فقال: أنا أُهيب بن سماع، الآبى الدفّاع، القوى المنّاع.

قال (ص): أنت الذى ذهب جلّ قومك بالغارات، ولم ينفضوا رؤوسهم من الهفوات، إلا منذ أشهر وسنوات؟

قال: نعم أنا ذاك.

قال (ص): أتـذكر الأزمـة التى أصابت قومك، احرنجم لها الزيـخ، وأخلف نوء المرّيـخ، وامتنعت السـماء، وانقطعت الأنواء، واحترقت العنمة، وخفّت البرمة، حتى ان الضـيف لينزل بقومك وما فى الغنم عرق ولا غزر، فترصدون الضب المكنون فتقتنصونه؟ وكأنك قلت فى طريقك إلىّ: لتسألنى عن حلّ ذلك وعن حرمته؟ ألا ولا حرج على مضطرّ، ومن كرم الأخلاق برّ الضيف؟

قـال: فقـال اُهيب: لاـ واللّه لا أطلب أثراً بعـد عين، لكأنّك كنت معى فى طريقى وشـريكى فى أمرى، أشـهد أن لا إله إلا اللّه، وأنّك محمداً رسول اللّه، ثم قال: يا رسول اللّه زدنى شرحاً وبياناً ازدد بك إيماناً.

فقال له رسول اللّه (ص): أتـذكر إذ أتيت صـنمك فى الظهيرة، فعترت له العتيرة وهى الذبيحـة كانت تذبح للأصـنام فيصبّ دمها على رأسها ؟

فقـال اُهيب: نعم بـأبى أنت واُمّى يـا رسول اللّه، ان الحـارث بن أبى ضـرار جمع لـك جموعـاً ليـدهمك بالمدينـة، واسـتعان بى على حربك، وكان لى صـنم يقال له: واقب، فرقبت خلوته، وقممت ساحته، ثم نفضت التراب عن رأسه، ثم عترت له عتيرة، فإنى لأستخبره فى أمرى، وأستشيره فى حربك، إذ سمعت صوتاً قفّ له شعرى، واشتدّ منه ذعرى، فولّيت عنه وهو يقول:

اُهيب ما لك تجزع لا تنأ عنّى وارجع

واسمع مقالاً ينفع جاءك ما لا يدفع

بنى صدق أروع فاقصد إليه واسْرع

تأمن وبال المصرع وهول يوم المطلع

قال اُهيب: فأتيت أهلى ولم اُطلع أحـداً على أمرى، فلما كان من الغد أتيته فى الظهيرة فرقبت خلوته، وقممت ساحته، وعترت له عتيرة، ثم جسدته بدمها، فبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتاً هائلاً، فولّيت عنه هارباً وهو يقول كلاماً فى معنى كلامه الأول.

قال: فلما كان من غد ركبت ناقتى، ولبست لامتى، وتكبّدت الطريق حتى أتيتك.

عندها قال النبى (ص) لعلى (ع): يا على خذ بيد اُهيب وعلّمه القرآن، فأقام عندهم حتى حذق شيئاً من القرآن وتعلّم أحكام الإسلام.

۱ النصر: ۱ ۳. ۲ الرعد: ۱۳.

وفد دوس

وقد قدم وفد دوس قبل عام الوفود، وكان قدومهم بخيبر.

وفد فروة بن عمرو الجذامى

وقـدم وافـد فروة بن عمرو الجـذامى على رسول اللّه (ص) بإسـلام فروة بن عمرو الجـذامى وإيصال هديته إليه بغلة بيضاء، وكان فروة عاملاً للروم على ما يليهم من العرب، وكان منزله (معان) فلما بلغ الروم ذلك طلبوه حتى أخذوه فحبسوه ثم صلبوه وقتلوه.

وفد بنى سعد

وقدم وفد بنى سعد بن بكر على رسول اللّه (ص) وفيهم: ضمام بن ثعلبة.

قـال الراوى: بينمـا نحن جلوس مع النبى (ص) فى المسـجد، إذ دخل جماعـة ومعهم رجل على جمل فأناخه فى المسـجد، ثم عقله ثم التفت إلينا وقال: أيكم محمد؟ والنبى (ص) متكىء بين ظهرانينا.

فقلنا وقد أشرنا إليه (ص): هذا.

فالتفت الرجل إليه وقال: يابن عبدالمطلب؟

فقال له النبى (ص): قد أجبتك.

قال الرجل: إنى سائلك ومشدد عليك فى المسألة فلا تجد علىّ فى نفسك.

فقال (ص): سل عما بدا لك.

قال: أسألك بربّك وربّ من قبلك، آللّه أرسلك إلى الناس كلهم؟

فقال (ص): اللّهمّ نعم.

فقال: نشدتك باللّه، آللّه أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟

قال (ص): اللّهمّ نعم.

قال: نشدتك باللّه، آللّه أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا وتقسّمها على فقرائنا؟

قال (ص): اللّهمّ نعم.

فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائى من قومى مع هذه الجماعة، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر.

فأجازهم رسول اللّه (ص) كما يجيز كل وفد وأكرمهم، ثم انصرفوا وانصرف معهم الرجل راجعاً إلى بعيره.

فقال رسول اللّه (ص) حين ولّى: إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنّة، وكان ضمام رجلاً جلداً أشقر ذا غديرتين، ثم أتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج، حتى قدم على قومه بجماعته فاجتمعوا إليه، وكان أول ما تكلّم به أن قال: بئست اللات والعزّى.

فقالوا: مه يا ضمام.

فقال: ويلكم انهما ما يضرّان ولا ينفعان، وإن اللّه قد بعث رسولاً وقد أنزل عليه كتاباً استنقذكم مما كنتم فيه، وإنى أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنّ محمداً عبده ورسوله، وانى جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه.

قال الراوى: فواللّه ما أمسى فى ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

وفد طارق

وقدم وفد طارق بن عبداللّه وقومه، قال طارق: دخلنا المدينة فدخلنا المسجد، فإذا هو (ص) قائم على المنبر يخطب، فأدركنا من خطبته وهو يقول: (تصدّقوا فإن الصدقة خير لكم، اليد العليا خير من اليد السفلى، اُمك وأباك، واُختك وأخاك).

وفد نجيب

وقدم وفد نُجيب على رسول اللّه (ص) وهم من السكون ثلاثة عشر رجلاً قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض اللّه عليهم.

فقال لهم رسول اللّه (ص): ردّوها فاقسموها على فقرائكم.

فقالوا: يا رسول اللّه ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، ثم جعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، ورسول اللّه (ص) يجيبهم عما يسألونه.

ثم أمر (ص) بلالاً أن يحسن ضيافتهم، فلما أرادوا أن ينصرفوا أمر (ص) بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود.

وقيل: انه (ص) قال: هل بقى منكم أحد؟

قالوا: غلام خلّفناه على رحالنا.

قال (ص): أرسلوه إلينا.

فجاء الغلام فقال: يا رسول اللّه، إنّ حاجتى ليست كحاجة أصحابى، إنى واللّه ما حملنى من بلادى إلا أن تسأل اللّه أن يغفر لى

ويرحمنى ويجعل غناى فى قلبى.

قال رسول اللّه (ص): اللّهمّ اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه، ثم أمر (ص) له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ووافوا رسول اللّه (ص) فى الموسم بمنى سنة عشر، فقالوا: نحن بنو أيدى.

فقال (ص): ما فعل الغلام الذى أتانى معكم؟

قالوا: يا رسول اللّه ما رأينا مثله قطّ، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه اللّه، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها.

فقال (ص): الحمد للّه.

قالوا: فعاش ذلك الرجل فينا على أفضل حال وأزهده فى الدنيا وأقنعه بما رزق، فلما توفى رسول اللّه (ص) ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام قام فى قومه، فذكّرهم اللّه والإسلام.

وفد بنى سعد

وقدم وفد بنى سعد هذيم بن قضاعة، وهم من أهل اليمن.

وفد بنى فزارة

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى فزارة بضعة عشر رجلًا، فيهم: خارجة بن حصن، والحر بن قيس بن أخى عيينة بن حصن وهو أصغرهم، فنزلوا فى دار بنت الحارث، وجاءوا رسول اللّه (ص) مقرّين بالإسلام، وهم مسنتون على ركاب عجاف، فسألهم رسول اللّه (ص) عن بلادهم.

فقال أحدهم: يا رسول اللّه استنت بلادنا، وهلكت مواشينا، وجدبت جناننا، وغرث عيالنا، فادع لنا ربّك يغيثنا، وتشفع لنا إلى ربّك.

فصعد رسول اللّه (ص) المنبر ودعى لهم فكان مما حفظ من دعائه: (اللّهمّ اسق عبادك وانشر رحمتك وأحى بلادك، اللّهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً مريحاً مريعاً طبقاً واسعاً عاجلًا غير آجل، نافعاً غير ضارّ، اللّهمّ سقيا رحمة لا سقيا عذاب، ولا هدم، ولا غرق، ولا محق، اللّهمّ اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء).

فرجعوا وقد استجيب فيهم دعاء رسول اللّه (ص).

وفد بنى أسد

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى أسد، وفيهم: وابصة بن معبد وطليحة بن خويلد، ورسول اللّه (ص) فى المسجد مع أصحابه، فتكلّموا وقالوا: يا رسول اللّه إنا شهدنا أن لا إله إلا اللّه وأنّك رسوله وجئناك ولم تبعث إلينا بعثاً، فأنزل اللّه على رواية: (يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا علىَّ إسلامكم)(۱) الآية.

وكان مما سألوا رسول اللّه (ص) عنه: العيافة والكهانة وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك كلّه.

وفد بهراء

وقدم وفد بهراء من اليمن على رسول اللّه (ص) وكانوا ثلاثة عشر رجلًا، ونزلوا على المقداد بن عمرو وأقاموا أياماً وتعلموا الفرائض، ثم ودّعوا رسول اللّه(ص) لينصرفوا إلى بلادهم، وعند توديعهم له (ص) أمر لهم بالجوائز وانصرفوا إلى بلادهم.

وفد عذرة

وقدم وفد عذرة، وكانوا اثنى عشر رجلاً، منهم حمزة بن النعمان، فقال رسول اللّه (ص): من القوم؟

فقال متكلّمهم: ممن لا تنكر، نحن بنو عـذرة إخوة قصـى لأُمه، نحن الـذين عضدوا قصـياً وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر، ولنا قرابات وأرحام.

فقـال رسول اللّه (ص): مرحبـاً بكم وأهلاً، فأسـلموا، وبشّـرهم رسول اللّه(ص) بفتـح الشام وهروب هرقل إلى ممتنع من بلاده، ونهاهم عن سؤال الكاهنة وعن الذبائح التى كانوا يذبحونها، وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية، ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد أُجيزوا.

وفد بلّى

وقـدم وفـد بَلىّ على رسول اللّه (ص) فنزلوا على رويفع بن ثابت البلوى، فقال رسول اللّه (ص): الحمد للّه الذى هداكم إلى الإسـلام، ثم ودَّعوا رسول اللّه (ص) بعد أن أجازهم.

وقال (ص) له أبو الضبيب شيخ الوفد: يا رسول اللّه إنّى رجل فىّ رغبة من الضيافة، فهل لى فى ذلك أجر؟

قال (ص): نعم، وكل معروف صنعته إلى غنىّ أو فقير فهو صدقة.

قال: يا رسول اللّه كم وقت الضيافة؟

قال (ص): ثلاثة أيام، ما كان بعد ذلك فصدقة، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك حتى يحرجك.

وفد ذى مرة

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد ذى مرة، وكانوا ثلاثة عشر، ورئيسهم الحارث بن عرف.

فقال رسول اللّه (ص): كيف البلاد؟

فقالوا: واللّه إنا لمسنتون، فادع اللّه لنا.

فقال (ص): اللّهمّ اسـقهم الغيث، ثم أقاموا أياماً ورجعوا بالجائزة، ووجـدوا بلادهم قد أُمطرت فى ذلك اليوم الذى دعا لهم فيه رسول اللّه (ص).

وفد خولان

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد خولان وكانوا عشرة مسلمين، فقال(ص): ما فعل صنم خولان الذى كانوا يعبدونه؟

قـالوا: أبـدلنا اللّه مـا جئت به، إلا أن عجوزاً وشـيخاً كبيراً يتمسّـكان به، وإن قـدمنا عليه هـدمناه إن شاء اللّه، ثم علمهم فرائض الـدين، وأمرهم بالوفاء بالعهد والأمانة وحسن الجوار، وأن لا يظلموا، ثم أجازهم، ورجعوا إلى قومهم وهدموا الصنم.

وفد محارب

وكـان ممّن قـدم على رسول اللّه (ص) وفـد محارب، وهم عشـرة نفر، فيهم سواء بن الحارث وابنه خزيمـة وأسـلموا، وقيل انه لم يكن أحـد أفظّ ولا أغلظ على رسول اللّه (ص) منهم، وكان فى الوفد رجل منهم يعرفه رسول اللّه (ص) فقال وهو يعلن عن إسـلامه: الحمد للّه الذى أبقانى حتى صدقت بك.

فقال له رسول اللّه (ص): إنّ هذه القلوب بيد اللّه، ومسح وجه خزيمة فصارت له غرة بيضاء، وأجازهم كما يجيز كل وفد، وانصرفوا.

وفد صداء

وقدم وفد صداء على رسول اللّه (ص) فأسلموا، وهم خمسة عشر رجلاً، فبايعوه على الإسلام ورجعوا إلى قومهم، ففشى فيهم الإسلام، فوافى رسول اللّه(ص) منهم مائة رجل فى حجّة الوداع.

وفد غسان

وقدم وفد غسان على رسول اللّه (ص) وكانوا ثلاثة نفر، فأسلموا وأجازهم رسول اللّه (ص) فانصرفوا راجعين، وقالوا: لا ندرى أيتبعنا قومنا أم لا؟ فلما قدموا على قومهم دعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم.

وفد سلامان

وقدم وفد سلامان على رسول اللّه (ص) وهم سبعة نفر، وقيل: هم ستّة عشر نفراً، وعلى رأسهم حبيب السلامانى فأسلموا، وشكوا إليه (ص) جدب بلادهم فدعا لهم، ثم ودعوه وأمر (ص) لهم بالجوائز، فرجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت فى تلك الساعة من ذلك اليوم الذى دعا لهم فيه رسول اللّه(ص) بالمطر.

وفد عبس

وقدم مع رسول اللّه (ص) وفد عبس، فقالوا: يا رسول اللّه قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواشٍ، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا.

فقال (ص): اتّقوا اللّه حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئاً.

وفد بنى سليم

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى سليم، وفيهم: العباس بن مرداس، فأسلموا وحسن إسلامهم وأمر لهم رسول اللّه (ص) بالجائزة.

وفد عامر

وقدم وفد عامر على رسول اللّه (ص)، وكانوا عشرة، فأقروا بالإسلام، وكتب (ص) لهم كتاباً فيه شرائع الإسلام، وأمر اُبيَّ بن كعب فعلّمهم قرآناً وأجازهم (ص) وانصرفوا.

وفد الأزد

وقدم وفد الأزد على رسول اللّه (ص) وفيهم: سويد بن الحارث، قال: وفدت سابع سبعة من قومى على رسول اللّه (ص)، فلما دخلنا عليه وكلمناه وأعجبه ما رأى من صمتنا وزيّنا فقال (ص): من أنتم؟

قلنا: قوم من أزد مؤمنون.

فتبسّم رسول اللّه (ص) وقال: لكل شىء حقيقة، فما حقيقة إيمانكم؟

قلنا: خمس عشرة خصلة: خمساً أمَرَتْنا رسلك أن نؤمن بها، وخمساً أمرتَنا أن نعمل بها، وخمساً تخلّقنا بها فى الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً.

فقال رسول اللّه (ص): ما الخمس التى أمرَتْكم رسلى أن تؤمنوا بها؟

قلنا: أن نؤمن باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت.

قال (ص): وما الخمس التى أمَرْتُكم أن تعملوا بها؟

قلنا: أن نقول لا إله إلا اللّه، ونقيم الصلاة، ونؤدّى الزكاة، ونصوم شهر رمضان، ونحجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً.

قال (ص): وما الخمس التى تخلّقتم بها فى الجاهلية؟

قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق فى مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء.

فقال (ص): حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، ثم قال(ص): وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة: إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه غداً زائلون، واتّقوا اللّه الذى إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فى ما عليه تقدمون وفيه تخلدون.

فانصرف القوم من عند رسول اللّه (ص) بعد أن أجازهم، وقد حفظوا وصيّته وعملوا بها.

وفد بنى المنتفق

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد بنى المنتفق: لقيط بن عامر، فإنه خرج ومعه صاحب له يقال له: نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق.

قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبى حتى قدمنا على رسول اللّه (ص)، فوافيناه حين انصرف من صلاة الغداة، فقام فى الناس خطيباً، فقمت أنا وصاحبى إليه وسألته عما عنده من علم الغيب.

فقال (ص): اختص ربكم بمفاتيح خمس من الغيب.

فقلت: ما هنّ يا رسول اللّه؟

فقال (ص): علم المنية، قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه، وعلم النطفة متى يكون فى الرحم، قد علمه ولا تعلمونه، وعلم ما فى غد، قد علم ما أنت صانع ولا تعلمه، وعلم يوم الغيث، وعلم الساعة.

قلت: يا رسول اللّه علمنا مما علّمك اللّه، فانا من قبيل لا يصدِّق تصديقنا أحد من مذحج التى تربو علينا، وخثعم التى توالينا وعشيرتنا.

قال (ص): تلبثون فيها ما لبثتم، ثم يتوفى نبيكم، ثم تبعث الصائحة، فلا تدع على ظهر الأرض شيئاً إلا مات، وكذلك الملائكة، ثم تحدّث (ص) عن القيامة والآخرة، وعن الثواب والعقاب، وعن الجنّة والنار.

قال: قلت: يا رسول اللّه فبم نجزى من حسناتنا وسيّئاتنا؟

قال (ص): الحسنة بعشر أمثالها، والسيّئة بمثلها، إلا أن يعفو اللّه.

قال: قلت: يا رسول اللّه ما الجنّة وما النار؟

قال (ص): إن النار لها سبعة أبواب، ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً، وإنّ للجنّة ثمانية أبواب، وعرضها كعرض السماوات والأرض، أعدّها اللّه للمتّقين من عباده.

قال: قلت: يا رسول اللّه فعلى مَ نطلع من الجنّة؟

قال (ص): على أنهار من عسل مصفّى، وأنهار من خمر لذّة للشاربين، ما بها صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهار من ماء غير آسن، وفاكهة مما تعلمون، وخير من مثله معه، وأزواج مطهّرة.

فقلت: يا رسول اللّه ما هو أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه؟

قال (ص): ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فقلت: يا رسول اللّه على مَ أُبايعك؟

فبسط النبى (ص) يده وقال: على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن لا تشرك باللّه شيئاً.

وفد النخع

وقدم على رسول اللّه (ص) وفد النخع فى مائتى رجل فنزلوا دار الأضياف، ثم جاءوا رسول اللّه (ص) مقرّين بالإسلام ومؤمنين باللّه وحده لا شريك له، فأكرمهم رسول اللّه (ص) وأجازهم كما يجيز غيرهم من الوفود، ثم رجعوا إلى قومهم وبلادهم.

وقيل: انه كان رسول اللّه (ص) قد بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قبل ذلك هو وأبا موسى الأشعرى، كل واحد منهما على خلاف (أى: إقليم) ثم قال (ص): يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تخالفا.

وقال (ص) لمعاذ: (إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللّه وأنّ محمداً رسول اللّه، فإن هم أطاعوك بذلك فأخبرهم أنّ اللّه قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم ليس بينها وبين اللّه حجاب).

وروى انه (ص) قال لمعاذ: يا معاذ انك تقدم على قوم أهل كتاب، وانهم سائلوك عن مفاتيح الجنّة، فأخبرهم ان مفاتيح الجنّة (لا إله إلا اللّه) وانها تخرق كل شيء حتى تنتهى إلى اللّه ولا تحجب دونه، من جاء بها يوم القيامة مخلصاً رجحت بكل ذنب.

فقال معاذ: أرأيت ما سُئلت عنه واُختصم الى فيه مما ليس فى كتاب اللّه ولم أسمع منك سنة اللّه؟

فقال (ص): تواضع يرفعك اللّه، ولا تقضين إلّا بعلم، فإن أشكل عليك أمر فسَلْ ولا تستحى، واستشر ثم اجتهد، فإن اللّه إن علم من قلبك الصدق يوفقك، فإن التبس عليك فقف حتى تنتبه أو تكتب إلىّ فيه، واحذر الهوى، فإنه قائد الأشقياء، وعليك بالرفق.

سائر الوفود

إلى غير ذلك ممن وفد المدينة وتشرّف باللقاء مع رسول اللّه (ص) حتى ان بعض أهل السير والتاريخ ذكر مواصفات أكثر من سبعين وفداً قدموا المدينة من مختلف مناطق الحجاز ومن اليمن واليمامة والبحرين وما إلى ذلك.

قيل: انه كان رسول الله (ص) إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك.

۱ الحجرات: ۱۷.

فريضة الحج والولاية

وتسمى: حجة الإسلام، وحجّة البلاغ، وحجة الكمال، وحجة التمام، وذلك انه لما دخل على رسول اللّه (ص) شهر ذى القعدة من السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة نزل عليه جبرئيل وقال له: يا محمد ان اللّه عزّوجلّ يقرؤك السلام ويقول لك: إنى لم أقبض نبياً من أنبيائى ولا رسولاً من رسلى إلا بعد إكمال دينى وتأكيد حجّتى، وقد بقى عليك من ذاك فريضتان مما تحتاج أن تبلّغهما قومك: فريضة الحج، وفريضة الولاية والخلافة من بعدك، فإنى لم أخلُ أرضى من حُجّة، ولن اُخليها أبداً، فإن اللّه جلّ ثناؤه يأمرك أن تبلّغ قومك الحج وتحج ويحج معك من استطاع إليه سبيلاً من أهل الحضر والأطراف والأعراب، وتعلّمهم من معالم حجّهم مثل ما علّمتهم من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم، وتوقفهم من ذلك على مثال الذى أوقفتهم عليه من جميع ما بلّغتهم من الشرائع.

فنادى منادى رسول اللّه (ص) فى الناس: ألا- إن رسول اللّه (ص) يريد الحج وان يعلّمكم من ذلك مثل الذى علّمكم من شرائع دينكم، ويوقفكم من ذلك على ما أوقفكم عليه من غيره.

ثم تجهّز رسول اللّه (ص) للحج، وأمر الناس بالجهاز له، فتجهّزوا لذلك، وقد حضر المدينة من ضواحيها ومن جوانبها خلق كثير، فأجمع رسول اللّه (ص) عندها على الخروج، فخرج مغتسلاً متدهّناً مترجّلاً متجرّداً فى ثوبين صحاريين: إزار ورداء، وأخرج (ص) معه

نساءه كلهنّ فى الهوادج، كما وأخرج معه أهل بيته (فاطمة عليها السلام) وسار معه عامة المهاجرين والأنصار، ومن شاء اللّه من قبائل العرب وأفناء الناس.

أقول: كنت قد كتبت فيما سبق كتاباً حول كيفية حجه (ص)، ننقله هنا:

هكذا حج رسول اللّه (ص)

وذلك كما ورد فى صحاح الروايات:

وقد وفّقنى اللّه أن أنشره فى هذه الكراسة، بإضافة بعض التوضيحات بين قوسين هكذا () كما ألحقنا به صورة إجمالية عن (حجّ التمتّع) وعن (محرمات الإحرام) وذلك على ما استفيد من (السنّة المطهّرة) واللّه المستعان.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

روى الكلينى وشيخ الطائفة (رحمهما اللّه) بسندهما عن الإمام الصادق(ع): انّ رسول اللّه (ص) أقام بالمدينة عشر سنين لم يحج.

ثم أنزل اللّه تعالى عليه: (وأذّن فى الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كلّ فجٍّ عميقٍ)(۱).

فأمر المؤذنين أن يؤذنوا بأعلى أصواتهم: أنّ رسول اللّه (ص) يحج فى عامه هذا.

فعلم به من حضر المدينة، وأهل العوالى والأعراب، فاجتمعوا لحج رسول اللّه (ص).

وانما كانوا تابعين، ينظرون ما يؤمرون به فيتبعونه، أو يصنع شيئاً فيصنعونه.

العمرة وأعمالها

فخرج رسول اللّه (ص) فى أربع بقين من ذى القعدة فلما انتهى إلى ذى الحُليفة، فزالت الشمس..

۱ اغتسل (وفى حديث آخر: لبس لباس الإحرام).

ثم خرج حتى أتى المسجد الذى عند الشجرة، فصلّى فيه الظهر.

ثم خرج حتى انتهى إلى البيداء (وهى صحراء قريبة من مسجد الشجرة) عند الميل الأول، فصفّ الناس له سماطين.

۲ فأحرم، وأهلّ بالحجّ (أى: قال التلبية) وساق مائة بدنة (أى: ناقة) وقيل: ستاً وستّين بدنة، أو أربعاً وستين.

حتى انتهى (ص) إلى مكة، فى أربع مضين من ذى الحجّة.

۳ فطاف بالبيت سبعة أشواط.

۴ ثم صلّى (ص) ركعتين خلف مقام إبراهيم (ع).

ثم عاد إلى الحجر فاستلمه، وقد كان استلمه فى أول طوافه.

۵ ثم قال: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللّه، فبدأ بما بدأ اللّه عزّ وجل به.

وان المسلمين كانوا يظنون: ان السعى بين الصفا والمروة شىء صنعه المشركون. فأنزل اللّه عزّ وجل: (إنّ الصفا والمروة من شعائر اللّه فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطّوّف بهما)(۲).

ثم أتى (ص) الصفا، فصعد عليه، واستقبل الركن اليمانى، فحمد اللّه وأثنى عليه، ودعا مقدار ما يقرأ سورة البقرة مترسّلاً.

ثم انحدر إلى المروة فوقف عليها، كما وقف على الصفا.

ثم انحدر وعاد إلى الصفا، فوقف عليها.

ثم انحدر إلى المروة، حتى فرغ من سعيه.

فلما فرغ من سعيه، وهو على المروة أقبل على الناس بوجهه، فحمد اللّه تعالى وأثنى عليه ثم قال: إن هذا جبرئيل وأومأ بيده إلى خلفه

يأمرنى أن آمر من لم يسق منكم هدياً:

۶ أن يحل (والإحلال بالحلق لبعض الشعر أو التقصير).

ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت، لصنعت مثل ما أمرتكم، ولكنّى سقت الهدى ولا ينبغى لسائق الهدى أن يحلّ، حتى يبلغ الهدى محلّه (أى: فى منى حيث يذبح الهدى) انّ اللّه عزّ وجل يقول: (ولا تحلقوا رؤوسكم حتّى يبلغ الهدى محلّه)(۳).

قال: فقال له رجل من القوم: انخرج حُجّاجاً وشعورنا تقطر؟

فقال له رسول اللّه (ص): أما انك لن تؤمن بهذا أبداً؟ (أى: لن تؤمن بحج التمتّع).

فقال له سراقة بن مالك بن جشعم الكنانى: يا رسول اللّه علمنا ديننا، كأننا خلقنا اليوم. فهذا الذى أمرتنا به، ألعامنا هذا أم ولما يستقبل؟ (أى: حج التمتع فى هذه السنة أو فى كلّ سنة؟).

فقال له رسول اللّه (ص) وقد أنزل اللّه آية التمتّع: (فمن تمتّع بالعمرة إلى الحجّ فما استيسر من الهدى)(۴): بل هو للأبد إلى يوم القيامة.

ثم شبك (ص) بين أصابعه وقال: دخلت العمرة فى الحج هكذا إلى يوم القيامة (أى: ان الحج صار حج تمتع، حيث ان عمرته وحجه يؤتيان معاً، الأول: العمرة، الثانى: الحج).

قال: وقدم على (ع) من اليمن، على رسول اللّه (ص) وهو بمكة.

فوافى الحج، فوجد فاطمة (ع)، وقد أحلّت، ووجد ريحاً طيّباً، ووجد عليها ثياباً مصبوغة.

فقال (ع): ما هذا يا فاطمة؟ (أى: كيف أحللتم؟).

فقالت (ع): أمرنا بهذا رسول اللّه (ص).

فخرج على (ع) إلى رسول اللّه (ص) مستفتياً؟ (لأن علياً (ع) كان قد أحرم، وطاف، وصلّى، وسعى.. ثم أراد أن يسأل رسول اللّه (ص)، هلى يبقى فى إحرامه، أو يحل؟).

فقال: يا رسول اللّه إنى رأيت فاطمة قد أحلّت وعليها ثياب مصبوغة؟

فقال رسول اللّه (ص): انى أمرت الناس بذلك.

فأنت يا على بما أهللت؟ (أى هل اهللت بالحج، أو بالعمرة؟).

فقال: يا رسول اللّه إهلالاً كإهلال النبى (ص) (أى: انى قصدت أن أحرم كإحرام الرسول (ص)).

فقال له رسول اللّه (ص): قرّ على إحرامك، وأنت شريكى فى هديى.

الحج ومناسكه

قال: ونزل رسول اللّه (ص) هو وأصحابه بمكة، بالبطحاء، ولم ينزل الدور، فلما كان يوم التروية (ثامن ذى الحجّة) عند زوال الشمس.

۱ أمر الناس أن يغتسلوا، ويهلّوا بالحج (أى: يقولوا التلبية) وهو قول اللّه عزّوجل الذى أنزله على نبيّه (ص): (فاتبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً)(۵). فخرج النبى (ص) وأصحابه مهلّين بالحج، حتى أتى إلى منى. فصلّى الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر (أى بقوا ليلة التاسع فى منى).

ثم غدا والناس معه. وكانت قريش تفيض من المزدلفة وهى جمع (أى: المشعر) ويمنعون الناس أن يفيضوا منها (أى: أن يجعلوا طريقهم إلى عرفات، من المشعر).

فأقبل رسول اللّه (ص) وقريش ترجو أن تكون إفاضته من حيث كانوا يفيضون، فأنزل اللّه عزّ وجل عليه: (ثمّ أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا اللّه)(۶) يعنى: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق (عليهم السلام) فى إفاضتهم منها، ومن كان بعدهم (أى: كلهم كانوا

يفيضون ويذهبون إلى عرفات من غير طريق المشعر).

فلما رأت قريش انّ قبّة رسول اللّه (ص) قد مضت، كأنه دخل فى أنفسهم شيء للذى كانوا يرجون من الإفاضة من مكانهم.

حتى انتهى (ص) إلى (نمرة) وهى بطن (عرفة) بجبال (الاراك). فضرب (ص) قبته، وضرب الناس أخبيتهم عندها.

۲ فلما زالت الشمس (أى: ظهر يوم عرفة، وهو تاسع ذى الحجة). خرج رسول اللّه (ص) ومعه قريش، وقد اغتسل، وقطع التلبية. حتى وقف بالمسجد، فوعظ الناس، وأمرهم ونهاهم، ثم صلّى الظهر والعصر بأذان وإقامتين، ثم مضى إلى الموقف، فوقف به.

فجعل الناس يبتدرون إخفاف ناقته، يقفون إلى جانبها، فنحّاها، ففعلوا مثل ذلك. فقال (ص): أيها الناس ليس موضع إخفاف ناقتى بالموقف، ولكن هذا كله. وأومأ إلى الموقف بيده فتفرّق الناس.

وفعل مثل ذلك بالمزدلفة (أى: أعلمهم ان الموقف: المشعر كله) فوقف الناس بالدعاء حتى وقع القرص (قرص الشمس).

۳ ثم أفاض (ص) وأمر الناس بالدعة، حتى انتهى إلى المزدلفة، وهو المشعر الحرام.. فصلّى المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين.

ثم أقام حتّى صلّى فيها الفجر. وعجل ضعفاء بنى هاشم بليل، وأمرهم أن لا يرموا الجمرة: جمرة العقبة حتى تطلع الشمس.

۴ فلما أضاء النهار أفاض حتى انتهى إلى منى.

۵ فرمى جمرة العقبة.

۶ وكان الهدى الذى جاء به رسول اللّه (ص) مائة بدنة، وقيل: أربعة وستين أو ستة وستين، فأشرك (ص) علياً (ع) فى الهدى.

وقيل: انه جاء على (ع) بأربعة وثلاثين أو ستة وثلاثين (ولعل علياً (ع) جاء بها من اليمن).

فنحر رسول اللّه (ص) ثلاثاً وستّين، وقيل: ستة وستين، ونحر على (ع) سبعاً وثلاثين، وقيل: أربعاً وثلاثين بدنة.

وأمر رسول اللّه (ص) أن يؤخذ من كل بدنة منها جذوة (أى: قطعة) من لحم، ثم تطرح فى برمة، ثم تطبخ، فأكل رسول اللّه (ص) وعلى (ع) وتحسّيا من مرقها، ولم يعط الجزارين جلودها، ولا جلالها، ولا قلائدها، وتصدّق به.

۷ وحلق (ص).

۸ وزار (ص) البيت (أى: طاف للزيارة، وصلّى صلاة الطواف، وسعى، وطاف طواف النساء، وصلّى صلاة الطواف).

۹ ورجع (ص) إلى منى، وأقام بها، حتى كان اليوم الثالث من أيام التشريق.

۱۰ ثم رمى (ص) الجمرات (أى: رماهنّ، فى كل يوم).

هكذا حج رسول اللّه (ص) كما فى الروايات الصحيحة.

حج التمتع

وإليك موجزاً من صورة (حج التمتع)(۷):

۱ الإحرام، لعمرة التمتع. ۲ الطواف لعمرة التمتع. ۳ ركعتان للطواف لعمرة التمتع.

۴ السعى لعمرة التمتع. ۵ التقصير لعمرة التمتع. ۶ الإحرام، لحج التمتع.

۷ الوقوف بعرفات لحج التمتع. ۸ الوقوف بالمشعر لحج التمتع. ۹ الإفاضة إلى منى لحج التمتع.

۱۰ الرمى لجمرة العقبة لحج التمتع. ۱۱ النحر، أو الذبح لحج التمتع. ۱۲ الحلق، أو التقصير لحج التمتع.

۱۳ الطواف، لحج التمتع. ۱۴ ركعتان للطواف لحج التمتع. ۱۵ السعى لحج التمتع.

۱۶ طواف النساء لحج التمتع. ۱۷ ركعتان لطواف النساء لحج التمتع.

۱۸ المبيت بمنى. ۱۹ رمى الجمرات الثلاث، بمنى، كل يوم.

محرمات الإحرام

وإليك محرمات الإحرام:

۱ صيد حيوان البر. ۲ النساء. ۳ عقد النكاح.

۴ الإستمناء. ۵ استعمال الطيب. ۶ لبس المخيط للرجال.

۷ الإكتحال. ۸ النظر فى المرآة. ۹ لبس الخف وكل ما يستر ظهر القدم.

۱۰ الفسوق، الكذب، السباب، المفاخرة. ۱۱ الجدال، أى مطلق اليمين، احتياطاً.

۱۲ قتل هوام البدن. ۱۳ التختم للزينة، بل مطلق الزينة. ۱۴ تغطية الرجل رأسه.

۱۵ تغطية المرأة وجهها. ۱۶ التدهين. ۱۷ إزالة الشعر.

۱۸ إخراج الدم. ۱۹ قلع الضرس. ۲۰ تقليم الظفر.

۲۱ التظليل للرجال، حال السير. ۲۲ قطع شجر الحرم. ۲۳ حمل السلاح.

من حوادث حجّة الوداع

وروى انه لما تجهّز رسول اللّه (ص) إلى الحج كتب إلى على (ع) وقد بعثه فى سرية إلى اليمن بأن يخرج ومن معه إلى الحج أيضاً، فلما قارب رسول اللّه(ص) مكة من طريق المدينة، قاربها على (ع) من طريق اليمن، فتقدّم على (ع) الجيش للقاء النبى (ص) وخلّف عليهم رجلاً منهم، فأدرك النبى (ص) وقد أشرف على مكة، فسلّم عليه وعرض عليه أخباره، ثم أخبره بأنه أقبل مع الجيش وتقدم عليهم للقائه، فسرّ رسول اللّه (ص) ذلك وابتهج بلقائه وقال له: بم أهللت يا على؟

فقال (ع): عقدت نيّتى بنيّتك يا رسول اللّه وقلت لمّا أحرمت: اللّهمّ اهلالاً كإهلال نبيّك.

فقال له رسول اللّه (ص): أنت شريكى فى حجّى ومناسكى وهديى وكان رسول اللّه (ص) قد ساق الهدى معه ثم قال له: أقم على إحرامك، وعد إلى جيشك فعجّل بهم إلىّ حتى نجتمع بمكة إن شاء اللّه تعالى.

فى موقف عرفات

ولما كان رسول اللّه (ص) فى الموقف بعرفات ومعه المسلمون وصلّى بهم الظهر والعصر معاً عند زوال الشمس بلا أن يصلّ بينهما شيئاً، وقيل: لما نزلت سورة: (إذا جاء نصر اللّه والفتح)(۸) وذلك فى أوسط أيام التشريق وعرف رسول اللّه (ص) انه الوداع.ركب راحلته العضباء فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس: اسمعوا قولى واعقلوه، فإنى لا أدرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس: انّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، إلى أن تلقوا ربّكم..

أيّها الناس: كل دم كان فى الجاهلية فهو هدر، وكل ربا كان فى الجاهلية فموضوع.

أيها الناس ان الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق اللّه السماوات والأرضين، وانّ عدّة الشهور عند اللّه اثناعشر شهراً فى كتاب اللّه يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم: رجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان، وذو القعدة، وذو الحجّة، والمحرّم، فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم، فإن النسىء زيادة فى الكفر يُضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم اللّه وكانوا يحرّمون المحرّم عاماً ويستحلّون صفر، ويحرّمون صفر عاماً ويستحلّون المحرم.

أيها الناس: ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى بلادكم آخر الأبد، ورضى منكم بمحقّرات الأعمال.

أيها الناس: انكم ستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كانت عنده وديعة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها.

أيها الناس: ان النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ ضراً ولا نفعاً، أخذتموهنّ بأمانة اللّه واستحللتم فروجهنّ بكلمات اللّه، فلكم عليهنّ حق، ولهنّ عليكم حق، ومن حقكم عليهنّ أن لايوطئنّ فرشكم، ولايعصينّكم فى معروف، فإذا فعلن ذلك فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، ولا تضربوهنّ.

أيها الناس: انى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا أبداً: أمراً بيّناً كتاب اللّه عزّوجل وعترتى أهل بيتى.

أيها الناس: ألا فليبلّغ شاهدكم غائبكم: انه لا نبىّ بعدى، ولا اُمّة بعدكم، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد انّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت.

فقال (ص): اللّهمّ اشهد، اللّهمّ اشهد، ثلاث مرات.

عند مسجد الخيف

ثم ان رسول اللّه (ص) لما وقف بمنى ومعه المسلمون خطب الناس فى مسجد الخيف وهو مسجد منى، سمّى بذلك لأنه واقع فى سفح جبل، مرتفعاً عن مجرى السيل.

فقال (ص) بعد الحمد والثناء على اللّه تعالى: (نضّر اللّه عبداً سمع مقالتى فوعاها وبّلغها من لم يبلغه، يا أيها الناس ليبلّغ الشاهد الغائب، فربّ حامل فقه ليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه).

ثم قال (ص): (ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئٍ مسلم: إخلاص العمل للّه، والنصيحة لأئمّة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم، المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمّتهم أدناهم).

آخر أيام التشريق

ولما كان اليوم الثالث من آخر أيام التشريق رمى رسول اللّه (ص) الجمار ونفر من منى حتى انتهى إلى الأبطح، ثم ارتحل من يومه وخرج من أسفل مكة من ذوى طوى، بعد أن دخل مكة من أعلاها من عقبة المدنيين، فخرج (ص) متوجهاً نحو المدينة، وذلك بعد أن استتم حجه، وقضى مناسكه، وعرّف الناس ما يحتاجون إليه، وأعلمهم بأنه قد أقام لهم سنّة إبراهيم (ع) وأزال عنهم ما أحدثه المشركون.

الوحى وآخر آية من القرآن

فى المناقب عن ابن عباس انه قال: لما نزل قوله تعالى: (إنّك ميّت وإنّهم ميّتون)(۹) قال رسول اللّه (ص): ليتنى أعلم متى يكون ذلك! هذا وهو (ص) يعلم الغيب بإذنه تعالى ووحيه. فنزلت سورة النصر، فكان بعد نزولها يسكت رسول اللّه (ص) بين التكبير والقراءة ثم يقول: (سبحان اللّه وبحمده، أستغفر اللّه وأتوب إليه).

فقيل له فى ذلك، فقال: (اما انّ نفسى نعيت إلىَّ) ثم بكى بكاءاً شديداً.

فقيل: يا رسول اللّه أوَتبكى من الموت وقد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟

فقال (ص): فأين هول المطّلع؟ وأين ضيقة القبر، وظلمة اللحد؟ وأين القيامة والأهوال؟(۱۰)

ثم قال: فعاش (ص) بعد نزول هذه السورة عاما(۱۱).

ثم نزلت آيات وآيات حتى إذا لم يبق على ارتحال رسول اللّه (ص) من هذه الدنيا سوى سبعة أيام نزلت: (واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى اللّه ثمّ توفّى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)(۱۲).

فکانت هـذه الآیـة علی بعض الروایات هی آخر آیـة من القرآن الکریم نزل بها جبرائیل (ع) علی رسول اللّه (ص) وقال له: ضـعها فی رأس المـائتین والثمانین من سورة البقرة(۱۳)، کما انّ أول آیـة من القرآن کان قـد نزل بها جبرئیل(ع) علی رسول اللّه (ص) هی قوله تعالی: (بسم اللّه الرحمن الرحیم اقرأ باسم ربّک الّذی خلق)(۱۴) الآیات.

فأول آیـة من القرآن ابتـدأ بأول یوم من البعثـة النبویـة الشـریفة، وآخر آیة من آیات القرآن اختتم الأیام الأخیرة لرسول اللّه (ص) وما بینهما من فترة کان نزول ما بین هاتین الآیتین، وتلک الفترة استغرقت مدة ثلاث وعشرین سنة.

مَن جمع القرآن؟

وهنـا مـا یلفت النظر ویجلب الإنتبـاه وهو قول جبرئیـل للنبی (ص) عنـد نزوله بالآیـة الأخیرة کما فی الروایـة: ضـعها فی رأس المائتین والثمانین من سورة البقرة، فإنه صـریح فی انّ اللّه تعالی أمر نبیّه بجمع القرآن وبترتیبه ترتیباً دقیقاً حتی فی مثل ترقیم الآیات، وقـد فعل النبی (ص) ذلک فی حیاته (ص) کما أمره اللّه تعالی، ولم یکن (ص) یترک القرآن متفرّقاً حتی یجمع من بعده.

وهـل یمکن للرسول (ص) مع کـبیر اهتمـامه وکثیر حرصه علی القرآن الکریم أن لاـ یقوم بجمع القرآن وترتیبه! وأن یترکه مبعثراً فی أیدی المسلمین ویوکل جمعه إلیهم، مع ان الوحی أخبره بقوله: (انّک میّت وانّهم میّتون)(۱۵).

فهل یصح أن یکون (ص) حریصاً علی القرآن من جهة(۱۶) وأن لا یجمع القرآن ویترکه مبعثراً من جهة اُخری؟

بل ألیس القرآن هو دسـتور الإسـلام الخالد، ومعجزته الباقیة علی مرّ القرون والأعصار إلی یوم القیامة؟ ومعه هل یصح أن یترکه النبی (ص) مبعثراً من دون أن یجمعه؟!

أم کیف یـأذن اللّه تعـالی لنبیّه بـأن لا یقوم بجمعه مع انه تعالی یقول: (إنّ علینا جمعه وقرآنه)(۱۷) ویقول تعـالی أیضاً: (إنّا نحن نزّلنا الذکر وإنّا له لحافظون)(۱۸).

فعلی النبی (ص) إبلاغ القرآن مجموعاً ومرتّباً إلی الناس کافة، کما جمعه اللّه تعالی ورتّبه.

إذن: فهـذا القرآن الـذی هـو بأیـدینا علی ترتیبه وجمعه، وترقیم آیـاته، وترتیب سـوره وأجزائه هـو بعینه القرآن الـذی رتّبه رسول اللّه (ص) وجمعه للمسلمین فی حیاته (ص) بأمر من اللّه تعالی لم یطرأ علیه أیّ تغییر وتحریف، أو تبدیل وتعدیل، أو زیادة ونقصان.

ویؤیّـده: مـا روی عن تفسیر علی بن ابراهیم عن الإمـام الصادق (ع) عن رسول اللّه (ص) انه أمر علیاً (ع) بجمع القرآن وقال (ص): یا علی، القرآن خلف فراشـی فی المصحف والحریر والقراطیس فخذوه واجمعوه ولا تضیّعوه کما ضیّعت الیهود التوراة، فانطلق علی (ع) فجمعه فی ثوب أصفر ثم ختم علیه(۱۹).

وفی مجمع البیـان نقلاً عن السیّد المرتضـی انه قال: إن القرآن جمع فی عهـد رسول اللّه (ص) بالشـکل الـذی هو الیوم بأیـدینا. وقال بمقالته قبله الشـیخ الصدوق (قده) والشـیخ المفید (قده)، وقال بمقالته بعده شـیخ الطائفة الشـیخ الطوسـی (قده) والمفسّـر الکبیر الشیخ الطبری (قده) المتوفی سنة ۵۴۸ وباقی علماءنا الأبرار إلی یومنا هذا.

وعن زیـد بن ثـابت انه قـال: کنّـا نجمع القطع المتفرّقـة من آیات القرآن ونجعلها بأمر رسول اللّه (ص) فی مکانها المناسب، ولکن مع ذلک کانت الآیات متفرّقة، فأمر رسول اللّه (ص) علیاً (ع) أن یجمعها فی مکان واحد، وحذّرنا من تضییعها.

وعن الشعبی انه قال: جمع القرآن فی عهد رسول اللّه (ص) من قبل ستّة نفر من الأنصار.

وعن قتادة انه قال: سألت أنساً عن انه من جمع القرآن فی عهد رسول اللّه (ص)؟ فقال: أربعة نفر من الأنصار ثم ذکر أسماؤهم.

وعن علی بن رباح: ان علی بن أبی طالب (ع) جمع القرآن هو واُبی بن کعب فی عهد رسول اللّه (ص).

الشواهد الاُخری

هـذا بالإضافـة إلى شواهـد ومؤيّدات أُخرى تدل على ان القرآن الذى هو بأيدينا هو نفسه الذى جمع ورتب فى عهد رسول اللّه (ص) من غير زيادة ولا نقيصة.

منها: تسـمية سورة الحمـد بسورة الفاتحـة فى عهـد رسول اللّه (ص) يعنى انها فاتحـة القرآن مع انها لم تكن السورة ولا الآيات الأُولى التى نزل بها الوحى على رسول اللّه (ص)، فتسـميتها بفاتحـة الكتاب فى عهـده (ص) يشـير إلى ان الكتاب كان مجموعاً بهـذا الشـكل الموجود بأيدينا اليوم، وسورة الحمد فاتحته كما هو اليوم فاتحته أيضاً.

ومنهـا: ان النبى (ص) كـان يقول فى حـديث الثقلين المروى عن الفريقين متواتراً: (إنّى مخلّف فيكم الثقلين: كتـاب اللّه، وعترتى أهل بيتى، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدى أبداً).

فالكتـاب المجمـوع والمرتب يخلّفه رسـول اللّه (ص) فى أُمته، لا ـ الآيـات المتفرّقـة، إذ لا ـ يطلق عليهـا الكتـاب، وقـد سـبق اللّه تعـالى رسوله(ص) فى هذا التعبير حيث أطلق مراراً وفى آيات متعدّدة كلمة (الكتاب) على القرآن، إشارة إلى انه مجموع ومرتّب عنده تعالى فى اللّوح المحفوظ كما قال به بعض المفسّـرين وانه تعالى أطلع رسوله (ص) على جمعه وترتيبه لـديه وأمره بأن يجمع القرآن على ما هو مجموع فى اللّوح المحفوظ، ويرتّبه وفق ترتيبه، وفعل النبى (ص) ذلك.

ومنها: ما ورد من أمر النبى (ص) بختم القرآن فى شهر رمضان وفى غيره من سائر الأيام، وبيان ما لختمه من الفضيلة والثواب، حتى ان عبـداللّه بن مسـعود، وأُبى بن كعب وغيرهما قـد ختموا القرآن عنـد رسول اللّه (ص) عـدّة مرات، ولولا ان القرآن مجموع ومرتّب، لم يكن لختم القرآن معنى، لأن الختم يقال لما يبدأ من أوله وينتهى بآخره.

ومنهـا: روايـات تأمر بعرض الأحاديث المرويـة عن الرسول (ص) وعن أهل بيته (عليهم السـلام) لمعرفـة غثها من سـمينها على القرآن الكريم وتقول: مـا وافق كتـاب اللّه فقـد قاله رسول الله (ص) وقاله أهل البيت (عليهم السـلام)، وما خالف الكتاب فهو زخرف وباطل، وانهم لم يقولوه، فقـد أحالتنا هـذه الروايات إلى هـذا القرآن الـذى هو بأيـدينا لمعرفـة الحق من الباطل مما يدل على سـلامته من كل زيادة ونقيصة، وتبديل وتحريف، وإلا لم يصح أن يكون مرجعاً لمعرفة الحق من الباطل.

ومنها: ما ورد من ان القرآن كله كان مكتوباً موضوعاً بين المحراب والمنبر، وكان المسلمون يكتبون منه.

ومنها: ما ورد من ان جبرئيل (ع) كان يعرض القرآن على رسول اللّه (ص) كل عام مرّة، وعرضه عليه (ص) فى عامه الأخير مرتين.

ومنها: ما روى من ان جماعة من الصحابة كانوا قد حفظوا القرآن كله فى عهد رسول اللّه (ص).

ولا يخفى ذلك على من راجع تفسير القرآن للعلاّمـة البلاغى (قـدس سـره)، ولوالدى (رحمه اللّه) (۲۰) كلمـة حول ذلك طبعت فى إحدى أعداد (أجوبة المسائل الدينية) فى كربلاء المقدّسة.

هـذا بالإضافة إلى انّ هناك آيات وروايات تشير إلى ان القرآن نزل على رسول اللّه (ص) مرّتين: مرّة نزل بمجموعه على قلب رسول اللّه (ص) كما قال تعالى: (إنّا أنزلناه فى ليلـة القدر)(۲۱) ومرّة نزل عليه نجوماً ومتفرّقاً عبر ثلاث وعشـرين سنة فى المناسبات والقضايا المتفرّقة، والنبىّ (ص) قد وعى قلبه القرآن الذى نزل عليه أوّلاً مجموعاً ومرتّباً، فجمع القرآن الذى نزل عليه ثانياً نجوماً ومتفرّقاً حسـب جمع القرآن الأول، ورتبه وفق ترتيبه، وهو بعينه القرآن الذى هو اليوم بأيدينا.

إلى غير ذلك مما يشـير بمجموعه إلى انّ هـذا القرآن الذى هو اليوم بأيدينا هو القرآن الذى جمع بأمر من اللّه ورسوله (ص) فى عهد رسول اللّه (ص) لم يزدد حرفاً ولم ينقص حرفاً، ولم يتغيّر شىء منه ولم يتبدّل أبداً، كيف وقد قال تعالى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)(۲۲).

إلى غير ذلك مما يشـير بمجموعه إلى انّ هـذا القرآن الذى هو اليوم بأيدينا هو القرآن الذى جمع بأمر من اللّه ورسوله (ص) فى عهد رسول اللّه (ص) لم يزدد حرفاً ولم ينقص حرفاً، ولم يتغيّر شىء منه ولم يتبدّل أبداً، كيف وقد قال تعالى: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه).

۱ الحج: ۲۷. ۲ البقرة: ۱۵۸. ۳ البقرة: ۱۹۶.

۴ البقرة: ۱۹۶. ۵ آل عمران: ۹۵. ۶ البقرة: ۱۹۹.

۷ أی: الحج مع العمرة. ۸ النصر: ۱. ۹ الزمر: ۳۰.

۱۰ أراد النبی (ص) الإلماع إلی الأهوال لا أنه (ص) یبتلی بها.

۱۱ راجع بحار الأنوار: ج۲۲ ص۴۷۱ ب۱ ح۲۰. ۱۲ البقرة: ۲۸۱.

۱۳ تفسیر شبّر (قدس سره): ص۸۳. ۱۴ العلق: ۱. ۱۵ الزمر: ۳۰.

۱۶ حتی انه (ص) کان یأمر بحفظ القرآن والاهتمام به والتحریض علی تلاوته والعمل به، وخاصة فی أیامه الأخیرة، حیث کان یقول مراراً: إنی مخلف فیکم الثقلین کتاب الله وعترتی أهل بیتی ما إن تمسکتم بهما لن تضلّوا بعدی أبداً.

۱۷ القیامة: ۱۷. ۱۸ الحجر: ۹.

۱۹ بحار الأنوار: ج۸۹ ص۴۸ ب۷ ح۷ ط بیروت.

۲۰ آیة الله العظمی السید میرزا مهدی الشیرازی (قدس سره). ۲۱ القدر: ۱.

۲۲ فصّلت: ۴۲.

مهمة تبلیغ الرسالة

ولما انصرف رسول اللّه (ص) من حجة الوداع والمسلمون معه وهم علی بعض الروایات زهاء مائتی ألف نسمة، سار (ص) نحو المدینة حتی إذا کان الیوم الثامن عشر من ذی الحجة وصل إلی غدیر خم من الجحفة التی تتشعّب فیها طرق المدنیین عن غیرهم، ولم یکن هذا المکان بموضع إذ ذاک یصلح للنزول، لعدم الماء فیه والمرعی، فنزل علیه الأمین جبرئیل عن اللّه بقوله تعالی: (یا أیّها الرسول بلّغ ما اُنزل إلیک من ربّک وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته واللّه یعصمک من الناس)(۱).

وکان نزوله هذا بهذا الشأن هی المرة الثالثة، فقد نزل علیه (ص) قبلها مرّتین وذلک للتأکید: مرة عند وقوفه بالموقف، واُخری عند کونه فی مسجد الخیف، وفی کل منهما یأمره بأن یستخلف علیّ بن أبی طالب (ع)، وأن یسلّم إلیه ما عنده من العلم وموراث علوم الأنبیاء (علیهم السلام) وجمیع ما لدیه من آیاتهم، وأن یقیمه علماً للناس، ویبلّغهم ما نزل فیه من الولایة، وفرض الطاعة علی کل أحد، ویأخذ منهم البیعة له علی ذلک، والسلام علیه بإمرة المؤمنین، ورسول اللّه(ص) یسأل جبرئیل أن یأتیه من اللّه تعالی بالعصمة، وفی هذه المرة نزل علیه بهذه الآیة الکریمة التی فیها: (واللّه یعصمک من الناس).

وکان أوائل القوم، عند نزول جبرئیل بهذه الآیة التی أمرت رسول اللّه(ص) فی تبلیغ ما اُنزل إلیه فی علی (ع)، قریباً من الجحفة، فأمر رسول اللّه (ص) بالتوقّف عن المسیر وأن یردّ من تقدّم من القوم ویحبس من تأخّر عنهم فی ذلک المکان، فنزل (ص) ونزل المسلمون حوله، وکان یوماً قایظاً شدید الحرّ، فأمر بدوحات هناک فقمّ ما تحتها وأمر بجمع الرحال فیه، ووضع بعضها فوق بعض.

ثم أمر (ص) مناديه فنادی فی الناس: الصلاة جامعة، فاجتمعوا إلیه وان الرجل منهم لیضع بعض ردائه علی رأسه وبعضه تحت قدمیه من شدّة الحرّ، فلما اجتمعوا صعد (ص) علی تلک الرحال حتی صار فی ذروتها، ودعا علیاً (ع) فرقی معه حتی قام عن یمینه ثم خطب (ص) الناس خطبة بلیغة لم یسمع الناس بمثلها فحمد اللّه وأثنی علیه، ووعظ فأبلغ الموعظة، ونعی إلی الاُمّة نفسه، وأشار إلی أمر الإستخلاف فنصب علیاً (ع) بأمر من اللّه تعالی خلیفة علیهم بعده، وقال فی آخرها ما یلی:

مقتطفات من حدیث الغدیر

معاشر الناس! ان اللّه أوحی إلیّ یقول: (یا أیّها الرسول بلّغ ما اُنزل إلیک من ربّک وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته واللّه یعصمک من

الناس إنّ اللّه لا يهدى القوم الكافرين).

وأنا مبيّن لكم سبب نزول هذه الآية: انّ جبرئيل هبط علىّ مراراً ثلاثاً يأمرنى عن ربّى جلّ جلاله أن أقوم فى هذا المشهد، فأُعلم كل أبيض وأسود، انّ على بن أبى طالب أخى ووصيّى وخليفتى على اُمّتى، والإمام من بعدى، وقد ضمن لى تبارك وتعالى العصمة من الناس وهو اللّه الكافى الكريم.

فاعلموا معاشر الناس! ان اللّه قد نصبه لكم ولياً وإماماً مفترضاً طاعته على المهاجرين والأنصار، وعلى التابعين لهم بإحسان، وعلى البادى والحاضر وعلى الأعجمى والعربى، والحر والمملوك، وعلى كل موحّد.

معاشر الناس! انه آخر مقام أقومه فى هذا المشهد، فاسمعوا وأطيعوا، وانقادوا لأمر ربّكم، فإنّ اللّه هو مولاكم وإلهكم، ثم من بعده رسوله محمّد وليّكم القائم المخاطب لكم، ثم من بعدى على وليّكم وإمامكم بأمر ربّكم، ثم الإمامة فى ذرّيتى من ولده إلى يوم تلقون اللّه ورسوله، لا حلال إلاّ ما أحلّه اللّه، ولا حرام إلاّ ما حرّمه اللّه، عرّفنى اللّه الحلال والحرام وأنا أفضيت لما علّمنى ربّى من كتابه وحلاله وحرامه إليه.

معاشر الناس! ما من علم إلاّ وقد أحصاه اللّه فىّ، وكل علم علّمت فقد أحصيته فى إمام المتّقين، وما من علم إلا عَلَّمته علياً والمتّقين من ولده.

معاشر الناس! لا تضلّوا عنه، ولا تنفروا منه، ولا تستنكفوا من ولايته، فهو الذى يهدى إلى الحق ويعمل به، ويزهق الباطل وينهى عنه، ولا تأخذه فى اللّه لومة لائم.

معاشر الناس! فضّلوه فقد فضّله اللّه، واقبلوه فقد نصبه اللّه.

معاشر الناس! انّ علياً والطيّبين من ولده هم الثقل الأصغر، والقرآن هو الثقل الأكبر، وكل واحد منبىء عن صاحبه، وموافق له، لن يفترقا حتّى يردا علىّ الحوض، هم اُمناء اللّه فى خلقه، وحكماؤه فى أرضه، ألا وقد أدّيت، ألا وقد بلّغت، ألا وقد أسمعت، ألا وقد أوضحت، ألا وان اللّه عزّوجل قال، وأنا قلت عن اللّه عزّوجل: ألا انه ليس أمير المؤمنين غير أخى هذا، ولا تحلّ إمرة المؤمنين بعدى لأحد غيره.

ثم ضرب بيده على عضد على فرفعه وقال:

معاشر الناس! هذا أخى ووصيّى، وواعى علمى، وخليفتى على اُمّتى وعلى تفسير كتاب اللّه عزّوجل، والداعى إليه، والعامل بما يرضاه، والمحارب لأعدائه، والموالى على طاعته، والناهى عن معصيته، خليفة رسول اللّه، وأمير المؤمنين، والإمام الهادى، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين بأمر اللّه، أقول وما يبدّل القول لدىّ بأمر ربّى أقول: اللّهمّ والِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من أنكره، واغضب على من جحد حقّه، اللّهمّ انك أنزلت علىّ: ان الإمامة بعدى لعلىّ وليّك، اللّهمّ انّى اُشهدك وكفى بك شهيداً انى قد بلّغت.

معاشر الناس! انما أكمل اللّه عزّ وجل دينكم بإمامته، هذا على أنصركم لى، وأحقّكم بى، وأقربكم إلىّ، وأعزّكم علىّ، واللّه عزّ وجل وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضىً إلا فيه، وما خاطب اللّه الذين آمنوا إلاّ بدأ به، ولا نزلت آية مدح فى القرآن إلا فيه، ولا شهد بالجنّة فى (هل أتى على الإنسان)(۲) إلاّ له، ولا أنزلها فى سواه، ولا مدح بها غيره.

معاشر الناس! نبيّكم خير نبىّ، ووصيّكم خير وصىّ، وبنوه خير الأوصياء.

معاشر الناس! ذرّية كلّ نبىّ من صلبه، وذريّتى من صلب على.

معاشر الناس! انّ اللّه قد أمرنى ونهانى، وقد أمرتُ علياً ونهيته، فعلم الأمر والنهى من ربّه عزّوجل، فاسمعوا لأمره تسلموا، وأطيعوا تهتدوا، وانتهوا لنهيه ترشدوا، وصيروا إلى مراده، ولا تتفرّق بكم السبل عن سبيله.

معاشر الناس! أنا صراط اللّه المستقيم الذى أمركم باتباعه، ثم علىّ من بعدى، ثم ولدى من صلبه أئمّةً يهدون إلى الحقّ وبه يعدلون،

ألا انّ أعداء على هم أهل الشقاق والنفاق، والحادّون، وهم العادون، وإخوان الشياطين الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

معاشر الناس! ألا وانّى منذر، وعلىّ هاد.

معاشر الناس! انّى نبىّ، وعلىّ وصىّ، ألا انّ خاتم الأئمّة منّا القائم المهدى.

معاشر الناس! قد بيّنت لكم وأُفهمتكم، وهذا على يفهمكم بعدى، ألا- وانى عند انقضاء خطبتى أدعوكم إلى مصافقتى على بيعته، والإقرار به، ثم مصافقته بعدى، ألا وانى قد بايعتُ اللّه، وعلىّ قد بايعنى، وأنا آخذكم بالبيعة له عن اللّه عزّ وجلّ (فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه)(۳).

معاشر الناس! وكلّ حلال دللتكم عليه، أو حرام نهيتكم عنه، فإنى لم أرجع عن ذلك ولم أُبدّل، ألا فاذكروا ذلك واحفظوه، وتواصوا به، ولا تبدلوه ولا تغيّروه، ألا فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وامروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، ألا وانّ رأس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: أن تنتهوا إلى قولى وتبلّغوه من لم يحضر، وتأمروه بقبوله، وتنهوه عن مخالفته، فإنه أمر من اللّه عزّوجلّ ومنّى، ولا- أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلّا مع إمام معصوم.

معاشر الناس! فما تقولون؟ قولوا الّذى قلت، وسلّموا على علىٍ بإمرة المؤمنين، وقولوا: سمعنا وأطعنا، وقولوا: الحمد للّه الّذى هدانا لهذا وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا اللّه.

معاشر الناس! انّ فضائل علىّ عند اللّه عزّوجل الذى قد أنزلها فى القرآن أكثر من أن أُحصيها فى مكان واحد، فمن أنبأكم بها فصدِّقوه.

معاشر الناس! من يطع اللّه ورسوله وعلياً أمير المؤمنين والأئمّة من ولده فقد فاز فوزاً عظيماً.

فناداه القوم: سمعنا وأطعنا أمر اللّه وأمر رسوله بقلوبنا وألسنتنا وأيدينا.

ثم انّ رسول اللّه (ص) نادى بأعلى صوته ويده فى يد على (ع) وقال: يا أيّها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟

قالوا بأجمعهم: بلى يا رسول اللّه.

فرفع رسول اللّه (ص) بضبع على (ع) حتى رأى الناس بياض ابطيهما، وقال على النسق من غير فصل: (فمن كنت مولاه فهذا علىّ مولاه، اللّهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من خالفه، وأدر الحقّ معه حيثما دار، ألا فليبلّغ ذلك منكم الشاهد الغائب، والوالد الولد).

الصحابة يبايعون عليّاً (ع)

ثم نزل رسول اللّه (ص) وكان وقت الظهيرة فصلّى ركعتين ثمّ زالت الشمس، فأذّن مؤذّنه لصلاة الفرض، فلما صلّى بهم جلس فى خيمته وأمر عليّاً (ع) أن يجلس فى خيمة له بازائه، ثم أمر (ص) المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنّؤوه (ع) بالولاية، ويسلّموا عليه بإمرة المؤمنين، ويبايعوه على ذلك.

ففعل الناس ذلك كلّهم حتى انّ أبا بكر وعمر بايعاه وعمر يقول له: بخّ بخّ لك يابن أبى طالب أصبحت مولاى ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة(۴)، ثم أردفا ذلك بقولهما: السلام عليك يا أميرالمؤمنين ورحمة اللّه وبركاته، ثم هنّؤوه بالخلافة.

ثم أمر رسول اللّه (ص) أزواجه وسائر نساء المؤمنين معه أن يدخلن على على (ع) ويسلّمن عليه بإمرة المؤمنين، ويبايعنه على ذلك، ففعلن وسلّمن عليه (ع) وبايعنه بإدخال أيديهنّ فى طشت فيه ماء كان قد أدخل على (ع) يده فيه قبل ذلك.

جبرئيل ويوم الغدير

ولما فرغ رسول اللّه (ص) من خطبته رأى الناس رجلاً جميلاً بهيّاً طيّب الريح وهو ينادى ويقول: تاللّه ما رأيتُ محمداً (ص) كاليوم قطّ، فسعى أحد الصحابة بمقالة الرجل إلى رسول اللّه (ص)، فقال له رسول اللّه (ص): أتدرى من ذلك الرجل؟

قال: لا.

قال (ص): ذلك هو الروح الأمين جبرئيل، فإيّاك إيّاك أن تحلّه، فإنّك إن فعلته، فاللّه ورسوله وملائكته والمؤمنون منك براء.

قال ابن عبّاس: قد وجبت واللّه بيعته فى رقاب الصحابة إلى يوم القيامة.

القرآن يبارك خلافة على (ع)

وعن ابن عباس، وحذيفة، وأبى ذر وغيرهم، انهم قالوا: واللّه ما برحنا من مكاننا ذلك حتى نزل جبرئيل بهذه الآية عن اللّه تعالى: (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام ديناً)(۵).

فقال رسول اللّه (ص): اللّه أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الربّ سبحانه وتعالى برسالتى إليكم، والولاية لعلىّ بن أبى طالب بعدى.

فعندها قام حسّان بن ثابت وقال: يا رسول اللّه أتأذن لى أن أقول فى هذا المقام ما يرضاه اللّه؟

فقال له (ص): قل يا حسّان على اسم اللّه.

فوقف على نشز من الأرض وتطاول الناس لسماع كلامه، فأنشأ يقول:

الغدير برواية الشعر

يناديهم يوم الغدير نبيّهم بخمّ واسمع بالرسول منادياً

فقال: فمن مولاكمُ ونبيكم؟ فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت نبيّنا ولم تلق منّا فى الولاية عاصيا

فقال له: قم يا على فإنّنى رضيتك من بعدى إماماً وهادياً

فمن كنتُ مولاه فهذا وليّه فكونوا له أتباع صدق مواليا

هناك دعا اللّهمّ وال وليّه وكن للذى عادى علياً معاديا

فقال له رسول اللّه (ص): لا تزال يا حسّان مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك.

ثم قام من بعده جماعة من الشعراء وألقوا على مسامع القوم أبياتاً فى مدح على (ع) وتبجيل هذه المناسبة العظيمة كقيس بن سعد بن عبادة الخزرجى وغيره.

مع النعمان الفهرى

ولما نصب رسول اللّه (ص) علياً (ع) يوم غدير خم وقال: من كنت مولاه فعلىّ مولاه، قَدِمَ على النبى (ص) النعمان بن الحارث الفهرى فقال: أمرتنا عن اللّه أن نشهد أن لا إله إلا اللّه، وانّك رسول اللّه، وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها ثم لم ترضَ حتى نصبت ابن عمك علينا وقلت: من كنت مولاه فعلىّ مولاه، فهذا شىء منك أو أمر من عند اللّه؟ فقال (ص): واللّه الذى لا إله إلا هو انّ هذا من اللّه، فولّى النعمان وهو يقول: اللّهمّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فرماه اللّه بحجر على رأسه فقتله، وأنزل اللّه تعالى: (سأل سائل بعذاب واقع)(۶) الآيات(۷).

من ذكريات الغدير

وفى يوم الغدير أمر رسول اللّه (ص) بعد أن أخذ البيعة لعلى (ع) بإمرة المؤمنين بزيادة الشهادة الثالثة: (أشهد أنَّ علياً وليّ اللّه) فى فصول الأذان والإقامة.

وقد قال الإمام الصادق (ع): (إذا قال أحدكم لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه، فليقل: على أمير المؤمنين)(۸).

وفى الحديث عن أبى ذر انه أذّن بعد واقعة الغدير وأخذ يهتف بعد الشهادتين بالشهادة الثالثة، فرفع ذلك بعض إلى رسول اللّه (ص)، فقال (ص): أما وعيتم خطبتى يوم الغدير لعلى بالولاية؟! أما سمعتم قولى فى أبى ذر: ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر؟!

وروى عن سلمان الفارسى أيضاً انه أذّن بعد قصة الغدير فذكر بعد الشهادتين الشهادة الثالثة فى أذانه، فأخبر بعض الصحابة رسول اللّه (ص) بذلك، فلم يرَ من رسول اللّه (ص) إلا انه أقرّ لسلمان ذلك.

هذا بالإضافة إلى روايات أُخرى تدلّ على أنّ الشهادة الثالثة جزء من الأذان والإقامة، وقد اخترنا ذلك فى الفقه(۹).

اللّه تعالى يعصم نبيّه (ص)

ثم انه لما تمّت بيعة الناس لعلى (ع) بالخلافة وبعد أن صلّى رسول اللّه (ص) بهم الفرض، أمرهم بالرحيل، وقد طال مكثهم هناك للبيعة ثلاثة أيّام.

فسار رسول اللّه (ص) بعد أن أمر الناس بالرحيل يومه وليلته حتى أشرف على عقبة هدشا، وكان قد تقدّمه نفر من المنافقين إلى ثنية العقبة وأخذوا معهم دباباً قد طرحوا فيها حجارة لينفروا برسول اللّه (ص) ناقته ويقضوا عليه قبل أن يصل إلى المدينة.

قال حذيفة: فدعانى رسول اللّه (ص) وأمرنى أن آخذ بزمام الناقة، ودعا عمّار بن ياسر وأمره بأن يسوقها، حتى إذا صرنا فى رأس العقبة ودحرج أُولئك النفر تلك الدباب بين قوائم الناقة، فزعت الناقة وكادت أن تنفر، فصاح بها رسول اللّه (ص) أسكنى يا مباركة فليس عليكِ بأس.

فلما رأى القوم ان الناقة لا تنفر تقدّموا إليها ليدفعوها بأيديهم، فجعلت أنا وعمّار نضرب وجوههم بأسيافنا وكانت ليلة مظلمة فتأخّروا عنا وقد أيسوا مما دبّروه.

فقلت: يا رسول اللّه ألا تبعث إليهم رهطاً من أصحابك يأتوك برؤوسهم؟

فقال (ص): انى أكره أن يقول الناس: دعا قوماً إلى دينه فأجابوه فقاتل بهم، حتى إذا ظفر بعدوّه قتلهم، ولكن دعهم فإن اللّه لهم بالمرصاد وسيمهلهم قليلاً ثم يضطرّهم إلى عذاب غليظ.

قال حذيفة: ثم انحدرنا من العقبة ونزل رسول اللّه (ص) وتوضّأ وانتظر أصحابه، حتى نزلوا واجتمعوا لصلاة الصبح، فرأيتُ أُولئك النفر قد انخرطوا مع القوم ودخلوا مع رسول اللّه (ص) إلى الصلاة، فلما قضيت الصلاة دعا رسول اللّه (ص) أُولئك النفر وعاتبهم على ما كان منهم من الوقوف على العقبة، فاعتذروا بأنّهم تقدّموه إليها لضيق المكان، وليأنس بعضهم ببعض، فنظر إليهم رسول اللّه (ص) مليّاً ثم قال: وما اللّه بغافل عمّا تعملون.

۱ المائدة: ۶۷. ۲ الإنسان: ۱. ۳ الفتح: ۱۰.

۴ بحار الانوار: ج۲۱، ص۳۸۸، مؤسسة الوفاء بيروت. ۵ المائدة: ۳.

۶ المعارج: ۱. ۷ بحار الانوار: ج۳۷ ص۱۷۵ ب۵۲ ح۶۲.

۸ بحار الانوار: ج۲۷ ص۱ ب۱۰ ح۱.

۹ راجع موسوعة الفقه ج۱۹ كتاب الصلاة، فى فصول الأذان والإقامة.

الثقلان وديعتا رسول اللّه (ص)

ثم ان رسول اللّه (ص) لم يزل بعد يوم الغدير يكرّر من قوله:
(يا أيها الناس انى فرطكم، وأنتم واردون علىَّ الحوض، ألا وانى سائلكم عن الثقلين، فانظروا كيف تخلّفونى فيهما، فإنّ اللطيف الخبير نبّأنى انّهما لن يفترقا حتى يلقيانى، وسألت ربّى ذلك فأعطانيه، ألا وانى قد تركتهما فيكم: كتاب اللّه، وعترتى أهل بيتى، فلا تسبقوهم فتفرّقوا، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم، أيها الناس لا ألفينّكم بعدى ترجعون كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض، فتلقونى فى كتيبة كمجرّ السيل الجرّار، ألا ـ وان على بن أبى طالب أخى ووصيّى، يقاتل بعدى على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله).

تأكيد حديث الغدير

وعن على (ع) انه قال: أمرنى رسول اللّه (ص) أن أخرج فأُنادى فى الناس: (ألا من ظلم أجيراً أجره فعليه لعنة اللّه، ألا من توالى غير مواليه فعليه لعنة اللّه، ألا ومن سبّ أبويه فعليه لعنة اللّه).
قال على (ع): فخرجت فناديت فى الناس كما أمرنى رسول اللّه (ص) فقال الناس: هل لما ناديت به من تفسير؟
قلت: اللّه ورسوله أعلم.
قال (ع): فقام جماعة من أصحاب النبى (ص) فدخلوا عليه، فقالوا: يا رسول اللّه (ص) هل لما نادى على من تفسير؟
قال (ص): نعم، أمرته أن ينادى: ألا من ظلم أجيراً أجره فعليه لعنة اللّه، واللّه يقول: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة فى القربى)(۱) فمن ظلمنا أجرنا فعليه لعنة اللّه.
وأمرته أن ينادى: من توالى غير مواليه فعليه لعنة اللّه، واللّه يقول: (النبىّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم)(۲) ومن كنت مولاه فعلىّ مولاه، فمن توالى غير على وذرّيته فعليه لعنة اللّه.
وأمرته أن ينادى: من سبّ أبويه فعليه لعنة اللّه، وأنا أُشهد اللّه وأُشهدكم انى وعلياً أبوا هذه الأُمّة، فمن سبّ أحدنا فعليه لعنة اللّه.
قال الخباب بن الأرتّ: كان هذا الحديث قبل ارتحال النبى (ص) من هذه الدنيا بتسعة عشر يوماً.

سريّة أُسامة إلى الروم

ثم عقد رسول اللّه (ص) اللواء والإمرة لأُسامة بن زيد، وندبه أن يخرج بجمهور الأُمّة إلى حيث أُصيب أبوه من بلاد الروم، وكانت هذه هى آخر سريّة عقدها رسول اللّه (ص) فى حياته، وكان قد اجتمع رأيه على إخراج جماعة من الذين تآمروا عليه فى العقبة وتعاهدوا بينهم على نكث البيعة فى معسكره، حتى لا يبقى فى المدينة عند ارتحاله (ص) من يختلف فى الرياسة، ويطمع فى التقدّم على الناس بالإمارة، ويستتب الأمر لمن استخلفه من بعده ولا ينازعه فى حقّه منازع.
فعقد (ص) لأُسامة الإمرة على كبار الصحابة وذوى أسنانهم وهو حدث السنّ، حتى لا يطعن أحد فى تعيين اللّه ونصب رسوله علياً خليفة من بعده وأميراً للمؤمنين بحداثة السنّ، ثم جدّ فى إخراجهم، وأمر أُسامة أن يعسكر بالجرف على أميال من المدينة، وأمر الناس بالخروج إليه والمسير معه، وحذّرهم من التلوّم والإبطاء عنه. وقال (ص): نفّذوا جيش أُسامة، نفّذوا جيش أُسامة، لعن اللّه من تخلّف عن جيش أُسامة، يكرّرها ثلاثاً(۳).

الإستغفار لأهل البقيع

بينا كان رسول اللّه (ص) يُحرص أشدّ الحرص على تسيير جيش اُسامة، ومغادرة رؤوس أصحابه المدينة، وتخليتها لعلى (ع) من المعارضين، إذ عرضت له الشكاة التى ارتحل فيها من الدنيا، وكانت شكاته على أثر اُكلة خيبر المسمومة، فإنه مازال ينتقض به سمّها حتى قال (ص) عند ارتحاله: (اليوم قطعت مطايای الأكلة التى أكلتُ بخيبر، وما من نبىّ ولا وصىّ إلّا شهيد). وهناك روايات اُخرى فى سبب شهادته (ص) مذكورة فى المفصّلات.

فلما أحسّ رسول اللّه (ص) بذلك أخذ بيد على بن أبى طالب (ع)، واتبعه جماعة من الناس، وتوجّه إلى البقيع، فقال لمن اتبعه: اننى قد اُمرت بالإستغفار لأهل البقيع، فانطلقوا معه حتى وقف بين أظهرهم وقال: (السلام عليكم يا أهل القبور، ليهنئكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم يتبع أولها آخرها).

ثم استغفر (ص) لأهل البقيع طويلاً.

ثم أقبل إلى على أميرالمؤمنين (ع) وقال له: (يا أخى انّ جبرئيل كان يعرض علىّ القرآن كل سنة مرة، وقد عرضه علىّ فى العام مرتين، ولا أراه إلاّ لحضور أجلى)، ثم قال: (يا على إنى خيّرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها، وبين لقاء ربّى والجنّة، فاخترتُ لقاء ربّى والجنّة خالداً فيها، فإذا أنا متّ فتغسلنى) وأوصاه أن يكون (ع) هو الذى يلى أمره.

لا نجاة الا بعمل مع رحمة اللّه

ثم عاد رسول اللّه (ص) من البقيع إلى منزله، فمكث ثلاثة أيام موعوكاً، ثم خرج إلى المسجد معصوب الرأس معتمداً إلى على أمير المؤمنين (ع) بيمنى يديه، وعلى الفضل بن العباس باليد الاُخرى حتى صعد المنبر فجلس عليه، ثم حمد اللّه وأثنى عليه وقال: (معاشر الناس قد حان منّى خفوق من بين أظهركم، فمن كان له عندى عدة فليأتنى أعطه إياها، ومن كان له علىَّ دَيْن فليخبرنى به).

فقام إليه رجل فقال: يا رسول اللّه ان لى عندك عدة، انى تزوّجت فوعدتنى أن تنحلنى ثلاثة أفواق.

فأمر (ص) له بذلك وقال: انحلها وافضل.

ثم قال: معاشر الناس! انه ليس بين اللّه وبين أحد شيئاً يعط به خيراً، أو يصرف به عنه شرّاً، الاّ العمل، أيها الناس لا يدّعى مدّعٍ، ولا يتمنّى متمنٍّ، والذى بعثنى بالحق نبياً لا ينجى إلا عمل مع رحمة اللّه، ولو عصيت لهويت، ثم قال: اللّهمّ هل بلّغت؟ ثم نزل فصلّى بالناس صلاة خفيفة، ثم دخل بيته.

الكتاب والعترة خليفتا رسول اللّه (ص)

فلمّا كان من الغد أقبل الأنصار وأحدقوا بالباب، وعلموا بشدّة نقاهة رسول اللّه (ص) والضعف الذى هو فيه فجعلوا يبكون، فسمع رسول اللّه (ص) البكاء فقال: من هؤلاء الباكون؟

قالوا: هم الأنصار يا رسول اللّه.

فقال (ص): مَن هنا مِن أهل بيتى؟

قالوا: على (ع) والعبّاس، فدعا بهما وخرج متكياً عليهما واستند إلى جذع من جذوع مسجده، واجتمع الناس حوله، فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: (معاشر الناس! انه لم يمت نبىّ قطّ إلا خلّف تركة، وقد خلّفتُ فيكم الثقلين: كتاب اللّه، وعترتى أهل بيتى، فتمسّكوا بهما، فمن ضيّعهما ضيّعه اللّه، ألا وان الأنصار كرشى وعيبتى آوى إليها، اُوصيكم بتقوى اللّه والإحسان إلى محسنهم، والتجاوز عن مسيئهم).

مع اُسامة بن زيد

ثم انّ رسول اللّه (ص) دعا اُسامة بن زيد الذى أمره أن يعسكر بالجرف وقال له: سِر على بركة اللّه حيث أمرتك بمن أمّرتك عليه.
فقال اُسامة: بأبى أنت واُمّى يا رسول اللّه، أتأذن لى فى المقام عندك حتى يشفيك اللّه، فإنى متى خرجت وأنت على هذه الحالة خرجت وفى قلبى منك قرحة.
فقال له رسول اللّه (ص): انفذ يا اُسامة إلى ما أمرتك.
فخرج اُسامة من يومه ذلك، ونادى منادى رسول اللّه (ص): ألا لا يتخلّف عن جيش اُسامة أحد ممن أمَّرته عليه.
ثم أمر (ص) قيس بن عبادة والحباب بن المنذر بإخراج جماعة من الأنصار كانوا قد تثاقلوا، وأمرهم بترحيل القوم إلى عسكرهم، ففعلا ذلك حتى ألحقوهم بالعسكر، وقالا لاُسامة: إنّ رسول اللّه (ص) لم يرخّص لك فى التأخير، فسر من قبل أن يعلم بتأخيرك، فارتحل بهم اُسامة، وانصرف قيس والحبّاب إلى رسول اللّه(ص) وأخبراه بمسير القوم، ومع ذلك فقد تخلّف عن جيش اُسامة بعض كما ورجع منهم آخرون إلى المدينة.

النبى (ص) يصلّى بالمسلمين جالساً

وكان رسول اللّه (ص) لشدّة شكاته فى تلك الليلة لا يفارقه على (ع) والفضل بن العباس، وكان بلال عندما يؤذّن لكل فريضة يأتى إلى النبى (ص) فيقول: الصلاة يا رسول اللّه، فإن قدر رسول اللّه (ص) على الخروج إلى الصلاة خرج وصلّى بالناس، وإن لم يقدر أمر على بن أبى طالب (ع) أن يصلّى بهم.
وفى صباح تلك الليلة أتاه بلال على عادته يؤذنه بالصلاة، فوجده قد ثقل عن الخروج، فنادى: الصلاة رحمكم اللّه، فأذّن رسول اللّه (ص) بندائه ورأسه فى حجر على (ع). ولم يتمكّن (ص) من الخروج إلى المسجد.. هذا والمسلمون جالسون للصلاة فتقدّم أحد الصحابة إلى المحراب، فلمّا كبر سمعه رسول اللّه(ص)، فقال لمن حوله: سنّدونى وأخرجونى إلى المسجد.
فخرج (ص) وهو معصّب الرأس معتمداً بين على (ع) والفضل بن العبّاس ورجلاه يخطّان فى الأرض من الضعف، فتقدّم رسول اللّه (ص) ونحّى الصحابى عن المحراب، وابتدأ الصلاة وكبّر لها مستأنفاً وهو جالس، وبلال يسمع الناس التكبير.
فلما أكمل (ص) صلاته قال لمن حوله: عرّجوا بى إلى المنبر، فأجلسوه على أدنى مرقاة منها واجتمع له جميع أهل المدينة من المهاجرين والأنصار حتى برزت العواتق من خدورهنّ فبين باك وصارخ والنبى (ص) يخطب ساعة ويسكت ساعة.
وكان مما ذكر (ص): أن حمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال (ص): (ألا أيُّها الناس انى مخلّف فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدى، كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض، فتمسّكوا بهما، فلا تتقدّموا أهل بيتى فتمرقوا، ولا تتأخّروا عنهم فتزهقوا، وأوفوا بعهدى، ولا تنكثوا بيعتى التى بايعتمونى عليها، اللّهمّ انى قد بلّغت ما أمرتنى، ونصحت لهم ما استطعت، وما توفيقى إلا باللّه عليه توكلت وإليه اُنيب).
وفى رواية انه (ص) قال: ألا قد خلّفت فيكم كتاب اللّه فيه النور والهدى والبيان، ما فرّط اللّه فيه من شىء، حجّة اللّه عليكم وحجّتى وحجّة وليّى، وخلّفت فيكم العلم الأكبر، عَلَم الدين، ونور الهدى: وصيّى على بن أبى طالب، ألا هو حبل اللّه فاعتصموا به جميعاً ولا تفرَّقوا عنه.
أيّها الناس! لا تأتونى غداً بالدنيا تزفّونها زفّاً، ويأتى أهل بيتى شعثاً غبراً، مقهورين مظلومين، تسيل دماؤهم.
أيّها الناس! اللّه اللّه فى أهل بيتى، فإنهم أركان الدين، ومصابيح الظلم، ومعدن العلم، على أخى ووزيرى، وأمينى والقائم من بعدى بأمر اللّه، والموفى بذمّتى، ومحيى سنّتى، أول الناس بى ايماناً، وآخرهم عهداً عند الموت، وأولهم لى لقاءاً يوم القيامة، فليبلّغ شاهدكم

غائبكم.

أيّها الناس! ومن كانت له قبلى تبعة فها أنا ومن كانت له عدة أو دَيْن فليأت فيها على بن أبى طالب فإنّه ضامن لذلك كله حتى لا يبقى لأحد علىّ تبعة.

ثم قام (ص) معتمداً بين على (ع) والفضل بن العبّاس ودخل منزله.

مع المتخلّفين عن جيش اُسامة

ثم انّ رسول اللّه (ص) بعث من استدعى له المتخلّفين عن جيش اُسامة، فلما حضروا قال لهم (ص): ألم آمركم أن تنفّذوا جيش اُسامة؟!

فقالوا: بلى يا رسول اللّه.

فقال (ص): فلم تأخّرتم عن أمرى؟

فقال بعضهم: انى كنت قد خرجت ثم رجعت لاُجدِّد بك عهداً.

وقال بعض آخر: انى لم أخرج لأنى لم اُحب أن أسأل عنك الركبان.

فقال رسول اللّه (ص): نفّذوا جيش اُسامة، نفّذوا جيش اُسامة يكرّرها ثلاثاً لعن اللّه من تأخّر عنه(۴)، ثم اشتدّ ضعفه (ص) وانقطع عن الكلام لعظم ما لحقه من التعب والضعف، فبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه وولده ونساء المسلمين وجميع من حضره (ص).

الرزية كل الرزية

ثم مكث رسول اللّه (ص) هنيئة كذلك، حتى إذا أفاق من ضعفه نظر إلى من حضره وقال (ص): (ايتونى بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً)، فقال بعضهم: ان الرجل ليهجر! (۵).

هذا والقرآن يقول: (ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحى يوحى)(۶).

عند ذلك أعرض رسول اللّه (ص) بوجهه عن القوم، فنهضوا.

قال سليم: وكان ابن عباس كلما تذكّر ذلك بكى وقال: الرزيّة كل الرزية ما حال بين رسول اللّه (ص) وبين أن يكتب لنا ذلك الكتاب.

أنتم المستضعفون بعدى

ولما أعرض رسول اللّه (ص) عن القوم بوجهه، نهض القوم من عنده وانصرفوا، وبقى عنده على بن أبى طالب (ع) والعباس بن عبدالمطلب وأهل بيته خاصة.

عندها التفت اليهم رسول اللّه (ص) وقال لهم: أنتم المستضعفون من بعدى وصمت، فنهضوا وهم يبكون وقد يئسوا من النبى (ص).

مع ابن عباس

ثم ان ابن عباس استأذن على رسول اللّه (ص) فأذن له، فلما دخل عليه ورآه بتلك الحالة قال: بأبى أنت واُمى يا رسول اللّه قد دنا أجلك؟

قال (ص): نعم، يابن عباس.

فقال: يا رسول اللّه فما تأمرنى به؟

قال (ص): يابن عباس خالف من خالف علياً ولا تكوننّ لهم ظهيراً ولا ولياً.

ثم بكى رسول اللّه (ص) حتى اشتدّ ضعفه، فلما أفاق قال: يابن عباس سبق الكتاب فيهم وعلم ربى، والذى بعثنى بالحق نبياً لا يخرج أحد ممن خالفه من الدنيا وأنكر ولايته وحقه حتى يغيّر اللّه ما به من نعمة، يابن عباس! إذا أردت أن تلقى اللّه وهو عنك راضٍ فاسلك طريقة على بن أبى طالب، ومِّل معه حيث ما مال، وارض به إماماً، وعادِ من عاداه، ووالِ من والاه، يابن عباس! إحذر أن يدخلك فيه شك، فإن الشك فى على (ع) كفر باللّه.

فى وداع الأنصار

ثم انّ رسول اللّه (ص) دعا الأنصار، فلما حضروا التفت إليهم وقال: (يا معشر الأنصار قد حان الفراق، وقد دعيت وأنا مجيب الداعى، وقد جاورتم فأحسنتم الجوار، ونصرتم فأحسنتم النصرة، وواسيتم فى الأموال، ووسّعتم فى السكنى، وبذلتم للّه مهج النفوس، واللّه يجزيكم بما فعلتم الجزاء الأوفى، وقد بقيت واحدة، وهى تمام الأمر وخاتمة العمل، العمل بها مقرون، انى أرى أن لا يفرق بينهما جميعاً، لو قيس بينهما بشعرة ما انقاست، من أتى بواحدة وترك الأُخرى كان جاحداً للأُولى ولايقبل اللّه منه صرفاً ولا عدلاً).

فقالوا: يا رسول اللّه بيّنها لنا نتمسّك بها فلا نضلّ ونرتدّ عن الإسلام.

فقال رسول اللّه (ص) فى جوابهم: (كتاب اللّه، وأهل بيتى، فإن الكتاب هو القرآن، وفيه الحجة والنور والبرهان، كلام اللّه جديد غض طرى شاهد ومحكم عادل ولنا قائد بحلاله وحرامه وأحكامه، يقوم غداً فيحاجّ أقواماً فيزلّ اللّه به أقدامهم عن الصراط، واحفظونى معاشر الأنصار فى أهل بيتى، فإن اللطيف الخبير أخبرنى انهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض، ألا وان الإسلام سقف تحته دعامة لا يقوم السقف إلا بها، فلو انّ أحدكم أتى بذلك السقف ممدوداً لا دعامة تحته فأوشك أن يخرّ عليه سقفه فيهوى فى النار. أيها الناس! الدعامة دعامة الإسلام وذلك قوله تعالى: (إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه)(۷) فالعمل الصالح طاعة الإمام ولى الأمر من بعدى على بن أبى طالب والتمسّك بحبله. أيها الناس! أفهمتم؟ اللّه اللّه فى أهل بيتى مصابيح الظلم، ومعادن العلم، وينابيع الحكم، ومستقر الملائكة، منهم وصيى وأمينى ووارثى على بن أبى طالب وهو منى بمنزلة هارون من موسى، ألا هل بلّغت معاشر الأنصار؟ ألا فاسمعوا ومن حضر، ألا ان فاطمة بابها بابى وبيتها بيتى، فمن هتكه فقد هتك حجاب اللّه).

وداع مع المهاجرين

ثم أمر رسول اللّه (ص) بأن يجمعوا له المهاجرين، فلما اجتمعوا التفت إليهم وقال: (أيها الناس انى قد دعيت وانى مجيب دعوة الداعى، قد اشتقت إلى لقاء ربّى واللحوق بإخوانى من الأنبياء، وانى أُعلمكم انى قد اوصيت إلى وصيّى، ولم أهملكم إهمال البهائم، ولم أتاركك من أُموركم شيئاً).

فقام إليه أحدهم وقال: يا رسول اللّه أوصيت بما أوصى به الأنبياء من قبلك؟

قال (ص): نعم.

فقال الرجل: فبأمر من اللّه أوصيت أم بأمرك؟

قال (ص) له: اجلس يا فلان، أوصيتُ بأمر اللّه، وأمره طاعته، وأوصيت بأمرى، وأمرى طاعة اللّه، ومن عصانى فقد عصى اللّه، ومن عصى وصيّى فقد عصانى، ومن أطاع وصيّى فقد أطاعنى، ومن أطاعنى فقد أطاع اللّه...

ثم التفت (ص) إلى الناس وقال: أيها الناس! اسمعوا وصيّتى، من آمن بى وصدّقنى بالنبوة وانى رسول اللّه (ص) فأُوصيه بولاية على بن أبى طالب وطاعته والتصديق له، فإن ولايته ولايتى وولاية ربّى، قد أبلغتكم فليبلّغ الشاهد الغائب: ان على بن أبى طالب هو العلم،

فمن قصر دون العلم فقد ضلّ، ومن تقدّمه تقدّم إلى النار، ومن تأخّر عن العلم يميناً هلك، ومن أخذ يساراً غوى، وما توفيقى إلا باللّه، فهل سمعتم؟).

قالوا: نعم.

وفى روايۀ: انه (ص) قال: ألا انى مخلف فيكم كتاب اللّه ربّى عزّوجل، وعترتى أهل بيتى.

ثم أخـذ بيد على (ع) فرفعها وقال: هذا على مع القرآن والقرآن مع على، خليفتان نصيران، لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض، فأسألهما ماذا خُلّفت فيهما.

مع الثقلين: الأكبر والأصغر

قـال أبو سـعيد الخـدرى: ان آخر خطبـۀ خطبنا بها رسول اللّه (ص) لخطبـۀ خطبنا فى مرضه الـذى قبض فيه، خرج متوكياً فجلس على المنبر ثم قال: (يا أيها الناس انى تارك فيكم الثقلين) وسكت.

فقام رجل فقال: يا رسول اللّه ما هذان الثقلان؟

قال (ص): ما ذكرتهما إلا وأنا اُريد أن اُخبركم بهما، الثقل الأكبر: كتاب اللّه سبب طرفه بيد اللّه وطرف بأيديكم، والثقل الأصغر: أهل بيتى.

ثم قال (ص): وأيم اللّه انى لأقول لكم هذا ورجال فى أصلاب أهل الشرك أرجى عندى من كثير منكم.

ثم قـال (ص): واللّه لاـ يحبّهم عبـد إلاّـ أعطـاه اللّه نوراً يوم القيامـۀ حتى يرد علىّ الحوض، ولا يبغضـهم عبـد إلا احتجب اللّه عنه يوم القيامۀ.

وكان ممّا قاله رسول اللّه (ص) والمسـلمون مجتمعون حوله: أيها الناس! انه لا نبى بعدى، ولا سنّۀ بعد سنّتى، فمن ادّعى ذلك فدعواه وباغيه فى النار، أيها الناس! احيوا القصاص، واحيوا الحق لصاحب الحق، ولا تفرقوا، وأسـلموا وسـلّموا، كتب اللّه لأغلبنّ أنا ورسلى إنّ اللّه قوىّ عزيز.

ومما قـاله (ص) فى أيـامه الأـخيرۀ: أيهـا النـاس حيـاتى خير لكم، ومماـتى خير لكم، فأمـا حيـاتى: فـإن اللّه هـداكم بى من الضـلالۀ، وأنقـذكم من شـفا حفرۀ من النـار، وأمـا مماـتى فـإن أعمـالكم تعرض علىّ، فمـا كـان من حسن استزدت اللّه لكم، وما كان من قبيح استغفرت اللّه لكم.

فقام بعض من حضر وقال: وكيف ذاك يا رسول اللّه وقد رممت؟ يعنى: صرت رميماً.

فقال: كلا، ان اللّه حرم لحومنا على الأرض فلا تطعم منها شيئاً.

وإلى هذا أشار أبو عبداللّه الصادق (ع) عندما قال: مالكم تسوؤن رسول اللّه (ص)؟

فقال له رجل: جعلت فداك وكيف نسوؤه؟

قال (ع): أما تعلمون ان أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى فيها معصيۀ اللّه ساءه؟ فلا تسوؤا رسول اللّه (ص) وسرّوه.

الوصيۀ والوصى

ولما ثقل رسول اللّه (ص) فى مرضه الذى قبض فيه كان رأسه فى حجر على(ع)، والبيت مملوء من أصـحابه من المهاجرين والأنصار، والعباس بين يديه يذب عنه بطرف ردائه، فالتفت رسول اللّه (ص) إلى عمه العباس وقال: يا عباس يا عم النبى أقبل وصيّتى فى أهلى، وفى أزواجى، واقض دينى، وأنجز عداتى، وأبرىء ذمّتى.

فقال العباس: يا رسول اللّه أنا شيخ ذو عيال كثير، غير ذى مال ممدود، وأنت أجود من السحاب الهاطل، والريح المرسلۀ، تبارى الريح

سخاءاً وكرماً، فلو صرفت ذلك عنى إلى من هو أطوق له منّى.

فقال رسول اللّه (ص): أما انى سأعطيها من يأخذها بحقّها، ومن لايقول مثل ما تقول، يا على هاكها خالصة لا يحاقك فيها أحد، يا على أقبل وصيتى، وأنجز مواعيدى، وأدِّ دينى، يا على اخلفنى فى أهلى واُمّتى، وبلّغ عنى من بعدى.

قال على (ع): لما نعى رسول اللّه (ص) إليّ نفسه رجف فؤادى واُلقى على لقوله البكاء، فلم أقدر أن اُجيبه بشيء.

ثم عاد (ص) لقوله، فقال (ص): يا على أوَتقبل وصيّتى؟

قال (ع): فقلت، وقد خنقتنى العبرة ولم أكد ابين: نعم يا رسول اللّه.

فقال (ص): يا بلال ايتنى بذى الفقار، ودرعى ذات الفضول، ايتنى بمغفرى ذى الجبين، ورايتى العقاب، ايتنى بالعنزة والممشوق.

فأتى بلال بذلك كله إلا درعه كانت يومئذ مرهونة فى أصوع من شعير، كان (ص) قد استقرضها لقوته وقوت عياله.

ثم قال (ص): ايتنى بالمرتجز والعضباء، ايتنى باليعفور والدلدل، فأتى بها فوقفها بالباب.

ثم قال (ص): ايتنى بالأتحمية والسحاب، فأتى بهما، فلم يزل يدعو بشيء شيء، فافتقد عصابة كان يشدّ بها بطنه فى الحرب، فطلبها فأتى بها والبيت غاص يومئذ بمن فيه من المهاجرين والأنصار.

ثم قال (ص): يا على قم فاقبض هذا فى حياة منّى، وشهادة من فى البيت، لكيلا ينازعك أحد من بعدى.

قال على (ع): فقمت واستودعت ذلك جميعاً منزلى، ثم جئت فقمت بين يدى رسول اللّه (ص) فنظر إليَّ ثم عمد إلى خاتمه فنزعه ثم دفعه إليَّ وقال: هاك يا على هذا لك فى الدنيا والآخرة.

ثم قال (ص) لى: يا على أجلسنى، فأجلسته وأسندته إلى صدرى.

قال على (ع): فلقد رأيت رسول اللّه (ص) وان رأسه ليثقل ضعفاً وهو يقول يسمع أقصى أهل البيت وأدناهم: إنّ أخى ووصيّى ووزيرى وخليفتى فى أهلى واُمّتى على بن أبى طالب، يقضى دينى، وينجز موعدى، يا بنى هاشم يا بنى عبد المطلب لا تبغضوا علياً، ولا تخالفوا عن أمره فتضلّوا.

ثم قال (ص): أضجعنى يا على، فأضجعته، فقال (ص) لبلال: يا بلال ايتنى بولديَّ الحسن والحسين، فانطلق فجاء بهما فأسندهما إلى صدره، فجعل (ص) يشمّهما.

قال على (ع): فظننت انهما قد غمّاه يعنى أكرباه فذهبت لآخذهما عنه.

فقال (ص): دعهما يا على يشمّانى وأشمّهما، ويتزوّدا منّى وأتزوّد منهما، فسيلقيان من بعدى زلزالاً وأمراً عضالاً فلعن اللّه من يخيفهما، اللّهمّ إنّى أستودعكهما وصالح المؤمنين.

مع ابنته فاطمة (عليها السلام)

قال سلمان: بينا أنا عند رسول اللّه (ص) فى مرضه الذى قبض فيه، إذ دخلت عليه فاطمة (ع) فلما رأت ما به (ص) خنقتها العبرة حتى فاضت دموعها على خدّيها، فأبصر ذلك رسول اللّه (ص) فقال: ما يبكيك يا بنيّة، أقرّ اللّه عينك ولا أبكاها؟

قالت (ع): وكيف لا أبكى وأنا أرى ما بك من الضعف؟ فمن لنا بعدك يا رسول اللّه؟

فقال (ص) لها (ع): يا فاطمة لكم اللّه فتوكّلى عليه واصبرى كما صبر آباؤك من الأنبياء، واُمّهاتك من أزواجهم، ألا اُبشرك يا فاطمة؟

قالت (ع): بلى يا أبه.

قال (ص): أما علمت ان اللّه تعالى اختار أباك فجعله نبياً، وبعثه إلى كافة الخلق رسولاً، ثم اختار علياً فأمرنى فزوّجتك إياه، واتخذته بأمر ربّى وزيراً ووصيّاً، يا فاطمة انّ علياً أعظم المسلمين على المسلمين بعدى حقاً، وأقدمهم سلماً، وأعزهم خطراً، وأجملهم خلقاً،

وأشدّهم فى اللّه وفيّ غضباً، وأعلمهم علماً، وأحلمهم حلماً، وأثبتهم فى الميزان قدراً، وأشجعهم قلباً، وأربطهم جأشاً، وأسخاهم كفاً.

فاستبشرت فاطمة (ع)، فأقبل عليها رسول اللّه (ص) وقال: هل سررتك يا فاطمة؟

قالت (ع): نعم يا أبة، الحديث.

وصايا خاصة

قال ابن عباس: لما مرض رسول اللّه (ص) وعنده أصحابه قام إليه عمار بن ياسر فقال له: فداك أبى وأُمى يا رسول اللّه من يغسلك منا إذا كان ذلك منك؟

قال (ص): ذاك على بن أبى طالب (ع)، لأنه لا يهمّ بعضو من أعضائى إلا أعانته الملائكة على ذلك.

فقال له: فداك أبى وأُمى يا رسول اللّه فمن يصلّى عليك منّا إذا كان ذلك منك؟

قال (ص): مه! رحمك اللّه، ثم قال لعلى (ع): يا ابن أبى طالب إذا رأيت روحى قد فارقت جسدى فاغسلنى، وانق غسلى، وكفّنى فى طمريّ هذين، أو فى بياض مصر، وبرد يمان، ولا تغال فى كفنى، واحملونى حتى تضعونى على شفير قبرى، فأول من يصلّى علىّ الجبّار جلّ جلاله من فوق عرشه، ثم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فى جنود من الملائكة لا يحصى عددهم إلا اللّه عزّوجل، ثم الحافّون بالعرش، ثم سكّان أهل سماء فسماء، ثم جلّ أهل بيتى ونسائى الأقربون فالأقربون، يؤمون ايماءاً، ويسلّمون تسليماً.

حقوق الناس

قال ابن عباس: ثم ان رسول اللّه (ص) قال لبلال: يا بلال هلمّ علىّ بالناس، فاجتمع الناس، فخرج رسول اللّه (ص) متعصّباً بعمامته، متوكياً على قوسه، حتى صعد المنبر، فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: يا معاشر أصحابى أىّ نبىّ كنت لكم؟

قالوا: كنت للّه صابراً، وعن منكر بلاء اللّه ناهياً، فجزاك اللّه عنّا أفضل الجزاء.

فقال (ص): وأنتم فجزاكم اللّه، ثم قال (ص): انّ ربّى عزّوجل حكم وأقسم أن لا يجوزه ظلم ظالم، فناشدتكم باللّه أىّ رجل منكم كانت له قِبَل محمد مظلمة إلّا قام فليقتص منه، فالقصاص فى دار الدنيا أحبّ إلىَّ من القصاص فى دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء.

فقام إليه رجل من أقصى القوم يقال له: سوادة بن قيس وقال: فداك أبى وأُمّى يا رسول اللّه، انك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت تريد الراحلة فأصاب بطنى، فلا أدرى عمداً أو خطأً.

فقال (ص): معاذ اللّه أن أكون قد تعمّدت، ثم قال: يا بلال قم إلى منزل فاطمة فائتنى بالقضيب الممشوق.

فخرج بلال وهو ينادى فى سككك المدينة: معاشر الناس من ذا الذى يعطى القصاص من نفسه قبل يوم القيامة؟ فهذا محمد (ص) يعطى القصاص من نفسه قبل يوم القيامة!

فلما وصل منزل فاطمة (ع) طرق الباب وهو يقول: يا فاطمة قومى فوالدك يريد القضيب الممشوق.

فأقبلت فاطمة (ع) وهى تقول: يا بلال وما يصنع والدى بالقضيب الممشوق فى مثل هذا اليوم؟!

فقال بلال: يا فاطمة أما علمتِ انّ والدكِ قد صعد المنبر وهو يودّع أهل الدين والدنيا.

فصاحت فاطمة (ع) وقالت: واغمّاه لغمّك يا أبتاه، من للفقراء والمساكين وابن السبيل، يا حبيب اللّه وحبيب القلوب؟

ثم ناولت بلالاً القضيب، فجاء به حتى ناوله رسول اللّه (ص)، عندها قال رسول اللّه (ص): أين الشيخ؟

قام الشيخ وهو يقول:ها أنا ذا يا رسول اللّه بأبى أنت وأُمّى.

فقال (ص): تعال فاقتصّ منّى حتى ترضى.

فجاء الشيخ وقال: فاكشف لى عن بطنك يا رسول اللّه، فكشف (ص) عن بطنه مستسلماً للقصاص.

فقال الشيخ: بأبى أنت وأُمى يا رسول اللّه، أتأذن لى أن أضع فمى على بطنك؟

فأذن (ص) له، فوضع الشيخ فمه عليه يقبّله وهو يقول: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول اللّه (ص) من النار يوم النار.

فقال (ص) له عند ذلك: يا سوادة بن قيس أتعفو أم تقتصّ؟

قال: بل أعفو يا رسول اللّه.

فقال (ص): اللّهمّ اعف عن سوادة بن قيس كما عفى عن نبيّك محمّد.

أقول: الظاهر ان سوادة بن قيس أراد أن يقبّل جسم رسول اللّه (ص) فقال ما قال، وإلا فالرسول (ص) لا يخطأ حتى فى مثل ما ادعاه سوادة، لأن العصمة تمنع عن الخطأ، ولعل الرسول (ص) لم يكذبه حتى لا يقول الناس ان النبى (ص) حيث أراد التخلّص من القصاص كذب سوادة.

ثم قام رسول اللّه (ص) فدخل بيت أُم سلمة وهو يقول: ربّ سلّم أُمّة محمد من النار، ويسّر عليهم الحساب.

فقالت أُم سلمة: يا رسول اللّه ما لى أراك مغموماً متغيّر اللون؟

فقال (ص): نعيت إلى نفسى هذه الساعة، فسلام لك فى الدنيا، فلا تسمعين بعد هذا صوت محمد أبداً.

فقالت أُم سلمة: واحزناه حزناً لا تدركه الندامة عليك يا محمداه.

۱ الشورى: ۲۳. ۲ الأحزاب: ۶.

۳ راجع شرح النهج لابن أبى الحديد: ج۶ ص۵۲، دار إحياء التراث العربى، وفيه: (انفذوا جيش أُسامة، لعن الله من تخلّف عنه، وكرّر ذلك).

۴ وفى شرح النهج لابن أبى الحديد: (انفذوا جيش أُسامة لعن الله من تخلّف عنه وكرر ذلك) ج۶ ص۵۲/ دار إحياء التراث العربى.

۵ راجع مسند أحمد بن حنبل: ج۱ ص۳۵۵ ح۳۳۲۶ وفيه: (قال رسول الله: ائتونى باللوح والدواة، أو الكتف، اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً، فقالوا: إن رسول الله ليهجر) ومثله فى صحيح مسلم: ج۳ ص۱۲۵۹ ح۱، وراجع صحيح البخارى ج۱ ص۲۹ ط دار إحياء التراث العربى، باب كتابة العلم، وفيه: (قال عمر: إن النبى غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا) والبخارى: ج۶ ص۱۱ باب مرض النبى، وفيه: (فقال بعضهم: ان رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله). [الناشر].

۶ النجم: ۲ ۴. ۷ فاطر: ۱۰.

النبى (ص) ساعة الوداع

قال ابن مسعود: لما دنا فراق رسول اللّه (ص) جمعنا فى بيت فنظر إلينا فدمعت عيناه ثم قال (ص): مرحباً بكم، حياكم اللّه، حفظكم اللّه، نصركم اللّه، نفعكم اللّه، هداكم اللّه، وفّقكم اللّه، سلمكم اللّه، قبلكم اللّه، رزقكم اللّه، رفعكم اللّه، أُوصيكم بتقوى اللّه، وأُوصى اللّه بكم(۱)، انى لكم نذير مبين أن لا تعلوا على اللّه فى عباده وبلاده، فإن اللّه تعالى قال لى ولكم: (تلك الدار الآخرة نجعلها للّذين لا يريدون علوّاً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتّقين)(۲). وقال سبحانه: (أليس فى جهنّم مثوىً للمتكبّرين)(۳).

قلنا: متى يا رسول اللّه أجلك؟

قال (ص): دنا الأجل والمنقلب إلى اللّه وإلى سدرة المنتهى، وجنّة المأوى والعرش الأعلى، والكأس الأوفى، والعيش الأهنأ.

قلنا: فمن يغسّلك؟ قال (ص): أخى.

من كلمات الوداع

قال على (ع): بينما نحن عند النبى (ص) وهو يجود بنفسه وهو مسجّى بثوب وملاءة خفيفة على وجهه، فمكث ماشاءاللّه أن يمكث ونحن حوله بين باكٍ ومسترجع إذ تكلّم (ص) وقال: (ابيضّت وجوه، واسودّت وجوه، وسعد أقوام، وشقى آخرون، أصحاب الكساء الخمسة أنا سيّدهم ولا فخر، عترتى أهل بيتى السابقون المقرّبون، يسعد من اتّبعهم وشايعهم على دينى ودين آبائى، أنجزتَ مواعيدك يا رب إلى يوم القيامة فى أهل بيتى).

الأولى حتى من جبرئيل

وعن على (ع) انه قال: دخلت على رسول اللّه (ص) فى شكاته فإذا رأسه فى حجر رجل أحسن ما رأيت من الخلق، والنبى (ص) نائم، فلما دخلت التفت إلىّ ذلك الرجل وقال لى: ادن إلى ابن عمك فأنت أحقّ به منّى، فدنوتُ منهما، فقام الرجل وجلست مكانه ووضعتُ رأس النبى (ص) فى حجرى كما كان فى حجر الرجل، فمكث ساعة، ثم استيقظ النبى (ص) فقال: يا على أين الرجل الذى كان رأسى فى حجره؟

قلت: يا رسول اللّه إنّى لما دخلت دعانى إليك ثم قال: ادن إلى ابن عمك فأنت أحقّ به منّى، ثم قام فجلستُ مكانه.

فقال النبى (ص): فهل تدرى من الرجل؟ ذاك جبرئيل كان يحدّثنى حتى خفّ عنى وجعى، ونمت ورأسى فى حجره.

قال عمار: لما حضر رسول اللّه (ص) أمر اللّه دعا بعلى (ع) فسارّه طويلاً ثم قال له: يا على أنت وصيّى ووارثى، قد أعطاك اللّه علمى وفهمى، فإذا متّ ظهرت لك ضغائن فى صدور قوم، وغصبت على حقك.

فبكت فاطمة (ع) وبكى الحسن والحسين (عليهما السلام).

فقال (ص) لفاطمة: يا سيّدة النسوان ممّ بكاؤك؟

قالت (ع): يا أبة أخشى الضيعة بعدك.

فقال (ص): أبشرى يا فاطمة فإنك أول من يلحقنى من أهل بيتى، لا تبكى ولا تحزنى، فإنّك سيدة نساء أهل الجنّة، وأباك سيد الأنبياء، وابن عمك سيد الأوصياء، وابناك سيدا شباب أهل الجنّة، ومن صلب الحسين (ع) يخرج اللّه الأئمّة التسعة مطهّرون معصومون، ومنك مهدى هذه الأُمّة.

جبرئيل وكتاب الوصيّة

قال على (ع): دعانى رسول اللّه (ص) عند ارتحاله من هذه الدنيا وأخرج من كان عنده فى البيت غيرى، والبيت فيه جبرئيل والملائكة معه، فأخذ رسول اللّه (ص) كتاب الوصية من يد جبرئيل مختومة، فدفعها إلىّ وأمرنى أن أفضّها، ففعلت، وأمرنى أن أقرأها فقرأتها، فإذا فيها كل ما كان رسول اللّه (ص) يوصينى به شيئاً شيئاً ما تغادر حرفاً.

قال موسى بن جعفر (ع): قلت لأبى عبداللّه (ع): أليس كان أميرالمؤمنين(ع) كاتب الوصية ورسول اللّه (ص) المملى عليه وجبرئيل والملائكة المقرّبون شهود؟

فقال (ع): قد كان ما قلت، ولكن حين نزل برسول اللّه (ص) الأمر نزلت الوصية من عند اللّه كتاباً مسجّلاً، نزل به جبرئيل مع اُمناء اللّه تبارك وتعالى من الملائكة، فقال جبرئيل: يا محمد مر بإخراج من عندك إلّا وصيّك ليقبضها منا، وتشهدنا بدفعك إياها إليه.

ففعل رسول اللّه (ص) ذلك وأشهدهم عليه وقال: يا على تفى بما فيها مِن موالاة مَن والى اللّه ورسوله، والعداوة لمن عادى اللّه ورسوله والبراءة منهم، على الصبر منك، وعلى كظم الغيظ، وعلى ذهاب حقّك، وغصب خمسك، وانتهاك حرمتك.

فقال: نعم يا رسول اللّه.

فقال أمير المؤمنين (ع): والذى فلق الحبّة وبرأ النسمة لقد سمعت جبرئيل يقول للنبى (ص): يا محمد عرّفه انه ينتهك الحرمة وهى

حرمة اللّه وحرمة رسول اللّه (ص).

قال أمير المؤمنين (ع): فصعقت حين فهمت الكلمة من الأمين جبرئيل حتى سقطت على وجهى وقلت: نعم قبلت ورضيت وإن انتهكت الحرمة.

ثم دعا رسول اللّه (ص) فاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وأعلمهم مثل ما أعلم أميرالمؤمنين (ع) فقالوا مثل قوله، فختمت الوصية ودفعت إلى أمير المؤمنين (ع) وخرج جبرئيل والملائكة معه إلى السماء.

ثم عرض على رسول اللّه (ص) ضعف شديد، فلما أفاق دخلت عليه النساء يبكين وارتفعت الأصوات وضجّ الناس بالباب من المهاجرين والأنصار.

وديعة اللّه ووديعة رسوله

قال موسى بن جعفر (ع): فقلت لأبى (ع): فما كان بعد خروج الملائكة عن رسول اللّه (ص)؟

فقال (ع): ثم دعا (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) وقال لمن فى بيته: اخرجوا عنى، وقال لأُم سلمة: كونى على الباب فلا يقربه أحد، ثم التفت إلى على (ع) وقال له: يا على ادن منى، فدنا منه، فأخذ بيد فاطمة (ع) فوضعها على صدره طويلاً، وأخذ بيد على (ع) بيده الأُخرى، فلما أراد رسول اللّه (ص) الكلام غلبته العبرة فلم يقدر على الكلام.

فبكت فاطمة (ع) بكاءاً شديداً وأكبت على وجهه تقبّله، وبكى على والحسن والحسين (عليهم السلام) لبكاء رسول اللّه (ص) ثم أكبوا على وجهه.

فرفع رسول اللّه (ص) رأسه إليهم ويدها فى يده، فوضعها فى يد على (ع) وقال له: يا أبا الحسن هذه وديعة اللّه ووديعة رسوله محمد عندك فاحفظ اللّه واحفظنى فيها، وانك لفاعل هذا يا على، هذه واللّه سيّدة نساء أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين، هذه واللّه مريم الكبرى، أما واللّه ما بلغت نفسى هذا الموضع حتى سألت اللّه لها ولكم، فأعطانى ما سألته، يا على أنفذ لما أمرتك به فاطمة، فقد أمرتها بأشياء أمر بها جبرئيل، وأمرتها أن تلقيها إليك، فانفذها، فهى الصادقة الصدوقة، واعلم يا على انى راضٍ عمّن رضيَت عنه ابنتى فاطمة، وكذلك ربى وملائكته، يا على ويل لمن ظلمها، وويل لمن ابتزّها حقها، وويل لمن هتك حرمتها، وويل لمن أحرق بابها، وويل لمن آذى حليلها، وويل لمن شاقّها وبارزها، اللّهم انى منهم برىء، وهم منى براء، ثم سماهم رسول اللّه (ص) وضمّ فاطمة إليه وعلياً والحسن والحسين (عليهم السلام) الحديث.

الإقرار بقبول الوصيّة

قال أبو عبداللّه الصادق (ع): ثم انّ رسول اللّه (ص) قال لعلى (ع) بعد أن دفع إليه الوصية وأشهد على ذلك جبرئيل ومن معه من الملائكة: يا على أضمنت دَيْنى تقضيه عنّى؟

قال (ع): نعم، الحديث.

حنوط من الجنة

قال على (ع): ثم انه كان فى الوصية أن يدفع إلىَّ الحنوط، فدعانى رسول اللّه (ص) قبل ارتحاله عن الدنيا بقليل وقال: يا على ويا فاطمة هذا حنوطى من الجنة، وكان وزنه أربعين درهماً، قد دفعه إلىَّ جبرئيل، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: اقسماه وأعزلا منه لى ولكما.

قالت فاطمة (ع): لك يا أبه ثلثه، وليكن الناظر فى الباقى على بن أبى طالب (ع)، فبكى رسول اللّه (ص) وضمّها إليه وقال: موفقة

رشيدة، مهدية ملهمة، يا على قل فى الباقى.

قال (ع): نصف ما بقى لها، ونصف لمن ترى يا رسول اللّه.

قال (ص): هو لك فاقبضه

النبى (ص) يستدعى أخاه

ولما ثقل رسول اللّه (ص) وحجب الناس عنه كان أمير المؤمنين (ع) لا يفارقه إلا لضرورة، فقام (ع) فى بعض شؤونه، فأفاق رسول اللّه (ص) إفاقة فافتقد علياً (ع) فقال وأزواجه حوله: (ادعوا لى أخى وصاحبى) وعاوده الضعف فصمت.

فدُعى له غير على (ع)، فلما فتح (ص) عينه ونظر إليه أعرض عنه بوجهه.

فقالت اُمّ سلمة: اُدعوا له علياً (ع)، فإنه لا يريد غيره.

فدعى أمير المؤمنين (ع) فلما دنا منه أومأ (ص) إليه، فأكبّ عليه فناجاه رسول اللّه (ص) طويلاً، ثم قام فجلس ناحية، فقال له الناس بعد ذلك: ما الذى أوعز إليك يا أبا الحسن؟

فقال (ع): علّمنى ألف باب من العلم، يفتح لى فى كل باب ألف باب، وأوصانى بما أنا قائم به إن شاء اللّه تعالى.

وفى رواية انه قال (ع): علّمنى رسول اللّه (ص) ألف باب من الحلال والحرام، وما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، كل باب منها يفتح ألف باب، فذلك ألف ألف باب، حتى علمت علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب.

وفى رواية فى المستدرك: ألف ألف باب يفتح لى من كلّ باب ألف باب.

بين الحبيب وحبيبه

ثم انّ اُم سلمة استأذنت على رسول اللّه (ص) فقال لها: ادعى لى حبيبتى وقرّة عينى وثمرة فؤادى فاطمة المظلومة بعدى، فدعتها، فأقبلت وهى تبكى، فاعتنقها رسول اللّه (ص) وضمها إلى صدره، فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تهملان دموعاً، ثم ناجاها وأسرّ إليها شيئاً تهلّل وجهها له، ولما سئلت بعد ذلك عن بكائها وعن تهلّل وجهها؟

قالت (ع): نعى إلىّ نفسه فبكيت، ثم أخبرنى بأنى أول أهل بيته لحوقاً به، وانه لن تطول المدّة لى بعده حتى أدركه، وأخبرنى أنى سيدة نساء أهل الجنّة، وابنای سيدا شباب أهل الجنة وان الأئمة الإثنى عشر خلفاؤه هم بعلى ووُلدى: على (ع) أبوهم وأولهم، والمهدى ابنى آخرهم، فتهلّل وجهى لذلك.

ثم انه (ص) دعا الحسن والحسين وقبّلهما وشمّهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان وأخبر (ص) بأنهما سيُظلمان بعده ويقتلان ظلماً، ولعن قاتلهما.

قال ابن عباس: ثم قالت فاطمة (ع) للنبى (ص) وهو فى لحظاته الأخيرة: يا أبة أنا لا أصبر عنك ساعة من الدنيا، فأين الميعاد غداً؟

قال (ص): أما انك أول أهلى لحوقاً بى وكان كذلك فقد لحقت بأبيها بعد خمسة وسبعين يوماً مظلومة شهيدة(۴) والميعاد على جسر جهنّم.

قالت (ع): يا أبة أليس قد حرّم اللّه عزّوجل جسمك ولحمك على النار؟

قال (ص): بلى، ولكنى قائم حتى تجوز اُمتى.

قالت (ع): فإن لم أرك هناك؟

قال (ص): ترينى عند القنطرة السابعة من قناطر جهنّم، أستوهب الظالم من المظلوم.

قالت (ع): فإن لم أرك هناك؟

قال (ص): ترينى فى مقام الشفاعة وأنا أشفع لأُمّتى.

قالت (ع): فإن لم أرك هناك؟

قال (ص): ترينى عند الميزان وأنا أسأل لأُمتى الخلاص من النار.

قالت: فإن لم أرك هناك؟

قال (ص): ترينى عند الحوض، حوضى عرضه ما بين ايله إلى صنعاء، على حوضى ألف غلام(۵) بألف كأس كاللؤلؤ المنظوم، وكالبيض المكنون، من تناول منه شربة فشربها لم يظمأ بعدها أبداً، وجعل يكرّرها.

النبى (ص) حياً وميتاً

ثم ان رسول اللّه (ص) ثقل وهو (ص) فى بيت فاطمة (ع) فأشار إلى على (ع) فدنا منه، فقال له وهو فى لحظاته الأخيرة: (ضع يا على رأسى فى حجرك، فقد جاء أمر اللّه تعالى، فإذا فاضت نفسى فتناولها بيدك وامسح بها وجهك، ثمّ وجّهنى إلى القبلة وتولّ أمرى، فاستق لى ست قرب من ماء بئر غرص، فغسّلنى وكفّنى وحنّطنى، فإذا فرغت فخذ بمجامع كفنى واجلسنى ثم سلنى عما شئت، فو اللّه لاتسألنى عن شىء إلا أجبتك، وصلِّ علىّ أول الناس، ولا تفارقنى حتى تواريني فى رمسى، يا على ادفنّى فى هذا المكان فإنّ بيتى قبرى، وارفع قبرى من الأرض أربع أصابع، وفى رواية: قدر شبر وأربع أصابع، وفى رواية: واجعل حول قبرى حائطاً، ورش عليه من الماء واستعن باللّه تعالى).

فأخذ على (ع) رأس رسول اللّه (ص) فوضعه فى حجره وقد انقطع عن الكلام لما نزل به، فأكبت فاطمة (ع) تنظر فى وجهه وتندبه وتبكى وتقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ففتح رسول اللّه (ص) عينه وقال بصوت ضئيل: يا بنية هذا قول عمك أبى طالب، لا تقوليه، ولكن قولى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)(۶).

على مشارف الآخرة

ولما كان صباح يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة النبوية المباركة استأذن على رسول اللّه (ص) ملك الموت، وهو (ص) فى بيت فاطمة (ع) وعمر رسول اللّه (ص) إذ ذاك ثلاث وستّون سنة.

قال ابن عباس: فلما طرق الباب قالت فاطمة (ع): من ذا؟

قال: أنا غريب أتيت رسول اللّه (ص) فهل تأذنون لى فى الدخول عليه؟

فأجابت: امضِ رحمك اللّه لحاجتك، فرسول اللّه (ص) عنك مشغول.

فمضى ثم رجع فدقّ الباب وقال: غريب يستأذن على رسول اللّه (ص) فهل تأذنون للغرباء؟

فأفاق رسول اللّه (ص) وقال: يا فاطمة ان هذا مفرق الجماعات، ومنغّص اللذّات، هذا ملك الموت، ما استأذن واللّه على أحد قبلى، ولا يستأذن على أحد بعدى، استأذن علىَّ لكرامتى على اللّه، ائذنى له.

فقالت (ع): أُدخل رحمك اللّه، فلما أُذن له دخل كريح هفّافة وقال: السلام عليك يا رسول اللّه وعلى أهل بيتك.

قال (ص): وعليك السلام يا ملك الموت.

فقال: انّ ربك أرسلنى إليك وهو يقرؤك السلام ويخيّرك بين لقائه والرجوع إلى الدنيا.

فاستمهله (ص) حتى ينزل جبرئيل ويستشيره، فخرج ملك الموت من عنده وجاء جبرئيل فقال: السلام عليك يا أباالقاسم.

قال (ص): وعليك السلام يا حبيبى جبرائيل.

فقال: يا رسول اللّه انّ ربك إليك مشتاق، وما استأذن ملك الموت على أحد قبلك، ولا يستأذن على أحد بعدك.

قال (ص): يا حبيبى جبرئيل ان ملك الموت قد خيّرنى عن ربّى بين لقائه وبين الرجوع إلى الدنيا، فما الذى ترى؟

فقال: يا رسول اللّه (وللآخرة خير لك من الأُولى ولسوف يعطيك ربّك فترضى)(۷).

قال (ص): نعم، لقاء ربى خير لى، لا- تبرح يا حبيبى جبرئيل حتى ينزل ملك الموت، فنزل ملك الموت فقال له رسول اللّه (ص): امضِ لما أُمرت له.

وفى رواية: قال جبرئيل: يا رسول اللّه أتريد الرجوع إلى الدنيا؟

قال (ص): لا، وقد بلّغت.

ثم قال ثانية: يا رسول اللّه أتريد الرجوع إلى الدنيا؟

قال (ص): لا، الرفيق الأعلى.

فقال جبرائيل: يا رسول اللّه هذا آخر يوم أهبط فيه إلى الأرض(۸) انما كنت حاجتى من الدنيا.

فقال له رسول اللّه (ص): يا حبيبى جبرئيل ادن منى، فدنا منه، فكان جبرئيل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، وملك الموت قابضاً لروحه (ص).

ثم مدّ (ص) يده إلى على (ع) فجذبه إليه وهو يقول: ادن منى يا أخى فقد جاء أمر اللّه، فدنا (ع) منه حتى أدخله تحت ثوبه الذى كان عليه، ووضع فاه فى أُذنه وجعل يناجيه طويلاً حتى فارقت روحه الدنيا، صلوات اللّه عليه وآله، ويد أمير المؤمنين (ع) اليمنى تحت حنكه، ففاضت نفسه فيها، فرفعها (ع) إلى وجهه فمسحه بها.

ثم انسل على (ع) من تحت ثيابه، وقال: أعظم اللّه أُجوركم فى نبيّكم، فقد قبضه اللّه إليه ثم مدّ عليه ازاره، وقال: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، يالها من مصيبة خصت الأقربين وعمت المؤمنين، لما يصابوا بمثلها قط، ولا عاينوا مثلها.

فارتفعت عندها الأصوات بالضجّة والبكاء. فصاحت فاطمة (ع) وصاح المسلمون، وصاروا يضعون التراب على رؤوسهم، وفاطمة (ع) تقول: يا أبتاه إلى جبرئيل ننعاه، يا أبتاه من ربّه ما أدناه، يا أبتاه جنان الفردوس مأواه، يا أبتاه أجاب ربّاً دعاه، واجتمعت نسوة بنى هاشم وجعلن يذكرن النبى (ص). وقالت أُم سلمة: وضعت يدى على صدر رسول اللّه (ص) يوم قبض فمرّت بى أيام وأسابيع آكل وأتوضأ ما تذهب رائحة المسك من يدى.

أعظم المصائب

وكان رسول اللّه (ص) قد قال لعلى (ع): يا على من أُصيب بمصيبة فليذكر مصيبته بى، فإنها من أعظم المصائب، وإلى هذا المعنى يشير ما جاء فى الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين (ع) من انه كان يقول:

ما غاض دمعى عند نائبة إلا جعلتك للبكا سبباً

وإذا ذكرتك سامحتك به منى الجفون ففاض وانسكبا

وأنشأ أمير المؤمنين (ع) أيضاً يقول:

الموت لا والداً أبقى ولا ولداً هذا السبيل إلى أن لا ترى أحداً

هذا النبى ولم يخلد لأُمته لو خلّد اللّه خلقاً قبله خُلدا

للموت فينا سهام غير خاطئة من فاته اليوم سهم لم يفته غداً

وأنشأت الزهراء (ع) تقول:

إذا مات يوماً ميّت قلّ ذكره وذكر أبى طول الدُنى فى تزيّد

تذكرت لما فرّق الموت بيننا فعزّيت نفسى بالنبى محمد

فقلت لها: إن الممات سبيلنا ومن لم يمت فى يومه مات فى غد

التعزية من اللّه تبارک وتعالى

عن أبى جعفر الباقر (ع) قال: لما قُبض رسول اللّه (ص) بات آل محمد (عليهم السلام) بأطول ليلة حتى ظنّوا أن لا سماء تظلّهم، ولا أرض تقلّهم، لأنّ رسول اللّه (ص) وتر الأقربين والأبعدين فى اللّه.

فبينما هم كذلك إذ أتاهم آت لا يرونه ويسمعون كلامه، فقال: (السلام عليكم أهل البيت ورحمة اللّه وبركاته، انّ فى اللّه عزاء من كل مصيبة، ونجاة من كل هلكة، ودركاً لما فات (كلّ نفس ذائقة الموت وإنّما توفّون اُجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار واُدخل الجنّة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)(۹) انّ اللّه اختاركم وفضّلكم وطهّركم وجعلكم أهل بيت نبيّه، واستودعكم علمه، وأورثكم كتابه، وجعلكم تابوت علمه، وعصا عزّه(۱۰)، وضرب لكم مثلاً من نوره(۱۱)، وعصمكم من الزلل، وأمنكم من الفتن، فتعزّوا بعزاء اللّه، فإن اللّه لم ينزع منكم رحمته، ولن يزيل عنكم نعمته، فأنتم أهل اللّه عزّوجل الذين بهم تمّت النعمة، واجتمعت الفرقة، وائتلفت الكلمة، وأنتم أولياؤه، فمن تولاّكم فاز، ومن ظلم حقكم زهق، مودّتكم من اللّه واجبة فى كتابه على عباده المؤمنين، ثم اللّه على نصركم إذا يشاء قدير، فاصبروا لعواقب الاُمور فإنها إلى اللّه تصير، قد قبلكم اللّه من نبيّه وديعة، واستودعكم أولياءه المؤمنين فى الأرض، فمن أدّى أمانته آتاه اللّه صدقه، فأنتم الأمانة المستودعة، ولكم المودّة الواجبة، والطاعة المفروضة، وقد قبض رسول اللّه (ص) وقد أكمل لكم الدين، وبيّن لكم سبيل المخرج، فلم يترك لجاهل حجّة، فمن جهل أو تجاهل أو أنكر أو نسى أو تناسى فعلى اللّه حسابه، واللّه من وراء حوائجكم، واستودعكم اللّه، والسلام عليكم).

قال الراوى: فسألتُ أبا جعفر (ع) ممّن أتاهم التعزية؟قال (ع): من اللّه تبارک وتعالى.

جبرئيل يعزّى أهل البيت (عليهم السلام)

وعن أبى عبداللّه (ع) قال: لما قبض رسول اللّه (ص) جاءهم جبرئيل، والنبى (ص) مسجّى، وفى البيت على وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة (كلّ نفس ذائقة الموت وإنما توفّون اُجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار واُدخل الجنّة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)(۱۲) ان فى اللّه عزاء من كل مصيبة، ودركاً من كل ما فات، وخلفاً من كل هالك، فباللّه فثقوا، وإياه فارجوا، إنما المصاب من حرم الثواب.

الخضر يعزّى آل الرسول (عليهم السلام)

عن أبى الحسن الرضا (ع) قال: لما قبض رسول اللّه (ص) أتاهم آت فوقف على باب البيت فعزّاهم به وأهل البيت يسمعون كلامه ولا يرون شخصه، فقال على بن أبى طالب (ع): هذا هو الخضر أتاكم يعزّيكم بنبيّكم، فكان مما قال فى تعزيته:

(السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة اللّه وبركاته (كلّ نفس ذائقة الموت وإنّما توفّون اُجوركم يوم القيامة)(۱۳) انّ فى اللّه عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فباللّه فثقوا، وعليه فتوكّلوا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب وأستغفر اللّه لى ولكم، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته).

وفى رواية عن أبى ذر عن على (ع) انه بعث اللّه عزّوجل إليهم حين قبض رسول اللّه (ص): بالتعزية وفاطمة (ع) تبكيه، قال (ع): سمعنا حساً على الباب، وقائلاً يقول: (السلام عليكم أهل البيت ورحمة اللّه وبركاته، ربّكم عزّوجل يقرئكم السلام، ويقول لكم: انّ فى

اللّه خلفاً من كلّ مصيبة، وعزاءاً من كل هالك، ودركاً من كل فوت، فتعزّوا بعزاء اللّه، واعلموا انّ أهل الأرض يموتون، وانّ أهل السماء لا يبقون، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته).

قال (ع): وأنا فى البيت وفاطمة والحسن والحسين أربعة لا خامس لنا إلّا رسول اللّه (ص) مسجّى بيننا.

المعصوم لا يليه إلا معصوم

قال ابن مسعود: قلت للنبى (ص) وهو فى شكاته: يا رسول اللّه من يغسّلك إذا حدث بك حادث؟

قال (ص): يغسّل كل نبى وصيّه.

قلت: فمن يا رسول اللّه وصيّك؟

قال (ص): على بن أبى طالب.

وقال سلمان: أتيت علياً (ع) وهو يغسّل رسول اللّه (ص) وكان قد أوصى (ص) أن لا يغسّله غير على (ع)، وأخبر انه لا يريد أن يقلّب منه عضواً إلا قُلب له.

وقد قال أمير المؤمنين (ع) لرسول اللّه (ص): من يعيننى على غسلك يا رسول اللّه؟

قال (ص): جبرئيل.

فلما غسّله وكفّنه وحنّطه أدخلنى وأدخل أبا ذر والمقداد وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) فتقدّم وصففنا خلفه وصلّى عليه، ثم أدخل عشرة من المهاجرين وعشرة من الأنصار، فيصلّون ويخرجون، حتى لم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلّا صلّى عليه.

وفى رواية: ثم أدخل عليه عشرة فداروا حوله، ثم وقف أمير المؤمنين (ع) فى وسطهم، فقال: (إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النبىّ يا أيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً) فيقول القوم كما يقول، حتى صلّى عليه (ص) أهل المدينة وأهل العوالى كلهم.

انقطاع النبوّة أكبر فجيعة للأرض

قال ابن عباس: لما قبض رسول اللّه (ص) تولّى غسله على بن أبى طالب (ع)، فلما فرغ من غسله كشف الازار عن وجهه ثم قال (ع): (بأبى أنت وأُمّى طبت حياً وطبت ميتاً، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت أحد ممّن سواك من النبوّة والأنباء، وأخبار السماء، خصصت حتى صرت مسلّياً عمّن سواك، وعممت حتى صار الناس فيك سواء، ولولا انك أمرتَ بالصبر ونهيت عن الجزع لأنفدْنا عليك ماء الشؤن، ولكان الداء مماطلاً، والكمد مخالفاً، وقلّا لك، ولكنه ما لا يملك ردّه ولا يستطاع دفعه، بأبى أنت وأُمّى اذكرنا عند ربّك، واجعلنا من همّك)، ثم أكبّ (ع) عليه (ص) فقبّل وجهه.

وفى نهج البلاغة: (ولقد قُبِض رسول اللّه (ص) وانّ رأسه لعلى صدرى، وقد سالتْ نفسه فى كفّى، فأمررتها على وجهى، ولقد ولّيت غسله (ص) والملائكة أعوانى، فضجّت الدار والأفنية، ملأ يهبط، وملأ يعرج، وما فارقت سمعى هينمة منهم يصلّون عليه، حتى وارياه فى ضريحه، فمن ذا أحق به منّى حياً وميّتاً؟)(۱۴).

وفى النهج أيضاً: (إلّا انّ لى فى التأسّى بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ، فلقد وسّدتك فى ملحودة قبرك، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون)(۱۵).

النبى (ص) فى مثواه الأخير

ولما فرغ المسلمون من الصلاة على رسول اللّه (ص) وقد صلّوا عليه فوجاً فوجاً خاضوا فى موضع دفنه فقال بعضهم فى البقيع، وقال آخرون: فى صحن المسجد.

فقال على (ع): انّ اللّه سبحانه لم يقبض نبياً فى مكان إلا وارتضاه لرمسه فيه، وانى دافنه فى حجرته التى قبض فيها، وهى بيت فاطمة (ع) فرضى المسلمون بذلك.

فلما تهيّأ القبر وضع على (ع) رسول اللّه (ص) على يديه ثم دلّاه فى حفرته، ثم نزل على (ع) فى القبر فكشف عن وجهه، ووضع خدّه على الأرض موجّهاً إلى القبلة على يمينه، ثم وضع عليه اللبن وأهال عليه التراب..

فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

(السلام عليك يا رسول اللّه، السلام عليك يا محمد بن عبداللّه، السلام عليك يا خيرة اللّه، السلام عليك يا حبيب اللّه، السلام عليك يا صفوة اللّه، السلام عليك يا أمين اللّه، أشهد أنّك رسول اللّه، وأشهد أنّك محمد بن عبداللّه، وأشهد أنّك قد نصحت لأُمّتك، وجاهدت فى سبيل ربِّك، وعبدته حتى أتاك اليقين، فجزاك اللّه يا رسول اللّه أفضل ما جزى نبياً عن أُمَّته، اللّهمّ صلّ على محمد وآل محمد أفضل ما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم انّك حميد مجيد)(۱۶).

۱ أى: أطلب من الله سبحانه أن يتفضل بالمزيد عليكم ولفظ (اوصى) من باب المشاكلة مثل قوله تعالى: (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك).

۲ القصص: ۸۳. ۳ الزمر: ۶۰.

۴ أو بعد خمسة وتسعين يوماً، على اختلاف الروايات.

۵ هذا مثال الزيادة، لا العدد، فهو من قبيل قوله تعالى: (وإن تستغفر لهم سبعين مرة) [التوبة: ۸۰].

۶ آل عمران: ۱۴۴، ۷ الضحى: ۴ ۵.

۸ أى آخر هبوط على رسول الله (ص) لأجل إبلاغ الوحى وإلّا فقد نزل جبرائيل بعده، فى قصص مختلفة لا لأجل الوحى.

۹ آل عمران: ۱۸۵.

۱۰ تشبيه بتابوت بنى إسرائيل، وعصا موسى (عليه السلام). ۱۱ المراد آية النور.

۱۲ آل عمران: ۱۸۵. ۱۳ آل عمران: ۱۸۵. ۱۴ نهج البلاغة: الخطبة ۱۹۷.

۱۵ نهج البلاغة: الخطبة ۲۰۲.

۱۶ وهذا مروى عن البزنطى قال: قلت للرضا (ع): كيف الصلاة على رسول الله ... وكيف السلام عليه؟ فقال (ع):

(تقول)....:

خاتمة

وهل يمكن اعادة دور المسلمين، حتى يأخذوا بأزمة العالم مرة ثانية، كما أخذوها ببركة قيادة الرسول (ص) لينقذوا البشرية من الجهل والفقر والمرض والفوضى، والحروب والثورات، والإستبداد والإستغلال، ومن ألف مشكلة ومشكلة؟

وإذا أمكن فكيف؟

والجواب: نعم يمكن، والطريق هو الرجوع إلى الكتاب والسنّة، كما قال رسول اللّه (ص): (إنّى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه وعترتى أهل بيتى، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا)(۱).

والضلال ليس فى العقيدة فحسب، بل فى العمل أيضاً، والخلاص ليس عن مشاكل الآخرة فحسب، بل عن مشاكل الدنيا أيضاً، لأن الإسلام دين ودنيا، كما قال القرآن الحكيم: (ومنهم من يقول ربّنا آتنا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار أُولئك لهم نصيبٌ ممّا كسبوا واللّه سريع الحساب)(۲).

وكما قال الحديث الشريف:

(ليس منّا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه)(۳).

فإذا أرجعنا إلى المسلمين: (الأُمّة الواحدة) بإسقاط الحدود الجغرافية.

وأرجعنا إليهم: (الأُخوّة الإسلامية) بأن يكون كل مسلم فى أى بلد من بلاد الإسلام، حاله حال أهل ذلك البلد فى كل شىء.

وأرجعنا إلى مجتمعاتنا وشعوبنا: (الحريات الإسلامية) بأن يكون كل شىء حر ماعدا المحرّمات وما أقلّها.

وأرجعنا إلى الحكم: سائر قوانين الإسلام المذكورة فى الكتاب والسنّة، وقد ذكرها علماء المسلمين فى كتبهم الفقهية ورسائلهم العملية: فى العبادات، والمعاملات، والقضاء، والقصاص، والحدود، والديات، والأحوال الشخصية، من: النكاح، والطلاق، والمواريث وغيرها وغيرها.

وكانت القيادة ممّا يعتمد عليها، كما قال على (ع): (ووَثّقوا بالقائد فاتبعوه)(۴) بأن كانت كقيادة الرسول (ص) فى العمل فإنه (ص) ارتحل من الدنيا وتحت نفوذه تسع دول فى منطق عالم اليوم، بينما درعه مرهونة لأجل أصوع من شعير أخذها لقوت نفسه وأهله.

أو كقيادة على (ع) كما قال بنفسه: (ألا وانّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه)(۵).

وكما قال (ع) أيضاً: (واللّه لئن أبيتُ على حسك السعدان مسهّداً، أو أُجرّ فى الأغلال مصفّداً، أحبُّ إلىَّ من أن ألقى اللّه سبحانه وتعالى ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشىء من الحطام، إلى أن قال (ع): واللّه لو أُعطِيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى اللّهَ فى نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت)(۶).

وكان الحكم شورى، لا أن يستولى الحاكم على الحكم بالسلاح والقوّة، أو يصل إليه بالوراثة ككسرى وقيصر أو يتلاقفه بعض من بعض كالكرة.

وهذا كله لا يكون إلّا بشورى المرجعية، وتعدّد الأحزاب الحرّة المستندة إلى المؤسسات الدستورية و...

فإنّ ذلك اليوم هو يوم رجوع الإسلام إلى زمام القيادة، وبقيادته الحكيمة لا ـ ينجو المسلمون فحسب، بل ينجو العالم كله حتى المسمّى بالحضارى والمتمدّن، الذى يرسف تحت ألف غلّ وغلّ، وألف مشكلة ومشكلة.

نعم إذا عمل المسلمون بالإسلام، وذلك ممكن فيما إذا عمَّ الوعى واتّقوا اللّه سبحانه فى خطواتهم، ولم يتنازعوا بينهم، يقول اللّه تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)(۷) حينئذ يرجع الإسلام إلى قمة القيادة ويتخلّص العالم من المشاكل والشرور، ومن المآسى والويلات، وما ذلك على اللّه بعزيز، واللّه الموفّق المستعان.

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد للّه ربّ العالمين، وصلّى اللّه على محمد وآله الطيّبين الطاهرين.

قم المقدسة

محمد الشيرازى

۱ بحار الانوار: ج۳۶ ص۳۳۸ ب۴۱ ح۲۰۱. ۲ البقرة: ۲۰۱ ۲۰۲.

۳ من لا يحضره الفقيه: ج۳ ص۱۵۶ ب۲ ح۳۵۶۸. ۴ نهج البلاغة: الخطبة ۱۸۲.

۵ نهج البلاغة: فى كتابه إلى عثمان بن حنيف/ الكتاب ۴۵.

۶ مستدرك الوسائل: ج۱۲ ص۹۷ ب۷۷ ح۱۳۶۲۳، ونهج البلاغة: ا لخطبة ۲۲۴.

۷ الأنفال: ۴۶.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ

كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹